

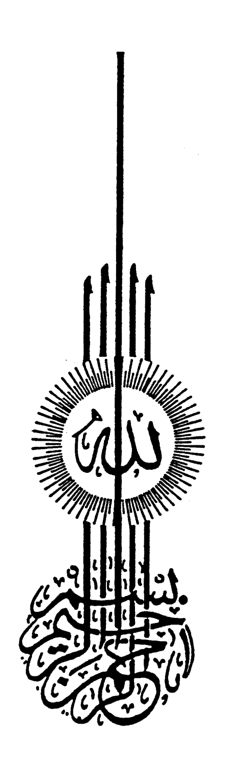
جامعة الإمارات العربية المتحدة
قطاع شؤون خدمة المجتمع

نـــدوة
(التحديات التي تواجه الأمة الإسلامية في القرن المقبل)

الجزء الأول

العين : ٢٠ - ٢٢ ديسمبر ١٩٩٧م





بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمـة

الحمد لله .. والصلاة والسلام على رسول الله .... وبعـــد ،،،،،،

تواجه الأمة الإسلامية تحديات مختلفة في كافة المجالات المعرفية بجوانبها الإنسانية والعلمية، ولأن تميز المسلمون خلال القرون السابقة بتفوقهم العلمي والمعرفي، إلا أنهم تراجعوا عن قيادة ركب هذا التقدم في العقود الأخيرة من تاريخهم مما يتطلب العمل الجاد من أجل اللحاق بركب التقدم العلمي الذي يشكل الجناح الثاني لأي حضارة إنسانية، إذ أن تفوق المسلمين في جوانب القيم والأخلاق والمبادىء يدفعهم إلى استكمال تفوقهم في جوانب العلم والمعرفة، ومن هنا فقد سعت رابطة الجامعات الإسلامية التي تعد من أعرق المؤسسات الأكاديمية في البلاد الإسلامية إلى القيام بدور يسهم في إبراز جوانب التحديات التي تواجه الأمة الإسلامية في القرن المقبل، فشكلت لذلك اللجان المختصة، وقامت بإعداد الدراسات العلمية في مختلف التحديات وعقدت المؤتمرات والندوات لإثراء هذه الدراسات والبحوث في جوانبها التربوية والاقتصادية والحضارية والتكنولوجية، وعملت جامعة الإمارات العربية المتحدة بتوجيه ورعاية من سمو الشيخ نهيان بن مبارك آل نهيان، وزير التعليم العالي والبحث العلمي، الرئيس الأعلى لجامعة الإمارات العربية المتحدة، على أن يكون لها دور بارز في الإسهام بأعمال رابطة الجامعات الإسلامية بصفة عامة بما يحقق الأهداف السامية التي تعمل الرابطة من أجلها، فعقدت ندوة "التحديات التي تواجه الأمة الإسلامية في القرن المقبل" حيث شارك فيها نخبة من الباحثين والأكاديميين في الجامعات الإسلامية، وأثروا الندوة بدراساتهم وأبحاثهم التي يسعد جامعة الإمارات العربية المتحدة أن تقدمها في جزئين إسهاماً منها في إبراز هذه التحديات حتى تعمل

الجامعات الإسلامية في الأخذ بها والعمل على تطبيق ما جاء فيها من توصيات إسهاماً من هذه الجامعات في معالجة قضايا الأمة الإسلامية وتحقيقاً للواجب الملقى على عاتقها، ودفعاً لعملية التنمية والتقدم التي تحتاجها الأمة الإسلامية.

أملين أن يحقق ذلك الهدف المطلوب منها إن شاء الله.

والله ولي التوفيـــق ،،،،،

د. سعيد عبدالله حارب المهيري

نائب مدير جامعة الإمارات العربية المتحدة

لشؤون خدمة المجتمع

عضو المكتب التنفيذي لرابطة الجامعات الإسلامية

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين،

أصحاب المعالي والسعادة،

أيها الإخوة الكرام:

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته،

أحييكم أطيب تحية، ويسرني أن أرحب بكم جميعاً، في رحاب جامعة الإمارات العربية المتحدة، وأن أعبر لكم في الوقت ذاته، عن حرصنا واعتزازنا بانعقاد هذه الندوة الهامة، التي تسعى نحو تأكيد دور الجامعات الإسلامية في مسيرة مجتمعاتها، وبصفة خاصة في وضع التصورات، وتحديد برامج العمل، الهادفة إلى تحقيق نظم اجتماعية واقتصادية مفيدة ونافعة، تكفل للأمة الإسلامية، استمرار القدرة على التعامل البنّاء والمثمر، أمام تحديات عديدة ومتلاحقة، يفرضها الواقع، وتحتّمها الظروف.

إن اهتمامنا بأعمال هذه الندوة، أيها الإخوة الكرام، إنما يأتي متراسلاً تماماً، مع توجيهات صاحب السمو الوالد الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان رئيس الدولة – حفظه الله – في ضرورة الأخذ بسبل العلم والاجتهاد، بل والاهتمام الكامل بكافة أنشطة المجتمع وفعالياته، من خلال نظرة إسلامية شاملة ومتكاملة: تستلهم جوهر الدين الحنيف، وتستكشف العطاء المتدفق للحضارة الإسلامية: رمز الخير ونبع النماء، بما يتيح الفرصة دائماً، لتكوين قوة دفع مواتية، توجّه دائماً نحو الأفضل، وتحفز إلى تحقيق الرخاء والازدهار للمجتمع الإسلامي، بل وتسهم باطراد، في ركب الحضارة الإنسانية وتقدمها بصفة مستمرة.

أيها الإخوة الكرام:

إن الأمة الإسلامية اليوم، وهي على أعتاب القرن الميلادي الواحد والعشرين، تجد نفسها تمرّ بحقبة زمنية هامة، سواء في تاريخها على نحو خاص، أو في التاريخ الإنساني بوجه عام. وهذه الحقبة، إنما تصاحبها تحديات بالغة الجدية والخطورة في آنٍ واحد، سواء على الصعيد السياسي، أو الاقتصادي، أو الاجتماعي. بل إن مكانة الأمة الإسلامية في هذا العالم، واستمرارها حاملةً لمشاعل حضارة إنسانية نشطة وخالدة، إنما هو رهن بالمواجهة الناجحة لهذه التحديات، بل والسير قدماً في الأخذ بكافة سبل التحكم في المستقبل، وتشكيل أبعاده، وبلورة معالمه على نحوٍ واعد، يبث روح الأمل والتفاؤل في الأفراد والجماعات.

وإنه لمن حسن الطالع، أن الله سبحانه وتعالى، قد هيّأ لهذه الأمة من عناصر القوة، ومهدّ لها من أسباب العزة والنماء، ما يعينها على مواجهة هذه التحديات، والتغلب عليها بكل عزيمة وإصرار، بل وأيضاً بكل كفاءة واقتدار:

– موقع جغرافي فريد ومتميز، يقع من جسد العالم موقع القلب.

– كثافة سكانية تقترب أو تكاد، من ربع سكان العالم على امتداده واتساعه.

– نهضة روحية كبيرة وهائلة، تستمد قوتها من الإسلام، كمنهج في حياتها العامة والخاصة.

– شعور عميق بالوحدة والتآلف والإخاء، بين كافة أبناء الأمة الواحدة.

كل ذلك، نتاج عقيدة راسخة، تستمد قوة الدفع فيها، من تراث زاخر مشترك، يشد أزر التضامن، ويدعم أواصر الإخاء، بل ويعلو في نفس الوقت، على أية اختلافات سياسية أو اجتماعية أو اقتصادية.

وفي هذا الإطار – أيها الإخوة الكرام – فإنني أود أن أؤكد، على أن نجاح الأمة الإسلامية في مواجهة تحديات المستقبل، إنما يجب أن يبدأ دائماً وعلى نحوٍ خاص، بالتعرف على أبعاد هذا المستقبل، والوعي بعناصره، والعمل على تشكيله، هذا مع القيام أيضاً، بالتحليل الدقيق والشامل لدورنا

فيه، وسبل دعم قدراتنا على توجيهه، والتأثير الحيوي والفاعل في كافة الأحداث والمستجدات.

بل إن هذا النجاح على صعيد آخر، إنما يتحقق - في رأيي - من الإفادة الكاملة، من جملة الإنجازات والمعطيات، واستعراض كافة البدائل والخيارات، ليكون للأمة الإسلامية موقفها المحدّد، واتجاهها الإيجابي، ورأيها الذاتي الواضح والمستقلّ.

وفي هذا الإطار، يتحدد دور الجامعات في المجتمع الإسلامي، وتتأكد مهامها وواجباتها على نحو شامل.

إن أمام الجامعات الإسلامية اليوم، دوراً ذا شقين: الأول، هو البحث والدراسة في كافة جوانب الحياة، بما يسهم في تفهم مشكلات العصر، والتعامل معها بعقل راجح، وفكر ثاقب، بما يكفل عدم الانعزال عن ركب الحضارة العالمية، بل ويعين في الوقت ذاته، على الصياغة الملائمة والمناسبة، للنظم والإجراءات التي تكفل النجاح والاستمرار، في إدارة هيئات المجتمع ومؤسساته.

أما الجانب الآخر في دور الجامعات الإسلامية، فهو أن تسعى بجد واهتمام، لكي تكون عمليات التعليم فيها ناجحة وفاعلة وهادفة، وأن تنطلق في ذلك من قناعة كاملة، في أن التعليم هو أكثر العوامل تأثيراً في تشكيل الحاضر، وتَمثّل الماضي، وصياغة المستقبل، لقد أصبح من الأكيد، أن مستقبل الأمة الإسلامية ودورها في هذا العالم، إنما هو رهن بكفاءة ونوعية ومستويات تعليم أبنائها، وما يصحب ذلك من قدرتهم على التواصل الفاعل في العمل، والإسهام الجاد في التطوير، والانتماء الصادق للمجتمع والدولة، بل وللأمة جمعاء.

أيها الإخوة الكرام:

إن قيام الجامعات الإسلامية بدورها المرتقب في تقدم الأمة، إنما يتطلب كذلك تنمية أواصر التعاون والتنسيق فيما بينها، بل وتبادل المعارف

والخبرات، بما يؤكد الأهداف القومية، ويسهم في تحقيق التنمية الشاملة على نطاق واسع. ويسرني في هذه المناسبة، أن أشيد بجهود رابطة الجامعات الإسلامية في هذا المجال، مؤكداً على أن الدور الذي تقوم به، دور أساسي ومهم ومطلوب.

إنني إذ أرحب بانعقاد هذه الندوة، وأتفاءل بكل ما تحتويه من دراسات ومناقشات، فإنني آمل أن تكون بالفعل، أداة أكيدة، لتحقيق الترابط والتواصل بين جامعات الأمة الإسلامية، وأن تسهم بفعالية، في تحديد تصور مستقبلي واضح، يصبح تطبيقه أساساً متيناً، وركيزة راسخة، تنطلق منها الأمة إلى مستقبل مجيد، تتبوأ فيه المكانة اللائقة بها في هذا العالم، بما يؤكد مرة أخرى ومن جديد، أنها فعلاً خير أمة أخرجت للناس.

أكرر الترحيب بكم مرة أخرى، في جامعة الإمارات العربية المتحدة، راجياً لندوتكم النجاح، ولكم طيب الإقامة، وتمنياتي لكم جميعاً بالتوفيق والسداد.

وفقكم الله ،،،

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين .. والصلاة والسلام على أشرف المرسلين محمد بن عبدالله عليه الصلاة والسلام، خاتم المرسلين، وإمام المتقين، والمبعوث رحمةً للعالمين .. أرسله الله تعالى بالرسالة الخاتمة، مصوباً لمسار البشرية بعد أن ارتكست في حمأة الوثنية المشوبة بشيء من الدين، أو الدين المشوب بكثير من الوثنية: «الر كتابٌ أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذنه إلى صراط العزيز الحميد». «إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم».

وقد ترك الرسول صلى الله عليه وسلم أمته على محجّة بيضاء ليلها كنهارها، وضوحاً وألقاً وفرقاناً بين الحق والباطل، لا يزيغ عنها إلا هالك، وحمّلها الأمانة من بعده لتقود البشرية بالوحي الذي لا وحي صحيحاً سواه إلى التي هي أقومُ ... أقومُ عقيدةً ومنهاجاً وأخلاقاً، وأقومُ في الفطرة الإنسانية العامة العادلة الموجهة لكل الناس، وأقومُ في المنهج الشمولي المتوازي المنسجم مع الفطرة، الحاني على الإنسان: «إنما بعثتم ميسِّرين».

وحملت الأمة، ممثلةً في أسلافها، الأمانة والرسالة وساحت بها في الأرض، فغيَّرت مسار الحضارة، وقلبت موازين الفكر العالمي، ووضعت الحقيقة الإنسانية في مكانها الصحيح ... في مكانها بالنسبة لله، تعبده وحدَه لا تشرك به شيئاً .. وفي مكانها بالنسبة للكون المسخَّر لها - بإذن الله - لخدمة الإنسان .. وفي مكانها بالنسبة لعلاقة الإنسان بأخيه الإنسان: «يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم» (الحجرات) .... وهكذا عَدَّل الإسلام صلة الإنسان بالكون، كما فتح المجال أمام الإبداع العلمي الذي أفاد منه الغربيون مثلما أفدنا منه نحن المسلمين .. كما عدَّل الإسلام صلة الإنسان بالله .. إلى التوحيد الكامل الذي لا تشوبه شائبة، وعدل صلة الإنسان بالإنسان، والعبودية التامة لله

وحده دون من سواه.

وقد أدى الأسلاف واجبهم، فلم تمضِ عقودٌ من البعثة الشريفة حتى كان صوتُ المؤذن يرتفع في آسيا وأوربا وأفريقيا. ومع كل ما تعرَّض له المسلمون من محن وغزوات وانتكاسات فها هم اليوم ينبعثون في كل أقطار العالم تقريباً، وها هو المؤذن يرفع اسم الله في كل أنحاء الأرض.

وبقي واجب الخلف .. بقي واجب جيلنا. إن أمامه فرصةً تاريخيةً ليتابعَ المسيرة ويستوعبَ وسائل العصر، ويجاهد بها في سبيل الله. ومن فضل الله علينا وعلى الناس أن الوسائل لم تعد محدودة، وأن سبل الاتصال قد أصبحت أكبرَ وأيسرَ من كل ماكان العقل البشري يستطيع أن يتخيَّله. ورسالتنا (بلاغٌ إلى الناس) «إنْ عليك إلا البلاغ». وما أكثرَ وسائلَ البلاغِ وما أيسرَها اليوم ... وهذا حجة علينا، وسيحاسبنا الله إن فرَّطنا في امتلاك وسائل العصر وتسخيرها لنشر دينه وإقامة شرعه.

ورابطة الجامعات الإسلامية، عندما قامت فكرةً طيبةً أصلها ثابت بإذن الله، قامت لتقيم حواراً بين الجامعات الإسلامية أينما كانت، ولتنشرَ البحوث، وتعقدَ الندوات، وتقيم المؤتمرات، وتُصدِرَ الكتب والمجلات، وتقدمَ بعض المنح الدراسية، وتشفعَ لدى المسؤولين والقادرين ليسدّوا بعض الثغور، وتقدم المناهج الدراسية ذات الأصالة، وتنصحَ الجامعات أن تسير هي ويسير علماؤها كما سار علماء السلف الصالح في العناية بالعلوم الإسلامية، وخاصةً علوم الكتاب والسنة، وأن تحتلَّ اللغةُ العربية، لغةُ القرآن مكانتها .... وأن يُقَدَّمَ تاريخُ الأمة الإسلامية تقديماً منصفاً تربوياً لا يتنكر للأيادي البيضاء لمجرد وجود بعض الأخطاء، فهو تاريخ بشر، ومع ذلك فقد قدَّم أعظم النماذج والدول التي عرفها التاريخ.

وهكذا تسعى الرابطة لهذا ولغيره، معتمدةً وسائلَ العصر من حاسوب، ومكتبات، وإعلام، ودراسات أكاديمية إبداعية، وهي جادةٌ في استكمال كل الوسائل الكفيلة بتحقيق أغراضها.

ومنذ سنتين على وجه التقريب شعرت الرابطة بعظم التحديات التي تواجه المسلمين في القرن القادم، فكونت فرق عمل لدراسة التحديات التي تواجه الأمة الإسلامية .. وشملت التحدياتُ التحدياتِ الحضاريةَ والاقتصاديةَ والسياسيةَ والتربويةَ والاجتماعية والإعلاميةَ والقانونيةَ والتكنولوجية.

واختير مقررٌ أو مقرران لكل فريق، ونجحت كل فرقة في عقد ندوات، وفي كتابة أبحاث، واستخلاص نتائج، وتقديم أوراق عمل، وكل ذلك يمثّل تمهيداً لعقد المؤتمر العام الذي سيعالج هذه الجوانبَ كلَّها في الدورة القادمة - بإذن الله - لرابطة الجامعات الإسلامية.

لا أريد أن يستغرقني الوقت، ولا أن أقف أمام كل مفردات أعمال الرابطة، في أجهزتها المختلفة، أو في الجامعات المتفاعلة معها. وإنما أردت أن أشير إلى بعض المعالم الكبرى، والأهداف الثابتة التي لا تنفصل عنها الرابطة، واثقاً في أنَّ جميعَ المخلصين من العلماء لن يبخلوا على الرابطة بصورة من صور التعاون، وبأن يوماً ما سيأتي قريباً بعون الله، ستتجه فيه كل الجامعات الإسلامية إلى الأهداف الثابتة التي تحقق للأمة قواعد انطلاقها الحضاري، وتمنحُها فرصةَ المشاركة في صناعة الحضارة، وفي تقديم رسالتها الإسلامية التي كلفها الله بأدائها لكل الناس بالأساليب العصرية العلمية والفنية. وأملنا في الله كبير: «هو الذي أرسل رسولهَ بالهدى ودينِ الحقِّ ليظهره على الدين كلِّهِ وكفى بالله شهيداً».

أيها الإخوة إن عقد ندوة التحديات التي تواجه الأمة الإسلامية في القرن المقبل في جامعة الإمارات العربية دليل على اهتمام الجامعات الإسلامية بمعالجة هذه التحديات، وشعور بواجبها في ذلك.

وهو في نفس الوقت عمل مشكور ومقدَّر لجامعة الإمارات العربية المتحدة ورجالها والمسؤولين فيها حيث قامت استضافة المجلس التنفيذي للرابطة، أحسن استضافة مهيئة الأسباب للباحثين أحسن تهيئة، فلصاحب السمو الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان رئيس دولة الإمارات العربية شكر كل

الجامعات الإسلامية على ما يسَّرته دولةُ الإمارات العربية المتحدة لهذا الاجتماع لصاحب السمو الشيخ نهيان بن مبارك الرئيس الأعلى للجامعة ولمعالي الدكتور/ هادف بن جوعان الظاهري.

وباسم الرابطة يسرني أن أشكر جميع الباحثين والمشاركين ومقرري اللجان والأمين العام للرابطة، ومستشاري الرابطة.

راجياً من الله سبحانه أن يوفق الجميع لما يحبه ويرضاه، وأن يمكِّن الجامعاتِ الإسلاميةَ وعلماءَها من الإسهام الفعال في نهضة المسلمين، ومواجهة التحديات التي تواجههم.

وأخيراً يسرني باسم الرابطة أيضاً أن أشكر جامعاتنا والمسؤولين فيها، والدول والهيئات المحتضنة لها، والداعمة لها لكي تنهض بواجباتها موجهاً شكري الجزيل إلى خادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبدالعزيز آل سعود وسمو ولي عهده الأمين على ما يقدمه من دعم مستمر للجامعات الإسلامية في كل مكان ولرابطتها في جهودها المتتابعة.

وإلى فخامة الرئيس محمد حسني مبارك على احتضان جمهورية مصر العربية للأمانة العامة للرابطة في رحاب جامعة الأزهر العتيد مقدراً لمعالي رئيس الجامعة الدكتور/ أحمد عمر هاشم جهوده في ذلك.

نـدوة
«التحديات التي تواجه الأمة الإسلامية في القرن المقبل»
العين: ٢٠ - ٢٢ ديسمبر ١٩٩٧م

أهـداف النـدوة:

١ - دراسة الواقع المعاصر للعالم الإسلامي تربوياً وحضارياً واقتصادياً وسياسياً وإعلامياً وتشريعياً واجتماعياً وعلمياً وتقانياً، وأهم المشكلات الحالية التي تتفاعل معه.

٢ - الدراسة العلمية المتعمقة لأهم جوانب التحدي التي تواجه الأمة الإسلامية في القرن المقبل، سواء أكانت تحديات داخلية أم تحديات خارجية.

٣ - اقتراح دليلِ عملٍ لمواجهة هذه التحديات يكون دليلاً أمام الجامعات وأجهزة الرأي العام، وقادة الأمة الإسلامية ومختلف مؤسساتها.

٤ - الإسهام في إيجاد أنواع جديدة من الدراسات التنبؤية والمستقبلية ونشر الوعي بأهميتها في الحياة المعاصرة والمستقبلية.

٥ - الإسهام في نشر الحقائق العلمية الموضوعية عن العالم الإسلامي بمختلف أجهزة النشر، مع التركيز على البث بشبكات الإنترنت والقنوات الفضائية المنتشرة الآن في المناطق العربية وفي مختلف أنحاء العالم.

٦ - تكوين مكتبةٍ جامعةٍ تشمل البحوث والدراسات المتعلقة بمستقبل العالم الإسلامي، تكون مصدراً للباحثين، كما تكون منطلقا لموضوعات الدراسة والبحث من قبل مختلف الجامعات ومراكز البحوث.

٧ - إتاحة الفرصة للمتخصصين والمهتمين بهذه الدراسات للتواصل العلمي وتبادل الخبرات في مجالها والتعاون على الارتقاء بمستواها.

٨ - توجيه نظر الشعوب الإسلامية والعربية للمشكلات الرئيسية التي يعيشون فيها من أجل تكوين رأي عام لمواجهتها والتوقي منها.

محاور الندوة

المحور الأول: المحور السياسي:

ويشمل هذا المحور دراسة ما يلي:-

١ - أهم التحديات الداخلية للأمة الإسلامية.

٢ - أهم التحديات الخارجية للأمة الإسلامية.

٣ - مستقبل الصراع العربي الإسرائيلي.

٤ - العلاقات السياسية مع القوى الكبرى المهيمنة على العالم.

٥ - القوة الذاتية التي يمكن أن تكتسبها الأمة الإسلامية في القرن المقبل.

٦ - التواجد السياسي الإسلامي في المنظمات العالمية.

٧ - المنظمات السياسية الإسلامية ومدى فاعليتها في تحقيق الأهداف العامة الإسلامية.

المحور الثاني: المحور الاقتصادي:

ويشمل هذا المحور دراسة ما يلي:-

١ - التحديات الاقتصادية الداخلية بشكل عام.

٢ - التحديات الاقتصادية الخارجية بشكل عام.

٣ - أثر المنظمات الاقتصادية الإسلامية مثل «البنك الإسلامي للتنمية» و«منظمة التجارة الإسلامية» في التنمية في العالم الإسلامي.

٤ - إمكانيات تطوير هذه المنظمات لمواجهة قضايا العصر.

٥ - البنية الاقتصادية للدول الإسلامية لإظهار عوامل القوة والضعف فيها، وإمكانيات تطورها.

٦ - إمكانيات إيجاد آليات للتكامل الاقتصادي الإسلامي بداية من المناطق الحرة، والاتحادات الاقتصادية .... الخ.

٧ – الاستثمارات المالية للدول الإسلامية الأخرى وأثرها على الدول الإسلامية.

٨ – المعونات الاقتصادية التي تقدم من الدول الإسلامية، وكذلك التي تقدم إليها بمختلف أشكالها وأنواعها وأثرها على الدول الإسلامية.

٩ – التبادل التجاري بين الدول الإسلامية ومع غيرها من القوى الدولية، وكيف يمكن تفعيلها لصالح الدول الإسلامية.

١٠ – المشروعات المشتركة والاستثمارات القائمة بين الدول الإسلامية، وبينها.

المحور الثالث: التحدي الحضاري:

ويشمل هذا المحور دراسة ما يلي:-

١ – عطاء حضارة الإسلام في مسيرتها الطويلة والتحديات التي تعرضت لها، وكذا التحديات التي يمكن أن تواجهها في القرن المقبل.

٢ – العوامل المميزة للحضارة الإسلامية والعطاء الذي قدمته للإنسانية، وإلى أي مدى يمكن لها أن تسهم في العطاء الحضاري الإنساني في القرن المقبل.

٣ – الاتهامات التي تثار ضد الحضارة الإسلامية في الوقت الحاضر، وكيفية مواجهتها، مثل: (التخلف – الإرهاب – العنصرية – الانغلاق).

٤ – تجلية عطاء الحضارة الإسلامية في الدراسات العلمية ذات الطابع التجريبي – بصفة خاصة – وكيف يمكن وصل ما انقطع من هذه الدراسات.

٥ – كيفية إمكان إحياء الدور الفعال للحضارة الإسلامية، وتعظيم عطائها في مختلف مجالات الحياة داخل الدول الإسلامية وخارجها في القرن المقبل.

٦ – التفاعل بين الحضارتين الإسلامية والغربية وكيفية استثمار هذا التفاعل لصالح البشرية في القرن المقبل.

المحور الرابع: التحديات التربوية:

ويشمل هذا المحور دراسة ما يلي:-

١ - الواقع المعاصر للتربية والتعليم في العالم الإسلامي.

٢ - مدى وفاء التربية والتعليم بحاجة العالم الإسلامي المعاصرة.

٣ - التحديات المختلفة من داخل العالم الإسلامي ومن خارجه التي تواجه التربية والتعليم في العالم الإسلامي.

٤ - أهم التطورات العالمية المعاصرة في مجال التربية والتعليم.

٥ - حاجة العالم الإسلامي المستقبلية في مجال التربية والتعليم.

٦ - مدى قدرة مؤسسات التربية والتعليم على الوفاء بهذه الحاجات.

٧ - إعداد هذه المؤسسات للاضطلاع بمهماتها في إنهاض العالم الإسلامي بما يواكب حاجة العالم الإسلامي المستقبلية.

٨ - مهمات الجامعات الإسلامية في مساعدة هذه المؤسسات في الاضطلاع بهذه المهمات.

المحور الخامس: التحديات الإعلامية:

ويشمل هذا المحور دراسة ما يلي:-

١ - واقع الإعلام المعاصر في العالم الإسلامي.

٢ - أهم الاتجاهات الحديثة في الساحة الإعلامية العالمية.

٣ - التحديات التي تواجه الإعلام في الوقت الحاضر من داخل العالم الإسلامي ومن خارجه.

٤ - مدى قدرة الإعلام في العالم الإسلامي على مواجهة هذه التحديات.

٥ - خطة لتطوير الإعلام في العالم الإسلامي ليواجه هذه التحديات ويواكب الإعلام في الساحة العالمية.

٦ - مهمات الجامعات الإسلامية في إنجاز هذه الخطة.

المحور السادس: التحديات التكنولوجية:

ويشمل هذا المحور دراسة ما يلي:-

١ - القضايا العلمية المثارة ومنها (الاستنساخ - نقل الأعضاء - استخدامات الهندسة الوراثية ما لها وما عليها).

٢ - نقل التكنولوجيا (براءات الاختراع - الحاسب الآلي ... الخ).

٣ - تكوين منظمات إسلامية تشتغل بأمور البحث العلمي وتقوية المؤسسات المتواجدة داخلياً وخارجياً.

٤ - المشروعات العلمية المشتركة بين البلدان الإسلامية والدول الأخرى ومدى تأثيرها على البحث العلمي داخل الدول الإسلامية.

٥ - فتح قنوات اتصال بين المؤسسات العلمية والبحثية بالبلدان الإسلامية والمؤسسات العلمية العالمية للاستفادة من الخبرات العلمية والتكنولوجية بما يخدم مشاريع التنمية بالبلدان الإسلامية.

٦ - إنشاء مراكزَ متخصصةٍ تُعنى بالمشروعات العلمية والتكنولوجية ودعمها مادياً.

٧ - الاهتمام بالبحث العلمي داخل الجامعات الإسلامية.

* * * *



التوصيــات

الحمدلله والصلاة والسلام على سيد المرسلين، محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .. أما بعــد:

فقد اهتمت رابطة الجامعات الإسلامية بدراسة التحديات التي تواجه العالم الإسلامي في القرن القادم منذ انعقاد مؤتمرها العام الخامس، في ضيافة جامعة الأزهر، عام ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م. وذلك بهدف التوصل إلى تحديد الأساليب العلمية والعملية لمواجهتها.

ولهذا، شكلت الرابطة ثمانيَ لجان لدراسة التحديات في ثمانيةِ مجالاتٍ هي: العلمية التقانية والتربوية والاجتماعية والاقتصادية والحضارية والسياسية والإعلامية والقانونية. وبدأت اللجان منذ تكوينها في إجراء الدراسات والقيام بالبحوث وإجراء المسوح اللازمة لمهماتها.

ولكي يتم العمل بالتعاون مع الجامعات الأعضاء في الرابطة، وتتسع دائرة المشاركين فيه من العلماء والباحثين، فقد نظمت الرابطةُ سلسلةً من الندوات بالتعاون مع الأعضاء، أسهم فيها نخبةٌ من أساتذة الجامعات والمفكرين وذوي الرأي، من بينها: ندوتان في ضيافة جامعة الأزهر، الأولى موضوعها "تطوير مناهج التربية الدينية الإسلامية في التعليم العام بالوطن العربي، والثانية موضوعها "الدراسات الإسلامية عند غير العرب"، وندوة موضوعها "التحديات الحضارية التي تواجه العالم الإسلامي" في ضيافة جامعة عين شمس، وندوة أخرى في الموضوع نفسه في ضيافة جامعة الزقازيق، وندوة موضوعها "التحديات الإعلامية التي يمكن أن تواجه العالم الإسلامي في القرن المقبل" في ضيافة جامعة قناة السويس، وندوة موضوعها "التحديات الاجتماعية التي يمكن أن تواجه العالم الإسلامي في المستقبل" عقدت في مقر الأمانة العامة بالقاهرة. وفي الشهر القادم بمشيئة الله تنظم الرابطة بالتعاون مع الإسسكو ندوة موضوعها "التحديات التربوية التي يمكن

أن تواجه العالم الإسلامي في المستقبل" يتلوها ندوة موضوعها "التحديات العلمية والتقانية التي يمكن أن تواجه العالم الإسلامي، في المستقبل" في ضيافة جامعة المنيا.

وندوتنا هذه تنظمها الرابطة في ضيافة جامعة الإمارات العربية المتحدة تحت رعاية سمو الشيخ نهيان بن مبارك آل نهيان، الرئيس الأعلى للجامعة، وزير التعليم العالي والبحث العلمي، وبرئاسة معالي الدكتور/ عبدالله بن عبدالمحسن التركي، رئيس الرابطة، حيث عكف واحدٌ وثلاثون عضواً من أعضاء هيئة التدريس بالجامعات الإسلامية على مناقشة البحوث التي تقدموا بها في موضوع الندوة، وهو "التحديات التي تواجه الأمة الإسلامية في القرن المقبل" على مدى ثلاثة أيام في الفترة (٢٠ - ٢٢ شعبان ١٤١٨هـ، ٢٠ - ٢٢ ديسمبر ١٩٩٧م).

كما حضر فعاليات الندوة لفيف من أساتذة جامعة الإمارات العربية المتحدة ومن مجتمع دولة الإمارات العربية المتحدة، إضافة إلى أعضاء المجلس التنفيذي للرابطة ومقرري لجان دراسة التحديات بالرابطة.

وقد تناولت بحوث الندوة مجالات مختلفة في موضوعها منها: العلمية التقانية، والتربوية، والاقتصادية، والسياسية، والاجتماعية، والحضارية، والإعلامية، والقانونية. وبعد الاستماع إلى الباحثين والمناقشين وتداول الآراء توصل أعضاء الندوة إلى ما يلي:-

أولاً: ضرورة الاهتمام باللغة العربية الفصحى بوصفها لغة القرآن الكريم، ومنهجاً للتفكير والتعبير والاتصال، ومدخلاً مهماً لوحدة العالم الإسلامي، ووعاءً للتراث، والسعي لجعلها اللغة الأولى في الدول الإسلامية.

ثانياً: تكليف رابطة الجامعات بالتعاون مع الجامعات الأعضاء بدراسة تيسير تناول اللغة العربية، وتسهيل تدريسها، وبخاصة بالنسبة لغير الناطقين بها.

ثالثاً: التأكيد على ضرورة تطبيق قرار المؤتمر العام الرابع لرابطة الجامعات الإسلامية بشأن جعل الثقافة الإسلامية مقرراً أساسياً في مناهج جميع الجامعات والكليات الأعضاء في الرابطة.

رابعاً: تكثيف التعاون العلمي بين الجامعات الأعضاء في الرابطة في مجال دراسات نقل التقنية لتحقيق مستويات علمية متقدمة في المجتمعات الإسلامية، والاشتراك في البحوث العلمية.

خامساً: وضع استراتيجية للحفاظ على الكوادر العلمية والفنية للأمة وتوفير الظروف المناسبة لعودتهم من الخارج وإتاحة الفرصة لإبداعهم، والعمل على استرجاع المهاجرين منهم.

سادساً: العمل على دخول القرن المقبل بتعاون اقتصادي مناسب لظروف الدول الإسلامية، وتشجيع المشروعات المشتركة، والمناطق الحرة.

سابعاً: الاستفادة من المحطات الفضائية التي يملكها المسلمون في عرض قضايا الإسلام بأسلوب مقنع يجلي حقيقة الدين الحنيف، والالتزام في البرامج والأعمال الفنية بالشريعة الإسلامية، وتصحيح المعلومات المنوطة بالإسلام.

ثامناً: إعادة صياغة برامج إعداد الإعلاميين بحيث يركز على مبادىء العقيدة والشريعة والأخلاق والحضارة الإسلامية والأداء اللغوي السليم في أجهزة الإعلام.

تاسعاً: العمل على كشف الموهوبين، وشحذ همم المفكرين للقيام بتأليف مواد إعلامية ملتزمة بالشريعة الإسلامية، وبخاصة بالنسبة لبرامج الأطفال، وبث هذه المواد عبر شبكات المعلومات الدولية.

عاشراً: أهمية تكامل الاجتهاد الجماعي وذلك بالتعاون بين المجامع والهيئات الشرعية المعنية بقضايا المسلمين وتطوير دراسات الشريعة والفقه الإسلامي بالجامعات بما يساعد على حل المشكلات المستجدة التي تواجه المسلمين.

كما يوصي الأعضاء المشاركون في الندوة بما يلي:-

١ - تكليف لجان بتحويل التوصيات إلى برامج عمل للجامعات الإسلامية ومتابعة تنفيذها، وتقديم تقارير للمجلس التنفيذي للرابطة عن ذلك.

٢ - تكليف لجان بتأليف كتب نموذجية في الثقافة الإسلامية واللغة العربية تعين طلاب المرحلة الجامعية على حسن استيعابهما، وكتب نموذجية في مواد التعليم العام وفق التوجيه الإسلامي للعلوم.

وفي ختام الندوة عبر المشاركون عن شكرهم الجزيل لرابطة الجامعات الإسلامية، وجامعة الإمارات العربية المتحدة على اختيار موضوع "التحديات التي تواجه الأمة الإسلامية في القرن المقبل" للدراسة، لما لهذا الموضوع من أهمية في استشراف مستقبل الأمة.

كما عبروا عن شكرهم وامتنانهم لجامعة الإمارات العربية المتحدة على كرم الضيافة وحسن الاستقبال وخصُّوا بالشكر راعيَ الجامعةِ سموُّ الشيخ نهيان بن مبارك آل نهيان ومديرَها الدكتور/ هادف بن جوعان الظاهري، ومساعديهما.

دور رابطة الجامعات الإسلامية
في تطوير الاستراتيجية اللغوية في العالم الإسلامي

نـــدوة

"التحديات المستقبلية التي تواجه الأمة الإسلامية في القرن المقبل"
المنعقدة بجامعة الإمارات العربية المتحدة
في الفترة من ٢٠ – ٢٢ ديسمبر ١٩٩٧م

أ.د./ أحمد السيد الحسيسي
أستاذ اللغات الشرقية بكلية الآداب – جامعة عين شمس

دور رابطة الجامعات الإسلامية

في تطوير الاستراتيجية اللغوية في العالم الإسلامي

للأستاذ الدكتور/ أحمد السيد الحسيسي

تمهيد:

تمتاز الثقافة الإسلامية أينما كانت وحيثما وجدت بوحدة الجذور والينابيع واتفاق المقاصد والغايات، ولكن هذه الثقافة الواحدة اتسمت بتعدد خصوصياتها وتلون أشكالها كنتيجة طبيعية لاتساع رقعة العالم الإسلامي جغرافياً، وتنوع مجتمعاته بيئياً، وتباين أنظمته السياسية والاقتصادية.

وهكذا فإن أية استراتيجية ترمي إلى توثيق عرى الوحدة بين الشعوب الإسلامية وتحقيق تلاحمها لابد أن تتخذ الوسائل الكفيلة باطلاع هذه الشعوب على الخصوصيات الثقافية التي تميز بعضها عن بعض والسبل اللازمة لتنشيط التفاعل الثقافي بينها.

وبذلك تبنى وحدة الأمة الإسلامية على أسس قويمة من التعارف والتفاهم والتثاقف عملا بقوله تعالى (يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم).

وتلعب اللغة دوراً رئيسياً في عمليتي التنمية الحضارية والتبادل الثقافي لا لكونها أداة اتصال وثيق نعبّر بواسطتها عن المفاهيم والأفكار والقيم، ونحفظ بها التراث الثقافي والعلمي فحسب، وإنما كذلك بوصفها عنصراً جوهرياً من العناصر المكونة للثقافة والفكر تتجاوز أهميتها التعبير إلى التعبير، بحيث تؤثر القوالب اللغوية في البنيات الفكرية، والأنظمة المفهومية، والأنماط السلوكية للجماعة الناطقة باللغة، ولهذا أولت المجتمعات المعاصرة المتطورة تخطيط السياسة اللغوية اهتماماً بالغاً وعناية خاصة فشجعت البحوث المتعلقة بها. ونما نتيجة لذلك علم جديد مشترك بين علوم الاجتماع والسياسة واللغة واطلق عليه اسم (علم اللغة الاجتماعي) موضوعه التنوع اللغوي في المجتمع الواحد، وهدفه تخطيط السياسة اللغوية بصورة موضوعية

وطريقة علمية[1].

دور المجتمع في تغيير اللغة :

كل اللغات تتعرض للتغير المستمر، وبوسعنا البرهنة على ذلك: إما بدراسة تاريخ أي لغة من اللغات أو بمقارنة اللغات الحديثة الكثيرة التي نتحدث بها الآن.

ولن تستطاع دراسة تاريخ اللغة دراسة مباشرة إلا في حالات إلمام أي مجتمع يتحدث بهذه اللغة بالكتابة منذ عهد طويل. ولقد ظهرت أولى وثائق مكتوبة بالإنجليزية على سبيل المثال سنة ٩٠٠م، ثم استمرت الوثائق بلا انقطاع تقريباً حتى عهدنا الحاضر، ويتبين من فحص هذه الوثائق التغيير الجذري الذي تعرض له نطق اللغة الإنجليزية ونموها ومفرداتها.

ومن ناحية العلاقة بين المجتمع واللغة الذي يهمنا في قضية تغير اللغة هو البحث عن أسباب تغير اللغات. وقد عُزي هذا التغير إلى جملة أسباب، وإن كنا مازلنا في حيرة بسبب نقص تحليل هذه الأسباب وفجاجتها، ومن أسباب ضآلة معرفتنا بالأصول الفعلية لتغير اللغات، أننا لم نعن بالقدر الكافي بالعلاقة الوظيفية بين اللغة وباقي جوانب ثقافة المجتمع، وثمة ارتباط واضح بين اللغة وثقافة المجتمع يتجسم في صورة إضافة المفردات إلى المفردات الشائعة. وكلما ازدادت الثقافة رقياً وتعقدا ازداد أيضاً تعقد مفردات اللغة المرتبطة بها: فاللغة الإنجليزية الوثيقة الصلة بسلسلة شديدة التعقد من الثقافات، لديها في الوقت الحالي مفردات أكبر وأعقد مما كان لها في عصر اللغة الإنجليزية القديمة عندما كانت ثقافة متحدثيها أبسط كثيراً مما هي عليه الآن، وفضلا على ذلك فإننا نستطيع أن نبين كيف كان تغير اللغة الإنجليزية أسرع في خطاه خلال العصور الوسطى والعصر الحديث من تغيرها في عصر اللغة الإنجليزية القديم[2].

(١) د. علي القاسم – مجلة معهد اللغة العربية – جامعة أم القرى – مكة المكرمة – العدد الثاني ١٤٠٤ هـ/ ١٩٨٤م – ص١٧.

(٢) ثريا عبدالله – اللغة والمجتمع – ص١٥، ١٦ – القاهرة ١٩٧٧م.

ومن المحتمل أن تكون سلسلة التغيرات البالغة السرعة من اللغة القديمة إلى اللغة الجديدة مرتبطة بالنقلة من المجتمع الزراعي البسيط في أثناء شيوع اللغة القديمة إلى المجتمع الصناعي الذي يحيا فيه متحدثو اللغة الأنجليزية الآن.

ولقد تغيرت بعض اللغات الأوربية تغيراً أقل من تغير اللغة الإنجليزية، ومن الأمثلة البارزة اللغة الليتوانية التي لم تتغير إلا لماما، فهي مازالت تحتفظ بالكثير من خصائصها القديمة على حين اختفت نظائرها في اللغة الإنجليزية والمهم في هذه الظاهرة هو أن ليتوانيا كانت أقل تأثراً بالتغيرات الحضارية من البقاع المتحدثة بالإنجليزية، فلقد ظلت ليتوانيا إلى حد كبير منطقة زراعية منعزلة تشارك في الحضارة الأوربية الحديثة بقدر أقل من البقاع المتحدثة بالإنجليزية[١].

إن الأمة الإسلامية اليوم في حاجة إلى بعث الوعي العميق لكل جوانب أصالتها، وإن أول خطوات الوعي أن يعي المسلم ذاته، ووعي اللغة في معنى من معانية وعي للذات.

إن الأمة الإسلامية اليوم في حاجة إلى بعث الوعي العميق لكل جوانب أصالتها، وإن أول خطوات الوعي أن يعي المسلم ذاته، ووعي اللغة في معنى من معانية وعي للذات. وإن الجامعات الإسلامية وهي مراكز الإشعاع الفكري الحر مدعوة إلى بعث هذا الوعي اللغوي ورفع شعار النهضة اللغوية. وبيان الحاجة الماسة إليها، والعمل على توفير أسبابها، وإعلان أن أية دعوة إلى بناء المجتمع الإسلامي تبقى بتراء ناقصة إذا لم يكن من همها رعاية اللغة والعمل على دعوة صيانتها ونمائها ومدها بما يكفل مواءمتها للتطور العلمي السريع الذي نشهده اليوم.

وليس هذا أمرا خاصا بلغتنا ولكنه المبدأ العام الذي يشمل كل اللغات وجميع الأقوام، وفي تاريخ الشعوب والأمم خير دليل على صحة ذلك أن نابليون غزا بلاد الألمان وجزأها ومزق وحدتها فقام رجال الفكر فيهم يبعثون

(١) ثريا عبدالله – اللغة والمجتمع – ص١٦ – ١٩٩٧م.

اللغة ويحيون وحدتها معلنين أن الوطن - مهما يتجزأ - وطن اللغة الواحدة.

إن أمما كثيرة مزقها الاستعمار فاعتصمت بوحدة اللغة واتخذت من ذلك سلاحا ضد التفرقة ورمزا للتحرير. وإننا لا نعدو الحقيقة إذا قلنا إن تاريخ اللغة وما مرت به من مراحل الصراع لدى كثير من الأقوام هو نفسه تاريخ الصراع التحرري لتلك الأقوام، ولو استعرضنا تاريخ اللغة العربية وما مرت به في ماضيها البعيد والقريب وفي حاضرها من فترات القوة والضعف لوجدناه صورة صادقة للكفاح العنيف الذي مرت به أمتنا، ولم لا يكون الأمر كذلك ولغتنا العربية ليست مجرد رموز ولا مجرد أداة للتفاهم ولكنها اللغة التي عاشت حياتنا نفسها منذ أن تحرك بها اللسان العربي الأول إلى يومنا هذا، انها صورة تاريخنا ووعاء تراثنا ومرتسم حضارتنا.

وحسبنا أنه ما من فترة من تاريخنا كان للاستعمار فيها نفوذ أو سلطان في قطر من أقطارنا إلا وكانت أولى سهامه تسدد إلى اللغة إضعافا وعزلا عن العلم وإبعاداً عن الحياة.

لقد كانت أولى توصيات الحاكم الفرنسي لجيشه الزاحف إلى الجزائر: (علموا لغتنا وانشروها حتى تحكم الجزائر، فإذا حكمت لغتنا الجزائر فقد حكمناها حقيقة). وليست توصية هذا الحاكم الفرنسي إلا ترجمة لتوصية سلفه المستعمر الفرنسي نابليون الذي قال لبعثته الوافدة إلى مصر: (علموا الفرنسية ففي ذلك خدمة حقيقية للوطن).

لقد أدرك هؤلاء الغاصبون وأمثالهم أن اللغة القومية تشد الإنسان الفرد إلى قومه، وتربي فيه شخصية أمته، وتنمي فيه عزتها وتمنحه أصالة الانتماء إليها.. بل لقد أمنوا بما قاله علماؤنا بصدد الحرص على تعلم العربية من أن لغة المرء تؤثر في عقله وخلقه، وإن ثقافته اللغوية تميل به إلى حب أهل اللغة.

ولهذه الصلة الوثيقة بين القوم ولغتهم سميت اللغة القومية للإنسان باللغة الأم، ولهذه الصلة نفسها بين الأمة واللغة يقترن الوعي السياسي والقومي لدى الأمم الراقية بالاعتزاز باللغة والوعي الكامل لرسالتها الرائعة

في حياة الأمة ووحدتها[1].

مسايرة اللغة العربية لحياة الأمة في الجاهلية وما بعدها

عاشت العربية عصر الجاهلية الذي عرفناه موفية بحاجاته معبرة عن أبعاد الحياة فيه، وصحيح أن معارف العرب في ذلك العصر كانت محدودة تتصل اكثر ما تتصل بحياة ضيقة وأدوات قليلة إلا أن لغتهم كانت غنية بالألفاظ لأصغر الأمور المتصلة بحياتهم وأدق الأجزاء في أدواتهم، ثم أنها كانت غنية بما أحتوت عليه من شعر ونثر وحكم وأمثال.

وتلا ذلك العصر الإسلامي، وظهرت علوم جديدة كالتفسير والحديث والفقه والنحو، فاستوعبت العربية تلك العلوم ووضعت فيها المصطلحات فكانت ألفاظا عربية صحيحة الوضع محكمة الدلالة، ساعدت عليها خصائص لغوية رائعة أهمها الاشتقاق.

واتسعت حياة العرب في ظل الحكم العباسي، وظهرت حركة نشيطة دائبة واسعة في ميدان الترجمة والنقل، وبدأ احتكاك لغوي رائع بين علوم ألف فيها الفرس والهنود واليونان ولغة يراد منها أن تستوعب كل جديد في الطب والصيدلة والرياضيات والفلسفة والمنطق.

واستطاعت العربية بفضل المخلصين من العلماء أن تتغلب على تلك الصعوبات فلم يناد أحد بتعلم من يرغب من المتعلمين لغات الفرس والهند واليونان، ولكن قاموا بنقل علوم تلك الأقوام إلى لسان الأمة الذي يتقنه كل متعلم، فإذا علوم تلك الأمم مبسوطة باللسان العربي.

أن علماء تلك العصور ونقلة العلوم فيها كانوا يتصفون بالذكاء والإخلاص وبُعد الهمة فاستطاعوا التغلب على صعوبة الترجمة والنقل ووضع المصطلح بالاشتقاق والتعريب ومنح اللفظ العربي معنى جديدا وغير ذلك من الوسائل التي تحيي اللغة وتجعل منها لغة العلم الحي والعصر المتطور.

---

(١) د. مازن المبارك – اللغة العربية في التعليم العالي والبحث العلمي – ص١٠ – ١٤، بيروت ١٩٧٣م.

ثم تلت ذلك عصور متتابعة فقدت العروبة خلالها بهاءها. وغلا فيها البهرج الزائف وخبا الجوهر الأصيل، وخلف فيها خلف أضاعوا أصالة اللغة، فتركوا ألفاظها بلا روح، وصورها بلا حياة، ومصطلحها بلا ذوق، فإذا هي لغة ضاع فيها الفكر تحت حجاب كثيف من الصنعة، وابتعد بها أهلها عن حياة العلم والإبداع لابتعادهم أنفسهم عن تلك الحياة الزاخرة من حولهم في العالم المتطور.

وفي هذه الفترة من الزمن، واللغة على ما وصفنا من ضعف وعزلة، بدأ اتصال الغرب المتمدن بالشرق المتخلف فبدأ واضحا أن اللغة لا تستطيع أن تضطلع بأعباء التعبير عن متطلبات العصر ومعطيات العلم فكان هذا العجز الذي قيدت به اللغة فرصة للناقمين من أعدائها والجاهلين من أبنائها يأخذونها طعنا وازدراء، وبذلك بدأت صفحة صراع جديد إن شئت بين العرب وأعدائهم، وإن شئت قلت إنه بين اللغة العربية وأعدائها، لأنهما وجهان لحقيقة واحدة، حقيقة الصراع مع الاستعمار والكفاح في سبيل التحرير والمحافظة على الذات. وما تاريخ اللغة العربية المعاصر إلا صورة لكفاح الأمة في شتى أقطارها في سبيل التحرير والاستقلال الوطني.

ففي بلاد الشام صراع بين العربية والتركية، وفي مصر صراع بين العربية والفرنسية أولاً، ثم صراع بين الفرنسية والإنجليزية ثم عاد الصراع بين العربية والإنجليزية، وفي المغرب العربي مثل ذلك صراع بين العربية واللغات الدخيلة بدخول أصحابها المغتصبين.

وبدأت في بلاد العرب مرحلة الوعي الجديد. وعي الأمة لذاتها ولمقومات كيانها، وأخذت الأمة بالعودة إلى جحر العربية وإحيائها تأليفا، وترجمة وتدريسا، ومصطلحا. وظهرت في هذا الميدان جهود ينبغي أن تذكر دوما بالثناء، وهي جهود مجامع اللغة العربية عامة. وجهود أبطال التعريب من أساتذة الجامعات.

أما التأليف فقد عاد فيه إلى اللغة العربية كثير مما افتقده في العصور

السابقة من عمق في المعاني ووضوح في الأفكار، وسلامة في اللغة ونصاعة في البيان.

وظهرت في اللغة العربية – إلى جانب كتب اللغة والأدب – كتب علمية جديدة استطاع مؤلفوها أن يجمعوا بين الغرض العلمي وسلامة اللغة وجودة العرض وحسن الأداء[1].

فضل القرآن على اللغة :

القرآن العظيم هو العامل الأعظم في خلود لغة العرب وحفظها لقد علم الله آدم عليه السلام لغة أهل الجنة فعلا بها على الملائكة الكرام وقالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا.

ولشرفها ودقة صنعها وقوة بلاغتها وتمكن الإعجاز فيها دون غيرها نزل بها الوحي المعجز وتكفّل الله بحفظه (إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون) وبحفظ القرآن وخلوده حفظت اللغة وخلدت، فكانت (اللغة الخالدة) فهي اللغة التي صنعها الله (صنع الله الذي أتقن كل شيء) وعلمها لآدم، وتناقلتها فئة من بنيه عنه ثم نزل بها القرآن العظيم، فقام المسلمون في مشارق الأرض ومغاربها لخدمة هذا الكتاب الكريم، وكانت خدمته خدمة لهذه اللغة، فألف قوم اللغة وتفسير مفرداتها، وألف آخرون فن النحو والتصريف وإعراب القرآن، وصنف قوم علم القراءات واللهجات العربية، ثم علم إعجاز القرآن والمعاني والبيان والبديع وأساس البلاغة والمفتاح للسكاكي، فلولا القرآن لما وجد الأساس والمفتاح، ولما صنفت البلاغة وعلومها التي ما وجدت إلا لتكشف عن وجوه إعجاز القرآن وأسرار بلاغته، وعلم آداب البحث والمناظرة الذي يعلمنا الجدل بالتي هي أحسن، وإقامة الأدلة والبراهين على الحق، وإنارة الطريق بالأسلوب المستقيم، وعلم الأدب وعلم أسباب النزول، وعلم التفسير، وعلم أسماء الرجال الذين هم الركن في النقل والثقة والاعتماد، وعلم الاشتقاق، وعلم أصول الفقه الذي هو أدق فلسفة للغة العربية ومراميها السامية ومداره

(١) د. مازن المبارك – اللغة العربية في التعليم العالي والبحث العلمي – ص١٢ – ١٤.

جبريل عليه السلام في كل عرضة بحرف إلى أن تمت السبعة، وذلك تخفيف وتيسير على الأمة في التكلم بلغاتهم، كما خفف عنهم في شريعتهم، والأحكام التي امرنا الله بها ونهانا عنها في القرآن كلها واحدة لا تتغير في جميع القراءات، وأن جميع كلمات القرآن عربية، وأن نحو سجيل وإستبرق وقسورة من الكلمات التي اتفق فيها الفاظ العرب وغيرها من بعض أجناس الأمم.

وفي كثير من اللغات الحية ألفاظ مشتركة في مادة الكلمة ولكنها تختلف في هيئتها تبعاً للاستعمال وصقل الألسنة وخصائص اللغة.

ولابن قتيبة كلام في غاية الشدة حول من يدعي ان في القرآن ألفاظاً أعجمية.

لم أنزل القرآن بالعربية :

إن اعتبار اللغة يؤثر في العقل والخلق والدين تأثيراً قوياً بيناً وإن اللسان العربي هو اللسان الطبيعي للإنسان الموافق لكل أهواء النفس والجاري على سنن النواميس الطبيعية وهو أوسع اللغات وأقومها بالأود وأملكها لأعنة البلاغة حتى كأنه هو اللسان الذي خلق مع الإنسان وخلق للإنسان ارتقى بارتقائه وصار ينشأ وينمو بنشوئه ونموه في ميدان البلاغة وتفنن الأساليب.

كتب (جول فرن) قصة خيالية بناها على سياح يخترقون طبقات الكرة الأرضية حتى يصلوا او يدنو من وسطها ولما أرادوا العود إلى ظاهر الأرض بدا لهم أن يتركوا هنالك أثراً يدل على مبلغ رحلتهم فنقشوا على الصخرة كتابة باللغة العربية. ولما سئل جول فرن عن وجه اختياره اللغة العربية قال انها لغة المستقبل ولا شك أنه يموت غيرها وتبقى حية حتى يرفع القرآن نفسه.

قال القاضي الباقلاني رحمه الله: إن الألسنة غير العربية لا يتأتى فيها من وجوه الفصاحة ما يقع به التفاضل الذي ينتهي إلى حد الإعجاز ولكنه يتقارب وقد رأيت أصحابنا يذكرون هذا في سائر الألسنة ويقولون ليس فيها من التفاوت ما يتضمن التقديم العجيب ويمكن بيان ذلك بأنا لا نجد في القدر

على الكتاب والسنة (وأما الإجماع فمرجعه الكتاب أو السنة، وأما القياس فهو قياس على ما ظهر منها بشروطه المقررة) وعلم أقسام القرآن، وعلم أمثال القرآن وعلم الخط والإملاء، وعلم الإنشاء ليحسنوا السبك وأداء بعض المراد من معاني القرآن وهديه، وعلم بدائع القرآن، وعلم التجويد، وعلم التأويل، وعلم التاريخ ليتجلى أحسن القصص وتظهر العبر في قصص من عبر، وعلم تحسين الحروف ومخارجها وصفاتها، وعلم تشبيه القرآن واستعاراته، وعلم رسم المصحف، وعلم فضائل القرآن، وعلم الوقف والابتداء وفواصل الآي، وعلم كيفية أنزال القرآن وأماكن وزمن النزول، وعلم مبهمات القرآن، وعلم متشابه القرآن ومشكله، وعلم مناسبات الآيات والسور وعلم ناسخ القرآن ومنسوخه، إلى آخر ما هناك من العلوم التي أبدعوها والفنون التي صنفوها في خدمة القرآن العظيم بلسان عربي مبين، وفي ذلك خدمة اللغة الخالدة.

القرآن عربي:

القرآن عربي في مراتب وجوده، فتوحده بهذا اللسان هو الضابط الكلي والطريق السوي، وهذا التوحد هو الثابت له في جميع مراتبه قال تعالى (انا جعلناه قرآنا عربياً) وقال تعالى (انا انزلناه قرآناً عربياً) لقد أظهره الله في السماء مكتوباً في اللوح المحفوظ عربياً ممتازاً في وجوده عن سائر الكتب الأخرى، وعلى ألسنة الملائكة الكرام، كذلك وعلى لسان سيدنا محمد، كذلك في صورة عربية واحدة وإن تعددت حروفها بتعدد اللغات العربية الفصحى كما هو في السماء، قال صلى الله عليه وسلم :أنزل القرآن على سبعة أحرف كلها شاف كاف" فاللغات السبع مفرقة فيه. وليس في القرآن العظيم إلا لغة العرب وربما وافقت اللغة منه غير لغة العرب، والأصل عربي لا يخالطه شيء وكانت العرب على اختلاف شعوبهم وقبائلهم، وتباين بطونهم وأفخاذهم، ترد على رسول الله صلى الله عليه وسلم لتأخذ عنه القرآن، فكان صلى الله عليه وسلم يطيل المد أو يقصره لمن لغته ذلك، وربما فخم لمن لغته التفخيم وربما أمال لمن لغته الإمالة وربما ادغم لمن لغته الإدغام، وربما رقق لمن لغته الترقيق، وهذا في سائر وجوه الأداء كما ينزل به جبريل عليه السلام. لقد كان ينزل

الذي نعرفه من الألسنة للشيء الواحد يتناول المعاني الكثيرة على ما تتناوله العربية وكذلك التصرف في الاستعارات والإشارات ووجوه الاستعمالات البديعة. وكثير من المسلمين قد عرفوا تلك الألسنة وهم أهل البراعة فيها وفي العربية فقد وقفوا على أنه ليس يقع فيها من التفاضل والفصاحة ما يقع في العربية.

وقال ابن جني: إن نسأل علماء العربية ممن أصله أعجمي وقد تدرب قبل استعرابه عن حال اللغتين فلا يجمع بينهما بل لا يكاد يقبل السؤال عن ذلك لبعده في نفسه وتقدم لطف العربية في رأيه وحسه سألت غير مرة أبا علي عن ذلك فكان جوابه عنه نحواً مما حكيته.

وقال حازم في كتاب المناهج الأدبية: ولو وجد أرسطو في شعر اليونان ما يوجد في شعر العرب من كثرة الحكم والأمثال والاستدلالات واختلاف ضروب الإبداع في فنون الكلام لفظا ومعنى وتبحرهم في أصناف المعاني وحسن تصرفهم في وضعها ووضع الألفاظ بإزائها وفي أحكام مبانيها واقتراناتهما وطلب التفاتاتهم وتمنياتهم واستطراداتهم وحسن مآخذهم ومنازعهم وتلاعبهم بالأقاويل المخيلة كيف شاءوا لزاد على ما وضع من القوانين الشعرية.

قال ارنست رينان في كتابه تاريخ اللغات السامية: من أغرب المدهشات أن تنبت تلك اللغة القوية وتصل إلى درجة الكمال وسط الصحاري عند أمة من الرحل تلك اللغة التي فاقت أخواتها بكثرة مفرداتها ودقة معانيها وحسن نظام مبانيها وكانت هذه اللغة مجهولة عند الأمم ومن يوم علمت ظهرت لنا في حلل الكمال إلى درجة أنها لم تتغير أي تغيير يذكر حتى أنها لم يعرف لها في أطوار حياتها لا طفولة ولا شيخوخة لا نعم من شأنها إلا فتوحاتها وانتصاراتها التي لا تباري ولا نعلم شبيها لهذه اللغة التي ظهرت للباحثين كاملة من غير تدرج وبقيت حافظة لكيانها من كل شائبة.

قال ابن تيمية رحمه الله: وأما اعتياد الخطاب بغير العربية التي هي

شعار الإسلام ولغة القرآن حتى يصير ذلك عادة المصر وأهله ولأهل الدار وللرجل مع صاحبه ولأهل السوق أو للأمراء أو لأهل الديوان أو لأهل الفقه فلا ريب أن هذا مكروه فإنه من التشبه بالأعاجم وهو مكروه ولهذا كان المسلمون المتقدمون لما سكنوا أرض الشام ومصر ولغة أهلها رومية وأرض العراق وخراسان ولغة أهلها فارسية وأرض المغرب ولغة أهلها بربرية عودوا أهله هذه البلاد العربية حتى غلبت على أهل هذه الأمصار مسلمهم وكافرهم والطريق الحسن اعتياد الخطاب بالعربية حتى يتلقنها الصغار في الدور والمكاتب فيظهر شعار الإسلام وأهله ويكون ذلك أسهل على أهل الإسلام في فقه معاني الكتاب والسنة وكلام السلف بخلاف من اعتاد لغة ثم أراد أن ينتقل إلى أخرى فإنه يصعب ثم أن نفس اللغة العربية من الدين ومعرفتها فرض واجب فإن فهم الكتاب والسنة فرض ولا بفهم إلا يفهم اللغة العربية وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب.

اللغات متنوعة منها لغات قومية لا علاقة لها بثقافة ولا دين كاللغة الكردية والأردية ومنها لغات دينية لا علاقة لها بثقافة ولا علم كاللغة السريانية والعبرانية ومنها لغات ثقافية علمية لا علاقة لها بدين كاللغة الافرنسية والانكليزية وأما اللغة العربية فهي اللغة الوحيدة التي تعد لغة الثقافة والعلم والدين ولذا كان لزاماً على كل مسلم أن يعرف تلك اللغة لمكانتها الدينية والعلمية وأنها لغة الإسلام ولغة القرآن ولغة محمد صلى الله عليه وسلم ولغة الأمة التي أضاء نورها فملأ الخافقين ولغة الثقافتين القديمة والحديثة، فلا ضير أن تعرف لكل مسلم مع لغته القومية لأن اختلاف اللغات من آيات الله لقوم يعقلون قال تعالى (ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف السنتكم).

وإن الأمة الاسرائيلية تجمعهم اللغة العبرية على اختلاف مواطنهم وتنوع ألسنتهم وهي لغة دين فقط فهلا جمعتنا معشر المسلمين لغة القرآن لغة الإسلام لغة محمد صلى الله عليه وسلم لغة الثقافتين.

وإن من المحتم على كل مسلم فخور بإسلامه أن يحب الخير للعرب على

اختلاف أديانهم وتباين مذاهبهم حباً لرسول الله الذي بعث منهم ولكتاب الله الذي أنزل بلغتهم ولصحابته الذين جاهدوا في الله حق جهاده وكانوا السبب في وصول الهداية إليه من المحتم على كل عربي فخور بعروبته أن يحب المسلمين لأنهم حماة لغته وحصن قوميته وقد كانت ولاتزال أياديهم بيضاء على اللغة وعلومها وعلى الأمة العربية ورجالها يعرف ذلك من تضلع في العلوم العربية وفنونها وقرأ كتب التاريخ وطبقات الرجال.

وإن من خاض بحر اللغة يجد لكل كلمة أعجمية نتداولها ما يغنينا عن استعمالها وبلفظ لطيف، ومن المؤسف كثرة الكلمات الأعجمية المتداولة في العالم العربي ويا حبذا لو فتح باب في الصحف تحت عنوان أعرف لغتك وساهمت الإذاعة المسموعة والمرئية في تعليم اللغة العربية كما تتبنى الأجانب تعليم لغاتهم لنا على موجات الأثير وعبر الشاشات.

ولغة العرب تتسع لحضارات الأمم وإبداعها وثقافات العقول وإنتاجها وتتمشى مع الناس في كل زمان ومكان فهي لغة العلوم والآداب والحضارة الصناعية والإبداع والتقدم لغة تصور بألفاظها مظاهر الطبيعة وترسم بحروفها مشاهد الحياة وتعرب بمعانيها عن غوامض الأمور وخطرات النفوس وخلجات الأفئدة.

وقد كان بالفعل هذا التقدم فاتسع بحر اللغة العربية فجمعت من العلوم الحادث إلى القديم وأصبحت غنية بكتب العلوم الكونية والفلسفية والحقوقية بفضل رجالها المترجمين حتى أصبح بوسع المختص الاستغناء بها عن غيرها من اللغات ولكنا نطلب الزيادة مما هو له صلة بالتقدم العلمي والكشف عن النواميس الإلهية والنظم التي طبعها الله وأن يساهم العالم العربي والإسلامي في هذا الحقل العلمي الجليل فتترجم أعظم الكتب العلمية التي تسير بنا نحو القوة والصحة والسعة.

وكذلك يساهم العالمين بنشر اللغة العربية وتعليمها ونحن أن وضعنا معجماً لغوياً مستنبطاً من القرآن العظيم والأحاديث الشريفة المشهورة

وتعلمها المسلمون أمكننا أن نخاطبهم بذلك وبذلك نقضي على شطر كبير من الوحشة والنفور الذي أوجده تعدد اللغات في العالم مع العلم أن عدد اللغات المعروفة في العالم اليوم (٢٧٩٦) ألفان وسبعمائة وست وتسعون لغة.

ثم أنزل القرآن بالعربية فقط:

لقد أنزل القرآن بالعربية وهو كتاب الأمم قاطبة وشرع البشر أجمع فإن محمداً صلى الله عليه وسلم مبعوث للناس كافة العربي وغيره فلو تنوع النظم المنزل عليه صلى الله عليه وسلم حسب اختلاف السنة الأمم المبعوث إليها بأن نزل مرة عربياً وأخرى عبرياً وثالثاً فارسياً وهلم جرا لكان أدعى إلى التنازع واختلاف الكلمة وتطرق التحريف والتبديل إليه فإن لكل أمة لغة خاصة بها خاضعة لمزاجها العقلي وشعورها الفكري ولكل لغة خصائص ومزايا فيقرب من حد الاستحالة أن يتحد هذا المنزل باللغات العديدة في الخصائص والدلالة والأحكام التي تستنبط من الدلالات وإشارة النصوص ومتى اختلف في ذلك اختلف المنزل عليهم وأصبحوا فرقاً متناكرة كأنهم أهل كتب مختلفة وشرائع متباينة لا يذعن كل قوم إلا لقرآنهم ولا يتعرفون إلا بما نطق بلسانهم على أن نزول القرآن بلغات الأمم المبعوث إليها صاحب الرسالة صلى الله عليه وسلم يؤدي إلى أن ينزل القرآن بلغات شتى ولهجات مرذولة قدر ما حواه الوجود في كل العصور من الأمم والشعوب والقبائل حتى اللغات المستحدثة التي انتقلت إليها بعض الجماعات في أطوار سموها وأدوار حياتها، وإنه لا يرى عاقل أن عموم الرسالة تتطلب نزول القرآن بجميع اللغات واللهجات وتعريضه لرطانات موحشة مستهجنة لأن ذلك من أفحش النقائض التي تتنزه عنها كلام الله القديم. ولقد علم من قبل حكمة نزول القرآن بالعربية وأنها خير لسنان وأن الإسلام هو خير الأديان فمن الحكمة أن تجتمع الأمم على خير دين ولسان وأن يكون التآخي والتحابب والتقارب. لقد فكر بعض فلاسفة أوربا مثل (ديكارت) أن يجمع البشر على لغة واحدة لأن تعدد اللغات أدى إلى صعوبة التفاهم بين بني البشر وقطع أواصر المحبة وساق الإنسان لقتل أخيه والفتك به فتكاً تأباه الوحوش الضارية والسباع الكاسرة. ولقد سعى لتحقيق

هذه الفكرة بالفعل الطبيب البولوني لودفيج زامنهوف فوضع اللسان المسمى الاسبرانتو على أنه ليس من السهل أن تحل لغة من اللغات محل سائر اللغات وتتلقى بالقبول إلا أن يكون الدافع دينيا كما في اللغة العربية فاللغة العربية هي لغة الاسبرانتو لسائر الشعوب الإسلامية وقاموسها القرآن الكريم والسنة المطهرة وكلام الصحابة وهي اللغة الحية الخالدة التي لا يزحزحها عن الأفكار قوة ولا يحط من مقامها فكرة فالعرب أحرص الناس على حياة لغتهم والمسلمون معهم كالبنيان في تشييد لغة الدين والقرآن.

عروبة القرآن تكفل الخلود :

والقرآن العظيم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من عزيز حكيم بلسان عربي مبين والذي اجمعت العقلاء على أنه خير كتاب أخرجته يد العناية الإلهية.

وكان لزاما على المسلمين أن تكون تلك اللغة لسانهم الذي به يتخاطبون ويتعاهدون ويتحاببون ويتواددون لأنها لغة الوحي المعجز والتشريع الخالد ولغة الرسول الكريم والصحابة أجمعين سلمان وبلال وصهيب ولغة العبادات والصلاة والآذان والحج وقد كان في بدء فجر الإسلام كما رأيت ولكن الصهيونية الآثية التي وضعت خططاً لغايتها من الاستيلاء على الأراضي المقدسة (فلسطين) منها عزل العالم الإسلامي عن نصرة العالم العربي وذلك بالحط من كرامة العرب والطعن في مكارمهم أولاً، وقد أدعى الإسلام بعضهم وأخذ يدس السم في الدسم واستخدم بعضهم الدعيين كاليهودي الأصل أبوعبيدة معمر بن المثني والدعي زياد بن أبيه والهيثم بن عدي، وقد ألفوا في ذلك كتباً في مثالب العرب وكذلك استخدموا غيلان الشعوبي الزنديق الثنوي فألف كتاباً بدأ فيه بمثالب بني هاشم ثم ببطون قريش ثم بسائر العرب ونسب إليهم كل زور ووضع عليهم كل أفك وبهتان وكذلك فعل ابن غرسية في خدمة الصهيونية.

قال الصاحب بن عياد: لا أرى أحداً يفضل العجم إلا وفيه عرق من

المجوسية ينزع إليه والحقيقة أن في كل شر فتش عن اليهود سيد الرسول محمد صلى الله عليه وسلم من العرب حقدوا وحسدوا أن تخرج الرسالة من ذرية إسماعيل أبي العرب وجد الرسول الأعظم صلى الله عليه وسلم وثانياً: الطعن في اللغة العربية والوقوف في وجه انتشارها في الأقطار الإسلامية وقد ابتدعوا أساليب لتحطيم اللغة العربية وقطع الصلة بينها وبين العالم الإسلامي، وقد خدمهم في ذلك الاستعمار فأثر بعض المسلمين لغة المستعمر على لغة الإسلام وشرعه وقرآنه.

انظر مقررات لؤماء صهيون (البورتوكولات) تجد مباحث خاصة قد أعدت لإفساد شأن اللغة وإبعاد العالم الإسلامي عنها.

والإسلام هو الدين الوحيد الذي يصهر القوميات في اللغة الخالدة ويدعو المؤمنين به لاعتناق لغة القرآن والحديث وأما الأديان السابقة فلم تكلف بجمع القوميات المتباينة والشعوب المختلفة لأنها لم ترسل لقوميات متباينة وشعوب مختلفة وإنما كان يرسل كل نبي لقومه وشعبه فقط ليس إلا ولقد نصت الآناجيل على أن المسيح عليه السلام لم يدع الرسالة العامة وإنما أرسل إلى خراف بيت إسرائيل الضالة كما في متى ١٥ - ٢٤.

ولقد أوضح القرآن الكريم أن الدين والدعوة إلى الله إنما تكون بلسان القوم المرسل إليهم، (وما أرسلنا من رسول إلا بالسان قومه)، وبديهي أن اللسان الذي جمع الرسل بقومهم وكان عماد الدعوة جمع القوم ووحد صفهم لأن كل قوم وشعب لا يسمى قوم أو شعب إلا أن يجمعهم لسان واحد أولاً.

والرسول الأعظم كما أرسل إلى قومه العرب خاصة وبلسانهم أرسل إلى الناس عامة كما قال صلى الله عليه وسلم: أيها الناس إني رسول الله إليكم خاصة وإلى الناس عامة.

والإرسال إلى الناس عامة يتطلب اللسان فهل من الحكمة والأمر الواقع أن يتعلم سيد الرسل والدعاة إلى الله السنة الناس عامة أو أن يتعلم الناس لسان سيد الرسل وقومه الذي بعث فيهم؟!

ولقد أراد الله أن تتعلم الأمم المؤمنة من الشعوب المتباينة والأقوام المختلفة لسان سيد الرسل ولسان قومه الذي بعث منهم وأن يجمع القرآن – بلسانه العربي – شملهم.

وبهذا تعلم أن الدين عند الأمم السابقة لم يكلف بجمع الشعوب وإنما هو لشعب خاص يتكلم بلغة واحدة فهم قوم وشعب ودولة قبل الدين المنزل عليهم كما تعلم أن الدين الإسلامي قد أنزل للناس كافة وجعلت اللغة العربية لسانه فعروبة القرآن قد تكفلت بخلود اللغة رغم تآمر أعداء العروبة والإسلام وتسليط سهامهم على كيان اللغة وأمتها.

جوامع الكلم وبلاغة القول في كلام الرسول الأعظم يخلد لغة القرآن العظيم:

إن أحاديث سيد البشر تتجلى فيها العظات والعبر وتعرب عن حكم وأحكام لها في تاريخ الإنسانية وسعادتها أكبر الأثر وإذا جردنا كلام سيد الخلق وألقينا النظر على درر ألفاظه لا نملك إلا أن نطاطيء الهاما أمام عظمة هذا التشريع والفهم العميق لأدق منابع السعادة ومنابتها وأن نشعر بالحب يفيض من أعماق قلوبنا والإجلال يملأ نفوسنا.

ولقد سبكت تلك الحكم والأحكام بلسان عربي بين في غاية الفصاحة ومنتهى البلاغة البشرية، وقد كانت ولا تزال من أكبر عوامل دوام هذه اللغة وخلودها.

ويقول الجاحظ: إن كلامه صلى الله عليه وسلم هو الكلام الذي قل عدد حروفه وكثر عدد معانيه وجل عن الصنعة وتنزه عن التكلف استعمل المبسوط في موضع البسط والمقصور في موضع القصر وهجر الغريب الوحشي ورغب عن الهجين السوقي فلم ينطق إلا عن ميراث حكمة ولم يتكلم إلا بكلام قد حف بالعصمة وشد بالتأييد ويسر بالتوفيق.

اللغة الخالدة لغة آدم عليه السلام :

تكلمنا قبلا عن أن اللغة العربية لغة سيدنا آدم عليه السلام وبتعليم الله

له وبها تفوق على الملائكة الكرام قال تعالى: (وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئوني بأسماء هؤلاء أن كنتم صادقين سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا...).

وأن اللغة التي جاء فيها الوحي المعجز لكبار الفصحاء ونوابغ البلغاء من العرب العرباء بجمعهم وكثرتهم وشهرتهم بالعصبية والحمية الجاهلية وتهالكهم على المباهات والمباراة ولم يحركوا ساكناً ووقفوا مكتوفي الأيدي خاضعي الرؤوس أمام عظمته وقوة بلاغته وآثروا المقارعة بالسيوف على المعارضة بالحروف لأقصر صورة من صوره يحيل العقل أن تكون من وضع مخلوق لأن من يضع شيئاً ويصنعه هو أعرف بأصول التصرف فيه.

على أن القرآن جاء يتحدى الإنس والجن من ظهر ومن خفي من المخلوقات متجمعين متضافرين متناحرين متعاضدين وفيهم أرباب الفصاحة وفرسان البلاغة وقد سفه أحلامهم وهشم آلهتهم وقارع مذاهبهم وأبطل عقائدهم وادعى أن لا مجال لجلاله ولا معارض لكماله فتبوأ عرش الإعجاز ووقف المعاند أمام سلطانه وضيعاً وخر عند التحدي صريعاً وقد كان معروفاً بالحجة البالغة موصوفاً بالقوة الدافعة لا يصور العقل أن اللغة التي صيغت منه جاءت بقوة الغريزة أو بالتواطيء والاتفاق أو بالتطور التدريجي وإنما هي تعليم الله لآدم عليه السلام.

ومما يدل على أن اللغة العربية هي لغة آدم تسمية آدم باسم عربي فقد سمي آدم آدم لأنه خلق من أديم الأرض كما سميت حواء لأنها خلقت من ضلع حي وفي سفر التكوين ص٢ : ٢٣ (فقال آدم هذه الآن عظم من عظامي ولحم من لحمي هذه تدعى اَمرأة لأنها من أمره أخذت) إلى غير ذلك من الأدلة وبهذا تعلم أن سيدنا إبراهيم عليه السلام يحسن العربية كما يحسن السريانية، وقد أرسل ابنه إسماعيل ليتعلم العربية من منابتها معلقها كما كانت تفعل قريش بأطفالها فتختار لها المواضع في مواطن الاعراب وترك إسحاق للعبرية وقد كان يحسن الكلام مع الوالدين باللغتين؟ ويرى ابن حزم أن اللغة العربية والعبرانية والسريانية لغة واحدة في الأصل وبسط البحث في كتابه الأحكام.

الحض على التمسك باللغة الخالدة والمحافظة عليها:

إن اللغة العربية عز قوميتنا وشعار نهضتنا ومبنى ديننا وقد كان أسلافنا يحرصون على تراثهم المجيد قال عمر رضي الله عنه تعلموا العربية فإنها تثبت العقل وتزيد في المروءة وكان يضرب أولاده على اللحن ولا يضربهم على الخطأ ووجد في كتاب عامل له لحناً فأحضره وضربه درة واحدة.

ومر على قوم يسيئون الرمي فقرعهم فقالوا إنا قوم متعلمين فأعرض مغضباً وقال والله لخطؤكم في لسانكم أشد علي من خطئكم في رميكم سمعت أن رسول صلى الله عليه وسلم كان يقول رحم الله أمرا أصلح من لسانه.

وكان ابن عمر يضرب ولده على اللحن كما يضربهم على تعليم القرآن وقال عبدالملك: ما الناس إلى شيء من العلوم أحوج منهم إلى ألسنتهم التي بها يتحاورون الكلام ويتهادون الحكم ويستخرجون غوامض العلم من مخابئها ويجمعون ما تفرق منها، إن الكلام قاض يجمع بين الخصوم وضياء يجلو الظلام وحاجة الناس إلى موارده كحاجتهم إلى مواد الأغذية. وقال الزهري ما أحدث الناس مروءة أحب إلى من تعلم النحو وكان عبدالله بن المبارك يقول: انفقت في الحديث أربعين ألفاً وفي الأدب ستين ألفاً وليت ما انفقته في الحديث انفقته في الأدب، قيل له كيف؟ قال لأن الخطأ في الأدب يؤدي إلى الكفر.

وحدث يحيى بن عتيق قال سألت الحسن فقلت يا أبا سعيد الرجل يتعلم العربية يلتمس بها حسن المنطق ويقيم بها قراءته قال حسن يا بني فتعلمها فإن الرجل يقرأ الآية فيعيا بوجهها فيهلك فيها.

وقال ابن هبيرة: والله ما استوى رجلان دينهما واحد وحسبهما واحد ومروءتهما واحدة أحدهما يلحن والآخر لا يلحن إن أفضلهما في الدنيا والآخرة الذي لا يلحن ... الخ قوله.

وتكلم المنصور في مجلس فيه اعرابي فلحن فصر الأعرابي اذنيه فلحن

مرة أخرى فقال الأعرابي اف لهذا؟ ثم تكلم فلحن الثالثة فقال الأعرابي أشهد لقد وليت هذا الأمر بقضاء وقدر. ولحن أمام أعرابي آخر فقال ما كان أهون هذا القرشي على أهله.

وعن سعيد بن سلم قال: دخلت على الرشيد فبهرني هيبة وجمالا فلما لحن خف في عيني وعن الشعبي قال حلي الرجال العربية وحلي النساء الشحم وكان الحسن بن أبي الحسن يعثر لسانه بشيء من اللحن فيقول أستغفر الله فقيل في ذلك فقال من أخطأ فيها فقد كذب على العرب ومن كذب فقد عمل سوءا وقال تعالى (ومن يعمل سوءاً أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفوراً رحيماً). وكذلك كان يفعل أيوب السجستاني فقد كان يعد االلحن ذنباً.

وقرع رجل على حسن البصري الباب وقال: يا أبوسعيد فلم يجبه فقال أبي سعيد فقال الحسن قل الثالثة وأخل ومثل هذا ما حدث مع إبراهيم النخعي المكني بأبي عمران ويقول الأصمعي رأيت صبية في الوادي فقلت لها أين اباك؟ فضربت وجهها ثم قلت لها أين أبيك؟ فقالت أيها الجاهل، قل أين أبوك.

وقد ذكرت لنا الكتب قصة الأصمعي مع الطفلة التي استعذب شعرها وقال لها قاتلك الله ما افصحك؟ فقالت أيعد هذا فصاحة بعد قوله تعالى (وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه) فقد جمع في هذه الآية بين أمرين ونهيين وخبرين وبشارتين.

ولما جاء وفد من الشعراء إلى بعض الشعراء ليناضلوه الشعر خرجت فتاة صغيرة فسألوها أين أبوك يا فتاة؟ فقالت ذهب أبي إلى الفيفاء يفيء فيئاً فإذا فاء الفيء فاء ثم قالت ما الذي اتى بكم؟ قالوا جئنا نناضله الشعر فقالت "تجمعتم من كل أوب وفرقة على واحد لازلتم قرن واحد" ثم أن حفظ اللغة والتمسك بها قد دعى لحفظ علوم الآداب وما يتفرغ عنها وحفظ النحو والصرف والاشتقاق والمعاني والبيان والبديع والعروض والقوافي والشعر

والآداب والخط والإمـلاء وقد ألف في اللغة الكتب الكثيرة المختلفة الحجوم وألف محمد بن مكرم كتابه لسان العرب المحتوي على الثمانين ألف مادة.

وألفت كتب في الألفاظ المترادفة والكلمات المشتركة والكلمات المثلثة والكلمات الدخيلة على اللغة والفروق في اللغة والأضداد والنوادر والمذكر والمؤنث وما ليس في كلام العرب والأمثال العربية والأبيات التي أجريت مجرى المثل وأمثال المولدين وفقه اللغة والكنايات وفيها كتاب القاضي الجرجاني المتوفي ٤٨٢ وكتاب الكناية والتعريض للثعالبي المتوفي ٤٣٠ والألغاز في اللغة وما يحتمل الشيء وضده من التراكيب وسر العربية في مجاري الكلام والكلمة وضدها والاتباع وحفظ التوازن والإبدال والقلب وما يقرأ عكساً وتصحيح القابلة والمهمل (وقد فسر بعض العلماء القرآن كله بالكلام المهمل كما أنشأ بعض الأدباء مقامات مهملة) والمعجم ومهمل المهمل والوصف والمقامات والرسائل والأفعال التي يجوز في عينها الحركات الثلاث واللغات في اللغة والمثنيات التي جاءت خلاف قواعد التثنية إلى آخر ما هنالك من فنون اللغة وبدائعها التي ستجده متسلسلا إن شاء الله...

وإذا أردت أن تعرف الجهود التي بذلت لخدمة هذه اللغة الخالدة فاقرأ كتب طبقات العلماء والأدباء والنحاة وأن أمثال إبراهيم بن اسحاق الحربي الذي قال عنه الدارقطني: إبراهيم الحربي ثقة وكان إماماً يقاس باحمد بن حنبل في زهده وعلمه وورعه وهو إمام.. يقول عنه ثعلب ما فقدت إبراهيم الحربي من مجلس لغة أو نحو خمسين سنة كثير في بطون التاريخ.

اهمية الترجمة في الدول النامية:

يتسم العصر الذي نعيشه اليوم بأنه عصر العلم والتكنولوجيا وينقسم العالم إلى دول متحضرة نامية ودول أقل تحضراً أو أقل نمواً، ويزداد البون بين النوعين يوماً بعد يوم.

فالدول المتحضرة تتقدم بخطى سريعة نحو العلم والتكنولوجيا، وقد أصبح التأليف فيها ضرورة حضارية هامة وعنصراً أساسيا من عناصر النهضة العلمية والحضارية.

ولكي تلحق الدول المتخلفة بالركب لابد أن تسير بسرعتين:

أ - سرعة تعوض بها ما فاتها.

ب - وسرعة تواكب بها ركب الحضارة والمدنية والتطور.

والترجمة عملية حاسمة ومؤثرة للغاية في قضية العبور الحضاري والدول التي أحرزت تقدماً ادركت هذا المفهوم وعملت على الإفادة منه، فقد أدركت اليابان هذه الحقيقة مما دفعها إلى إنشاء مؤسسة خاصة بالترجمة من لغات العالم الحية إلى اللغة اليابانية، مما مكن اليابانيين من نقل فروع العلم والمعرفة إلى لغتهم التي يتقنها المواطن العادي وقد لا يجيد سواها، فكانت الترجمة لديهم بمثابة النافذة المتاحة التي يطل المواطن من خلالها على إنجازات العصر.

ففي عام ١٩٧٥ وحده قامت اليابان بترجمة ١٧٠٠٠٠ كتاب، وفي مقابل هذا نجد أن الكتب الأجنبية المترجمة إلى اللغة العربية في جميع مجالات المعرفة خلال عشرين عاماً من ١٩٤٨ - ١٩٦٨ في سائر الأقطار العربية كلها - طبقاً لاحصاء منظمة اليونسكو الدولية لم يتجاوز ٤٠٢٨ كتاباً.

والترجمة العلمية في الدول المتقدمة تستمد أهميتها من نظرتها الاقتصادية للبحث العلمي بأعتباره السلاح الأساسي في صراعها مع الفقر

والتخلف، أما الدول النامية فانها تعتمد على الإنتاج الفكري للدول المتقدمة والذي ينتقل إليها عن طريق الترجمة.

وإذا كان للترجمة هذه الأهمية في العصر الحاضر فإن أجدادنا العرب والمسلمين هم أول من اهتموا بنقل التراث الفكري للأمم الأخرى مثل الإغريق والفرس والهنود، وذلك في حركة واعية للترجمة بلغت ذروتها في عهد الدولة العباسية خاصة في عصري الرشيد والمأمون. ومن المبرزين في هذا المجال الكندي والفارابي وابن سينا والحسن بن الهيثم وغيرهم.

وفي العصر الحديث شهد العالم حركة مماثلة بدأت في مصر في عهد محمد علي، وكان من ثمارها الأعمال التي قام بها رفاعة رافع الطهطاوي وإنشاؤه مدرسة الألسن لتخريج متخصصين في الترجمة.

ولا شك أن المترجمين في هذا العهد وما سبقه لقوا صعوبات جمة في عملية النقل والترجمة بسبب المصطلحات العلمية التي لا مرداف لها في اللغة العربية.

والعالم العربي وهو يمر اليوم بصحوة يرجى منها أن يحتل المكانة اللائقة به وبتاريخه المجيد، لا يستطيع أن يهمل أثر الترجمة الفعال في أداء هذا الدور، وتمكين الوطن العربي من تحقيق أهدافه.

ولم تكن جامعة الدول العربية غافلة عن الدور الفعال للترجمة في تلاقي الأفكار ونقل الحضارة والفكر واللحاق بما يحدث في العالم وما يتفتح فيه آفاق معرفية وتقنية، فقد تضمنت المعاهدة الثقافية التي وقعتها الدول العربية المنظمة للجامعة العربية في عام ١٩٤٦ في المادة السابعة ما نصه:

– "رغبة في مسايرة الحركة الفكرية العالمية تعمل دول الجامعة العربية على تنشيط الجهود التي تبذل لترجمة عيون الكتب الأجنبية القديمة والحديثة وتنظيم تلك الجهود، كما تعمل على تنشيط الإنتاج الفكري في البلاد العربية بمختلف الوسائل كإنشاء معاهد للبحث العلمي والأدبي والفن". وفي مجال المصطلحات العلمية جاء في المادة التاسعة من هذه المعاهدة ما نصه:

- "تسعى دول الجامعة العربية إلى توحيد المصطلحات العلمية بواسطة المجامع والمؤتمرات واللجان المشتركة التي تؤلفها وبالنشرات التي تنشرها هذه الهيئات وتعمل على الوصول باللغة العربية إلى تأدية جميع أغراض التفكير والعلم الحديث وجعلها لغة الدراسة في جميع المواد في كل مراحل التعليم في البلاد العربية".

هذا وتنص المادة الرابعة من ميثاق جامعة الدول العربية على تكوين لجنة ثقافية تتألف من ممثلين للدول المشتركة في الجامعة وقد تحددت لهذه اللجنة أولى جلساتها في نهاية شهر فبراير ١٩٤٦ وأتمت خمس دورات في نهاية سنة ١٩٤٩ اتخذت خلالها مقررات كبيرة نقتبس منها ما يتعلق بالترجمة:

الدورة الثانية - المقر: دمشق من ٩/١٤ - ١٦/٩/١٩٤٦م.

القرار الثاني:

توصي الحكومات العربية بتأليف هيئات للتأليف والترجمة والنشر ووضع جوائز للمؤلفين والمترجمين والناشرين في كل قطر على حدة.

القرار الثامن:

(أ) يقترح على الجامعة أن تنشيء جوائز عامة للمؤلفين والمترجمين والناشرين في البلاد العربية كلها.

(ب) تتصل اللجنة الثقافية بالحكومات العربية والهيئات الثقافية المختلفة لتكليفها بالتأليف في موضوعات معينة أو ترجمة كتب معينة وتنسيق العمل بين هذه الهيئات وتبليغ بعضها أعمال بعضها الآخر حتى لا تختلف الوجهات أو يتكرر العمل.

القرار السابع عشر :

توحيد المصطلحات في كل عام من العلوم وفن من الفنون، وعهدت اللجنة إلى المكتب الدائم للجنة بالعمل على إتخاذ الوسائل اللازمة لتحقيق ذلك.

دور مجامع اللغة العربية: مجمع اللغة العربية المصري مثالاً:

في عام ١٩٣٢ شاءت الدولة المصرية أن تنهض بواجب الحفاظ على اللغة العربية فتنشىء هيئة قوامة على اللغة العربية تنهض بها وتسير بها إلى الأمام.

فصدر مرسوم ملكي بإنشاء مجمع لغوي يحافظ على سلامة اللغة العربية، ويجعلها وافية بمطالب العلوم والفنون وتقدمها ملائمة لحاجات الحياة في العصر الحاضر.

يتألف المجمع من أربعين عضواً من بينهم عشرة غير مصريين وأغلب هؤلاء الأعضاء من اللغويين والأدباء من كتاب وشعراء وفيهم عدد غير قليل من علماء الشريعة الإسلامية ورجال القانون والتاريخ والآثار والجغرافيا وأطباء وشيوخ في العلم الطبيعية والرياضية.

ويعاون المجمعيين، وهم يضطلعون بالعبء، أساتذة وخبراء متخصصون في اللغة والأدب والعلم والفن والتكنولوجيا، وعليهم تقع مسئولية متابعة الحركات العلمية والفنية الدائبة. وفي المجمع نحو ثمان وعشرين لجنة اختصت كل واحدة منها بميدان معين تتعمق فيه وتتعرّض لمشاكله وتحدد لغته، ومتى فرغت هذه اللجان من عملها عرضته على مجلس المجمع، ثم على مؤتمره، وما يقر من ذلك ينشر تباعاً عاماً بعد عام.

ومجمع القاهرة تربطه صلات وثيقة بالمجامع العربية في دمشق وعمان وبغداد، كما أنه يعقد صلة مع الهيئات والمجامع اللغوية والعلمية العالمية الكبرى.

ويصدر عن المجمع في القاهرة مجلة علمية بدأ صدورها عام ١٩٣٤م. ومنذ صدورها اتضحت فيها أبواب أربعة هي:

١ – باب المصطلحات العلمية وألفاظ الحضارة ومختلف شئون الحياة، ويعني هذا الباب بأن يضع تحت أبصار العلماء مصطلحات علوم الطبيعة ومصطلحات الكيمياء والأحياء والجيولوجيا والرياضيات والطب

والصيدلة، ومصطلحات القانون والاقتصاد والفنون ومنهم أيضا صحفيون وفلاسفة وعلماء في اللغات الشرقية وأساتذة في التاريخ والموسيقى والفلسفة، مما يمكنهم من تعريب الفنون والعلوم على وجه سوي دقيق، كما يقدم في هذا الباب أيضاً القواعد الخاصة بوضع هذه المصطلحات وتعريبها في بحوث مستفيضة عن لغة العلم ومخلفاتها الموروثة، وحاجاتها المتجددة في العصر من الاشتقاق والنحت والتوليد والتعريب للمصطلحات ولبعض الأعلام الأجنبية، وبذلك ترسم الخطى في دقة لنقل العلوم والفنون الغربية ومصطلحاتها إلى العربية.

٢ – باب القرارات اللغوية التي يصدرها المجمع، ويشتمل هذا الباب على القرارات التي يراد بها السعة في اللغة حتى تفي بأداء العلوم والفنون وألفاظ الحضارة وشئون الحياة.

٣ – باب البحوث والدراسات، ويتضمن هذا الباب الذي يحرره أعضاء المجمع وغيرهم دراسات وبحوثاً لجهابذة في مصر والعالم العربي، ولبعض أعلام المستشرقين، منها ما يتناول متن اللغة ومفرداتها، وصيغتها وقوالبها وحروفها وأصواتها وما يجري فيها من الترادف والتضاد والاشتراك والمجاز، ومنها ما يتناول معاجمها القديمة والحديثة بالنقد والتمحيص وما يرسم الخطة الدقيقة للمعاجم العصرية وما تفيده من المعاجم الأوربية.

٤ – باب التراجم ويشتمل على تراجم مفصلة لأعضاء المجمع منذ نشأته إلى اليوم، ونعرض فيما يلي ما يقوم به المجمع في مجالات نشاطه المختلفة:

أولاً: مجال الألفاظ والأساليب:

يولي المجمع منذ نشأته عناية خاصة بالكلمات والتعابير التي يجري بها الاستعمال الحديث، فقد فرضت النهضة الحديثة في البلاد العربية على اللغة أن تترجم المعاني والأفكار التي جاءت بها الحضارة العصرية، يضاف إلى ذلك ما فرضته وسائل الإعلام – وبخاصة الصحافة والإذاعة والتليفزيون –

من تبسيط التعبير مما استحدث ألفاظاً وتعابير وتراكيب لا تساير المعروف السائد من قواعد اللغة وأوضاعها المتعارف عليها من حيث الصيغة أو من حيث الدلالة. هذا وواضح أن انتشار وسائل الإعلام وتأثيرها على النشء التأثير الذي يوازي – وقد يفوق – تأثير المدرسة جعل هذا الأمر يمثل خطورة لابد من مواجهتها.

ولا شك أن اللغة المعاصرة وهي مرآة حركة الفكر قد استحدثت من حركة الحياة السائرة توسعاً في تركيب الجمل وصيغة الألفاظ وشحنتها بدلالات حديثة. وهناك عامل آخر له شأنه في تطوير الألفاظ والتراكيب ذلك هو الاتصال باللغات الأجنبية والنقل عنها باللغة العربية فكانت محصلة ذلك أن جرى على أقلام الكتاب والأدباء والصحفيين ورجال الإعلام تراكمات من الألفاظ والعبارات تعد دخيلة أو جديدة على اللغة الفصحى.

وإزاء هذا الطوفان الهادر من الألفاظ المستحدثة والتراكيب والأساليب الوافدة من اللغات الأجنبية كان لمجمع اللغة العربية جهد موصول في هذا السبيل، ومن لجانه لجنة خاصة للألفاظ والأساليب تعني بتحليل اللفظ أو الأسلوب وتتبع نشوئه ودلالته، وتعرضه على ضوابط اللغة وأوضاعها وتجيز ما تطمئن إليه أذواق الذين مارسوا التعبير بالفصحى، تقديراً من المجمع لضرورة التطور اللغوي لمسايرة تطور الحياة والفكر.

ولم يضق المجمع باحتضان العربية للأساليب والتراكيب التي جرت على ألسنة الإذاعيين والكتاب وأقر ما درج عليه هؤلاء في استعمالها.

ويذكر في هذا المجال دور المجتمع في العناية باللغة المعاصرة التي تعبر عن حياة الأمة الثقافية والاجتماعية فقد تابع تطورها، وتقبل في مرونة ويسر بالغين أوضاع العربية وتمثل هذا في قبوله مستحدث الدلالات والتراكيب في الألفاظ والأساليب.

ثانياً: اللغة العلمية :

هناك صيحة قديمة – ولاتزال – تنادي بتعريب لغة العلم والتعليم

الجامعي في الوطن العربي. وتستند هذه الحركة على حقيقة أو مسلمة من المسلمات، وهي أن كفاءة الطالب في استيعاب ما يلقيه عليه الأستاذ تصل إلى حدها الأقصى إذا ما خوطب بلغة الأم، وكذلك الأستاذ تصل كفاءته في التعليم غايتها إذا ما خاطب طلبته بلغة الأم.

وقد قوبلت هذه الصيحة باتجاه مضاد، يتذرع أصحابه بالمصطلحات العلمية، ويرون أنها تشكل عقبة في سبيل تحقيق هدف التعريب. ولكن المجامع في البلاد العربية ومجمع اللغة العربية بالقاهرة قد تخطت هذه العقبة حيث أقيم تعاون وثيق بين اللغويين والعلميين من أعضائه وخبرائه.

واليوم تجد بين أيدي الأساتذة الجامعيين والمؤلفين وواضعي البرامج ومخططي المناهج معاجم علمية متخصصة يفيدون منها أعظم فائدة.

ولا شك أن للغة العربية فضلاً يذكر في تطور الحضارة ونشأتها، فالتراث العلمي حافل بما قدمته الأجيال العربية المتعاقبة من مؤلفات ورسائل وضعت أساس العلم ولبناته الأولى، فالعلم يذكر أعمال ابن سينا والبيروني وابن الهيثم والخوارزمي وغيرهم.

والمتتبع للحركة العلمية وتطورها يلاحظ نشاطاً كبيراً في حركة التأليف العلمي في العلوم التطبيقية باللغة العربية، ونستطيع أن نقول: إن مقومات تعريب التعليم العالي والجامعي متوفرة ولا تحتاج إلا إلى التنسيق والتنظيم ويمكن تلخيص الاحتياجات لاستكمال الوصول إلى الهدف الكبير لتعريب التعليم الجامعي في ثلاث نقاط هي:

١ – الحاجة إلى تشريع ينص على كون اللغة العربية هي لغة التعليم.

٢ – الحاجة إلى الأستاذ الجامعي العربي القادر على أن يخاطب طلبته بلغة الأم.

٣ – الحاجة إلى وجود المصطلحات العلمية العربية المقننة.

وقد قطعت البلاد العربية شوطاً ليس بالهين نحو توفير هذه الحاجات وصولا إلى الهدف المنشود وتحقيق الأمل المرجو وهو أن تصبح اللغة العربية

هي لغة العلم والتعليم.

وليست هذه الدعوة دعوة إلى إهمال اللغات الأجنبية أو الإنقاص من شأنها أو التقليل من خطرها بل إن الاهتمام باللغات الأجنبية يجب أم يساير التعريب ولا يتخلف عنه.

ثالثاً: المصطلح العلمي :

تجرى المصطلحات العلمية العصرية على منهاج علمي منسق يحرص على أن تنعقد بين كل مصطلح ونظيره ملامح تؤدي إلى استحضار المصطلح في الذهن إذا ما ذكر مقابله وييسير المصطلح وفق قواعد ينتجها من يصوغ المصطلحات العلمية أهمها:

١ – ترجمة المصطلح المفرد بمفرد مثله فإن ذلك يساعد في التصريفات والاشتقاقات.

٢ – ترجمة المصطلح الأجنبي الواحد في مختلف العلوم بترجمة عربية واحدة.

٣ – تجنب الاغراب في غير ضرورة مثل ساندويتش بشاطر ومشطور وبينهما طازج.

٤ – التوسع في الاشتقاق بما لا يضر بكيان اللغة.

٥ – قصر التعريب على مقتضيات الضرورة.

ومجمع اللغة العربية يولي موضوع المصطلحات جهداً غير يسير ويجند له الخبراء في مختلف التخصصات حتى أصبحت حصيلته من هذه المصطلحات تعد بعشرات الألوف زخرت بها المعاجم العربية العديدة في الوطن العربي.

مراحل تطور الترجمة من العربية وإليها :

وقضية الترجمة في الوطن العربي من اللغة العربية وإليها تثير في الأذهان حقائق تاريخية نوجزها فيما يلي:

١ – لعبت الترجمة من اللغات الأجنبية إلى اللغة العربية دوراً رئيسياً في فجر

الثقافة العربية الإسلامية، فقد جاء الإسلام الحنيف يحض على العلم ويرفع من شأن العلماء ويدعو الإنسان إلى التفكير والتدبر، وقد جاء أول نداء من السماء إلى الأرض على قلب رسول الله صلى الله عليه وسلم في كلمة "اقرأ" وتتوالى الآيات القلم والعلم. وعندما بعث محمد صلى الله عليه وسلم برسالته المبلغة عن ربه إلى الناس كافة كانت الدول الأخرى مثل اليونان والرومان والفرس قد بلغت شأنا في العلم وجمعت من أطراف العلوم والفنون ما لم يكن معروفاً عند العرب في هذا الوقت.

فانكب المسلمون على ألوان المعرفة المختلفة المعروفة في زمانهم، يقرأونها ويدرسونها ويترجمونها إلى اللغة العربية – لغة القرآن الكريم – تمكيناً للإنسان العربي أن يتعلم بلغته وتيسيراً للاذعان لنداء ربه، وقد نتج عن هذا أن اللغة العربية أثرت بما أضيف إليها من ألفاظ ومصطلحات وعبارات لم تكن مستعملة من قبل، أو لم تكن معروفة على وجه الإطلاق لدى العرب.؟

٢ – بعد أن اجتازت اللغة العربية هذه المرحلة الأولى، مرحلة النقل من اللغات الأجنبية إلى اللغة العربية، وترجمة ما وصل إليه العلم، وما انتجته القرائح البشرية في هذا الزمان، لم تقف عند الحد هذا بل تعدته إلى الترجمة من العربية إلى اللغات الأجنبية عامة واللغة اللاتينية بصفة خاصة والتي كانت تمثل لغة العلم والثقافة في أوروبا آنذاك، فقد استطاع الأوربيون عن طريق الكتابات العربية أن ينقلوا إلى اللاتينية العلوم العربية من ناحية، وعلوم الأقدمين وبخاصة الأغريق من ناحية أخرى إذ أن الترجمات العربية كانت بمثابة الخزانة الحافظة لتلك العلوم، وقد ظل الاعتماد الأساسي على اللغة العربية في هذا المجال قائماً في أوروبا إلى وقت غير بعيد بعد أن فقد كثير من الكتابات اليونانية التي كتبت بها تلك العلوم أصلاً.

٣ – تكررت هذه التجربة التي تمت في صدر الإسلام مرة أخرى في القرنين الأخيرين، ولكننا نلحظ الفارق الكبير بين المناخ الحضاري والنفسي الذي

تمت فيه كل منهما، فبينما كانت التجربة الأولى تتم في عصر العباسيين حيث كان العرب من الناحيتين العسكرية والسيكولوجية في مقام المتفوقين إذا هم قورنوا بالشعوب التي نقلوا عنها ولكنها في الآونة الأخيرة تتم في جو مخالف تماماً، فقد تغير الأمر وتبدلت الأحوال إذ خطا الغرب نحو المدنية والحضارة خطوات واسعة تمثلت في نهضة علمية وتكنولوجية في الغرب جعلت الفرق بينهم وبين العرب كبيراً، وكانت نتيجة ذلك أن حركة الترجمة لم تنتقل إلى حركة التأليف المبدع باللغة العربية بالسرعة التي كانت متوقعة والتي تتسق مع ماضي الأمة العربية في باكورة وجودها وبصفة خاصة في الميادين التي حقق فيها الغرب سبقاً بعيداً ووثبوا وثبات واسعة، بينما العرب لم يستطيعوا لهم لحاقاً، ففي مجال العلوم الأساسية والعلوم التطبيقية من هندسة وتكنولوجيا وطب وصيدلة. الخ لم يستطع العرب اللحاق بركب الحضارة في هذا المضمار لا ترجمة ولا تأليفاً. وقد ترتب على ذلك أن أصبحت لغة التدريس في الجامعة لغة أجنبية، بل إنه في بعض البلدان يكون التدريس في مرحلة ما قبل الجامعة بلغة أجنبية أيضا.

واليوم تضيق المسافات بين أجزاء العالم نتيجة لتقدم وسائل الاتصال والمواصلات، مما ترتب عليه تواصل بين شعوب العالم لم يشهد التاريخ مثله في تاريخ البشرية، فالارتباط بين أجزاء العالم فكرياً وثقافياً وحسيا قائم ووثيق وشامل، يشعر به المواطن المعاصر في حركته مع الحياة وتعامله مع أقرانه. فالكهرباء والراديو والترانزستور والتلفزيون والأقمار الصناعية تلاحق العامل في مصنعه، والفلاح في حقله والطالب في مدرسته، والمدير في مكتبه. كل هذه الوسائل مكنت الأفراد والجامعات من متابعة ما يحدث في أي مكان في العالم، فأمهات الكتب والأفلام والمسرحيات والترجمات المختلفة والمباريات المتنوعة والمخترعات الحديثة يمكن أن يسمعها أو يشاهدها أو يلم بها المواطن الذي يعيش في ركن من أركان الكرة الأرضية في نفس الوقت الذي يشهدها فيه زميله الذي يعيش في الركن الآخر الأكثر سبقا والأكثر تقدماً والأكثر

حضارة.

كل ذلك جعل قضية الترجمة – من العربية وإليها في العصر الذي نعيش فيه قضية حيوية لا تستطيع أي دولة أو مؤسسة أو منظمة تعنى بثقافة الإنسان وحضارته أن تدير ظهرها لأهميتها وحيويتها التي فاقت اليوم كل ما كان لها من أهمية من قبل.

أثر حركات الترجمة في العالم الإسلامي:

شهد العالم الإسلامي منذ بدء الإسلام حتى منتصف القرن العشرين حركتين للترجمة: الأولى في عهد الدولة العباسية وخاصة في عصري الرشيد والمأمون، وبدأت الثانية في عصر محمد علي، وقد عانى المترجمون في العهدين كثيرا من صعوبات الترجمة وخاصة عند نقل المصطلحات العلمية التي لا مرادف لها في اللغة العربية، لو يمكننا أن نبرز بعض النقاط التي أحدثت تأثيراً وتأثراً بالنسبة للترجمة، ونوجزها فيما يلي:

أولاً: أغراض الترجمة :

كان الهدف الذي رمت إليه حركة الترجمة يتلخص فيما يلي :

(أ) نقل ما لدى الغرب والغربيين من علم جديد. ومن نظم وقوانين جديدة في الجيش والأسطول والمدارس والمستشفيات والإدارة الحكومية.

(ب) نقل العلوم الحديثة المختلفة إلى اللغتين العربية والتركية ليسهل على الطلاب والمدرسين استعمالها ودرسها وتدريسها في المدارس الحديثة.

(ج) ترجمة عدد غير قليل من الكتب تم ذلك تحقيقا لرغبة محمد علي باشا أو لرغبة ابنه إبراهيم باشا والغالب على هذه الكتب أنها تبحث في فن الحكم ونظمه، وسياسته أو في سير وتراجم العظماء والمصلحين، أو فى التعريف بالدول الأوربية.

(د) تعليم أولاد محمد على وأحفاده، إذ اقتصرت الإفادة ببعض الكتب المترجمة عليهم ولم يقصد بها نشر الثقافة العامة بين الشعب وهو الهدف

الأسمى أو المثل الأعلى لحركة الترجمة.

(هـ) استهدفت مدرسة الألسن تحقيق المثل الأعلى وسيأتي تفصيل ذلك.

ثانياً: اللغات التي ترجم منها :

لم تقتصر الترجمة في عهد محمد علي علي الترجمة عن اللغات الأوربية بل شملت الترجمة عن كل اللغات الأوربية والشرقية الحية وإليها، فترجمت كتب عن الفرنسية أو الإيطالية أو عن ترجمات فرنسية عن الإيطالية والإنجليزية أو عن ترجمات إيطالية عن الفرنسية، إلى اللغتين العربية والتركية. كما ترجمت كتب من العربية إلي التركية أو من التركية إلى العربية، وترجمت كتب من الفارسية إلى التركية، وقام بالترجمة عن العربية إلى اللغات الأوربية جماعة من المستشرقين الذين عاشوا في مصر.

ثالثاً: طريقة الترجمة :

في العصر العباسي كان للمترجمين في النقل طريقتان: أولهما: أن ينظر المترجم إلى الكلمة المفردة من الكلمات الأجنبية وما تدل عليه من المعنى فيثبتها وينتقل إلى الأخرى كذلك حتى يأتي على جملة ما يريد ترجمته.

والطريقة الثانية أن يأتي المترجم بالجملة فيحصل معناها في ذهنه ويعبر عنها بجملة من اللغة الأخرى تطابقها.

أما الترجمة في عصر محمد علي فكانت تقوم بها هيئات متعددة كما كانت تحاط بالضمانات الكافية لتخرج سليمة دقيقة بقدر الإمكان، فقد بدأ الترجمة جماعة من السوريين تركوا وشأنهم أول الأمر فخرجت الترجمات ينقصها الوضوح، ثم بدأت الحكومة تغير من أسلوبها فأشركت مع مجموعة المترجمين جماعة من شيوخ الأزهر ضمانا لتخير الألفاظ والمصطلحات العلمية العربية، أو الاشتقاق ونحت الألفاظ للمصطلحات الجديدة، ثم تصحيح الأسلوب وصياغته صياغة عربية صحيحة. ولما خرجت المدارس والبعثات خريجيها من المصريين وبدأ هؤلاء الخريجون يشتركون في حركة الترجمة

استمر هذا التقليد في الترجمة ولكن القائمين على حركة الترجمة في ذلك العصر لم يكتفوا بهذا التقليد، بل كانوا يعهدون ببعض الكتب بعد ترجمتها وتصحيحها إلى لجنة أخرى من مترجم ومصحح آخرين لمراجعتها على الأصل وكانت بعض الكتب تراجعها لجنتان أو ثلاث، الواحدة بعد الأخرى. والملاحظ أن المبدأ العام لم يتجه في هذه الحركة إلى التخصص في الترجمة فبينما نرى طبيباً يترجم في الجغرافيا، نرى مبعوثاً للتخصص في صناعة الحرير يترجم كتابا في التاريخ، وفي الوقت ذاته نرى رفاعة رافع الطهطاوي يترجم في كل علم وفن، وقد أخذ تلاميذه في مدرسة الألسن بنفس الطريقة فكان المترجم ينتهي من ترجمة كتاب في التاريخ أو الجغرافيا فيعهد إليه بترجمة كتاب آخر في الكيمياء أو النبات، أو الهندسة، أو الفلك.

وفي أواخر العهد اتجهت حركة الترجمة نحو التخصص فالذين عينوا في مدرسة الطب من خريجي البعثات تخصصوا في ترجمة العلوم الطبية دون غيرها والذين عينوا في مدرسة المهندسخانة تخصصوا في ترجمة العلوم الرياضية.

تاثير الترجمة في اللغة العربية:

نهضت الترجمة باللغة العربية فقد شملت فنونا وعلوما كثيرة مختلفة وزودت المكتبة العربية بعشرات الكتب الجديدة، ونقلت إليها ألوف المصطلحات والألفاظ التي لم تكن معروفة في اللغة العربية من قبل. وبالإضافة إلى ذلك فإن حركة الترجمة تبعتها عناية كبيرة بالقواميس في مختلف اللغات الشرقية والغربية فترجمت إلى اللغة العربية قواميس إيطالية وفرنسية وفارسية وتركية. ومما جعل تاثير الترجمة في اللغة العربية فعالا ومؤثرا وجود المطبعة، فطبع آلاف النسخ من هذه الكتب والقواميس ساعد على انتشارها وتداولها بين أكبر عدد ممكن من القراء، وبهذا حظيت اللغة العربية بنهضة زاهرة فاتجه الاهتمام إلى المعنى دون اللفظ، والجوهر دون العرض وتخلص الأسلوب من قيوده البديعية القديمة.

تأثير الترجمة في المجتمع المصري والعربي :

لقد كان غرض الترجمة في هذا العصر تزويد المدارس والمدرسين والتلاميذ بالكتب في مختلف العلوم والفنون الجديدة التي يراد نقلها عن أوروبا ولهذا ترجمت الكتب الكثيرة في الطب والهندسة والكيمياء والطبيعة والرياضيات والجغرافيا والتاريخ والعلوم والفنون الحربية، وقد كان تقليد العصر أن يطبع من كل كتاب ألف نسخة كان العدد الأكبر منها يوزع على تلاميذ المدارس، فالترجمة في معظمها كانت تتجه اتجاها علميا وكانت دائرتها محدودة بجدران المدارس، والذين تخرجوا من هذه المدارس الحديثة لم يلبثوا أن احتلوا مقام الزعامة الفكرية في مصر.

وبالرغم من تأثر هؤلاء "الأفندية" كما كان يطلق عليهم في هذا العصر – من خريجي المدارس بحركة الترجمة إلا أنهم لم يردوا الجميل ويؤلفوا للشعب ليرفعوا من مستواه الفكري والثقافي، ولذا كان تأثيرهم في المجتمع ضئيلا والمؤسسة التي كان يؤمل أن تقوم بهذا الدور هي مدرسة الألسن، فقد كانت كتبها التي ترجمت في العلوم الاجتماعية المختلفة من تاريخ ورحلات وجغرافيا وأدب أقرب إلى ذهن القارىء العادي وفهمه، وكان من الممكن أن تؤثر هذه المدرسة وخريجوها التأثير الطيب المرتجى، في ثقافة الشعب المصري لو امتد بها العمر، ولكنها الغيت بعد موت محمد علي وتشتت خريجوها موظفين في المصالح والدواوين المختلفة وكانت نكسة شلت عصري عباس وسعيد.

ولما استؤنفت النهضة في عهد إسماعيل كان عدتها هم خريجو مدرسة الألسن. فانطلقوا يترجمون من جديد، ويستأنفون رسالتهم بل أضافوا إلى الترجمة أنهم ألفوا كذلك في شتى العلوم والفنون، وفي هذه الصحوة كذلك وضع رفاعة الطهطاوي كل مؤلفاته في التاريخ والأدب والقانون والصحافة وعن طريقها استطاع أن ينفذ إلى نفوس الشعب وعقوله فيقدم لهم ثقافة عامة، تخلق فيهم روحا قوية وثابة، ويعتبر ذلك من أقوى آثار الترجمة في عصر محمد علي.

الوضع الراهن لحركة الترجمة في الوطن العربي :

الدول العربية اليوم لديها قناعة بأن الترجمة عامل ديناميكي حساس يمكن أن يقاس بمستوى نهوضه وتطوره تقدم الأمة ومقدار ما تحصله من حضارة معاصرة، كما أن الدول والمؤسسات والمنظمات تؤمن بأن:

- الترجمة لم تعد عملاً فردياً أو مبادرة ذاتية تتبع من تقديرات ودوافع شخصية، بل أصبحت من "المؤسسات والآليات" الأساسية في عالمنا المعاصر.
- الترجمة أصبحت ممارسة يومية في المجتمع الحديث بحكم الضرورات العلمية والاقتصادية والسياسية والحضارية.
- الترجمة أصبحت نشاطاً متخصصاً.
- تجاوز الحواجز اللغوية - بين الشعوب - بالترجمة مازال هو المنهج الأمثل في توسيع الأفق الثقافي والفني والعلمي لكل أمة.

لقد فرضت على الأمة العربية في حقبة من التاريخ عزلة فكرية، وعليها لكي تتخطاها أن تبذل جهودا منتظمة ومتزايدة في نقل أبرز جوانب النتاج الفكري في غير اللغة العربية إلى لغتها حتى تتوافر لها صلة وثيقة بالمنجزات الثقافية والعلمية في العصر الحديث.

من هذا المنطلق تهتم الجامعة العربية وأجهزتها بحركة الترجمة في الوطن العربي، فقد دعت الجامعة في عديد من مؤتمراتها الثقافية والعلمية إلى مناقشة بعض جوانب هذا الموضوع، كما قامت ضمن برامجها الثقافية ببذل بعض الجهود في ترجمة أعمال أدبية وتاريخية وعلمية إلى اللغة العربية.

وفي عام ١٩٧٣ نظمت المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم حلقة لبحث قضية الترجمة في الوطن العربي عقدت في الكويت في الفترة من ٢٤ - ٣١ ديسمبر ١٩٧٣، وقد أتيحت لأول مرة في اجتماع هذه الحلقة فرصة دراسة موضوع الترجمة في الوطن العربي والتعرف على معامله الأساسية ومناقشة النشاط الفكري العربي المعاصر، واقتراح الحلول الموضوعية لمشكلاته، ومن

المفيد بل من الضروري أن تتكرر مثل هذه اللقاءات والندوات للتعرف على الأوضاع الراهنة لحركة الترجمة، والتخطيط لما ينبغي أن تكون عليه، ووضع الحلول والمقترحات للانتقال مما هو كائن إلى ما ينبغي أن يكون، وسنعرض فيما يلي الوضع الراهن لحركة الترجمة في جمهورية مصر العربية.

حادث فارق بين النصف الأول من القرن العشرين والنصف الثاني منه، جعل حركة الترجمة تتميز في كل منها بميزات واضحة، ذلك هو حادث الثورة المصرية في الثالث والعشرين من يوليو ١٩٥٢، فقد كانت ثورة سياسية واجتماعية وثقافية، أحدثت انقلابا ثقافيا كان له أثر فعال في الترجمة، وقد حدثت هذه الثورة في فترة شهد فيها العالم كثيراً من عوامل التطور العلمي والتكنولوجي في العالم المتقدم، وكان طبيعيا أن تتأثر بها. والسؤال الذي نود أن نطرحه هو: كيف كان حال الترجمة في مصر قبل الثورة وبعدها؟

لقد كانت الترجمة في مصر قبل الثورة يقوم بها فئة من الكتاب يؤلفون طبقة مستنيرة تحتكر الكتابة بحكم وضعها وما توفر لها من إمكانات فكون الكتاب فيما بينهم جمعيات أو لجاناً أو نوادي لها أهداف معينة لزيادة الإنتاج في الترجمة ومن أبرزها "لجنة التأليف والترجمة والنشر" و"لجنة ترجمة دائرة المعارف الإسلامية" وفي هذه الفترة كذلك ظهرت بعض دور النشر التي خططت لترجمة المأثور من المؤلفات الإنجليزية والفرنسية.

هذا، بالإضافة إلى دور مهم قامت به وزارة المعارف العمومية في هذا الوقت لترجمة الكتب المدرسية في العلوم مثل: الفيزياء والكيمياء والرياضة والنبات والحيوان إلى اللغة العربية، وسرعان ما تحولت هذه الكتب إلى كتب أصيلة استقام أسلوبها اللغوي واستساغها المعلمون والطلاب، أما فيما يتصل بالأدب فقد كان واضحا فيه كل الوضوح المجهود الفردي الذي أثمر فيضاً من الروايات الرومانتيكية والكلاسيكية بالاضافة إلى عدد من المسرحيات والقصص القصيرة، وقد شاع في هذه الفترة ترجمة الروايات ذات الطابع الخيالي في كتب زهيدة الثمن سهلة التناول سرعان ما تنتشر بين الشباب في المدارس والجامعات، وكان لدور الصحف – كجريدة الأهرام – دور بارز في

هذه الفترة، فقد درجت على نشر روايات مجزأة في صفحتها الأخيرة لقيت رواجا وحظيت من القراء عامة والشباب منهم خاصة بإقبال شديد.

ولا يفوتنا ونحن بصدد هذا العرض السريع أن نؤكد على الدور الذي قام به مترجمو النصف الأول من القرن العشرين في مجال السياسة والإدارة، والنقد والإصلاح الاجتماعي، كأثر من آثار الاحتلال البريطاني، فقد تصدى للترجمة صفوة من الكتاب جمعوا بين الثقافتين العربية والأوربية وكانت لهم القيادة الفكرية في المجتمع، وكان هذا يمثل الجانب الجاد الذي يهدف إلى نشر الثقافة عن طريق التأليف والترجمة والنشر.

أما النصف الثاني من هذا القرن وبعد قيام الثورة السياسية التي ما لبثت أن تشعبت آثارها في كل نواحي الحياة، فقد أصبحت الترجمة نابعة من مراكز ثقافية تقوم عليها وزارة الثقافة. وبذلت الدولة جهودا ضخمة لتشجيع المؤلفين والمترجمين على الإنتاج المخطط، وبذلك انتقل أمر الترجمة من أيدي الأفراد إلى أيدي المنظمات.

أما المؤسسات الثقافية التي قامت بهذا الدور فهي:

١ - وزارة التربية والتعليم.

٢ - وزارة التعليم العالي (فروع الألف كتاب).

٣ - جامعة الدول العربية.

٤ - الجامعة المصرية.

٥ - مؤسسات القطاع الخاص، مثل: مؤسسة فرانكلين - دار المعارف - مكتبة الأنجلو - مكتبة النهضة.

ولكل من هذه المؤسسات الخمس إنتاج له إيجابياته وسلبياته اتسع نشاطه أو ضاق، وليس هذا مجال تقييم إنتاج كل مؤسسة من المؤسسات الخمس، كما أنه من الضروري أن نذكر في هذا الصدد الدور الفعال الذي قامت به الهيئة المصرية العامة للكتاب، وهي مؤسسة ضخمة تتبع وزارة

الثقافة أنشئت عام ١٩٥٦، وهدفها الأساسي يتلخص في الآتي:

١ – إحياء التراث القديم.

٢ – النهوض بالإنتاج الحالي من التأليف.

٣ – نقل الآثار الغربية إلى اللسان العربي.

ولهذه الهيئة إنتاج غزير في كافة نواحي المعرفة، فقد ترجمت أمهات الكتب في مجالات الأدب الإنجليزي والأمريكي والفرنسي، كذلك ترجمت في العلوم الاجتماعية وعلوم السياسة والاقتصاد والعلوم البحتة والتطبيقية.

والنظرة المدققة إلى أوضاع الترجمة في الفترة تؤكد أن هناك اتجاها فكريا سائدا وهو الميل إلى ترجمة كتب السياسة والاقتصاد، وذلك نتيجة الرغبة الشديدة في التعرف على المذاهب الاقتصادية التي تسود أوروبا الحديثة، وأمريكا المعاصرة، فضلا عن مفهوم الاشتراكية وقضايا التأميم والرأسمالية والقطاع العام ودوره في التنمية والقطاع الخاص وعلاقته بالقطاع العام وشكل الدولة وسياستها الخارجية، كل هذه المسائل كانت في حاجة إلى مزيد من الدراسة، وبفضل الترجمة برزت في المجتمع أسماء جديدة وشعارات جديدة، وتجارب كان لها أثرها الواضح على تركيب المجتمع وقضايا الشعب.

ولم تقتصر هذه الآثار وهذه الوفرة من الإنتاج على مصر وحدها، بل تجاوزتها إلى كل الدول العربية وذلك بحكم الوضع الجغرافي لمصر في قلب الأمة العربية والكثافة السكانية التي تتمتع بها وانتشار المدرس المصري في البلاد العربية الشقيقة، وانتقال الإنتاج الثقافي عن طريق الراديو والصحيفة والمجلة والكتاب، ولذا فقد تأثرت كل الدول العربية بهذه النهضة في الترجمة التي حدثت في مصر وانتقلت عن طريق وسائل الإعلام والمدرس المصري إلى كافة أنحاء الوطن العربي. وقد توجت حركة الترجمة في البلاد العربية بأن أصبحت اللغة العربية إحدى لغات منظمة اليونسكو العالمية، وكان لهذا أثره الكبير في ارتفاع شأن المترجمين.

دور المؤسسات:

يهمنا في هذا الصدد أن نسجل دورا بارزا قامت به مؤسسة الأهرام بالقاهرة وهي من أكبر وأقدم دور الصحف في العالم - إذ يتجاوز عمرها مائة وسبعة أعوام، فقد أقامت مؤسسة الأهرام مركزا متخصصا للترجمة العلمية وكان الهدف من إنشاء هذا المركز كما جاء في وثيقة تأسيسه ما يلي:

- توفير حاجات مختلف الهيئات والمنظمات الإنتاجية والاقتصادية والثقافية والعلمية والإدارية .. اللخ من الترجمات الدقيقة والسلسة الموثوق بها والمسئولة لمنجزات الفكر الإنساني في مختلف ميادين العلوم والفنون والممارسة بالإضافة إلي الأنشطة التي تماثل ما تقوم به مراكز الترجمة المتخصصة في أوروبا وأمريكا وتنقسم أعمال المركز إلى ثلاثة مجالات:

أولاً: الأعمال الأساسية:

وتتضمن تلبية الاحتياجات من أعمال الترجمة في جميع التخصصات ومنها المراجع العلمية والكتب الدراسية والترجمات الأدبية وترجمة البحوث والدراسات والمشاركة في برامج النشر القومية.

ثانياً: الخبرات المتميزة :

يتوفر للمركز خبرات متميزة في مجالات نوعية للترجمة منها ترجمة القواميس، الترجمات الصناعية، ترجمة وثائق الأمم المتحدة، ترجمة المعاجم.

ثالثاً: الخدمات المتكاملة:

يقدم المركز دائرة واسعة من الخدمات منها:

- الاستشارات التي تقدم لدور النشر العالمية في معرفة الفرص التسويقية لكتابتها بعد ترجمتها.
- أداء العمل على نحو عاجل،
- الإشراف على عمليات الإنتاج،
- إسهام الأهرام في التوزيع.

الترجمة في الوطن العربي من عام ١٩٥٠ حتى الآن:

وإذا امتد بصرنا إلى الوطن العربي من المحيط إلى الخليج، فأننا لا نجد لدينا من الوثائق التي تلقى ضوءاً على أوضاع الترجمة في الوطن العربي سوى وثائق حلقة الترجمة التي عقدت في الكويت في الفترة من ٢٤ – ٣١ ديسمبر ١٩٧٣م والتي تضع أمامنا عددا من الحقائق تنير لنا الطريق. أن تصفح القوائم التي تقدمت بها وفود الدول العربية العربية إلى حلقة الترجمة في الوطن العربي – وتضمن قوائم الكتب المترجمة خلال الفترة من ١٩٥٠ – ١٩٧٢ أي خلال اثنين وعشرين عاما – يدلنا على ما يلي:

١ – أن عدد الكتب الأجنبية المترجمة إلى اللغة العربية يفوق أضعاف عدد الكتب المترجمة عن العربية إلى اللغات الأجنبية.

٢ – كثير مما نقل خاصة في عالم القصص والروايات كان من النوع الرخيص فكريا الذي يعتبر ضرره – وخاصة للشباب العربي – أكثر من نفعه.

٣ – أن بعض الترجمات التي تصل إلى القارىء العربي هي دون المستوى المنشود من حيث أمانة النقل، والأسلوب اللغوي المستعمل.

٤ – يلحظ المدقق في بعض الترجمات خلافا كبيرا في ترجمة المصطلحات العلمية الفنية، فالكتب المدرسية العلمية التي تستعمل في مدارس العالم العربي تؤكد أن هناك اختلافا واضحا في ترجمة المصطلحات في الرياضيات والفيزياء والكيمياء وعلوم الحياة والجيولوجيا، وإذا أردنا مثالا لذلك نجده في كتب الرياضيات الحديثة التي تعتبر ترجمة للمشروع الريادي لتطوير الرياضيات الذي قامت به منظمة اليونسكو فقد ترجم الكتاب في خمس دول عربية خمس ترجمات ويجد القارىء فيها اختلافات كثيرة في ترجمة المصطلح الواحد.

دور رابطة الجامعات الإسلامية :

وإذا اتفقنا على أن الوضع اللغوي في البلاد الإسلامية له انعكاسات

على الوضع الثقافي بصورة عامة على وحدة الفكر والمشاعر لدى أبناء الشعوب الإسلامية، وإذا لاحظنا أن كثيرا من الأقطار الإسلامية الأقل نموا لا تتوفر على الإمكانات البشرية والتقنية والمادية لإجراء المسح اللغوي والقيام بالدراسات اللسانية، وتوفير المعدات والأجهزة لطباعة اللغات، آن لنا أن نتساءل في ما إذا كان للمنظمات أو الجماعات الإسلامية دور تؤديه أو خدمة تسديها في هذا المجال.

إن على المنظمات والجامعات الإسلامية واجب تقديم خبرتها ومشورتها في ميدان تخطيط السياسة اللغوية وتنمية اللغات الإسلامية، أوعية الثقافة والعلم، وقنوات الاتصال والتفاهم من أجل تنمية اللغات الإسلامية، أوعية الثقافة والعلم، وقنوات الاتصال والتفاهم من أجل تلبية حاجات البلاد الإسلامية، وتحقيق القلوب والروابط بين الشعوب الإسلامية عن طريق التربية والعلم والثقافة. ولبلوغ هذه الأهداف على الجبهة اللغوية ولتقويم الوضع اللغوي في البلاد الإسلامية لابد من اتباع وسائل أساسية هي:

١ – تنمية استعمال اللغات الإسلامية الوطنية وإحلالها محل اللغات الأجنبية في الإدارة والتعليم والتجارة.

٢ – تعليم اللغات الإسلامية في مدارس الدول الإسلامية وجامعاتها، بحيث لا تفرض على الطالب في المدرسة الثانوية لغة أوربية أو لغتان أوربيتان فقط وإنما يعطى الفرصة لاختيار لغة إسلامية واحدة على الأقل.

٣ – فتح أقسام الدراسات الإسلامية في جميع الجامعات الإسلامية على أن تغير هذه الأقسام برامجها ومناهجها تغييرا جذرياً بحيث لا تقتصر كما هو الحال فى الوقت الحاضر على الدروس اللغوية والدينية فقط، وإنما تضيف إلى ذلك دروساً في جغرافيا الأقطار الإسلامية وتاريخها وهيكلتها السياسية والاقتصادية والاجتماعية واللغات المستعملة فيها، على أن توزع الأقطار الإسلامية جغرافياً أو لغوياً أو سياسياً إلى مجالات تخصص داخل أقسام الدراسات الإسلامية، فيكون المتخرج من

هذه الأقسام متخصصاً في الدراسات الإسلامية بوجه عام وبمنطقة من مناطق العالم الإسلامي بوجه خاص.

٤ - تشجيع تعلم لغة إسلامية عالمية في الأقطار الإسلامية تكون لغة تفاهم مشتركة بين هذه الأقطار، ووسيلة اتصال بينها وبين العالم الخارجي. ولا حاجة إلى القول بأن اللغة التي توفرت لها مقومات تأدية هذه الرسالة هي لغة القرآن الكريم التي يصلي بها المسلمون، ويؤدون بها شعائر دينهم، والتي غدت بفضل الرسالة الإسلامية التي تحملها لغة عمل في المنظمات الدولية والمحافل العلمية.

وبلوغ تلك الأهداف، وتوفير هذه الوسائل يتطلبان من المنظمات والجامعات الإسلامي عامة ورابطة الجامعات الإسلامية خاصة القيام بالأبحاث والمشروعات التالية:

١ - إجراء مسح لغوي ودراسة الأوضاع اللغوية في الأقطار الإسلامية، بخطة عمل لتنمية اللغات الإسلامية.

٢ - إجراء دراسة حول تعليم اللغات الأجبية في مدارس الأقطار الإسلامية، ووضع تصور عن كيفية تعليم اللغات الإسلامية في مدارس البلاد الإسلامية.

٣ - إجراء دراسة ترمي لوضع تصور لهيكلة أقسام الدراسات الإسلامية وتغيير مناهجها لتضمين دراسات الأقطار الإسلامية اقتصاديا واجتماعيا وسياسيا.

٤ - دعم البحوث اللسانية في العالم الإسلامي وخاصة ما يتصل منها بالدراسات المقارنة والتقابلية بين اللغات الإسلامية، والدراسات المتعلقة بكتابة اللغات الإسلامية غير المدونة.

٥ - دورات تدريبية للمسئولين عن التخطيط اللغوي والبحث اللساني في الأقطار الإسلامية لإطلاعهم على أحدث الطرائق في ميدان تخصصهم.

٦ – دورات تدريبية لمدرسي اللغات الإسلامية على أحدث طرائق تعليم اللغات الحية واستخدام التكنولوجيا التربوية.

وفق الله العاملين في خدمة الثقافة الإسلامية على تحقيق الغاية وأداء الرسالة

(وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون)

"صدق الله العظيم"



المحور الثالث: التحدي الحضاري
مميزات الحضارة الإسلامية ووسائلها

بحث مقدم لنـــدوة
"التحديات التي تواجه الأمة الإسلامية في القرن المقبل"
في الفترة من ٢٠ – ٢٢ ديسمبر ١٩٩٧م

الباحث الدكتور/ بدر عبدالرزاق الماص
دولة الكويـــت



المقدمة

الحمدلله رب الأرض والسماوات، ومرسل رسله الكرام بالرسالات السماوية ومنزل كتبه لهداية الناس إلى المبادىء العظيمة الراشدة، وأشهد ألا إله إلا الله الهادى إلى الطريق المستقيم، وأشهد أن سيدنا محمدا بن عبدالله المبعوث رحمة للعالمين صلوات ربى وتسليماته عليك يا رسول الله وعلى آلك وأصحابك ومن آمن واتبعك باحسان إلى يوم الدين .. وبعد.

فإن القرآن الكريم كتاب الله المبين، وحبله المتين، ودستوره القويم ومنهاجه المستقيم الذي أنزله الله عزوجل للهداية والإرشاد، وجعله مشتملا على التشريعات والأحكام والقوانين والقواعد والتشريعات الكفيلة بتوفير الحياة الكريمة للفرد والمجتمع في الدنيا والآخرة قال تعالى: (إن هذا القرآن يهدى للتي هي أقوم ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجرا كبيرا، وأن الذين لا يؤمنون الآخرة اعتدنا لهم عذابا أليما)[1]، وقال تعالى (مافرطنا في الكتاب من شيء)[2].

ومن بين هذه الأمور التي اشتمل عليها القرآن الكريم للبناء والتشييد في المجتمع المسلم بل وفي كافة المجتمعات على المستوى العالمي في مختلف العصور البناء الحضاري الراقي المؤدي إلى طريق المجد الصاعد إلى قمم الحضارة المثلى الفكرية والروحية والنفسية والمادية، الفردية والاجتماعية.

ولما كان هذا الموضوع – أعنى البناء الحضاري – من الموضوعات الحيوية التي تهم الباحثين خاصة في عصرنا الحاضر لأنه يبين للعالم أن القرآن الكريم كتاب يشتمل على كل الموضوعات بل هو كتاب مشتمل على كل الأمور المؤدية إلى الارتقاء والتقدم والازدهار وصالح لكل زمان ومكان، ولم يفرط الله عزوجل فيه من شيء (مافرطنا في الكتاب من شيء).

لذا أردت أن أتناول موضوع (مميزات الحضارة الإسلامية ووسائلها)

---

(١) سوره الاسراء ٩ ، ١٠.

(٢) سوره الأنعام آية ٣٨.

لعلي أسهم ولو بعض الشيء في إبراز جانب من جوانب العظمة القرآنية التي ترد على الحاقدين من أعداء الإسلام الذين يتهمون القرآن الكريم بالتخلف والرجعية بين الفينة والفينة بل وتخرسهم وتشل السنتهم التي يتساقط منها الحقد الدفين على الدين ورسوله وكتابه وأتباعه، قال تعالى: (قتل الخراصون)[1]، ولطبيعة هذا البحث فقد قسمته إلى عدة فصول عنونتها كما يلي:

الفصل الأول: مقومات الحضارة. وقسمته إلى مبحثين:

أ – تعريف الحضارة.

ب – مقومات الحضارة.

الفصل الثاني: مميزات الحضارة الإسلامية، وقسمته إلى عدة مباحث:

أ – الحق والباطل.

ب – الخير والشر.

ج – العالمية والشمول.

د – المثالية والواقعية.

الفصل الثالث: وسائل بناء الحضارة الإسلامية بناء واقعيا، وجعلته مشتملا على عدة مباحث:

١ – سن التشريعات وغرس الفضائل.

٢ – التربية.

٣ – التعلم والتعليم.

٤ – إقامة الحكم الإسلامي المتقيد بأسس الإسلام وتعاليمه وإرشاداته ووصاياه.

٥ – الجهاد في سبيل الله ومقوماته.

٦ – الوقف أحد روافد صناعة الحضارة الإسلامية.

---

(١) سورة الذاريات اية ١٠.

وبعـــد :

فإني أسأل الله عزوجل أن يهيء للأمة الإسلامية الوسائل المؤدية إلى النصر والتأييد وأن يوفقهم الله حتى يتمكنوا من الرجوع إلى مركز القيادة والصدارة أمام العالم أجمع كما كانوا من قبل..

كما أسأله عزوجل أن يوفقنا لصالح الأعمال وأن يسدد خطانا ويعيننا للعمل إلى ما يحبه ويرضاه وأن يجعل ذلك في ميزان حسناتنا يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم.

وبالله التوفيق ومنه العوذ والسداد...

دكتور/ بدر عبد الرزاق الماص

الفصل الأول

مقومات الحضارة

قبل الحديث عن مقومات الحضارة لابد لنا أولا من تناول الحضارة بمعناها اللغوي والاصطلاحي، فنقول:

الحضارة لغة: الحضارة:

الإقامة في الحضر وهي ضد البداوة ومظاهر الرقي العلمي والفني والاجتماعي في الحضر، والحضر بفتح الحاء والضاد: المدن والقرى والريف، والحاضر: المقيم في الحضر والحضارة: خلاف البادية والحضارة: خلاف البادية، وهي المدن والقرى والريف، والعاصمة[1].

الحضارة اصطلاحا:

هى إنتاج الإنسان المدني الاجتماعي بخصائصه الفكرية والروحية والوجدانية والسلوكية تحقيقا لأهداف أمته، وما ارتضته هذه الأمة لنفسها من قيم ومثل ومبادىء.

ونستخلص من هذا التعريف شيئين:

أ - **الحضارة** هي طريق الحياة التي ارتضته الأمة لنفسها في جميع المجالات الروحية والاجتماعية، والسياسية، والاقتصادية، والعمرانية، والمادية المنبعثة من قيم معينة، ومثل محددة.

ب - للحضارة جانبان:

الأول: مظاهر الرقي المادي الذي يشمل جميع جوانب الحياة من صناعة وتجارة، وزراعة واختراع وفنون.

الثاني: مظاهر الرقي المعنوي الذي يتصل بالقيم الروحية، والقواعد الأخلاقية والإنتاج الفكري، والإبداع الأدبي.

---

(١) انظر المعجم الوجيز مجمع اللغة العربية بمصر. مادة حضر صفحة ١٥٧ ط ١٩٩٠م.

وبناء على هذا التعريف والاستخلاص نقول: إن الحضارة لا تكون ذات طابع إنساني لدى الحضاريين حتى تتصف بالرقي المادي، والمعنوي على حد سواء، ذلك لأن الحضارة حسب التعريف الآنف الذكر لا تقاس بالتقدم العلمي أو الصناعي أو الآلي أو العمراني، إلا بمقدار ما يكون ذلك تعبيرا عن مقاصد إنسانية صالحة وتجسيدا لمبادىء خلقية فاضلة[1].

الحضارة إذا نشاط إنساني إبداعي يسير في خطين متوازيين في وقت واحد، وهدفهما في المحصلة النهائية هو الإرتقاء بالإنسان بوصفه يمثل كلا متكاملا لا انفصال فيه بين جانب المادة وجانب الروح[2].

ثانياً: مقومات الحضارة

صور المرحوم مالك بن نبي الحضارة على شكل معادلة رياضية تقول:

الحضارة = إنسان + تراب + وقت.

وبذلك فإن المشكلة الحضارية تنحل إلى ثلاث مشكلات أولية هي: مشكلة الإنسان، ومشكلة التراب، ومشكلة الوقت، وتقوم الفكرة الدينية بعملية المزج بين هذه العناصر الثلاثة[3].

وقد قام مالك بن نبي بتحليلات طيبة في هذا الصدد تدل على نظراته الثاقبة، ولسنا هنا نريد تكرار ما قاله لكننا نود الإشارة أن المشكلة الحضارية الرئيسية في نظرنا هي مشكلة الإنسان، فالإنسان هو العنصر الفاعل الإيجابي في العملية الحضارية كلها، وما عداه مسخر لخدمته ومجال نشاطه.

وإذا قلنا إن الإنسان هو كل شيء فنحن نعنى ما نقول دائماً، وهذا

---

(١) أنظر معالم الحضارة في الإسلام وأثرها في النهضة الأوربية لعبدالله علوان ص٥ -٦ ط أولى ١٩٨٠م الناشر دار السلام حلب، بيروت.

(٢) أنظر الحضارة فريضة إسلامية للدكتور محمود حمدي زقزوق بحث ضمن بحوث لآخرين في مجلة المسلم المعاصر صفحة ٢٩ العدد الثالث والستون السنة السادسة عشرة فبراير ومارس وابريل ١٩٩٢م.

(٣) أنظر شروط النهضة لمالك بن نبي صفحة ٦٥ وما بعدها ترجمة عمر كامل مسقاوى - ط دار الفكر ١٩٦٩م.

يقتضينا أن نحدد ما نعنيه بمفهوم الإنسان، وإن كان ذلك يعد من أظهر الظهور.

فالإنسان هو الكائن الوحيد في هذا الكون الذي وصفه الفلاسفة والمفكرون كل في مجال تخصصه بأنه كائن عاقل، أو كائن اجتماعي، أو حيوان متدين، أو حيوان أخلاقي، بمعنى أن كل صفة من هذه الصفات لا توجد في كائن آخر في هذا الوجود غير الإنسان، فالإنسان وحده هو الذي ينفرد بها(١).

ولكن هذه الصفات ليست هي كل شيء في الانسان، فهناك صفات أخرى فريدة يختص بها، وهي: التقنية والتراث والتقدم.

وتتمثل التقنية أساسا في صنع الإنسان لآلات معنية واستخدامها لغرض معين، إنتاج الآلات المعقدة المحددة الأهداف عن طريق عمل طويل وشاق هو عمل إنساني خالص، ولكن هذه التقنية التي يختص بها الإنسان كان من الممكن ألا تتطور إذا لم يكن الإنسان في الوقت نفسه كائنا اجتماعيا ينمو في المجتمع عن طريق التراث، وهذا التراث ليس أمرا فطريا فيه، ولكنه يتعلمه، وذلك بفضل اللغة المعقدة التي يمتلكها، وبفضل ذلك كله يتقدم الإنسان فهو يتعلم ويضيف إلى ما تعلمه جديدا عن طريق قدرته على الإبداع والاختراع.

وفضلا عن ذلك فإن تفكير الإنسان ليس دائماً مرتبطا بغرض مادى عملي، فهناك مجالات لا تخضع لهذا الغرض تشغل اهتمام الإنسان، فتطلعه الدائم لاكتساب المعارف واكتشاف المجهول لا يقف عند حد(٢).

ومن خلال ما تقدم يتضح لنا أن مشكلة الإنسان تتفرع إلى جوانب عديدة تتكامل فيما بينها ولا تتناقض، ويمكن إجمالها في العناصر التالية.

العقل بكل ما يحمل هذا المصطلح من معنى، وبماله من قدرة على

---

(١) الحضارة فريضة إسلامية صفحة ٣٠ بتصرف مرجع سابق.

(٢) مدخل إلى الفكر الفلسفي لبوخينسكي ترجمة د. محمود حمدي زقزوق ص١١٣ مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٨٠م.

الإبداع، والتدين والتعليم، والأخلاق، والنزعة إلى الاجتماع، وهذه النزعة تشمل ما يترتب عليها من النظام الذي يحفظ المجتمع ويتمثل في القوانين، واللغة والتراث والتقنية والتقدم.

والإبداع الحضاري في هذا كله يتمثل بصفة عامة في الفلسفة والعلم بجميع فروعه والتقنية والفن انطلاقا من قاعدة أساسية هي الدين، والمتتبع لتاريخ الحضارات السابقة وما تركت لنا من آثار لا تزال قائمة يستطيع أن يتعرف بسهولة على ما كان للفكرة الدينية في هذه الحضارات من دور كبير وأثر عظيم.

وهكذا نجد أن مركز الدائرة الحضارية هو الانسان، وأهم خصائصه العقل، والعقل يعني الكرامة الإنسانية واستغلال الشخصية، ويعني المسئولية، ويعنى الحرية.

وإذا كانت الحرية ضرورية للتحضر فإنها تصبح عديمة المعنى إذا لم تتوفر للإنسان وسائل العيش من القوت والكساء والمأوى، وإذا لم يتوفر له من الأمن على نفسه وماله وعرضه وعقيدته، وفي هذه الحرية تكمن كرامته الفريدة وفرصته في تحقيق وجود إنساني يليق بكرامة الإنسان.

ولا يمكن في حقيقة الأمر فصل حريتي عن حرية الآخرين، لأن الحرية لا يدركها المرء إدراكا حقيقيا إلا بممارستها عن طريق علاقته بالآخرين، فالعلاقة بين الأشخاص هي وحدها التى تجعل الحرية أمرا ممكنا)[1].

والحضارة في صلتها بالعقل ذات طبيعة مزدوجة، فهي من ناحية تحقق نفسها في سيادة العقل على نوازع الإنسان، وهذا يعنى أن تتجه إرادة الأفراد والجماهير إلى الخير المادي والروحي للكل وللأفراد الذين يتألف منهم الكل[2].

---

(١) انظر دراسات في الفلسفة الحديثة للدكتور محمود زقزوق صفحة ٢٦٤، وما بعدها ط دار الطباعة المحمدية ١٩٨٨م.

(٢) انظر فلسفة الحضارة لألبرت شفيتسر صفحة ٣٤ ترجمة عبدالرحمن بدوى دار الأندلس ١٩٨٠م.

فإذا توفرت الشروط الضرورية لقيام حضارة من الحضارات، وقامت الحضارة بالفعل، فإنها تكون حضارات ذات طابع إنساني برغم مالها من صبغة خاصة تحكمها عوامل الزمان والمكان، ومن هنا فإن الحضارة الحقيقية هي حضارة إنسانية بكل ما تحمل هذه الكلمة من معنى، ولا نعدو قول الحق إذا قلنا إن الحضارة تنتهي عندما تفقد في شعورها معنى الإنسان. فالحضارة الصحيحة توسع الأفق، أو هي بالأحرى نتاج أفق واسع، تسع الانسان أينما كان، إذ هي في جوهرها تعبير عن التزام أخلاقي ينعم الأفراد والجماعات في ظله بروح التسامح والتفكير الحر ومراعاة الاعتبار البشري لكل فرد من الأفراد[1].

وقد يفكر المرء في اتجاه خاطىء، ولكن لفت نظره إلى الاتجاه الصحيح لا يكون عن طريق الإرغام أو القهر، وإنما يكون بالحكمة والموعظة الحسنة، وهكذا ينتفي التعصب الأعمى، ويختفي العنف الجهول، والإرهاب الفكري في ظل الحضارة الحقيقية[2].

والحضارة الصحيحة بصفة عامة هي تلك الحضارة التي تشتمل على توازن بين الحضارة الشيئية (المادية) وحضارة السلوك الأخلاقي، أي تلك التي تتوازن فيها الطاقات المادية مع الطاقات الروحية. ومن هنا نجد فلاسفة الحضارة في الغرب يشيرون إلى أن الخطر الحقيقي الذي يهدد الإنسان المعاصر يكمن في أن قدرته على تشكيل ذاته على المستوى الفردي والجماعي قد تراجعت تراجعا حادا خلف قدرته على تشكيل بيئته تشكيلا ماديا. الأمر الذي يشكل خللا لابد من تداركه إذا أريد للحضارة المعاصرة أن تتفادى عوامل الانهيار[3].

توفر هذه المقومات في الحضارة الإسلامية

بعد هذا العرض الموجز للملامح الأساسية للشروط الضرورية لقيام

---

(١) انظر الحضارة فريضة إسلامية صفحة ٣٢.
(٢) انظر دراسات في الفلسفة الحديثة صفحة ٢٦١ سابق.
(٣) المرجع السابق صفحة ٢٧٠ وما بعدها.

حضارة من الحضارات، أو التي ينبغي أن تقوم عليها الحضارة بصفة عامة علينا الآن الاتجاه للاسلام، لنرى هل يشتمل على هذه الشروط أم لا؟.

لاحظنا فيما سبق أن الإنسان بصفة عامة هو العنصر الفاعل الإيجابي في العملية الحضارية كلها، وهذا يقتضينا أن نبحث عن موقف الإسلام من الإنسان لنتعرف على مكان الإنسان ومكانته في تعاليم الإسلام للتعرف على موقفه من الحضارة.

إذا تأملنا في القرآن الكريم وجدنا أن الإنسان هو محور اهتمامه فالقرآن كله إما حديث إلى الإنسان أو حديث عن الإنسان.

وقد تكررت كلمة الإنسان في القرآن ثلاثا وثلاثين مرة. وجاء الحديث بلفظ بنى آدم ست مرات، وبلفظ الناس مائتين وأربعين مرة. وإذا تدبرنا أول ما نزل من الوحي على الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم لوجدناه يركز على الاهتمام والعناية بشأن الإنسان بصفة خاصة، فالآيات الأولى التي نزل بها الوحي هي قوله عزوجل: (اقرأ باسم ربك الذي خلق - خلق الإنسان من علق - اقرأ وربك الاكرم - الذي علم بالقلم - علم الإنسان ما لم يعلم)[1]، وقد ذكر الله فيها الانسان مرتين ولا غرابة في ذلك، فالإنسان قد جعله الله خليفة في الأرض، وكرمه وفضله على سائر المخلوقات، وميزه بالعقل والإدراك، وحمله أمانة عمارة الأرض، وصنع الحضارة فيها، والمسئولية التي تحملها الإنسان بعد أن أشفقت من حملها السماوات والأرض والجبال تعد تكريما له، لأنه تحمل المسئولية يعني الحرية، واستقلال الشخصية وتتركز هذه المسئولية الكبرى - التي تتمثل في الخلافة عن الله في الأرض لعمارتها - على مسئولية الإنسان عن نفسه، ومن هنا فعليه واجبات نحو نفسه لا يجوز أن يفرط فيها، وتتمثل هذه الواجبات في استخدام كل ما وهبه الله له من قوى وطاقات فيما خلقت من أجله، فالعقل وظيفته التفكير والفهم والإدراك، والحواس وظيفتها إدراكية في مجالاتها، ووقت الإنسان ثمين لابد أن يقدر قيمته، ويشغله فيما يفيد، وصحته لا يجوز له أن يفسدها، أو يهمل فيها، وعلمه لابد أن يحسن

(١) سورة العلق الآيات الخمس الأولى.

استخدامه ويؤدي حقه، لأن العلم مسئولية سيحاسب الإنسان عما فعل به يوم القيامة، كما سيسأل عن ماله كسبا وإنفاقا، قال صلى الله عليه وسلم: (لاتزول قدم ابن آدم يوم القيامة من عند ربه حتى يسأل عن خمس، عن عمره فيما أفناه، وعن شبابه فيما أبلاه، وماله من أين اكتسبه، وفيما أنفقه، وماذا عمل فيما علم)[1]، وفضلا عن ذلك فالانسان مسئول عن استخدامه أو عدم استخدامه لوسائل الإدارك العقلية والحسية، وفي ذلك يقول سبحانه (إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا)[2].

وعدم استخدام هذه الوسائل فيما خلقت من أجله يعد ذنبا من الذنوب، وينزل بالإنسان من مرتبة الإنسانية إلى مرتبة الحيوانية بل إلى أسفل منها، قال تعالى (ولقد ذرأنا لجهنم كثير من الجن والانس لهم قلوب لايفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها، ولهم آذان لا يسمعون بها، أولئك كالأنعام بل هم أضل)[3]، ولرفعه شأن العقل في الإسلام فقد حرص الإسلام على إزالة كل العوائق التي قد تعترض سبيل العقل البشري حتى يستطيع ممارسة دوره كاملا في الوجود، ولذلك فقد رفض التبعية الفكرية والتقليد الأعمى، وحرر الإسلام العقل من الخرافات والأوهام والشعوذات، وجعل المسؤولية فردية في أساسها فليست هناك خطيئة موروثة. وهذه المسئولية الفردية لا تقوم إلا على أساس من حرية الفرد واطمئنانه إلى حقوقه في الأمن على نفسه وعقله وماله، وقد جعل الإسلام الأمن على العقل من بين المقاصد الضرورية التي قصدت إليها الشريعة الإسلامية لقيام مصالح الدين والدنيا، وهذه المقاصد الضرورية هي حفظ الدين والنفس والعقل والنسل والمال[4].

وغرس الإسلام في نفس المؤمن العزة وقرنها بعزة الله وعزة رسوله صلى الله عليه وسلم (ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين)[5]، وقرر الإسلام ألا

(١) رواه الترمذي.
(٢) سورة الاسراء اية ٣٦.
(٣) سورة الأعراف اية ١٧٩.
(٤) الموافقات للشاطبى ٢/١٠ ط دار المعرفة بيروت.
(٥) سورة المنافقون (٨).

طاعة لمخلوق في معصية الخالق، وأن المؤمن لا يخشى في الحق لومة لائم، وبذلك صان الإسلام كرامة الإنسان، وأكد القرآن الكريم الكرامة الإنسانية في قوله تعالى (ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلنا هم على كثير ممن خلقنا تفضيلا)(١).

وعقيدة التوحيد وعقيدة ختم النبوة في الإسلام تعنيان أيضا رفع الوصاية عن العقل البشري، وبذلك ينفتح المجال أمام العقل ليمارس وظيفته دون عوائق، والاجتهاد في الإسلام فتح باب استنباط الأحكام الشرعية أمام العقل، وبالتالي فتح المجال أمامه في البحث والتحرى في الأمور الدنيوية بل إن ذلك يكون من باب أولى. والاجتهاد في حقيقته دعوة إلى الإبداع في كل مجالات العلوم والفنون والصنائع، وهكذا يتضح لنا أن الإسلام قد هيأ المجال الملائم أمام الإنسان لاستخدام كل طاقاته الإبداعية، ووفر له كل الشروط الضرورية التي تساعده على القيام بمهمته الكبرى المتمثلة في خلافته لله في الأرض والنهوض بمسئوليته في عمارة الأرض، وجعل الله الكون بسمائه وأرضه وما بينهما مجالا لنشاط الإنسان، فكل ما عدا الإنسان في هذا الكون مسخر لخدمته ومجال لنشاطه(٢)، وفي ذلك يقول سبحانه (وسخر لكم ما في السموات وما فى الأرض جميعا منه إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون)(٣)، ويقول عزوجل (سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق)(٤)، وقد حدد الحق تبارك وتعالى مهمة الإنسان الحضارية في هذا الكون بقوله (هو انشأكم من الأرض واستعمركم فيها)(٥)، اي أن الله فوض إليكم عمارة الأرض حتى تصبح عامرة تصلح للانتفاع بها ولا تتحقق هذه العمارة للأرض إلا بالعلم وبالتقنية التي هي تطبيق للعلم لكن العمارة على هذا النحو المشار إليه ليست هي الحضارة على الإطلاق، وكذلك ليست هي

---

(١) سورة الاسراء (٧٠).
(٢) الحضارة فريضة إسلامية ص٣٥، ٣٦ بتصرف.
(٣) سورة الجاثية آية (١٣).
(٤) فصلت اية (٥٣).
(٥) سورة هود آية ٦١.

العمارة بإطلاق بل هي أحد جوانب الحضارة، ويمكن أن يطلق عليها مصطلح الحضارة الشيئية أو المادية، أما الجانب الآخر الذي به تكتمل الحضارة أو عمارة الأرض بالتعبير القرآني: فإنه يشمل كل القيم الدينية والعقلية والأخلاقية والجمالية.

ومن هنا فإن الحضارة في المفهوم الإسلامي تعني تحقيق المشيئة الإلهية في عمارة الأرض ماديا ومعنويا، وبذلك يحقق الإنسان ذاته بوصفه خليفة لله في الأرض، وهكذا نجد أن سيطرة الإنسان على قوة الطبيعة لا تكفي وحدها لبناء الحضارة، بل لابد أن ينضم إلى ذلك أيضا سيطرة الإنسان على نوازعه الداخلية وأهوائه وشهواته حتى تكون منضبطة بالقيم الدينية والعقلية والأخلاقية والجمالية، وبذلك تتم عمارة الأرض كما أراد الله، وبذلك يكون الإنسان في صلة مستمرة بالله خالق الكون تصحح له دائماً مساره على الأرض حتى لا يضل الطريق، فيظن أنه سيد هذا الكون مع أن دوره لا يعدو أن يكون سيدا في هذا الكون، وهذا هو معنى خلافته لله في الأرض[1].

---

(١) الحضارة فريضة إسلامية صفحة ٣٦ - ٣٧ بتصرف.

الفصل الثاني

مميزات الحضارة الإسلامية

تشتمل مميزات الحضارة الإسلامية على الأمور التالية:

أ - الحق والباطل.

ب - الخير والشر.

ج - العالمية والشمول.

د - المثالية والواقعية.

أولاً: الحــق والباطــــل

لما كان مبدأ الحق من أهم الأسس التي قامت عليها الحضارة الاسلامية كان من البديهي أن يحتل هذا المبدأ مركز الصدارة والتمجيد، في نصوص الدفع الإسلامي إلى القمم الحضارية المثلى، وأن تحمل هذه النصوص حربا شعواء على الباطل حيث وجد، ومن أي مصدر ظهر(١).

وإذا نظرنا إلى القرآن الكريم لوجدناه يهتم اهتماما كبيرا بمبدأ الحق، وذلك بوصفه أساسا للدعوة الإسلامية، ورسالة الإسلام الحضارية للناس جميعا، ومما يدل على هذا الاهتمام الكبير ورود مادة الحق في القرآن قرابة مائتي مرة.

١ - فالاسلام دين الحق لمطابقة أصوله الاعتقادية وأخباره ومواعيده للواقع، ولأن تعاليمه وشرائعه مواقفه لأكمل صورة ممكنة تتحقق بها سعادة الناس في حياتهم الأولى وحياتهم الأخرى قال تعالى: (هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون)(٢).

---

(١) أنظر اسس الحضارة الإسلامية ووسائلها لعبدالرحمن حسن حبنكة الميداني ص٣٣ ط دار القلم دمشق وبيروت.

(٢) سورة التوبة اية ٣٣.

٢ – وآيات الله تتلى بالحق على نبيه صلى الله عليه وسلم لأن مضمون آيات الله لا يعدو صراط الحق، قال تعالى: (تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق وإنك لمن المرسلين)(١).

٣ – والقرآن الكريم أنزله الله بالحق لأن كل ما فيه حق لا ريب فيه، قال تعالى: (الم – الله لا إله إلا هو الحي القيوم، نزل عليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه وأنزل التوراة والإنجيل – من قبل هدى للناس وأنزل الفرقان)(٢).

٤ – والله عزوجل يأمر رسوله صلى الله عليه وسلم بدعوة الناس إلى الحق الذى يجاءهم به، بالنظر السديد والبحث العلمي والمناقشة، قال تعالى (قل يا أيها الناس قد جاءكم الحق من ربكم فمن اهتدى فإنما يهتدى لنفسه، ومن ضل فإنما يضل عليها وما أنا عليكم بوكيل)(٣).

٥ – ومن صفات المؤمنين الملازمة لهم تواصيهم المستمر بالحق فيما بينهم، قال تعالى: (والعصر – إن الإنسان لفي خسر – إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر)(٤).

وغير ذلك كثير في القران الكريم مما يدل دلالة واضحة على احتلال الحق مركز الصدارة والتمجيد في أسس الحضارة الإسلامية.

---

(١) سورة البقرة ٢٥٢.
(٢) سورة ال عمرات من ١ – ٤.
(٣) سورة يونس الآية ١٠٨.
(٤) سورة العصر كاملة.

الباطل والنفور منه

أما الباطل الذى هو نقيض الحق وفق لقى النفور والحرب والتجهم من أسس الحضارة الإسلامية كلما حاول العلو في الأرض والاستحواذ على نفوس الناس أو عقولهم، أو أعمالهم، وبمقدار ما أبرزت الحضارة الإسلامية مبدأ الحق، وأصرت على الالتزام به، بوصفه أساسا من أسسها وجهت ضد الباطل نفرتها وتجهمها وحربها المركزة، وفي القرآن آيات كثيرة تحارب الباطل وأهله محاربة لاهوادة فيها، منها قول الحق تبارك وتعالى: (وما نرسل المرسلين إلا مبشرين ومنذرين – ويجادل الذين كفروا بالباطل ليدحضوا به الحق – واتخذوا آياتي وما أنذروا هزوا)[1]، ويقول عزوجل (أفبالباطل يؤمنون وبنعمة الله وهم يكفرون – ويعبدون من دون الله مالا يملك لهم رزقا من السماوات والأرض شيئا ولا يستطيعون)[2]، وغير ذلك كثير.

إحقاق الحق وإبطال الباطل

إن الحضارة الإسلامية بناء على ما سبق تحمل بين طياتها رسالة إحقاق الحق وإبطال الباطل لأن الله عزوجل يريد ذلك من شرائعه التي ينزلها للناس، قال تعالى: (ويريد الله أن يحق الحق بكلماته ويقطع دابر الكافرين – ليحق الحق ويبطل الباطل ولو كره المجرمون)[3].

ويقول سبحانه (بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق)[4]، ويقول عزوجل حين دخل الإسلام مكة منتصرا يوم الفتح (وقل جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا)[5].

ويقول عز من قائل مصورا الصراع بين الحق والباطل مبينا أن النصر

---

(١) سورة الكهف ٥٦.
(٢) سورة النحل ٧٢ – ٧٣.
(٣) سورة الأنفال ٧ – ٨.
(٤) سورة الأنبياء ١٨.
(٥) سورة الاسراء ٨١.

حتما في النهاية للحق (أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها فاحتمل السيل زبدا رابيا ومما يوقدون عليه في النار ابتغاء حلية أو متاع زبد مثله كذلك يضرب الله الحق والباطل فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض كذلك يضرب الله الأمثال)[1].

وهكذا تظهر لنا أسس الحضارة الإسلامية لا تحريف منها ولا دحل[2]، ولا تعرج فيها ولا التواء، إنها ذات منهج واضح مشرق، إذ أخذت بمبدأ الحق، والتزمته في كل مانطقت إليه من مجد فكري واعتقادي، أو عمل تطبيقي، والتزامها بمبدأ الحق جعلها تنفر من الباطل وتتجهم له حيث كان، وجعلها تقاومه وتصارعه مهما وقف في سبيلها وأعاق تقدمها، وارتقاءها، وأعداء الحق، وأنصار الباطل هم أعداء الحضارة الإسلامية الصحيحة، وهم الذين يلقون بالعثرات في طريقها، وأنصار الحق يكسحون باستمرار هذه العثرات، وهم يقولون (حسبنا الله ونعم الوكيل)[3].

---

(١) سورة الرعد اية ١٧.
(٢) تجل.
(٣) أسس الحضارة الاسلامية ووسائلها صفحة ٣٩ بتصرف.

ثانياً: الخيــــر والشـــــر

يطلق الخير ويراد به ما يكسبه الإنسان بإرادته في الحياة الدنيا من عمل قلبي أو نفسي أو جسدي يحقق له عند الله خيرا باقيا وسعادة خالدة وثوابا حسنا، ولو كان ذلك العمل شاقا أو مضنيا أو مؤلما، أو فيه تعرض للضرر والأذى في الحياة الدنيا ويلحق بالخير المباحات الشرعية المتعة والنافعة التي لا ضرر فيها، ولا أذى يأتي من قبلها، فإن اقترنت بنية تستحق ثوابا عند الله كانت خيرا أصليا لا محالة، ويرادف الخير بهذا المعنى الطاعة لله والبر ونحوهما.

وفي مقابل ذلك يطلق الشر ويراد به ما يكتسبه الإنسان بإرادته من عمل قلبي أو نفسي أو جسدي ليستحق عليه جزاء سيئا، ولو جلب له في الدنيا متعة أو منفعة أو لذة، ويرادف الشر على هذا المعنى المعصية لله والإثم ونحوهما، وقد لوحظ في المراد من الخير والشر أمران.

الأول: ما سيؤول إليه العمل يوم القيامة من جزاء بالثواب أو بالعقاب، لما يتضمن من طاعة لله أو معصية له.

الثاني: ما يؤدي إليه العمل من آثار ونتائج حسنة أو سيئة على الفرد أو على المجتمع في الحياة الدنيا، وذلك لأن الأحكام الإسلامية تهدف إلى تحقيق أكبر نسبة من الخير، وتفادي أكبر نسبة من الشر، في نظرة كلية جامعة ينظر بها الإسلام إلى الإنسانية على وجه العموم، ثم إلى الحياة، ثم إلى الوجود بأسره.

ولا يظن ظان أن الاسلام يرفع من حسابه على هذا المفهوم للخير والشر ملاحظة المنافع والمتع واللذات، أو ملاحظة المضمار والآلام والاكدار، بل الإسلام يدخل كل ذلك في حسابه، ولكن ضمن نظرة كلية شاملة والقرآن الكريم، قد تناول بشيء من الإسهاب الحديث عن الخير والشر من ذلك قوله معنى: (فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره، ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره)[1].

---

(١) سورة الزلزلة.

ويقول سبحانه (يا أيها الذين آمنوا اركعوا واسجدوا واعبدو ربكم وافعلوا الخير لعلكم تفلحون)[1]، ويقول سبحانه (ولو آمن أهل الكتاب لكان خيرا لهم)[2].

والخير والشر أحد الأسس الراسخة للحضارة الإسلامية نلحظ فيها الآتي:

١ – إن الخير والشر اللذين يترتب على فعلهما مدح وثواب أو ذم وعقاب محدودان بحدود العمل الإنساني، المصحوب بإرادة الفاعل وعلمه.

٢ – أن أبرز الخصائص لكل من فعل الخير وفعل الشر ما في أنفس فاعليهما من إرادة وتصميم على فعل الخير حبا بالخير وطاعة الله، أو فعل الشر تلبية لهوى من أهواء النفس، أو نزوة من نزواتها مع العلم بأنه شر.

٣ – يدخل في مفهوم الخير ما يلي:

أ – كل عمل يحقق رضوان الله وثوابه.

ب – كل عمل يكون وسيلة للترقى في مراتب أحد الكمالات التالية:

الكمال الفكري – الكمال الخلقي – الكمال السلوكي – الكمال الإبداعي – كمال التعايش الجماعي.

ج – كل عمل يكون وسيلة لتحقيق ما يلى:

اللذات التي لا ضرر فيها ولا عدوان على حدود الله.

المنافع التي لا مضمار فيها مساوية أو راجحة عليها.

المصالح التي لا مفاسد فيها أو راجحة عليها.

رابعاً: يدخل في مفهوم الشر ما يلي:

أ – كل عمل يؤدي إلى سخط الله وعقابه.

ب – كل عمل يكون وسيلة للهبوط في دركات النقص المقابل للكمالات السابقة.

---

(١) سورة الحج ٧٧.
(٢) سورة آل عمران ١١٠.

ج - كل عمل يكون وسيلة للسيئات التالية.

الآلام التي لا طاعة لله فيها ولا منافع أو مصالح ترجى عن طريقها وهي راجحة عليها، ولا سبيل لتحقيقها إلا بتحمل هذه الآلام.

المضار التي لا تتضمن منافع راجحة عليها ولاسبيل لتحقيق هذه المنافع الراجحة إلا بارتكابها.

خامساً: لدى تساوى المصالح والمفاسد، والمنافع والمضار، واللذات والآلام يرجح إحالة العمل المفضي إلى ذلك إلى جانب الشر، فيمنع الإنسان من ممارسته، صيانة له من العبث، والتزاما بقاعدة (درء المفاسد مقدم على جلب المصالح المساوية لها).

سادساً: متى أمكن تحقيق المقصود من المنافع أو المصالح أو اللذات بطريق خال من المضار والمفاسد والآلام امتنع سلوك طريق آخر فيه شيء من ذلك، ولو كان دون ما يتحقق به من خير مقصود وذلك لأن الحاجة أو الضرورة لم تلجأ إلى تحمل هذه المؤذيات، ولو كانت خفيفة، مادام بالإمكان تحقيق المطلوب، دون تحمل شيء منها، وذلك باختيار طريق آخر.

سابعاً: إن نظرة الإسلام إلى مفهوم الخير والشر تشمل في وقت واحد، ضمن ميزان دقيق حساس، اللذات والآلام، والمنافع والمضار، والمصالح والمفاسد، الفردية والاجتماعية، العاجلة والآجلة، الدنيوية والأخروية، كما تشمل مع كل ذلك علاقة الإنسان بربه، وتزن أعمال الإنسان بهذا الميزان الحساس، المتعدد الكفات، وتجري عليها حسابا عادلا ضمن معادلات رياضية عالية، فتعطى قيمة العمل الإنساني، من الخير والشر، بما تعطيه له من حكم شرعي.

وهكذا فإن نظرة الإسلام عامة شاملة لكل ما في الوجود الإنساني وغيره وعامة وشاملة لكل الاحتمالات الممكنة في مجال العمل الإرادي للإنسان، مع تقدير قيمة كل منها بميزان محكم، الأمر الذي نتج عنه تحديد أمل ودقيق

لمعنى كل من الخير والشر، تحديدا كليا، وتحديدا تفصيليا يتناول كل جزئية من جزئيات العمل الإرادي للإنسان..

ليس غريبا أن تكون نظرة الإسلام بهذا الشكل الرائع من الشمول، فالإسلام تنزل من لدن خالق عليم حكيم، قال تعالى (ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير)، من هنا فحرى بالإنسان أن يقف موقف الإستسلام لحدود الخير والشر التي حددها الله له، ولا يمنعه ذلك من أن يتابع بحثه وتأملاته في دقائق الأمور التي قامت عليها الأحكام الإسلامية، وفي أسرار الحكم الربانية التي تضمنتها هذه الأحكام، فالتسليم ميزة القلب المؤمن، والبحث العلمي ميزة العقل المفكر[1].

ثالثاً العالمية والشمول في رسالة الحضارة الإسلامية

الحضارة الإسلامية مفتوحة الحدود ممتدة الأرجاء شاملة كل ما في الحياة من مجالات تقدم وارتقاء، في أسسها الفكرية والنفسية والمادية.

فهي حضارة لا تحدها حدود ضيقة من الفكر، فتحجبها عن أي كمال من الكمالات.

ب – ولا تحدها حدود ضيقة من النفس فتحصرها ضمن الدوائر الأنانية العنصرية أو القومية أو الطبقية، أو غيرها.

ولكنها منفتحة الحدود النفسية انفتاحا مقرونا بالتحريض على الانطلاق إلى الأبعاد الإنسانية كلها، تحمل إليها المحبة والرحمة، وإرادة الخير والسعادة للناس أجمعين، ثم إلى أبعاد أخرى أوسع من المجتمع الإنساني حتى تشمل كل ذي حياة بالرحمة والإحسان، وشواهد ذلك في النصوص الإسلامية كثيرة منها النصوص التالية، قال صلى الله عليه وسلم: (دخلت النار امرأة بهرة حبستها لاهي أطعمتها ولا هي تركتها تأكل من خشاش

---

(١) أنظر أسس الحضارة الاسلامية ووسائلها صفحة ٤٥ – ٨٩ بتصرف.

الأرض)[١].

وعن أنس بن مالك عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (ما من مسلم غرس غرسا فأكل منه إنسان أو دابة إلا كان له صدقة)[٢].

وهكذا تمتد أبعاد الحضارة الإسلامية حتى تشمل الرحمة والإحسان كل ذي حياة.

٣ - وأخيرا فإن الحضارة الإسلامية لا تحدها حدود مكانية، ولا حدود زمانية، فكل مكان من الأرض هدف لإقامة الحضارة الإسلامية عليه، وكل زمان من الدهر هدف لإقامة الحضارة الإسلامية فيه.

وبهذين العنصرين (العالمية والشمول)، تحتل أسس الحضارة الإسلامية قمة رفيعة من المجد الخالد، لم ترق إلى مثلها أية أسس حضارية أخرى، وذلك لأن ضيق الحدود الفكرية والنفسية والمادية الذي تعاني منه معظم الحضارات البشرية يجعلها مهما ارتقت عاجزة قاصرة واقفة في السفوح، أو على الروابي والتلال، أما القمة الرفيعة فلا تصل إليها إلا طاقة مزدوجة القوة، أحد عنصريها العالمية، والعنصر الآخر الشمول.

وهذان العنصران مجتمعان في أسس الحضارة الإسلامية فحق لها أن تفخر بمجدها العظيم، وحق للمسلمين أن يفخروا بها، وأن يحتلوا بسببها قمة المجد الخالد، بين بناة الحضارات البشرية إذا هم عملوا بهديها، وطبقوا إرشاداتها تطبيقا سويا، وفهموها الفهم الصحيح، ووعوها الوعي السديد، وبذلوا في سبيل ذلك ما يملكون من قدرات فكرية ونفسية وجسدية، فردية واجتماعية، وأحسنوا الانتفاع من الطاقات الكونية التي سخرها الله للإنسان[٣].

---

(١) رواه مسلم في صحيحه في البر ١٣٥ والإمام أحمد في مسنده ٢/٢١٧.

(٢) أخرجه مسلم في المسافاة ٧ - ١٠، ١٢ والبخاري فى الأدب ٢٧، حرث ١ والترمذي في الأحكام ٤٠ والدرامي في البيوع ٦٧.

(٣) أسس الحضارة الإسلامية ووسائلها صفحة ١١٥، ١١٦.

رابعاً: المثالية والواقعية

نظرة استقرائية شاملة للشريعة الإسلامية الدافعة إلى كل مجد حضاري كريم تكشف لنا أن من أسسها العامة الكبرى المثالية في العقائد والأهداف والغايات والواقعية في الأعمال ومناهج الحياة.

أما المثالية فتتجلى في أمور ثلاثة:

الأول: الإيمان والأصول الاعتقادية، فهي في الإسلام الحقيقة المثلى، والإيمان بها يجب أن يكون تاما، والمثالية في الإيمان درجات، تتفاوت بحسب تفاوت الأفراد، نظرا إلى استعداداتهم وإلى مدى تمسكهم بها.

الثاني: النيات وتكون المثالية فيها بابتغاء مرضاة الله في فعل الأعمال الحسنة، وفي ترك الأعمال السيئة، وملاحظة طاعته لدى فعل ما أمر به، أو ترك ما نهى عنه، أو فعل وترك ما أذن بفعله وتركه على السواء.

وهذا الابتغاء عمل من أعمال القلوب، ويطلق عليه اسم (النية)، ولا غرر أن المثالية في هذا الأمر ذات درجات، تتفاوت بحسب تفاوت الأفراد، نظرا إلى استعداداتهم، وإلى مدى تمسكهم بها.

الثالث: نشدان الكمال في الأعمال، وذلك بالتطلع المستمر إلى الأحسن والأفضل والأنفع والأكمل من صور العمل واحتمالاته، وباستهداف الوصول إلى الغاية المثالية التي يمكن تحقيقها عن طريق العمل، ولو في أقل الأحوال الانسانية، وأندرها، وهذا النشدان يدفع الإنسان إلى التحسين والترقية، باستمرار سعيا في طريق الكمال.

وأما الواقعية في الأعمال ومناهج الحياة فتتجلى في خمسة أمور:

الأول: التكليف ضمن حدود الطاقة الإنسانية.

الثاني: رفع المسؤولية في أحوال النسيان والخطأ والإكراه، التي لا يملك الإنسان دفعها.

الثالث: مراعاة مطالب الفكر والنفس والجسد، وعدم إهمالها، وذلك ضمن

حدود طريق الخير.

الرابع: مراعاة واقع حال المجتمعات الإنسانية التي يتفاوت أفرادها في استعداداتهم، وخصائصهم، وذلك في البيانات الإسلامية، وفي أساليب التربية وفي الأعمال الجماعية، وفي تحديد مناهج السلوك، وفي أصول المحاسبة والجزاء.

الخامس: مراعاة واقع حال النفس الإنسانية، المفطورة على حب المخالفة والنزوع إلى الشذوذ، والمغامرة بامتحان المسالك الوعرة، ولهذا الواقع الإنساني مؤيدات صريحة في نصوص الشريعة الإسلامية.

منها ما جاء في الحديث الصحيح (كل بني آدم خطاء وخير الخطائين التوابون)[١]، وتكون مراعاة هذا الواقع بفتح باب الغفران للإنسان، وتهيئة أفضل الوسائل ليتخلص من الإثم وليلقي عن كاهله أثقال الأوزار.

وهكذا تجمع أسس الحضارة الإسلامية بين المثالية والواقعية، جمعا رائعا، وتضع كلا منهما في محله الذي يليق به[٢].

---

(١) أخرجه الترمذي في القيامة ٤٩ وابن ماجه في الزهد ٣٠ والدرامي في الرقاق ١٨ وأحمد في مسنده (١٩٨/٣).

(٢) أسس الحضارة الإسلامية ووسائلها ص١٧٤ - ١٧٦.

وسائل بناء الحضارة الإسلامية بناء واقعيا

بعد أن بينا فيما سبق أهم الأسس التي يقوم عليها البناء الفكرى للحضارة الإسلامية لابد لنا من إلقاء الضوء على الوسائل العملية التي تقوم عليها أركان هذه الحضارة حتى تبنى بناء واقعيا، وتتمثل هذه الوسائل فيما يلى:

١ – سن التشريعات وغرس الفضائل.

٢ – التربية.

٣ – التعلم والتعليم.

٤ – إقامة الحكم الإسلامي المتقيد بأسس الإسلام وتعاليمه وإرشاداته ووصاياه.

٥ – الجهاد في سبيل الله ومقوماته.

٦ – الوقف أحد روافد صناعة الحضارة الإسلامية.

وإليك بعضا من الضوء على هذه الأمور..

أولاً: سن التشريعات وغرس الفضائل

قام ديننا الحنيف بسن التشريعات الكفيلة بإقامة الحضارة الإسلامية العالمية الراقية لاشتمال هذه التشريعات على كل وسائل الازدهار.

كما قام أيضا بإرساء الحقوق الإنسانية في المجتمع وغرس الأخلاق الفاضلة النبيلة التي تنشىء مسلما ربانيا يقيم حضارة تعتمد اعتمادا كليا على منهج الإسلام القويم المستقيم..

أ – أما عن سن التشريعات فنقول:

الشريعة هي ما شرعه الله سبحانه وتعالى لعباده في العقائد والعبادات والأخلاق والمعاملات ونظم الحياة في جميع حقوقها لتحقيق سعادتهم في الدنيا والآخرة.

فشريعة الله هي المنهج المستقيم الذي يصون الإنسانية من الزيغ والانحراف ويجنبها مزالق الشر ونوازع الهوى، وهي تنظيم لحياة البشر، والشريعة الإسلامية أرقى ما عرفه البشر في كل المجالات التي جاءت بها، ولم ولن تصل إليها أية حضارة على الإطلاق سواء في السابق أم في اللاحق لأنها من لدن حكيم خبير أنزلها الله عزوجل على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم محددا فيها علاقة الإنسان بربه، وعلاقته بنفسه، وعلاقته بغيره من الناس، فهي طراز خاص للحياة والعيش، متميز كل التميز عن غيره من النظم التي يضعها الناس.

وإن دعوة جميع الرسل للتوحيد والعبادة دعوة واحدة أما مناهج الحياة فكانت مختلفة قال تعالى (لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا)[١]، وقد كانت كل شريعة قبل خاتم الأنبياء محصورة في قوم معينين وفي زمان محدود، حتى نزلت شريعة الإسلام للإنسانية كافة فجاءت عامة كاملة منظمة لشؤون الحياة كلها، قال تعالى: (يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعا)[٢]، وقال تعالى (وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيرا ونذيرا)[٣]، (وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين)[٤].

وعالمية الشريعة توجب حملها إلى العالم اجمع لانقاذه من الشقاء، فالأمة الإسلامية بهذا المفهوم أمة رسالة، فهي مسؤولة عن إخراج العالم من الظلمات إلى النور لذلك عليها أن تكون على درجة عالية من الوعي والتنظيم والقوة والإعداد والإبداع والعطاء والإنتاج، كما كانت في القرون السابقة حيث قام الأسلاف بتأدية كل ماكلفوا به من شرع والعطاء والإنتاج، كما كانت في القرون السابقة حيث قام الأسلاف بتأدية كل ماكلفوا به من شرع الله عزوجل في قرآن الله العظيم وسنة رسوله الكريم فأقاموا حضارة لم يشهد مثلها العالم أجمع في أطواره المختلفة.

---

(١) سورة المائدة آية ٤٨.
(٢) سورة الأعراف الآية ١٥٨.
(٣) سورة سبأ الآية ٢٨.
(٤) سورة الإنبياء الآية ١٠٧.

يقول الحق تبارك وتعالى (وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين)[1]، ويقول (ياأيها الناس قد جاءتكم موعظة من ربكم وشفاء لما في الصدور وهدى ورحمة للمؤمنين)[2]، هذه آيات كريمة من كتاب الله عزوجل يبين فيها المولى جلت قدرته أن الرسول رحمة للعالمين، وأن ما جاءهم به هدى ورحمة وكل ذلك فيه جلب المصالح لهم ودفع المضرة عنهم ولا يحدد المصالح والمضرة إلا الشرع وحده.

وباستقرار الأحكام الشرعية وجد أن مصالح العباد تتعلق بأمور ضرورية أو حاجية أو تحسينية، أو بأمور مكملة لهذه المصالح ومتممة لها، فمقاصد الشريعة الإسلامية هي هذه المصالح الحقيقية، وفيما يلي تفصيل ذلك:

١ - المصالح الضرورية: وهي التي لا قيام لحياة الناس دونها، فهي قوام حياتهم وإذا فاتت حل الفساد وعمت الفوضى واختل نظام الحياة، فهي دعائم لصيانة المجتمع، والمصالح الضرورية هي حفظ الدين والمحافظة على النفس وعلى العقل، وعلى النسل، وعلى المال، وعلى الأمن، والكرامة الإنسانية، وقد حافظت عليها الشريعة بأن جعلتها قطعية الأحكام، كما قدرت عقوبات لمن يحاول الاعتداء على هذه الضروريات.

٢ - المصالح الحاجية: وهي التي يحتاج الناس إليها ليعيشوا بسهولة، ويسر، وإذا فاتتهم يصيب الناس ضيق وحرج.

ومن أمثلة هذه المصالح: الرخص الشرعية كإباحة الإفطار في رمضان للمسافر أو المريض، وإباحة التيمم لمن لا يجد ماء للوضوء، وإباحة الصيد والبيع، والإجارة، والطلاق، وصنوف الطيبات، وإباحة الدين وغير ذلك من الأحكام التي تيسر الحياة وتسهلها.

---

(١) سورة الأنبياء الآية ١٠٧.

(٢) سورة يونس الآية ٥٧.

٣ – المصالح التحسينية: وهي ما يتعلق بمكارم الأخلاق والبعد عما ينافى الذوق السليم، وإن فاتت هذه المصالح الناس فلا يختل نظام حياتهم ولا يصيبهم ضيق وحرج، ولكن تخرج حياتهم عن الآداب العالية والأذواق السليمة ومن أمثلتها الطهارة، وإزالة النجاسات، وتقليم الأظافر وغسل الجمعة، وأخذ الزينة عند كل مسجد، وإماطة الآذى عن الطريق وإكرام الضيف.

٤ – المصالح التكميلية: وتتعلق هذه المصالح بالمصالح السابقة لإكمالها وتتمتها وإيجاد التناسق والتوازن في تنظيم الحياة، فالله عزوجل إذا حرم شيئا حرم الوسائل المؤدية إليه، فحرم الزنا، وحرم جميع الظروف والوسائل المؤدية إليه من خلوة أو إختلاط أو كشف عورة، كقوله تعالى: (ولا تقربوا الزنا)(١)، وتظهر المصالح التكميلية بوضوح بالقواعد العامة وبأحكام تفصيلية كثيرة (الوسيلة إلى الحرام حرام) و(ماحرم فعله حرم طلبه)، و(ما حرم أخذه حرم عطاؤه)، (وما حرم تناوله حرم بيعه).

(ومالا يتم الواجب إلا به فهو واجب)، أما الأحكام التفصيلية فكثيرة منها تحريم التبرج، والخلوة بين الرجل والمرأة، وكشف العورة ونحوها.

والشريعة الإسلامية فيها من الأحكام التي تضمن وجود المصالح الضرورية والأحكام التي تحافظ عليها، فضرورة الدين شرع الله سبحانه لوجوده العقيدة السليمة والتفكير في مخلوقات الله والعبادات، وشرع للمحافظة عليه الجهاد في سبيل الله وشرع حد المرتد، والنهي عن البدع.

أما النفس فقد شرع الله لايجادها الزواج، وأحكام الأسرة، وشرع للمحافظة عليها حريم الانتحار، والأمر بالتداوى، ووجوب أكل الميتة وغيرها من المحرمات عند الضرورة الملحة وشرع القصاص، وأما النسل فقد شرع لايجاده الزواج والتبكير فيه، والتقليل من تكاليفه وشرع للمحافظة عليه وجوب التعفف على من لا يجد نفقة الزواج، وغض البصر وشرع حد الزنا.

---

(١) سورة الإسراء الآية ٣١.

وأما العقل فقد حرم الله شرب الخمر محافظة على العقل، من المخدرات وشرع حدا لشارب الخمر، وكذلك أمر بالعلم وترويض العقل بالمعارف والعلوم وأمرنا بالتفكير في خلق السماوات والأرض وما فيهما من أشياء.

وأما الملكية الفردية للأموال فقد شرع الله لوجودها وجوب العمل على الرجال القادرين، وشرع أحكام البيع وسائر العقود والمعاملات، كما شرع للمحافظة عليها حد السرقة والعقوبات التعزيزية على المختلس والمنتهب والمرتشي.

وللمحافظة على الدولة شرع وجوب تنصيب خليفة واحد على جميع المسلمين وحرم الخروج على الدولة، وشرع حد أهل البغى، وحرم النعرات العنصرية كما أوجب طاعة الخليفة بالمعروف.

وللمحافظة على الأمن شرع الله سبحانه وتعالى إعداد القوة التى يكون بها الضرب على أيدى العابثين، وشرع حد قاطع الطريق، وأوجب سبحانه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأوجب العدل بين الناس.

وللمحافظة على الكرامة الإنسانية حرم الإسلام معاقبة المتهم قبل إدانته، وحرم إيقاع عقوبات على المجرم لم ينص عليها الشرع كقلع الأظافر، والحرق بالنار، وحرم الشتم والسب والغيبة وحرم القذف بالزنا، ووضع للقذف حدا وعقوبات تعزيزية على الشتم والتحقير فالنفس لها كرامتها.

هذه صورة سريعة لمقاصد الشريعة الإسلامية، وهذه المقاصد إنما شرعت لخير الإنسان وإسعاده ونجاته في الدنيا والآخرة[1].

---

(١) انظر نظرات في الثقافة الإسلامية لعز الدين الخطيب التميم وآخرين صفحة ٩٩ – ١٠٥ بتصرف ط دار الفرقان عمان ط أولى ١٩٨٤م.

ب - إرســاء حقوق الإنسان

أما عن إرساء حقوق الإنسان في المجتمع، فقد قام الإسلام بترسيخ هذه الحقوق وجعلها تتناول مصلحة الفرد والجماعة رجالا ونساء مسلمين وغير مسلمين وإليك بعضا من هذه الحقوق..

أولا: ما يتعلق بالمسلم العادي:

١ - حق الحياة: وفي ذلك يقول عز من قائل (من قتل نفسا بغير نفس أو فساد في الأرض فكأنما قتل الناس جميعا ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعا)[١] ويقول (ولا تقتلوا أنفسكم)[٢]، ويقول (ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق)[٣]. ويقول (ولكم في القصاص حياة)[٤].

فالإسلام أمر بحفظ حياة الإنسان وتوفير أسبابها لقداستها، ونهى عن الاعتداء عليها بأي شكل من الأشكال.[٥]، إلا إذا استباح إنسان لنفسه الاعتداء على الغير بقتل النفس التى حرم الله قتلها، أو أن يثير في الأرض فسادا، وهنا يجب القصاص والردع لأن مرتكب هذه الجريمة الوحشية مع هتكه حرمة الدماء وانحطاطه إلى درجة الحيوانية المفترسة، فهو قد سن في جنبات المجتمع سنة بشعة تؤدي إلى انقطاع العلاقات، واضطراب الأمن، ولذلك فقد شرع الإسلام القصاص لتحقيق العدالة وليكون وسيلة للزجر وصيانة لحق الإنسان في الحياة وضمان لاستقرار العمران الإنسانى[٦]، وكما أنهى الله الناس عن قتل بعضهم بعضا فقد نهى الإنسان عن قتله لنفسه، بل نهى عن مجرد إيذاء النفس والاضرار بها قال سبحانه (ولا تقتلوا أنفسكم إن الله كان بكم رحيما، ومن يفعل ذلك عدوانا وظلما فسوف نصليه نارا وكان ذلك على الله يسيرا)[٧].

---

(١) سورة المائدة ٣٢. (٢) سورة النساء اية ٢٩.
(٣) سورة الاسراء الآية ٣٣. (٤) سورة البقرة الآية ١٧٩.
(٥) انظر الشريعة المفترى عليها.
(٦) انظر المجتمع الإنساني وحقوق الإنسان صفحة ٢٣ - ٢٥ بتصرف.
(٧) سورة النساء أيتى ٢٩، ٣٠.

وإذا كان الله عز وجل جعل كيان الإنسان المادي والمعنوي حمى تحميه الشريعة في حياته، فقد جعله حمى كذلك بعد مماته، فمن حقه الترفق والتكريم في التعامل على جثمانه، ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إذا كفن أحدكم أخاه فليحسن كفنه)[1]، ومن حقه كذلك ستر سوءاته وعيوبه الشخصية، فقد قال صلى الله عليه وسلم (لا تسبوا الأموات فإنهم أفضوا إلى ما قدموا)[2].

٢ - الحرية :

والحرية حق من حقوق الشعوب، كما هي من حقوق الإنسان الفرد[3]، قال الله في كتابه العزيز (ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا)[4]، وقال (لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغى، فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى)[5]، وقال (وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر)[6]، وتعنى هذه الآية أن هناك حرية للإنسان في اختيار الطريق الذي يشاء، طريق الخير أو طريق الشر.

وهكذا فقد جاء الإسلام ليضمن الحرية للإنسان، وليطلق حريات الناس ويحميها من العبث والإكراه، سواء في ذلك الحرية الدينية والسياسية والفكرية، لأن الحرية دعامة لجميع ما سنه الإسلام من حقائق، ولأنها إحدى مقومات الشخصية الرئيسية وأساس أي مجتمع إنسانى سليم[7].

ومن صور حرية الإنسان في الاسلام

أ - حقه في حريته الشخصية.

(١) رواه مسلم في الجنائز ٤٩ والترمذي في الجنائز ١٩ والنسائي في الجنائز ٣٧.
(٢) رواه البخاري في الجنائز ٩٧ والرقاق ٤٢ وفضائل اصحاب النبي ٥، ومسلم في فضائل الصحابة ٢٢١، ٢٢٢ وأبوداود في السنة ١٠.
(٣) انظر عالم الفكر عدد يناير ١٩٧١ مقال للشيخ زكريا البرى - الإسلام وحقوق الإنسان.
(٤) سورة الإسراء الآية ٧٠.
(٥) سورة البقرة ٢٥٦.
(٦) سورة الكهف الآية ٢٩.
(٧) انظر معالم الثقافة الإسلامية للدكتور عبدالكريم عثمان ص٥٨.

ب – حق الشعوب في الحرية فلا يجوز لشعب أن يعتدى على آخر وللشعب المعتدي رد العدوان بكل السبل الممكنة.

ج – حق حرية الاعتقاد (لا إكراه في الدين).

د – حق حرية التفكير والتعبير لكل شخص.

٣ – **المساواة**: ومن المبادىء الأساسية الجوهرية في الإسلام المساواة، والمساواة من حيث كون الإنسان إنسانا له ما لغيره من الحقوق وعليه ما على غيره من الواجبات، هذا الإنسان الذي لا يميز عن غيره كإنسان شيء، يتميز عند الله بعدة مميزات بينه وبين أخيه الإنسان، لقد فضل الله أهل التقوى على غيرهم، ورفع أهل العلم درجات على أساس أن المساواة لا تكون بين من يعلمون في الدنيا فيعملون، وبين من لا يعلمون فلا يعملون، هذا التمييز أخره الله إلى يوم الحساب، أما أمام القانون فالجميع سواء لا يفضل مسلم ذو مركز دنيوي على مسلم آخر أقل مركزا، وكثيرا ما وقف الخليفة والشخص العادي أمام القضاء سواء بسواء لا يميزهم إلا الحق الذي يثبت لأي منهم حسب الاثباتات المقدمة، وقد حكم لصالح الأفراد في مواجهة الخلفاء، وتبين فيما بعد أحقية الخلفاء، ولكنهم كانوا يتسامحون فلا يحقدون على أحد لأن الإسلام هذب نفوسهم[٣].

هذا وقد اهتم القران الكريم اهتماما كبيرا بالمساواة من ذلك قوله تعالى (وما ارسلناك إلا كافة للناس بشيرا ونذيرا ولكن أكثر الناس لا يعلمون)[٤]، وقال عزوجل (يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها، وبث منهما رجالا كثيرا ونساءا)[٥]، وقال سبحانه (يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير)[٦].

---

(١) سورة البقرة ٢٥٦.   (٢) سورة سبأ الآية ٢٨.

(٣) حقوق الإنسان في الشريعة الإسلامية وقواعد القانون الدولى للدكتور أحمد عبدالعزيز أبوسخيلة صفحة ٦١ط أولى ١٩٨٥ ط دار العروبة.

(٤) سورة سبأ ٢٨.   (٥) سورة النساء الآية الأولى.   (٦) سورة الحجرات الآية ١٣.

وكذلك اهتمت السنة النبوية بالمساواة أيضا فما ورد في السنة يدل على ذلك قوله صلى الله عليه وسلم[١]، (الناس سواسية كأسنان المشط الا لا فضل لعربي على أعجمى ولا لعجمى على عربى ولا لأحمر على أسود، ولا لأسود على أحمر إلا بالتقوى)، كما أن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يميز بين الأفراد في تطبيق مبدأ المساواة عليهم، ولذا يقول عليه الصلاة والسلام (لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها)[٢]، ولا في حمايتها إياه ولذا يقول أبوبكر الصديق عند توليه الخلافة (الا إن أضعفكم عندي القوي حتى آخذ الحق له، وأقواكم عندي الضعيف حتى آخذ الحق منه) وغير ذلك كثير في القرآن والسنة.

٤ - العدل والعدالة

يقول عز وجل عن ذلك (لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان بالقسط)، ويقول عزوجل (إن الله يأمر بالعدل والإحسان)[٣]، ويقول (إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل)[٤]، فالإسلام جعل العدل أساسه ولذلك فقد أرسل الله عزوجل رسوله الكريم لتحرير البشرية من جميع الأغلال التي قال عنها ويضع عنهم اصرهم والأغلال التي كانت عليهم)[٥].

وقد نفذ ذلك على أقوام كانت حياتهم تقوم على التمايز والاعتداد بالأصول والأنساب، وعلى إهدار حقوق الأرقاء والنساء والضعفاء وأمر الله بالعدل بين الناس جميعا فلا يحكم بينهم إلا بما جاءت به الشريعة ولا يجوز العدول عنها إلى سواها، قال تعالى (فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول)[٦]، وقال (وأن احكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم)[٧] وغير ذلك كثير.

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده ٤١١/٥.

(٢) أخرجه البخاري في الهشادات ٨ وفضائل أصحاب النبي ١٨ والحدود ١٢/٤ ومسلم في الحدود ٩/٨ والإمام أحمد في مسنده ١٧٧/٢، ٣٩١/١، ٤١٩، ٤٣٨.

(٣) سورة الحديد الآية ٣٥. (٤) سورة النحل الآية ٩٠. (٥) سورة النساء ٥٨.

(٦) سورة الأعراف الآية ١٥٧. (٧) سورة هود ٥٩.

٥ - حق العمل: يقول عزوجل (فإذا قضيتم الصلاة فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله)[١]، فالإسلام لم يجعل العمل حقا فحسب بل جعله واجبا كما بينت الآية التي معنا وفي هذا المضمار يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم (لأن يأخذ أحدكم أحبله ثم يأتى الجبل فيأتى بحزمة من حطب على ظهره فيبيعها، فكيف الله بها وجهه، خير له من أن يسأل الناس، أعطوه، أو منعوه)[٢]، والعمل كما بين الإسلام شرف للذين يعملون قال صلى الله عليه وسلم (ما أكل أحد طعاما قط خيرا من أن يأكل من عمل يده وإن نبى الله داود كان يأكل من عمل يده)[٣].

٦ - حق الملكية

يكفل الإسلام الملكية المشروعة، ويحرم استخدام الوسائل المحرمة لأخذ أموال الغير، قال تعالى (ولا تاكلوا أموالكم بينكم بالباطل وتدلوا بها إلى الحكام لتأكلوا فريقا من أموال الناس بالاثم وأنتم تعلمون)[٤]، ولم يحل الإسلام مال أحد لآخر إلا عن طيب خاطر من صاحبه قال صلى الله عليه وسلم (ألا إن الله حرم عليكم دماءكم وأموالكم كحرمة يومكم هذا)[٥]. وحرم الإسلام انتزاع ملكية نشأت عن كسب حلال إلا للمصلحة العامة.

٦ - حق الزواج وتكوين الأسرة

يقول عزوجل (ومن أياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم ودة ورحمة)[٦]، لقد جعل الله الزواج سبيلا للسكينة والاستقرار الذي هو من آيات الله حيث لا تجد البشرية هذه السكينة خارج نطاق الأسرة ولذلك فإن الإسلام بين أنه إذا لم يستطع المسلم أن يزوج نفسه فمن الواجب على ولي الأمر تزويجه، وفي ذلك يقول عزوجل (وأنكحوا الآيامى منكم والصالحين من عبادكم وإمائكم)[٧].

---

(١) سورة الجمعة الآية ١٠.
(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده ١/١٦٤، ٢/١٦٧، ٢/٢٤٨، ٢٥٧، ٣٠٠، ٣٩٥.
(٣) رواه أبويعلى.
(٤) سورة البقرة ١٨٨.
(٥) رواه البخاري في العلم ٣٧ والحج ١٣٢ والمغازى ٧٧ والأدب ٤٣ ومسلم في الحج ١٤٧.
(٦) سورة الروم ٢١.
(٧) سورة النور ٣٢.

وبين الإسلام أن الحقوق فى داخل الأسرة كالحقوق في الدولة، لا يستوى فيها الجميع، بل ترتبط بافاءة وبالأعباء وبالمسئوليات تلك فطرة الله التي لا ينازعها إلا الجهلة أو الفوضويون، ولذلك فإن الله عزوجل جعل القوامة في دائرة الأسرة لربها، وهو الرجل لأنه لا يستطيع القيام بأعباء الأسرة إلا الرجل القوي لتوفر الإمكانات اللازمة لذلك في تكوينه شأنه في ذلك شأن رئيس الدولة الذي يختار بسبب توفر إمكانات معينة فيه، ولذلك يقول عزوجل (الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض)[1].

٧ – الأمن: إن الأمن في الإسلام يتمثل في حماية الأرزاق وحماية النفس والعرض، قال الله تعالى (فليعبدوا رب هذا البيت، الذى أطعمهم من جوع وأمنهم من خوف)[2]، وللأمن أنواع منها:

– عدم دخول مساكن الآخرين إلا بإذنهم قال تعالى (لا تدخلوا بيوتا غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلموا على أهلها)[3]، ومنها حرمة المساكن، وحرمة الحياة الخاصة قال تعالى (ولا تجسسوا ولا يغتب بعضكم بعضا)[4]، ومن الأمن في الإسلام: كفالة أفراد الشعب وبخاصة الفقراء واليتامى والمحتاجين، لقول الرسول صلى الله عليه وسلم (من ترك كلا فإلى الله)[5]، ولهذا قاتل الخليفة أبوبكر من منعوا الزكاة ليحافظ على حقوق المستضعفين والفقراء، ومنه عدم التفريق بين المسلم وغيره في الرزق لشعور كل منهما بالجوع، ولأن كليهما يشترك في الإنسانية، ولأن الرحمة أعم من اختصاصها بمسلم دون غيره، ومنه حق الحماية من التعذيب والاضطهاد، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إن الله يعذب الذين يعذبون الناس في الدنيا)[6].

ويقول عليه الصلاة والسلام (إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام كرحمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا)[7].

---

(١) سورة النساء ٣٤. (٢) سورة قريش ٣.٤. (٣) سورة الحجرات ١٢.
(٤) الأموال لأبى عبيد ص٢٣٦.
(٥) أخرجه مسلم في البر ١١٧، ١١٨، ١١٩ وأبوداود في الإمارة ٣٢.
(٦) أخرجه البخاري في العلم ٩.٣٧ والحج ١٣٢ والمغزى ٧٧ ومسلم في الحج ١٤٧ والترمذى في الفتن ٦.
(٧) سورة التوبة ٦.

ثانياً: حقوق المرأة

وإذا كان الإسلام قد اهتم بحقوق الإنسان المسلم عامة سواء كان رجلا أم امرأة فقد أولى المرأة خاصة حقوقا كثيرة بنتا كانت أو زوجة أو أما – وما أعظم قول عمر بن الخطاب في وصف وتحديد وضع المرأة في الجاهلية، حيث كان منحطا لدرجة يأباها الضمير الإنساني، وفي الإسلام حيث أعطاها الحقوق ومنحها الرفعة والعزة وذلك حيث يقول (والله إنا كنا في الجاهلية ما نعد النساء أمرا، حتى جاء الإسلام، وأنزل الله فيهن قرآنا وقسم لهن ما قسم)(١) – ومن هذه الحقوق ما يلى:

١ – حق التربية والكفالة والنفقة للبنت مادامت في بيت أبيها لقوله صلى الله عليه وسلم (من كانت له ثلاث بنات أو ثلاث أخوات، فعلمهن وأدبهن، واتقى الله فيهن، حتى يغنيهن الله، فله الجنة البتة)، فسأله بعض الصحابة: أو بنتان أو أختان يارسول الله؟ فأجاب: أو بنتان أو أختان)(٢).

٢ – حق التعليم والتثقيف لقوله صلى الله عليه وسلم (أيما رجل كانت عنده وليدة (أي جارية) فعلمها، فأحسن تعليمها وأدبها فأحسن تأديبها، ثم أعتقها فله أجران)(٣) أجر تحرير العقل وأجر تحرير الجسم.

٣ – حق اختيار الزوج الذي تريده شريكا لها في حياتها لأن من حقوقها الثابتة المشروعة إبداء الرأي، وحرية التفكير – لقوله صلى الله عليه وسلم (لا تنكح المرأة حتى تستأذن ولا الثيب حتى تستأمر)(٤)، قالوا: وما إذنها يارسول الله؟ قال: (صماتها)(٥) أي سكوتها.

---

(١) انظر الإسلام والمرأة لسعيد الأفغانى صفحة ٢٤ ط دار الفكر بدمشق والمرأة وحقوقها في الإسلام لمحمد الصادق عفيفى سلسلة دعوة الحق ط الأمانة لرابطة العالم الإسلامى.

(٢) انظر شرح السنة لأبى محمد الحسين بن مسعود البغوى ج١٣ صفحة ٤٤ المكتب الإسلامي بدمشق ١٩٧٧م.

(٣) رواه البخاري في النكاح ١٢.

(٤) أي يؤخذ أمرها.

(٥) انظر شرح السنة للبغوى ٣/٩ والموطأ في النكاح ٤٢/٢ والبخاري في النكاح ١٦٤/٩ ومسلم ١٤٠/٤.

٤ - حقها في الحياة فلا توأد قال تعالى (ولا تقتلوا أولادكم خشية املاق نحن نرزقهم وإياكم إن قتلهم كان خطئا كبيرا)[١]، ويقول (وإذا الموؤدة سئلت، بأي ذنب قتلت)[٢].

٥ - حقها في المهر عند زواجها قال تعالى (وإن أردتم استبدال زوج مكان زوج وأتيتم إحداهن قنطارا فلا تأخذوا منه شيئا، أتأخذونه بهتانا وإثما مبينا)(٣).

٦ - ومن حقها مشاطرة الرجل في المشورة لقوله تعالى (وأمرهم شورى بينهم)(٤).

٧ - ومن حقها المعاملة الحسنة، وكف الأذى عنها والحلم عند طيشها وحماقتها وركوب عواطفها قال تعالى (وعاشروهن بالمعروف)(٦).

٨ - ومن حقها النفقة والسكن والكسوة والطعام لقوله تعالى (أسكنوهن من حيث سكنتم من وجدكم)(٧)، وقوله صلى الله عليه وسلم لمن سأله عن حق الزوجة (أن تطعمها إذا طعمت، وتكسوها إذا اكتسبت، ولا تضرب الوجه، ولا تقبح، ولا تهجر إلا في البيت)(٨).

٩ - وللأم حق الإحسان والرحمة والتكريم والكلمة الطيبة والإحسان في المعاملة والكسوة والصحبة والرعاية والشكر والبر وامتثال أمرها واحترام رأيها والأخذ بنصيحتها، وفي ذلك كله يقول الله تعالى (وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحسانا، إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما وقل لهما قولا كريما)(٩)، وقوله عزوجل (أن اشكر لي ولوالديك إلى المصير)(١٠)، وقوله تعالى (واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل رب ارحمها كما ربياني صغيرا)(١١).

---

(١) سورة الاسراء الآية ٣١.
(٢) سورة التكوير ٨، ٩.
(٣) سورة النساء.
(٤) سورة النساء الآية ١٩.
(٥) سورة النساء ١٩.
(٦) سورة الطلاق الآية ٦.
(٧) رواه ابن ماجه في باب النكاح برقم ١٨٥١ وأبوداود برقم ٢١٤٢.
(٨) سورة الاسراء الآية ٢٣.
(٩) سورة لقمان الآية ١٤.
(١٠) سورة الاسراء الآية ٢٤.

١٠ - المساواة بين النساء وبين الذكور في العطية والمعاملة وكافة الحقوق إلا فيما حدده الشرع في تمييز أحدهما على الآخر كالميراث لحكم جليلة - وفي ذلك يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم ساووا بين أولادكم في العطية، ولو كنت مفضلا أحدا لفضلت النساء)(١).

١١ - كما ساوى بين النساء وبين الرجال في الخلق قال تعالى: (يا أيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيرا ونساء)(٢)، وفي مطلق المسؤولية في ميدان العبادة فالجزاء على العمل والثواب والعقاب يشتركان في كل هذه الأمور قال تعالى (من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ماكانوا يعملون)(٣).

١٢ - كما أباح الإسلام للمرأة حق التملك والتصرف في مالها كالرجال سواء بسواء، كما لها حق الدفاع عن نفسها وما ملكت يديها بالطرق المشروعة ولا يجوز للزوج أن يأخذ من مالها شيئا بغير رضاها قال تعالى (ولا تتمنوا ما فضل الله به بعضكم على بعض للرجال نصيب مما اكتسبوا وللنساء نصيب مما اكتسبن)(٤).

---

(١) انظر شرح السنة ٣/١٣١ وفتح البارى ٥/٢١٤.
(٢) سورة النساء الآية ١.
(٣) سورة النحل الآية ٩٧.
(٤) سورة النساء الآية ٣٢.

ثالثاً: حقوق الأقليات غير المسلمة

جاء القرآن الكريم ليرتفع بالإنسان عن روابط الأرض والطين ليؤثر المسلم الحق على عصبية اللحم والدم، قال تعالى (قل أن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله، فتربصوا حتى يأتى الله بأمره والله لا يهدي القوم الفاسقين)[1]، وقال عز من قائل (لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم أولئك كتب في قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه ويدخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها رضى الله عنهم ورضوا عنه أولئك حزب الله ألا أن حزب الله هم المفلحون[2]..

إن قطع الروابط المادية على هذا النحو لا يعنى قطع صلة القرابة ولا قطع المودة، فقد روى البخاري ومسلم عن أسماء بنت أبي بكر الصديق رضي الله عنهما، قالت: قدمت على أمي وهي مشركة في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فاستفتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم، قلت: (قدمت علي أمي وهي راغبة، أى تطمع أن تسألني شيئاً، أفأصل أمي؟ قال: (نعم، صلي أمك)[3]، وفي هذا قال الله تعالى (وإن جاهداك على أن تشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما في الدنيا معروفا)[4].

فالإسلام الذي قطع الروابط المادية وركز على رابطة العقيدة، هو الذي أمر بصلة الرحم مهما اختلفت العقائد، وأمر بطاعة الوالدين وإن كانا مشركين ولكنها طاعة من غير معصية بل أمر الله بالقتال دون الأهل والوطن، فقد روى أبوداود أن النبى صلى الله عليه وسلم قال: (من قتل دون ماله فهو شهيد، ومن قتل دون دمه فهو شهيد، ومن قتل دون دينه فهو شهيد، ومن قتل دون أهله فهو شهيد)[5].

(١) التوبة ٢٤. (٢) المجادلة ٢٢.
(٣) أخرجه البخاري في الهبة ٢٩ والجزية ١٨ والأدب ٨ ومسلم في الزكاة ٥٠ وأبوداود في الزكاة. ٣٤.
(٤) سورة لقمان ١٥.
(٥) أخرجه أبوداود في السنة ٢٩ والترمذي ديات ٢١ والنسائي تحريم ٢٣، ٢٤.

والإسلام هو الذى أم بحسن المودة مع غير المسلمين، وذلك في قوله تعالى (لاينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم أن الله يحب المقسطين)(١).

ففي هذه الآية الكريمة أمر الله عزوجل بالمودة والتآلف بين المسلمين وأهل الكتاب، طالما لم يقاتلوا المسلمين ولم يخرجوهم من ديارهم.

ولما أعلن النبي صلى الله عليه وسلم دولة للإسلام في المدينة المنورة لم يكن بها من أهل الكتاب سوى اليهود، فكفل لهم حقوق المواطنة مع المسلمين باعتبارهم جميعا مواطنين من أهل المدينة المنورة، ولقد نص الدستور أو الوثيقة التي تضمنت بعض قواعد ونظام الحكم في هذه الدولة، أن اليهود أمه مع المؤمنين، وأن لليهود دينهم وللمسلمين دينهم، وأن بينهم النصر على من دهم المدينة، وأن لليهود ومواليهم مثل مالأهل هذه الوثيقة(٢)، وقال صلى الله عليه وسلم (إن الله لم يحل لكم أن تدخلوا بيوت أهل الكتاب إلا بإذن، ولا ضرب نسائهم ولا أكل ثمارهم)(٣).

ج: الأخلاق

لما كان حسن الخلق من الأمور المهمة لحياة المسلم والمعيار الحقيقي له، فقد وصف الله عزوجل رسوله به في موطن المدح فقال: (وإنك لعلى خلق عظيم)(٤)، ولعظم حسن الخلق في الإسلام ركز القرآن الكريم عليها في البناء الحضاري للمجتمع لأنه مصداق الإيمان بل كماله، وهو ميزان التفاضل والتمايز بين المؤمنين (أكمل المؤمنين إيمانا، أحسنهم خلقا، وخياركم خياركم لنسائكم)(٥)، وهو أثقل ما في الميزان يوم الحساب (ما من شيء أثقل في

---

(١) المتحنة ٨.
(٢) الخراج لأبي يوسف ص١٢٦، وشبهات حول الفكر الإسلامي لسالم البهنساوى ص١٢٩ - ١٤٨. والشريعة المفترى عليها ص٢١٢.
(٣) أخرجه أبوداود في الإمارة ٣٣.
(٤) سورة الآية ٤. (٥) أخرجه الدرامي في البيوع (٢) والإمام أحمد في ٢٢٧/٤، ٢٢٨،
(٥) رواه أبوداود في السنة ١٤ والترمذي في الرضاع ١١ والإيمان ٦ والدرامي في الرقائق ٧٤ والإمام أحمد في ٢/٢٥٠، ٤٧٢، ٥٢٧.

ميزان العبد المؤمن يوم القيامة من حسن الخلق، وإن الله يبغض الفاحش البذيء)[١].

وهو وسيلة حب الله تعالى لنا، وشفيع قربنا يوم القيامة من رسول الله صلى الله عليه وسلم وحبه لنا[٢].

خصائص الخلق في الإسلام

للإسلام نظرته البعيدة الغور في النفس الإنسانية، ومدى صلة الخلق بها، وتتلخص هذه النظرة فيما يلي:

١ – تجاوب القيم الخلقية الإسلامية مع الفطرة الإنسانية السليمة، لذا فإن المصطفى عليه الصلاة والسلام يصف البر اطمئنانا والإثم تحرج النفس منه (البر ما اطمأنت إليه النفس واطمأن إليه القلب، والإثم ماحاك في النفس وتردد في الصدر، وإن أفتاك الناس وأفتوك)، وسبب هذا الموقف من الاسلام إزاء النفس البشرية في مجال الخلق هو الفطرة التي فطر الله النفس الإنسانية عليها: (ونفس وما سواها، فألهمها فجورها وتقواها، قد أفلح من زكاها، وقد خاب من دساها)[٣]، ذلك أن النفس ملهمة فطرة بالتمييز بين الخير والشر، وإن مجرد التمييز بينهما هو خير، ومعرفة للطريق السوي، وكل نفس تولد هكذا (كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه)[٤]، والإسلام تجاوب مع الفطرة التي فطرت عليها النفوس، إذا أن منزل الإسلام هو خالق النفس، (فأقم وجهك للدين حنيفا فطرة الله التى فطر الناس عليها، لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون)[٥].

---

(١) أخرجه الترمذي في البر ٦١.

(٢) مدخل إلى التصور الإسلامي للإنسان والحياة لعابد توفيق الهاشمي صفحة ١٥٦، ١٥٧ ط دار الفرقان بعمان ط أولى ١٩٨٢م رواه الإمام أحمد.

(٣) سورة الشمس الآيات من ٧ – ١١.

(٤) رواه الإمام أحمد (٢/٢٣٣، ٢٧٥، ٢٩٣).

(٥) سورة الروم الآية ٣٠.

فالفطرة السلمية غير الملوثة بغبار التوجيه المنحرف، هي الدين القيم، أي هي الإسلام بخطوطه العريضة، غير أن الفطرة ملهمة خطوطاً عريضة للخير، في حين أن الإسلام بيان تفصيلي للخير والشر بجزئياته(١).

ومن شواهد الخلق الفطري الذي ينص عليه الإسلام قوله صلى الله عليه وسلم في خلق الصدق (فإن الصدق طمأنينة، وإن الكذب ريبة)(٢)، فالخلق في الإسلام فطرة إنسانية، والفطرة هي الميزان: (دع مايريبك إلى مالا يريبك)(٣).

٢ - ثبات القيم الخلقية وعدم تطورها، لما كانت الفطرة ثابتة وهي متجاوبة مع الأخلاق فإن الخلق ثابت بثباتها كذلك.

٣ - الخلق الحسن هو المعروف والسيء هو المنكر:

لما كان الخلق ثابتا بنظر الفطرة الإنسانية وبنظر المجتمع الإنساني فقد أسماه الإسلام بالمعروف وأسمى نقيضه بالمنكر، فقال تعالى: (وأمر بالمعروف وانه عن المنكر)(٤)، وقال (تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله)(٥)، فسائر الأخلاق الفردية والاجتماعية محاسنها ومساوئها معروفة فطرة ومجتمعا، وفي ذلك يقول الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم (إن الحلال بيِّن وإن الحرام بيِّن)(٦)، فهو بيِّن للفطرة وبيِّن واضح للمجتمع كذلك.

وإن الوصايا الإسلامية لتعمم الخلق وتطلقه في التعامل مع الناس إقرارا منها أن (الحسن في الخلق) فطرة معروفة في نفس صاحبها، وفهم ثابت في عرف المجتمع (اتق الله حيثما كنت، وأتبع السيئة الحسنة تمحها، وخالق الناس بخلق حسن)(٧).

---

(١) انظر مدخل إلى التصور الإسلامى صفحة ١٥٧، ١٥٨ بتصرف.

(٢) رواه أحمد في مسنده (١/٢٠٠) والترمذي (٢٦٣٧) والدرامي (٢٥٣٥) وابن حبان (٥١٢) والحاكم (١٣/٣).

(٣) المراجع السابقة.

(٤) سورة لقمان الآية ١٧.

(٥) سورة آل عمران الآية ١١٠.

(٦) رواه الإمام أحمد في مسنده ٢٦٧/٤، ٢٧١.

(٧) رواه الترمذي في البر ٥٥ والدرامي في الرقاق ٧٤، والإمام أحمد في ١٥٣/٥، ١٥٨، ١٦٩.

وأن الألفة الإنسانية للسلوك الحسن ولصاحبه ثابتة على موازين واضحة، لذا فإن من أميز صفات المؤمن أن يكون آلفا للغير، وهو خلق حسن، ومألوفا منهم وهو نتيجة الخلق الحسن، قال صلى الله عليه وسلم (المؤمن مآلف ولا خير فيمن لا يألف ولا يؤلف)[1].

٤ – الخلق الإنساني في الإسلام عقيدة فهو أمر رباني يلزم المسلم باتباعه ولو كان فيه الهلكة أحيانا، وهو ميزان الإيمان قال صلى اله عليه وسلم (أكمل المؤمنين إيمانا أحسنهم خلقا)[2] بل إن ميزان التفاضل والتمايز بالخير هو الخلق الحسن (خياركم أحاسنكم أخلاقا) فلا غرو أن يكون عقيدة وهو مظهر تعبدي يرتضيه الله ويرضيه.

شمول الأخلاق الاسلامية

والأخلاق في الاسلام تتسم بالشمول فهي تتسع الحياة بكل جوانبها، وكافة مجالاتها، فلم تدع جانبا من جوانب الحياة الإنسانية، روحية، أو جسمية، دينية أو دنيوية، عقلية أو عاطفية، فردية أو اجتماعية، إلا رسمت له المنهج الأمثل للسلوك الرفيع، فما فرقه الناس في مجال الأخلاق، باسم الدين وباسم الفلسفة، وباسم العرف أو المجتمع، قد ضمه القانون الأخلاقي في الإسلام في تناسق وتكامل وزاد عليه.

١ – إن من أخلاق الإسلام ما يتعلق بالفرد في كافة نواحيه:

أ – جسما له ضروراته وحاجاته، بمثل قوله تعالى (وكلوا واشربوا ولا تسرفوا)[3]، وقول الرسول صلى الله عليه وسلم (إن لبدنك عليك حقا)[4].

ب – وعقلا له مواهبه وأفاقه يقول القرآن (قل انظروا ماذا في السماوات والأرض)[5].

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في ٢/٤٠٠، ٥/٢٢٣.
(٢) أخرجه أبوداود في السنة ١٤ والإمام أحمد ٢/٢٥٠، ٤٧٢.
(٣) سورة الأعراف ٣١.   (٤) رواه الشيخان.
(٥) سورة يونس الآية ١٠١.

ج – ونفسا لها مشاهرها ودوافعها وأشواقها (قد أفلح من زكاها، وقد خاب من دساها)[١] ومن الأخلاق الإسلامية ما يتعلق بالأسرة:

كالعلاقة بين الزوجين (وعاشروهن بالمعروف، فإن كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئا ويجعل الله فيه خيرا كثيرا)[٢]، وكالعلاقة بين الأبوين والأولاد (ووصينا الإنسان بوالديه إحسانا)[٣]، (ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق نحن نرزقهم وإياكم، إن قتلهم كان خطئاً كبيرا)[٤].

وكالعلاقة بين الأقارب والأرحام: (إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى)[٥]. (وآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل)[٦].

ومن أخلاق الإسلام ما يتعلق بالمجتمع، مثل آدابه ومجاملاته مثل (لا تدخلوا بيوتا غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلموا على أهلها، ذلكم خير لكم لعلكم تذكرون)[٧].

واقتصاده ومعاملاته: (ويل للمطففين، الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون، وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون)[٨]، (يا أيها الذين آمنوا إذا تداينتم بدين إلى أجل مسمى فاكتبوه، وليكتب بينكم كاتب بالعدل ولا يأب كاتب أن يكتب كما علمه الله)[٩].

وسياسته وحكمه (إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل)[١٠].

ومن أخلاق الإسلام ما يتعلق بغير العقلاء من الحيوان والطير: وفي ذلك يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم (إتقوا الله في البهائم المعجمة، فاركبوها صالحة، وكلوها صالحة)[١١]، وفي الحديث الآخر (في كل كبد رطبة أجر)[١٢].

---

(١) سورة الشمس ٩، ١٠.
(٢) سورة النساء ١٩.
(٣) سورة الأحقاف ١٥.
(٤) سورة الاسراء ٣١.
(٥) سورة النحل الآية ٩٠.
(٦) سورة الاسراء الآية ٢٦.
(٧) سورة النور ٢٧.
(٨) سورة المطففين ١-٣.
(٩) سورة البقرة ٢٨٣.
(١٠) سورة النساء ٥٨.
(١١) أبوداود في الجهاد ٤٤.
(١٢) أخرجه البخاري في المساقاة ٩ والمظالم ٢٣ والأدب ٢٧ ومسلم في السلام ١٥٣ وأبوداود في الجهاد ٤٤ ومالك في الموطأ صفة النبي ٢٣.

ومن أخلاق الإسلام ما يتعلق بالكون الكبير :

من حيث إنه مجال التأمل والاعتبار والنظر، والتفكر والاستدلال بما فيه من إبداع وإتقان على وجود مبدعه وقدرته، وعلى علمه وحكمته، قال تعالى (إن في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب، الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السماوات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك)[1]، ومن حيث إنه مجال للانتفاع والاستمتاع بما أودع الله فيه من خيرات وما بث فيه من قوى مسخرة لمنفعة الإنسان، وما أسبغ فيه من نعم تستوجب الشكر لواهبها والمنعم بها، قال تعالى (ألم تروا أن الله سخر لكم ما في السماوات وما في الأرض وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة)[2]. وقبل هذا كله وفوق ذلك كله ما يتعلق بحق الخالق العظيم الذي منه كل النعم وله كل الحمد (الحمدلله رب العالمين، الرحمن الرحيم، مالك يوم الدين، إياك نعبد وإياك نستعين، اهدنا الصراط المستقيم)[3]، وبهذا يتجلى شمول الأخلاق الإسلامية، من حيث موضوعها ومحتواها[4].

الإسلام وحمايته للأخلاق :

إذا كان القرآن الكريم جاء بالأخلاق الفاضلة لبناء المجتمع الإسلامي بناءا حضاريا راقيا فقد هيّأ هذا الكتاب العزيز مع المصدر الثاني للاسلام وهو السنة النبوية الجو المناسب للحياة الأخلاقية الفاضلة، بما شمله الإسلام من: نظام اقتصادي كامل، ونظام سياسى محكم، ونظام إجتماعي دقيق، وبما تضمنه من حث متكرر على الالتزام بمكارم الأخلاق، وحمايتها، وتحذير من ذميم الأخلاق وتنفير منها، وبما حواه من بيان لما يترتب على الأخلاق في الدنيا والآخرة بالنسبة للفرد والمجتمع من نتائج وآثار، وبالإضافة إلى كل ذلك فقد شرع الإسلام بعض العقوبات صيانة للأخلاق الفاضلة وحماية لها:

(١) سورة آل عمران ١٩٠ - ١٩١. (٢) سورة لقمان ٢٠.
(٣) سورة الفاتحة ٢-٦.
(٤) انظر الخصائص العامة للإسلام للدكتور يوسف القرضاوي صفحة ١١٧-١٢٠. بتصرف ط مؤسسة الرسالة بيروت ط ثانية ١٩٨٣م.

١ - فحفاظا على الأمانة شرع الله عقوبة السرقة قال تعالى (والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاء بما كسبا نكالا من الله والله عزيز حكيم)[١].

٢ - وحماية للحياء والعفة شرع الله عقوبة الزنا قال تعالى (الزانية والزاني فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة، ولا تأخذكم بهما رأفة في دين الله إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين)[٢]، وهذا حد الزاني البالغ البكر، وكذلك الزانية البالغة البكر، وثبت في السنة تغريب عام على الخلاف في ذلك، وأما المحصن أي المتزوج فعقابه الرجم حتى الموت، ومن العلماء من يقول: يجلد مائة ثم يرجم، وكذلك المحصنة، روى مسلم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم (الثيب جلد مائة، ثم رجم بالحجارة والبكر جلد مائة، ثم نفي سنة)[٣].

٣ - وصيانة للعدل شرع الإسلام عقوبة القصاص، قال تعالى (يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم القصاص في القتلى الحر بالحر والعبد بالعبد والأنثى بالأنثى فمن عفى له من أخيه شيء فاتباع بالمعروف وأداء إليه باحسان ذلك تخفيف من ربكم ورحمة، فمن اعتدى بعد ذلك فله عذاب أليم، ولكم في القصاص حياة يا أولى الألباب لعلكم تتقون)[٤].

٤ - وحماية للأمن شرع الإسلام عقوبة لقطع الطريق أو الحرابة، فقال تعالى:

(إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فسادا أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض ذلك لهم خزي في الدنيا، ولهم في الآخرة عظيم، إلا الذين تابوا من قبل أن تقدروا عليهم فاعلموا أن الله غفور رحيم)[٥].

ويدخل في مفهوم الحرابة العصابات المختلفة كعصابة القتل، وخطف الأطفال واللصوص للسطو على البيوت، والبنوك، وخطف البنات والعذارى

---

(١) سورة المائدة ٣٨. (٢) سورة النور ٢.
(٣) رواه مسلم في كتاب الحدود باب الحدود حد الزنى ٣/١٣١٧.
(٤) سورة البقرة ١٧٨، ١٧٩. (٥) سورة المائدة ٣٣، ٣٤.

للفجور بهن، واغتيال الحكام ابتغاء الفتنة واضطراب الأمن، وغير ذلك.

٥ - وحماية للأخلاق كلها حمى العقل بتحريم الخمر، وتشريع عقوبة لمن يعتدى عليه بشربها قال تعالى (يا أيها الذين امنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون، إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل أنتم نتهون)[١].

وعن عقوبة جريمة شرب الخمر، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (إذا شربوا فاجلدوهم، ثم إذا شربوا فاجلدوهم، ثم إذا شربوا فاجلدوهم، ثم إذا شربوا فاقتلوهم)[٢]، وجلده أربعون جلدة وللحاكم أن يزيد إلى ثمانين جلدة لأن النبي صلى الله عليه وسلم (جلد أربعين، وجلد أبوبكر أربعين، وعمر ثمانين)[٣].

٦ - وحفاظا على أخلاق المجتمع مما يترتب على ردة أحد أفراده شرع الإسلام عقوبة الردة لمن يترك الإسلام بشرط أن لا يكون مكرها على الكفر لقوله تعالى (من كفر بالله من بعد إيمانه إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان ولكن من شرح بالكفر صدرا فعليهم غضب من الله ولهم عذاب عظيم)[٤].

وعقوبة المرتد عن الإسلام هي القتل لقوله صلى الله عليه وسلم (لا يحل دم امرىء مسلم، يشهد أن لا إله إلا الله، وأني رسول الله، إلا بإحدى ثلاث، الثيب الزان، والنفس بالنفس، والتارك لدينه المفارق للجماعة)[٥].

وقوله عليه الصلاة والسلام (من بدل دينه فاقتلوه)[٦]، ويستتاب المرتد قبل تنفيذ القتل وإلا قتل.

---

(١) سورة المائدة ٩٠، ٩١.

(٢) رواه أبوداود في كتاب الحدود باب إذا تتابع في شرب الخمر ٤/٦٢٣ رقم ٤٤٨٢.

(٣) رواه مسلم في كتاب الحدود باب حد الخمر ٣/١٣٣٢ رقم ١٧٠٧.

(٤) سورة النحل الآية ١٠٦.

(٥) رواه مسلم في كتاب القسامة باب ما يباح به دم السلم ٣/١٣٠٣.

(٦) رواه البخاري في كتاب استتابة المرتدين باب حكم المرتد فتح الباري ١٢/٢٦٧ رقم ٦٩٢٢.

ثانيا : التربيـــة

التربية وسيلة من وسائل بناء الحضارة الإسلامية بناء واقعيا على أسسها الفكرية الراسخة، والتربية العامة تكون بالدعوة إلى سبيل الله بالحكمة والموعظة الحسنة، واستمالة الأنفس بالترغيب بمحابها الخيرة، وبالترهيب مما تكره من شر أو ضر أو أذى، والمجادلة بالتي هي أحسن.

الدعوة بالحكمة

أما الدعوة بالحكمة فهي التربية التي تعتمد على وسائل الإقناع الفكري المنطقي الحكيم، بالحجج والبراهين المثبتة للحقائق، وتكون الحكمة باتخاذ الأساليب الملائمة للحالة الفكرية والنفسية التي عليها المستهدفون بالتربية.

والإسلام قد دعى إلى ذلك وفي القرآن الكريم نماذج تدل على ذلك منها قوله تعالى (ولقد آتينا لقمان الحكمة أن أشكر الله ومن يشكر فإنما يشكر لنفسه ومن كفر فإن الله غنى حميد، وإذ قال لقمان لإبنه وهو يعظه يابنى لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم)(1).

الدعوة بالموعظة الحسنة

والدعوة بالموعظة الحسنة هي التربية التي تعتمد على وسائل التأثير الخطابي المقرونة بالأساليب البيانية المختلفة، ذات الخصائص التي تمكن المربى من القبض على نواصى الأنفس، وتحريك العواطف والإنفعالات الإنسانية وتوجيهها إلى طريق الحق والخير والجمال، والقرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة يزخران بالروائع التي تخدم هذا المجال من مجالات التربية.

استمالة الأنفس

وأما استمالة الأنفس بالترغيب بمحابها الخيرة، وبالترهيب مما تكره من شر أو ضر أو أذى فهي التربية التي تعتمد على وسائل تتجاوز حدود القول إلى مختلف الطرق العملية الترغيبية والترهيبية، ومن أهمها التآخى والمواساة، وبذل المال والجاه والخدمة، وعرض نتائج طرق الخير وطرق الشر بمشاهد

(1) سورة لقمان آيتى ١٢، ١٣.

واقعية تملأ الإنسان قناعة وإذعانا، إلى غير ذلك.

ويدخل في هذا ما شرعه الإسلام من إعطاء المؤلفة قلوبهم نصيبا من الزكاة لتأليف قلوبهم على الإسلام، ومنه ما كان يفعله الرسول صلوات الله عليه من العطاءات التي تهدف إلى تأليف القلوب وفي ذلك يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم (إنى لأعطي الرجل وأدع الرجل والذي أدع أحب إلى من الذى أعطى، ولكني إنما أعطي أقواما لما أرى في قلوبهم من الجزع والهلع، وأكل أقواما إلى ما جعل الله في قلوبهم من الغنى والخير)[1].

ولهذا العنصر من قوة التأثير في حل كثير من العقد النفسية لدى بعض النفوس التي يأسرها الإحسان المادي أكثر مما تأسرها الأساليب البيانية الرفيعة[2].

الجدال بالتى هي أحسن

الجدال في الأصل حوار كلامي يتفهم فيه كل طرف من الفريقين المتحاورين وجهة نظر الطرف الآخر، ويعرض فيه كل طرف منهما أدلته التي رجحت لديه استمساكه بوجهة نظره، ثم يأخذ بتبصر الحقيقة من خلال الانتقادات التي يوجهها الطرف الآخر على أدلته، أو من خلال الأدلة التى ينير له بها بعض النقاط التي كانت غامضة عليه..

وهدف الجدال بالتي هي أحسن تعاون الفريقين المتناظرين على معرفة الحقيقة بتبصير كل منهما صاحبه بالأماكن المظلمة عليه، والتي خفيت عنه حينما أخذ ينظر باحثا عن الحقيقة، وذلك حينما لا يكون أحدهما واقفا على الحقيقة المبينة وقوفا قطعيا غير قابل للنقض، أما في هذه الحالة فإن هدف الجدال بالتي هي أحسن إنما هو تبصير الواقف على الحقيقة أخاه المناظر له بها، والأخذ بيده في طرق الاستدلال الصحيح لابلاغه وجه الحق المشرق، وذلك باستخدام الحوار الهادىء البريء من التعصب الخالي من العنف

---

(١) أخرجه البخارى في الجمعة ٢٩، والتوحيد ٤٩ والامام أحمد في ٦٩/٥.
(٢) أسس الحضارة الإسلامية ووسائلها ص٣٥٨ بتصرف.

والانفعال، المتمشي وفق الأصول العامة للحوار الذي يستهدف فيه كل من الفريقين المتحاورين الوصول إلى الحقيقة.

قواعد الجدال بالحسنى

وللجدال بالتي هي أحسن قواعد عامة مستنبطة من نصوص الشريعة، والتطبيقات الجدلية القرانية، والأصول المنطقية البدهية منها:

١ - تخلي كل فريق من المجادلين عن التعصب وإعلانهما يبحثان عن الحقيقة، والأخذ بها عند ظهورها أيا كانت مصدرها، وفي ذلك يقول سبحانه وتعالى معلما رسوله صلى الله عليه وسلم أن يقول للمشركين في مناظرته لهم (وإنا أو إياكم لعلى هدى أو في ضلال مبين)[١]، وفي هذا غاية التخلي عن التعصب لأمر سابق، وكمال الرغبة بنشدان الحقيقة أنى كانت.

٢ - أن يتقيد كل فريق من المتحاورين بالمهذب من القول، مبتعدين عن التجريح والطعن والسخرية واحتقار وجهات نظر محاوريهم.

وفي ذلك يقول عزوجل (وجادلهم بالتي هي أحسن)[٢]، وقوله تبارك وتعالى (ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي احسن)[٣]، وقوله سبحانه (ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عدوا بغير علم)[٤]. ويقول عليه الصلاة والسلام (ليس المؤمن بالطعان ولا اللعان ولا الفاحش ولا البذي)[٥].

٣ - أن يلتزم المتحاورون في محاوراتهم الطرق المنطقية السليمة، وفي ذلك يقول جلت قدرته (أمن يبدأ الخلق ثم يعيده، ومن يرزقكم من السماء والأرض؟ أإله مع الله؟ قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين)[٦]، ويقول سبحانه (وقالوا لن يدخل الجنة إلا من كان هودا أو نصارى تلك أمانيهم قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين)[٧].

---

(١) سورة سبأ الآية ٢٤. (٢) سورة النحل الآية ١٢٥.
(٣) سورة العنكبوت الآية ٤٦. (٤) سورة الأنعام الآية ١٠٨.
(٥) اخرجه الترمذي في البر ٤٨ والإمام احمد ١/٤٠٥، ٤١٦.
(٦) سورة النمل الآية ٦٤. (٧) سورة البقرة الآية ١١١.

٤ - ألا يكون المناظر ملتزما في أمر أموره بضد الدعوى التي يحاول إثباتها، وإلا كانت دعوته مرفوضة.

٥ - ألا يكون من الدعوى أو في الدليل الذي يقدمه المناظر تعارض، أي: ألا ينقض بعض كلامه بعضه الآخر.

٦ - أن لا يكون دليل المناظر ترديدا لأصل الدعوى لأنه إذا كان كذلك لم يكن دليلا، وإنما هو إعادة للدعوة بصيغة ثانية.

٧ - عدم الطعن بأدلة المناظر إلا ضمن الأصول المنطقية أو القواعد المسلم بها لدى الفريقين المتناظرين.

٨ - إعلان التسليم بالقضايا والأمور التي هي من المسلمات الأولى أو من الأمور المتفق بين الفريقين المتناظرين على التسليم بها.

٩ - قبول النتائج التي توصل إليها الأدلة القاطعة، أو الأدلة المرجحة إذا كان الموضوع مما يكفى فيه الدليل المرجح[1].

والقرآن الكريم قد ذكر أمثلة جدلية كثيرة منها قوله تعالى: (قل من رب السماوات والأرض؟ قل: الله. قل: أفتخذتم من دونه أولياء لا يملكون لأنفسهم نفعا ولا ضرا؟ قل: هل يستوى الأعمى والبصير؟ أم هل تستوى الظلمات والنور؟ أم جعلوا لله شركاء خلقوا كخلقه فتشابه الخلق عليهم؟ قل الله خالق كل شيء وهو الواحد القهار)[2].

وغير ذلك كثير وكثير في القرآن الكريم.

---

(١) أسس الحضارة الإسلامية صفحة ٢٦٥ - ٢٧١ بتصرف.
٢ - سورة الرعد الآية ١٦.

ثالثاً: التعلم والتعليم

لما كان العلم هو أولى الوسائل التي تبنى عليها الحضارة الإسلامية بناء واقعيا في كل مجالاتها، وجدنا الإسلام يهيء كل الأسباب والمستلزمات التى تحث المسلمين صغارا وكبارا إلى العلم عن طريق التعلم والتعليم..

فالقرآن الكريم وضع الأسس التي تحفز المسلم إلى المتابعة الدائمة للمعرفة، والتي منها قوله تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم في أول ما نزل عليه الوحى (اقرأ باسم ربك الذي خلق خلق الإنسان من علق، اقرأ وربك الاكرم، الذى علم بالقلم، علم الإنسان مالم يعلم)[1] وقوله (يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات)[2]، وقوله عزوجل (نرفع درجات من نشاء وفوق كل ذي علم عليم)[3]، وقوله سبحانه (وما أوتيتم من العلم إلا قليلا)[4].

وقال عز من قائل (سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق)[5]، وقال (وقل رب زدني علما)[6]. والسنة النبوية أيضا حفزت المسلمين على العلم والتعلم والتعليم ونصوصها الكثيرة التي لا تعد ولا تحصى دالة على ذلك منها قوله صلى الله عليه وسلم: (من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه لا ينقص ذلك من أجورهم شيئاً)[7]، وقوله (إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له)[8]، وقوله (من طلب العلم كان كفارة لما مضى)[9]، وقوله (فضل العالم على العابد كفضلي على أدناكم)[10]، وقوله (إن الله وملائكته وأهل السماوات والأرض حتى النملة في جحرها وحتى الحوت ليصلون على معلم الناس الخير)[11]، وقوله (نضر الله امرءا سمع منا شيئا فبلغه كما

---

(١) سورة العلق من ١ – ٥. (٢) سورة المجادلة الآية ١١. (٣) سورة يوسف الآية ٧٦.

(٤) سورة الاسراء الآية ٨٥. (٥) سورة فصلت آية ٥٣. (٦) سورة الأنعام آية ١١٤.

(٧) أخرجه مسلم في العلم ١٥، ١٦ وأبوداود في الصلاة ٥١ والسنة ٦ والترمذي في العلم ١٥.

(٨) أخرجه مسلم في الوصية ١٤ وأبوداود في الوصايا ١٤ والترمذي في الأحكام ٣٦ والنسائي في الوصايا.

(٩) أخرجه الترمذي في العلم ٢.

(١٠) أخرجه الترمذي في العلم ١٩ وابن ماجه في المقدمة ١٧ والدرامي في المقدمة ٣٢.

(١١) أخرجه الترمذي في العلم ١٩.

سمعه، فرب مبلغ أوعى من سامع)[1].

وقوله (من سلك طريقا يلتمس فيه علما سهل الله له طريقا إلى الجنة، وإن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضا بما صنع، وإن العالم ليستغفر له من في السماوات ومن في الأرض حتى الحيتان في الماء، وفضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب، وإن العلماء ورثة الأنبياء، وإن الأنبياء لم يورثوا دينارا ولا درهما وإنما ورثوا العلم، فمن أخذه أخذ بحظ وافر)[2].

وقال صلى الله عليه وسلم (من سئل عن علم فكتمه ألجم يوم القيامة بلجام من نار)[3].

منح الله الإنسان أدوات المعرفة لمتابعة البحث العلمي

وإذا كان الله عزوجل حث الإنسان على العلم والتعليم فقد منحه الأدوات التي تساعده على ذلك ليتابع في حياته بحثه العلمي السليم، وليكشف أسرار الكون الدالة على عظمة خالقه عزوجل للوصول إلى معرفة عظيم صفاته جلت قدرته، وإلى حكمته، وعدله وسائر صفاته الدالة على جوده، وأرشده إلى أن هذه الدلائل منبثة في السماء وفي الأرض وفي أنفسهم - وللوصول كذلك إلى معرفة ما يجب عليه نحوه من طاعة وعبادة وشكر، وحتى يحسن الانتفاع مما بثه الله له في هذا الكون من قوى وخيرات، كما أذن له دون إفساد في الأرض، أو باضرار بالنفس أو أذى، أو ظلم أو عدوان.

وفي القرآن الكريم النصوص الكثيرة التي تحث الإنسان على اكتساب المعارف والعلوم عن طريق استخدام وسائل المعرفة، منها قوله تعالى: (كذلك نفصل الآيات لقوم يعقلون)[4]، وقوله (وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها

(١) أخرجه ابوداود في العلم ١٠ والترمذى في العلم ٧ وابن ماجه في المقدمة ١٨.
(٢) أخرجه ابوداود في العلم ١ والبخارى في العلم ١٠ والترمذى في القرآن ١٠ والعلم ١٩ والامام احمد في المسند ٢/٢٥٢، ٣٢٥، ٤٠٧.
(٣) أخرجه ابوداود فى العلم (٩) والترمذى في العلم ٣ وابن ماجه في المقدمة ٢٤.
(٤) سورة الروم الآية ٢٨.

إلا العالمون)[1]، وقوله (ومكروا مكرا ومكرنا مكرا وهم لا يشعرون، فانظر كيف كان عاقبة مكرهم أنا دمرناهم وقومهم أجمعين، فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا إن في ذلك لآيات لقوم يعلمون)[2]، وقوله (أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها ومالها من فروج، والأرض مددناها وألقينا فيها رواسي وأنبتنا من كل زوج بهيج، تبصرة وذكرى لكل عبد منيب)[3]، وقوله (وفي الأرض آيات للموقنين، وفي أنفسكم أفلا تبصرون)[4]، وقوله (إن في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون)[5]، وقوله (إنما يخشى الله من عباده العلماء)[6]، وقوله (هو الذى جعل الشمس ضياء والقمر نورا وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب ما خلق الله ذلك إلا بالحق يفصل الآيات لقوم يعلمون)[7]، وبديهي أن الاعتبار بالأحداث غابرها وحاضرها صفة من صفات العقلاء الذين يستخدمون عقولهم في البحث، وينتهون إلى التبصير بالحقائق العلمية، ومن الحقائق العلمية سنن الله التي لا تبديل لها في مجرى الأحداث الكونية، وهذا التبصر من أرقى مسالك العلم التي يسلكها العلماء.

ونظرا إلى مكانة البحث العلمي في أسس الحضارة الإسلامية وجدنا القرآن الكريم يحيل الناس في تدبر آياته إلى الذين يحسنون الفهم والاستنباط من علماء المسلمين قال تعالى: (أفلا يتدبون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا، وإذا جاءهم أمر من الأمن أو الخوف أذاعوا به ولو ردوه إلى الرسول وإلى أولى الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم ولولا فضل الله عليكم ورحمته لا تبعتم الشيطان إلا قليلا)[8].

كما أن هناك نصوصا أخرى تحث الذين لا يحفظون المسائل العلمية

---

(١) سورة العنكبوت الآية ٤٣.
(٢) سورة النمل ٥٠ - ٥٢.
(٣) سورة ق ٦ - ٨.
(٤) سورة الذاريات الآية (٢١).
(٥) سورة البقرة الآية ١٦٤.
(٦) سورة فاطر ٢٧، ٢٨.
(٧) سورة يونس ٥.
(٨) سورة النساء ايتى ٨٢، ٨٣.

التاريخية أو غيرها أن يسألوا أهل الذكر الموثوقين بأمانتهم وصدقهم قال تعالى: (وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا نوحى إليهم فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون)[1].

العلماء ومكانتهم في الإسلام

لأهمية العلم في الإسلام بل ولأنه الركن الأول في حياة المسلم فقد أولى الإسلام العلماء عناية خاصة فرفعهم في درجات الفضل كل على مقدار علمه ومعرفته وتطبيقه لما يعلم، وجعلهم وحدهم هم الذين يخشونه حق خشيته لأنهم هم العالمون بعظيم قدرته وعدله وسائر صفاته العظمى وأسمائه الحسنى، ولقد مجد الله العلماء في القرآن الكريم من ذلك قوله تعالى: (يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات والله بما تعملون خبير)[2]، وقوله (شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم قائما بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم)[3]. وقوله (إنما يخشى الله من عباده العلماء إن الله عزيز غفور)[4]، ومتابعة العلماء للبحث العلمي في هذا المجال سيهديهم إلى معرفة قدرة الله وعلمه وحكمته وعدله، ومتى عرفوا ذلك امتلأت قلوبهم بالخشية، والخشية بمعناها الصحيح الجامع للإجلال والحب والخوف لا يعرفها بصدق إلا العلماء والمؤمنون.

موقف الإسلام من تطبيق العلم بالعمل

إهتم الإسلام بالعمل الذي يهدي إليه العلم اهتماما بالغا، وحث عليه حثا شديدا، وأعلن أنه ثمرة العلم، ورتب على الأعمال الصالحة معظم صنوف الجزاء بالثواب، كما رتب على الأعمال السيئة معظم صنوف الجزاء بالعقاب، وجعل تفاوت درجات الناس في الأعمال سببا في تفاوت درجاتهم عند الله، وفي نيف وخمسين آية من القرآن الكريم جعل الله الأجر العظيم في الجنة ثواب الذين آمنوا وعملوا الصالحات، أما الإيمان فهو الإذعان القلبي بنتائج

---

(١) سورة النحل الآية ٤٣.
(٢) سورة المجادلة آية ١١.
(٣) سورة آل عمران ١٨.
(٤) سورة فاطر ٢٨.

المعارف الحقة المتصلة بالله وبصفاته، وبما جاء من عنده، أما الأعمال الصالحة فهي الصور التطبيقية لهذه المعارف(1)، فمن النصوص القرآنية التي تبين موقف الإسلام من تطبيق العلم بالعمل قوله تعالى: (من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزيهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون)(2).

(ومن عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة يرزقون فيها بغير حساب)(3)، وقوله: (ومن احسن قولا ممن دعا إلى الله وعمل صالحا وقال إنني من المسلمين)(4)، وقوله (ولكل درجات مما عملوا وليوفيهم أعمالهم وهم لا يظلمون)(5)، ومن النصوص القرآنية التي وعد الله فيها بالثواب العظيم على الإيمان المقرون بالعمل الصالح قوله تعالى: ٠إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم جنات النعيم)(6)، وقوله (فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فهم في روضة يحبرون)(7)، وهكذا تتوارد النصوص الإسلامية مهتمة بتطبيق العلم بالعمل، إشعارا بأن العمل هو الغاية المرجوة من العلم، وأن العلم بلا عمل فضيلة ضائعة الثمرة عديمة الأثر.

---

(1) أنظر أسس الحضارة الإسلامية ووسائلها صفحة ٣٤١.
(2) سورة النحل الآية ٩٧.
(3) سورة غافر الآية ٤٠.
(4) سورة فصلت الآية ٣٣.
(5) سورة الأحقاف ١٩.
(6) سورة لقمان اية ١٨.
(7) سورة الروم الآية ١٥.

رابعاً: إقامة الحكم الإسلامي

المتقيد بأسس الإسلام وتعاليمه وإرشاداته ووصاياه

من الوسائل الجلية لبناء الحضارة الإسلامية بناء واقعيا على أسسها الفكرية الراسخة إقامة الحكم الإسلامي المتقيد بأسس الإسلام وتعاليمه وإرشاداته ووصاياه، ومن شأن هذه الوسيلة أن تكون مستمرة مع الزمن لمتابعة البناء الحضاري وصيانته.

ونظام الحكم في الإسلام لم يقرر له القرآن الكريم شكلا معينا يجب أن تكون عليه الحكومة الإسلامية، ولم ينص على كيفية تنظيم سلطاتها، وإنما قرر الأسس الثابتة التي يجب أن يقوم عليها نظام الحكم تحقيقا للعدالة. والسبب في ذلك هو أن مصالح الناس تختلف باختلاف البيئات والأزمان والأحوال فرب قانون يحقق مصلحة في زمن ما، يثير مفاسد في زمن آخر، أو لأمة أخرى، فلو شرع الله في القرآن أحكاما مفصلة محددة، لوقع المسلمون في الحرج لاسيما إذا وجدوا أن مصلحتهم تتناقض مع تعاليمه، لهذا كان من حكمة الله أن شرع في القرآن الكريم الأحكام الأساسية والمبادىء العامة التي لا تختلف باختلاف الزمان والمكان، وترك الفروع والتفاصيل تتصرف فيها كل أمة وفق ماتراه بما يحقق مصلحتها على أن لا تشذ عن هذه الفروع عن الأحكام الأساسية التي قررها القرآن[1].

أسس نظام الحكم الإسلامي:

كما أشرنا سابقا فإن القرآن الكريم قرر أسسا ثابتة لنظام الحكم في الإسلام وإليك بعض هذه الأسس:

أولاً: البيعة

اختار ديننا الحنيف أن يبدأ الحكم الإسلامي بالبيعة الكبرى للحاكم، وهذه البيعة يقوم بها أهل الحل والعقد في الأمة، وهم زعماؤها ورؤساؤها

(١) انظر روح الدين الإسلامي لعفيف عبدالفتاح طبارة ط دار العلم للملايين لبنان صفحة ٢٩١ الطبعة ٢٧ عام ١٩٨٨م.

وعلماؤها العاملون بشريعتها ومصالحها السياسية والاجتماعية والقضائية والإدارية. وهذه الرياسة العليا مكانتها من الحكومة الإسلامية مكانة الرياسة العليا من أية حكومة دستورية، لأن الخليفة إنما يستمد سلطانه من الأمة الممثلة في أولى الحل والعقد ويعتمد في بقاء هذه الولاية على ثقتهم به ونظره في مصالح المسلمين، وتتضمن البيعة في الإسلام بالدرجة الأولى التزام كل من الطرفين الحكام والمحكومين بأسس الشريعة الإسلامية وبأحكام فروعها لأن واضع هذه الأسس هو الله عزوجل وحده لا شريك له، فليس لبشر أن يشرع أصولا قانونية غير التى سنها الله، أما في القضايا التي لم يرد فيها نص فقد فوضت الشريعة مهمة سن قوانينها إلى أولي الأمر من العلماء الذين هم أهل للاجتهاد.

والدليل على اختصاص الله عز وجل بالتشريع قوله سبحانه..

(إن الحكم إلا الله أمر ألا تعبدوا إلا إياه)[1]، وقال عزوجل مخاطبا رسوله الكريم (إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله)[2]، وقال سبحانه أمرا المؤمنين باتباع شريعته، وناهيا إياهم عن اتباع مايخالفها (اتبعوا ما أنزل من ربكم ولا تتبعوا من دونه أولياء قليلا ما تذكرون)[3]، ويحرم الله عزوجل تحريما قاطعا الخروج عن نصوص الشريعة ويعتبر العامل بغير الشريعة كافرا وظالما وفاسقا وفي ذلك يقول تعالى (ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون)[4]، (ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون)[4]، (ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون)[5]، وينفي الله عز وجل الإيمان عن الذين لم يحكموا رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما شجر بينهم، ولم يكتفي بذلك بل يشترط لاعتبارهم مؤمنين انتفاء الحرج والضيق عن صدورهم من قضاء رسول الله صلى الله عليه وسلم ويسلموا تسليما، والرسول لا يحكم إلا بما أنزل الله، قال تعالى (فلا وربك لا

---

(١) سورة يوسف اية ٤٠.
(٢) سورة النساء ابية ١٠٥.
(٣) سورة الأعراف الآية ٢.
(٤) المائدة اية ٤٤، ٤٥.
(٤) سورة المائدة الآية ٤٧.

يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما)[1]، كما تتضمن بالدرجة الثانية التزام جمهور المبايعين من المسلمين بالطاعة لأميرهم في كل أمر أو نهي لا معصية لله فيه، مع نصحهم له.

ولما كان قيام الحكم الإسلامي ضرورة حتمية لإقامة المجتمع المسلم والدولة المسلمة على الوجه الصحيح، ولما كانت الوسيلة المختارة في الإسلام لإقامة هذا الحكم هى البيعة، كان حكم البيعة في الإسلام من واجبات كل مسلم مكلف ذكرا كان أو أنثى، وفي ذلك يقول عليه الصلاة والسلام (من خلع يدا من طاعة لقى الله يوم القيامة ولا حجة له، ومن مات وليس في عنقه بيعة مات ميتة الجاهلية، ومن مات وهو مفارق للجماعة فإنه يموت ميتة جاهلية)[2].

ونظراً لأهمية البيعة في الإسلام قال الله تعالى لرسوله في سورة الحج (إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله يد الله فوق أيديهم، فمن نكث فإنما ينكث على نفسه ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجرا عظيما)[3]، فقد تكلم الله في هذه الآية عن مبايعة المؤمنين لرسول الله صلى الله عليه وسلم، وبين أنها مبايعة له لأن أهم شرط فيها إنما هو التزام كل من جمهور المؤمنين وولي أمرهم، بأسس الإسلام وأحكامه وتعاليمه، ولهذا كانت يد الله فوق أيديهم تعقد هذه المبايعة وتباركها، وتتكفل بدفع الثمن لمن أوفى بما عاهد عليه الله، وكل مبايعة بعد الرسول لأي خليفة يتولى أمور المسلمين، لها حكم مبايعة المؤمنين للرسول صلى الله عليه وسلم، وذلك إذا توافرت فيها شروط البيعة الإسلامية[4].

---

(١) سورة النساء الآية ٦٥.
(٢) رواه الإمام مسلم في صحيحه في الإمارة ٥٨.
(٣) سورة الفتح الآية ١٠.
(٤) أسس الحضارة الإسلامية صفحة ٣٨٧.

ثانياً: العــدل

وأمـا الأسـاس الثـاني الذي يلازم قـيـام الحكم الإسـلامي، وهـو عـدل صاحب الأمر من المسلمين ونصحه لهم، وطاعة المسلمين له فيما لا معصية لله فيه، مع نصحهم له، فقد تظاهرت عليه نصوص كثيرة من القرآن والسنة من ذلك. قوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين إن يكن غنيا أو فقيرا فالله أولى بهما فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا، وإن تلووا أو تعرضوا فإنَ الله كان بما تعملون خبيرا)[1]، وقال عز وجل آمرا المسلمين بمراعاة قواعد العدل حتى مع أعدائهم (ولا يجرمنكم شنئان قوم على ألا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى)[2]، كما ورد في القرآن الكريم ما يعظم من شأن العدل منها قوله تعالى (وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل)[3]، ويأمر الله المسلمين بالعدل حتى في الأقوال (وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى)[4]، وغير ذلك كثير مما يدل على الأمر بإقامة العدالة الاجتماعية على أساس ما أنزله عليهم من الكتب المتضمنة لأحكام وشرائع الدين، وما أمرهم به من استعمال الميزان لأن به يميز الحق من الباطل، وبه يحصل الناس على حقوقهم.

ثالثاً: الشورى

الشورى والمشورة من ش و ر، أي أشار باليدو أو أومأ، أو أشار عليه بالرأي واستشاره أشار عليه بالصواب، لأن الشورى إن لم تكن مخلصة فهي مخادعة وغش.

فالمشاورة: هي الاجتماع على الأمر ليشير كل واحد منهم على صاحبه، ويستخرج ما عند الآخر، ليتوصل طالب الشورى إلى الرأي الأصوب، والشورى قاعدة من قواعد الشريعة التي سنها الله عزوجل لأولى الأمر (الحكام) ليقيهم من الوقوع في أخطاء قد تجر الدولة إلى الخراب، ولأهمية هذه القاعدة فقد سمى الله عزوجل سورة باسم (سورة الشورى)، وفيها يمدح

(١) سورة النساء ١٣٥. (٢) سورة المائدة ٨.
(٣) سورة النساء آية ٥٨. (٤) سورة الأنعام آية ط١٥٢.

الله المؤمنين الذين اتخذوا المشورة قانونا لهم في أعمالهم، قال الله سبحانه (والذين استجابوا لربهم وأقاموا الصلاة وأمرهم شورى بينهم ومما رزقناهم ينفقون)[١]، فقد قرن الله في هذه الآية نظام الشورى بالصلاة والدقة ليدلل عليك أن الشورى بين ولاة الأمر من أسس الإسلام، وأن الاستبداد ليس من شأن المؤمنين.

ويقول الله مخاطبا رسوله (فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم في الأمر)[٢]، ففي هذه الآية الكريمة أمر الله عزوجل رسوله الكريم أن يشاور أمته في الأمر العام من شؤونها، وقد ثبت أن الرسول صلى الله عليه وسلم، قد شاور صحابته الكرام في كثير من الشؤون التي لم ينص عليها القرآن الكريم، وكان عليه الصلاة والسلام يعمل بما يظهر له أنه الصواب.

والشورى التي أوجبها الإسلام ليست لمجموع أفراد الأمة أو للأكثرية المطلقة فيها، لأن القرآن تكررت فيه الآيات التي تنص على أن الرأي والفضل والعلم ليست من صفات أكثر الناس على التعميم، وهذه أمثلة مما جاء في القرآن الكريم (وإن تطع أكثر من في الأرض يضلوك عن سبيل الله إن يتبعون إلا الظن وإن هم إلا يخرصون)[٣]، ويقول عز من قائل (أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون أن هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلا)[٤].

وإذا كانت طاعة الكثرة الجاهلة تضل عن سبيل الله، فليس من الصواب أن تكون لهم المشورة، وإنما ترجع الشورى إلى أهل الرأي والحكمة بدليل قوله تعالى: (وإذا جاءهم أمر من الأمن أو الخوف أذاعوا به ولو ردوه إلى الرسول وإلى أولي الأمر منهم لعله الذين يستنبطونه منهم)[٥]، والذين يعلمون الأمور أحق بالمشاورة من الذين لا يعلمون، قال تعالى (قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون)[٦].

---

(١) سورة الشورى الآية ٣٨. (٢) سورة آل عمران ١٥٩.
(٣) سورة الأنعام ١٠٦. (٤) سورة الفرقان ٤٤.
(٥) سورة النساء الآية ٨٣.
(٦) سورة الزمر ٩. وانظر روح الدين الإسلامي صفحة ٢٩٤ - ٢٩٦ بتصرف.

ولابد أن يتوفر في هؤلاء – أهل الرأي والحكمة والذين يعلمون الأمور – الثقة والإخلاص والصلاح حتى يشيروا على الولاة بما فيه مصلحة العباد والبلاد.

وإن مشاورة المسؤول ذوي الرأى وأصحاب الاختصاص تجعلهم يشتركون في تحمل المسؤولية معه، ولهذا كان من سداد الرأي وإصابته أن يشاور المسؤول أصحاب العلم والرأي والحكمة والمختصين ولا يفرد أحدا بالتشاور دون الآخرين، حتى تعم الفائدة لأن كل الذين يستشيرهم الحاكم سوف يتحرون الرأي الأصوب قدر وسعهم في كل أمر يشاورهم فيه.

وإذا كان الله عزوجل أوجب الشورى على المسلمين، فإنه لم يبين كيفيتها، لأن تفصيل النظم الشورية والطرق التي تكون بها لما يختلف باختلاف أحوال الأمة الاجتماعية، فمن العدل أن تقرر الشورى، وأن يترك لكل أمة أن تضع نظمها التفصيلية بما يلائم حالها ويتوافق مع مصلحتها[١].

رابعاً: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

أوجب الإسلام أن يكون في الدولة الإسلامية جماعة من أهل الحل والعقد يمثلون الأمة، وينوبون عنها ويراقبون سياستها ونظم حكمها، وهذه الجماعة هي التي قصدها الله سبحانه بقوله (ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون)[٢].

فهؤلاء الجماعة وظيفتهم الإشراف على الحكام ليكونوا مرجعا لهم في تشريعهم وليكونوا دعاة إلى الخير وناهين عن المنكر وناصحين للرعية.

ولا يقتصر الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على هذه الجماعة فقط بل يعمم القرآن هذا الواجب على المؤمنين جميعا (والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويطيعون الله ورسوله أولئك سيرحمهم الله)[٣].

---

(١) انظر روح الدين الإسلامي صفحة ٢٩٦. (٢) سورة آل عمران ١٠٤.
(٣) سورة التوبة آية ٧١.

ويبين الله عزوجل أهمية الأمر بالمعروف بقوله (والعصر، إن الإنسان لفي خسر، إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر)[1]، ففي هذه السورة وصف الله جميع الناس بالخسران إلا المؤمنين الذين يعملون الصالحات، المتواصين بالحق والصبر، وأقسم على هذا الخبر بالعصر، والتواصي بالحق هو الدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر..

وجعل القرآن الكريم الوصف الخاص الذي تعلو به أمة الإسلام على غيرها من الأمم هو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر: (كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله)[2].

ويقول صلى الله عليه وسلم (من رأى منكم منكرا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان)[3]، وبهذا الأصل سعى الإسلام إلى تكوين رأي عام موحد نحو غاية سامية يستأصل شأفة الفساد أنى وجد ولا يسكت عنه، وليس أضر على شعب من مجاهرة بعض أفراده بالاعتداء على حرمات الدين والدولة والحقوق العامة ثم لا يحرك أحد ساكنا للإنكار عليهم وإلزامهم الإقلاع عما هم فيه[4].

خامسا: الجهاد في سبيل الله

وخامس الوسائل الجليلة لبناء الحضارة الإسلامية بناء واقعيا على أسس الفطرية الراسخة الجهاد في سبيل الله، وذلك لأن المخالفين لدين الله عز وجل المعادين له ينظر لهم المسلمون نظرة شفقة ورحمة ما لم يمارسوا عداوتهم للمسلمين بشكل عملي ويستخدمون معهم الوسائل الهينة البينة البيانية والتربوية على اختلاف صورها وأشكالها الترغيبية والترهيبية لإصلاح نفوسهم، وتجميد عداوتهم، وهدم أحقادهم، وصرفهم عن مكائدهم للإسلام والمسلمين فإذا لم تجدي هذه الوسائل مع أعداء الإسلام فإن على

---

(١) سورة العصر بأكملها. (٢) سورة آل عمران الآية ١١.
(٣) أخرجه الإمام مسلم في الإيمان ٧٨ والترمذي في الفتن ١١ والإمام أحمد في ٣/٢٠، ٤٩.
(٤) روح الدين الإسلامي صفحة ٣٠٥، ٣٠٦ بتصرف.

المسلمين اللجوء إلى وسائل أخرى تترقى فيها أساليب الشدة شيئاً فشيئا، مع ضبط النفس، وعدم اتباع الهوى، ومع الرغبة الملحة بالانتصار للحق فقط، دون أن تتدخل عوامل نفسية أخرى.

فإذا أعلن أعداء الإسلام معاداتهم للمسلمين متربصين بهم أو شاهرى أسلحتهم في وجوههم، وفي مواجهة هؤلاء يجد حملة رسالة الحضارة الإسلامية أنفسهم أمام أمر لا مناص منه، يفرض عليهم أن يكونوا مدافعين، أو مهاجمين بما لديهم من قوى مادية ومعنوية[١].

بل ويجودوا بأنفسهم في سبيل الله لينالوا حظ الشهادة في سبيل الله، وبالتالي يسعدوا بدخول الجنة، ويحصلوا فيها على ما لا يوصف من أجر عظيم عنده عزوجل أو يعودوا إلى أهليهم نائلين مانالوا من غنيمة وأجر.

فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

(تضمن الله لمن خرج في سبيله لا يخرجه إلا جهاد في سبيلي وإيمان بى وتصديق برسلي فهو علي ضامن أن أدخله الجنة، أو أرجعه إلى منزله الذي خرج منه بما نال من أجر أو غنيمة، والذي نفس محمد بيده ما من كلم يكلم في سبيل الله إلا جاء يوم القيامة لهيئته يوم كلم، لونه لون دم، وريحه ريح مسك، والذي نفس محمد بيده لولا أن أشق على المسلمين ماقعدت خلاف سرية تغزو في سبيل الله أبدا، ولكن لا أجد سعة فأحملهم، ولا يجدون سعة، ويشق عليهم أن يتخلفوا عني، والذى نفس محمد بيده لوددت أن أغزو في سبيل الله فأقتل، ثم أغزوا فأقتل، ثم أغزو فأقتل)[٢].

والجهاد بالقتال المأذون به أو المحرض عليه في أسس الحضارة الإسلامية ركن أساسي لابد منه وهو أن يكون في سبيل الله حتى ينال المجاهد ما أعده الله عزوجل له إن استشهد في سبيله أو رجع بالأجر والغنيمة.

---

(١) انظر أسس الحضارة الإسلامية بتصرف صفحة ٣٨٣ - ٣٩١ بتصرف.

(٢) الحديث أخرجه الإمام مسلم في الإمارة ١٠٣، ١٠٧ والنسائي فى الإيمان ٢٤ والإمام أحمد في ٢/٣٣٩، ٤٢٤.

وهكذا فالجهاد في سبيل الله من الوسائل التي تبنى عليها الحضارة الإسلامية بناء واقعيا.

سادساً: الوقف أحد روافد صناعة الحضارة الإسلامية

وأخيرا فإن الوقف من الوسائل النبيلة الجليلة التي تبنى بها الحضارة الإسلامية بناء واقعيا، وذلك لأن الإسلام حث على الصدقة الجارية وجعل فضلها دائم، وفي ذلك يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم (إذا مات ابن ادم انقطع عمله إلا من ثلاث، صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له)[1]، ورضي الله عن أبي طلحة الأنصاري عندما نزلت آية (لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون)، قال يا رسول الله: إن أحب أموالى إلى بيرحاء وهي بئر طيبة - الماء - وإنها صدقة لله أرجو برها وذخرها عند الله تبارك وتعالى، فضعها يا رسول الله حيث أراد الله، فقال عليه الصلاة والسلام (بخ بخ ذاك مال رابح مال رابح حبس الأصل وسبل الثمرة)[2]، وكانت هذه الصدقة من أول الوقف في الإسلام، ورضى الله عن أبي الدحداح[3]، الصحابي الذي قال عندما ما نزلت (من ذا الذي يقرض الله قرضا حسنا فيضاعفه له أضعافا كثيرة) أو يقترض الله من عبده يا رسول الله، قال: نعم، فقال: امدد يا رسول الله يدك فاشهده أنه تصدق ببستانه الذي لا يملك غيره، ومن هاتين الحادثتين وغيرهما مما سنذكره بعد نشأ الوقف الذي كان المؤسسة الأم التي مولت صناعة أمتنا للحضارة الإسلامية، ولم تكن الدولة ولا الخزائن السلطانية هي التي صنعت أو مولت هذه الملحمة الحضارية العظمى.

وكما رجح الإسلام كدين للجماعة كفة الأمة على الدولة عندما تمايزت مناهج التوجهات لدى كل منها، كذلك رجح الإسلام بنظرية الاستخلاف فيه نهوض الوقف بدور المؤسسة الأم في تمويل صناعة الأمة لحضارتها.

---

(١) أخرجه الإمام مسلم في الوصية ١٤ وأبوداود في الوصايا ١٤ والترمذي في الأحكام ٣٦.

(٢) انظر تفسير البحر المحيط لأبى حيان الأندلسي ٥٢٤/٢ ط دار الفكر بيروت، والأنثى من سورة آل عمران رقم ٩٢.

(٣) البحر المحيط ٢٥٢/١.

فالمالك الحقيقي – مالك الرقبة – للثروات والأموال، في الرؤية الإسلامية هو الله سبحانه وتعالى. بخلقه لها، وإفاضته إياها في هذا الوجود، والإنسان – الأمة مستخلفة عن الله في هذه الثروات والأموال، لها فيها الحيازة والانتفاع والاستثمار، بواسطة الملكية المجازية – ملكية المنفعة – على النحو الذي يحقق إعمار الأرض وفق الشريعة، الممثلة لبنود عقد وعهد الاستخلاف (آمنوا بالله ورسوله وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه فالذين آمنوا منكم وأنفقوا لهم أجر كبير)(1).

ولقد كان الوضوح شديدا على المستوى النظري لدى كل علماء الإسلام، ومنذ صدر الإسلام، لنظرية الإسلام هذه في الاستخلاف بالأموال والثروات عبر عن ذلك الزمخشري عندما قال: في تفسير الآية التي معنا (إن مراد الله من هذه الآية هو أن يقول للناس: إن الأموال التي في أيديكم إنما هي أموال الله، بخلقه وإنشائه لها، وإنما مولكم إياها، وخولكم الاستمتاع بها، وجعلكم خلفاء في التصرف فيها، فليست هي أموالكم في الحقيقة وما أنتم إلا بمنزلة الوكلاء والنواب)(2).

وعبر عنه الإمام محمد عبده عندما تأمل جمع القرآن بين إضافة مصطلح المال إلى ضمير الجمع لكن في سبع وأربعين، وإلى ضمير الفرد لكن في سبع آيات، ثم أردف فقال: فالله ينبه بذلك على تكافل الأمة في حقوقها ومصالحها، فكأنه يقول: (إن مال كل واحد منكم إنما هو مال أمتكم)(3).

فالمالك الحقيقي للأموال والثروات هو الله، وللإنسان فيها ملكية المنفعة – المجازية التي تطلق حوافز إبداعه في التنمية والاستثمار، وفق عهد الاستخلاف، لكن.. أما وقد جاءت صناعة الحضارة الإسلامية بواسطة الأمة فلقد اقتضى تمويل هذه الصناعة قيام مؤسسة التمويل الاجتماعي التي تحرر المال من استبداد الفرد – فضلا عن الدولة – وترده خالصا لملكية الله ليكون وقفا على العمل الحضاري العام.

---

(1) سورة الحديد الآية ٧.
(2) انظر تفسير الكشاف ٤/٦١ ط القاهرة ١٩٦٨.
(3) الأعمال الكاملة لمحمد عبده ج٥ صفحة ٢٠١ دراسة وتحقيق ومحمد عمارة ط بيروت ١٩٧٢م.

لقد نهض الوقف في الحضارة الإسلامية بهذا الدور، دون إعادة الملكية المجازية في الأموال والثروات، إلى الملكية الحقيقية فيها وبعبارة الإمام ابن حزم الأندلسي وهو يرد على القائلين بأن - الحبس - بضم الحاء - يخرج الأموال من ملك الوقف إلى غير مالك - يقول: إن الحبس - بضم الحاء - ليس إخراجا إلى غير مالك بل إخراج إلى أحل المالكين، وهو الله سبحانه.

وهذا الإخراج للملكية من إطارها المجازي - الإنساني إلى إطارها الحقيقى الإلهي قد عنى - في نظام الوقف - تخليص التصرفات المالية من عيوب الانحراف عن بنود وضوابط عقد وعهد الاستخلاف الإلهي للإنسان في الأموال فكان تعريف الوقف في الفقه الإسلامي أنه (حبس العين على حكم ملك الله تعالى، والتصدق بالمنفعة على جهة من جهات البر إبتداء أو انتهاء أي على وجه تعود منفعته إلى العباد)، فكان الوقف هو إيجاب ضوابط الشراع في التصرفات الإنسانية بالأموال والثروات.

ولأن الوقف سبيل لتحقيق هذه المقاصد نهض في تاريخنا الإسلامى سياجا في مقاومة الجور والظلم خلال عهود انحراف الدولة ونحوهما: فكان الوقف سبيلا لحماية الثروات والأموال من ظلم المصادرات، كما كان المؤسسة الأم التي مولت صناعة الأمة لأعظم الفرائض الاجتماعية، صناعة حضارة الإسلام، بل ولقد مثل أحيانا في العلاقة بين الدولة والأمة سبيلا وبابا من أبواب توبة الدولة عن جورها وخطوة على طريق سعيها نحو الأمة ترد لها بعضا من حقوقها المغتصبة، فكثيرون من أمراء الجور الذين صادروا الأموال واغتصبوا الثروات كانت توبتهم النصوح متجسدة في الأوقاف التي حبسوها على جهات البر والخير، والتي عادت بها هذه الثروات من ظلم الاغتصاب الفردى إلى عدل الضوابط الشرعية في الأموال.

وعندما مكنت الأوقاف الأمة من صناعة الحضارة فإنها قد مكنتها من أن تظل كفتها هي الراجحة على كفة الدولة على إمتداد تاريخ الإسلام، الأمر الذي ضمن لحضارتنا الإسلامية في الإزدهار عمرا لم تماثلها فيه حضارة من الحضارات.

كذلك مكنت الأوقاف علماء الأمة على اختلاف ميادين العلوم - من الاستقلال الفكري عن الدولة الأمر الذي جعلهم سلاطين الأمة تتوج من بينهم شيوخ الإسلام وسلاطين العلماء وسلاطين العارفين ليقودوا صناعة حضارتها ولتعلوا مكانتهم، وترجح كفتهم على مكانة وكفة سلاطين الدولة وأمرائها.

بهذه المهام الكبرى نهض تمويل الأوقاف لصناعة الحضارة في تاريخ الإسلام وما كان لذلك أن يحدث لو لم تمثل الأوقاف في تاريخنا الحضاري المؤسسة الأم التي ضمنت قيام واستمروار وفعالية كل المؤسسات التي جسدت في تاريخنا معالم حضارة الإسلام.

وإذا كان الإسلام قد تميز وامتاز في الرسالة الخاتمة عن الرسالات السابقة بقيامه كيانا حيا واقعيا متجسدا في مجتمع يحياه المسلمون فإن الوقف كمؤسسة تمويلية أم قد اقترنت بهذا الانجاز من صدر الإسلام[1].

١ - فرسول الله صلى الله عليه وسلم حمى أى: حبس (النقيع) لخيل المسلمين وحمى (الربذة) لإبل الصدقة فأسس بذلك نظام الوقف في دولة الإسلام، مصدرا لتمويل العمل العام.

٢ - ثم أوقف النبي صلى الله عليه وسلم سبع حوابط وبساتين بالمدينة كانت لمخيريق بن النضر الذي استشهد يوم أحد وكان من قبل إسلامه حبرا - بفتح الحاء - من أحبار اليهود - وأوصى بأمواله لرسول الله صلى الله عليه وسلم (يصنع فيها ما أراد الله)، جاء التجسيد النبوي لإرادة الله في هذه الأموال وكانت سبعة حوائط (بساتين) في صورة وقف جعلها إياه رسول الله صلى الله عليه وسلم[2].

٣ - وعمر بن الخطاب رضي الله عنه أضاف (الشرف) إلى (النقيع) (والربذة)، حمى محبوسا على الإنفاق العام للأمة، وهو بذلك يكون قد تخير أنفس ما استخلفه الله فيه من الأموال ليحسبه للإنفاق على وجوه الخير في

---

(١) انظر دور الوقف في النمو الاجتماعي وتلبية حاجات الأمة صفحة ١٥٩، ١٦٠.
(٢) انظر الإسعاف في أحكام الأوقاف لبرهان الدين ابن إبراهيم بن أبي بكر الطرابلسي صفحة ٩، ١٠.

مجتمع المسلمين وكتب وثيقة في ذلك لعلها أقدم وثائق هذا النظام في تاريخ الإسلام[1]، وإذا كانت الحضارة نهرا خالدا ومتجددا على حين تمثل حياة الأفراد القطرات المتبخرة من هذا النهر، فلقد قامت الأوقاف لتمويل الصناعة الحضارية الدائمة والمتجددة، وفي كل نواحيها. وإذا شئنا إشارات شاهدة على شمول تمويل الوقف في الحضارة الإسلامية، لمختلف ميادين هذه الحضارة فيكفي أن نعلم أن الأوقف قد أقامت ورعت تمويل المساجد، والمدارس، والمكتبات، ونسخ المخطوطات ورعايتها وحفظها وصيانتها والحفاظ على التحف والآثار والعاديات وإقامة الخوانق لأقطاب التصوف ومريديه وإنشاء المكاتب لتحفيظ القرآن الكريم ومؤسسات كاملة للعلاج والاستشفاء من الأمراض العضوية والنفسية، ورصف الطرق وتعديلها وصيانتها وتحرير الأسرى والإنفاق عليهم وعلى أسرهم ورعاية أبناء السبيل والمعاونة على أداء فريضة الحج وتجهيز الحلى الذهبية وأدوات الزينة للعروس الفقيرة ورعاية النساء الغاضبات اللواتي لا أسر لهن أولهن أسر في بلاد بعيدة وعمارة الرباطات في الثغور للمجاهدين في سبيل الله وإعانة العميان والمقعدين، وذوي العاهات والأمراض المزمنة، وتطبيب الحيوانات والطيور، وتهيئة موائد الإفطار والسحور للفقراء في رمضان والحدائق المخصصة لعابري السبيل، والأواني والقدور المخصصة للمناسبات أفراحا وأحزانا، وتجهيز موتى الفقراء وبناء مقابر الصدقة لدفن الفقراء والإنفاق على الحرمين الشريفين وعلى علمائهما وطلاب العلم بهما، وعموم الفقراء والمحتاجين من أهلها والوافدين عليها عابرين أو مجاورين، وإقامة أسواق للتجارة ووكالاتها ومؤسسات الصناعة

---

(١) فعن ابن عمر رضي الله عنهما: أن عمر أصاب من خيبر فقال: يا رسول الله أصبت مالا بخيبر لم أصب قط مالا أنفس منه، فيما تأمرني، فقال: (إن شئت حبست أصلها وتصدقت بها، غير أنه لا يباع أصلها ولايبتاع ولا يوهب ولا يورث)، قال: فتصدق بها عمر، على ألا تباع ولا توهب ولا تورث وتكون في الفقراء وذوي القربى والرقاب وابن السبيل ولا جناح على من وليها أن يأكل منها بالمعروف ويطعم غير ممول) أي: غير متخذ منها مالا أي مالكا - رواه الجماعة، وكما أوقف عمر أوقف عثمان فعنه رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قدم المدينة وليس بها ماء يتعذب غير بئر رومة، فقال: من يشتري بئر رومة فيجعل منها دلوه مع دلاء المسلمين بخير له منها في الجنة، فاشتريتها من صلب مالي) رواه النسائي والترمذي وقال حديث حسن.

التى تحتاجها الأمة، والخانات التي ينزل المسافرون فيها والأسبلة وإنشاء القناطر والجسور على الأنهار وغير ذلك كثير وكثير، تلك إشارات لنماذج من المؤسسات التي شملت مختلف ميادين الحضارة الفكرية والمادية والإنتاجية منها والخدمية، الضرورية منها والتحسينية والت أقامته ورعتها مؤسسة الوقف في التاريخ الحضاري الأمة الإسلام، ولقد ظلت هذه المؤسسات على مر تاريخ الإسلام قائمة على صناعة الحضارة والتقدم والرقي وهكذا فإن الوقف من الأمور المهمة للتقدم الحضاري ومن الأساس الأصلية في بناء الحضارات..

الخاتمـــة

وبعد استعراضنا للبناء الحضاري للمجتمع في القرآن الكريم ما يلي:

أولاً: للحضارة جانبان من مظاهر الرقى أحدهما مادي والآخر معنوي.

ثانياً: مشكلة الحضارة تنحل إلى ثلاث مشكلات هي الإنسان + التراب + الوقت.

ثالثاً: الإنسان هو العنصر الفاعل الإيجابي في العملية الحضارية كلها وهو مركز الدائرة ومحور الإهتمام في القرآن الكريم.

رابعاً: الحضارة الإسلامية تحقق ذاتية الإنسان بوصفه خليفة لله في الأرض.

خامساً: لا تكفي سيطرة الإنسان على قوة الطبيعة لبناء الحضارة بل لابد من سيطرته أيضا عل نوازعه الداخلية وأهوائه وشهواته حتى تكون منضبطة بالقيم الدينية والعقلية والأخلاقية والجمالية.

سادساً: يشتمل البناء الفكري للحضارة الإسلامية على عدة أمور من أهمها الالتزام بالحق والبعد عن الباطل، والحث على عمل الخير والنهي عن الشر كما يشتمل على العالمية والشمول، والمثالية والواقعية.

سابعاً: لبناء الحضارة الإسلامية بناء واقعيا وسائل عدة من أهمها:

١ – سن التشريعات التي تناولت كل شؤون الحياة من جميع جوانبها.

٢ – التربية المعتمدة على القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة.

٣ – التعلم والتعليم.

٤ – إقامة الحكم الإسلامي المتقيد بأسس الإسلام وتعاليمه وإرشاداته ووصاياه.

٥ – الجهاد في سبيل الله ومقوماته.

٦ – الوقف أحد روافد صناعة الحضارة الإسلامية.

كل ذلك يؤدي إلى الرقي والتقدم وإقامة الحضارة على قواعد صلبة

متينة مثل الوقف وغيره..

وبعد فهذه بعض النتائج التي استنتجتها من هذا البحث، أرجو من الله عزوجل أن يوفقني لما يحبه ويرضاه وأن يعيننا على طاعته وأن يشملنا برحمته ولا يحرمنا من رضوانه وجنته...

وبالله التوفيـــــق ،،،،

فهرس المراجع

١ – القرآن الكريم.

٢ – الإسلام وحقوق الإنسان للشيخ زكريا البرى مقال منشور في عالم الفكر عدد يناير عام ١٩٧١م.

٣ – أسس الحضارة الإسلامية ووسائلها لعبدالرحمن حسن حبنكة الميداني ط دار القلم دمشق – بيروت.

٤ – الإسلام والمرأة لسعيد الأفغاني ط دار الفكر بدمشق.

٥ – أعلام الموقعين لابن القيم.

٦ – الأعمال الكاملة لإمام محمد عبده دراسة وتحقيق د. محمد عمارة ط بيروت عام ١٩٧٢م.

٧ – تفسير الكشاف للزمخشري ط القاهرة ١٩٦٨م.

٨ – تفسير البحر المحيط لأبي حيان الأندلسي ط دار الفكر بيروت.

٩ – الحضارة فريضة إسلامية للدكتور محمود حمدي زقزوق بحث منشور في مجلة المسلم المعاصر العدد الثالث والستون السنة السادسة عشرة فبراير ومارس وابريل عام ١٩٩٢م.

١٠ – حقوق الإنسان في الشريعة الإسلامية وقواعد القانون الدولي للدكتور أحمد عبدالعزيز أبوسخيلة ط أولى عام ١٩٨٥م ط دار العروبة.

١١ – الخصائص العامة للإسلام للدكتور يوسف القرضاوي ط مؤسسة الرسالة بيروت ط ثانية عام ١٩٨٣م.

١٢ – دراسات في الفلسفة الحديثة للدكتور محمود حمدي زقزوق ط دار الطباعة المحمدية بمصر عام ١٩٨٨م.

١٣ – دور الوقف في النمو الاجتماعي وتلبية حاجات الأمة للدكتور محمد عمارة بحث من مجموعة بحوث في ندوة نحو دور تنموي للوقف ط وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بدولة الكويت.

١٤ – روح الدين الإسلامي لعفيف عبدالفتاح طبارة ط دار العام للملايين ط ٢٧ عام ١٩٨٨.

١٥ – سنن الترمذي لأبى عيسى محمد بن عيسى بن سورة تحقيق أحمد شاكر ط الحلبى بمصر عام ١٩٧٧م.

١٦ – سنن الدرامي لأبى محمد عبدالله بن عبدالرحمن تحقيق السيد عبدالله هاشم ط عام ١٩٩٦م.

١٧ – سنن النسائي.

١٨ – سنن ابن ماجه.

١٩ – سنن أبي داود لأبي داود بن الأشعث السجستاني الأزدي ط دار إحياء التراث لبنان.

٢٠ – شروط النهضة لمالك بن نبي ترجمة عمر كامل مكاوي ط دار الفكر عام ١٩٦٩م.

٢١ – شبهات حول الفكر الإسلامي المعاصر للأستاذ سالم البهنساوي ط ١٤٠٩هـ ١٩٨٩م.

٢٢ – شرح السنة لأبي محمد الحسين بن مسعود البغوي ط المكتب الإسلامي بدمشق عام ١٩٧٧م.

٢٣ – الشريعة المفترى عليها للأستاذ سالم البهنساوي ط دار الوفاء بمصر ط أولى عام ١٩٩٥م.

٢٤ – الشورى سلوك والتزام للدكتور محمود محمد بابللى سلسلة دعوة الحق السنة الخامسة العدد ٥٣ مايو ١٩٨٦م.

٢٥ – صحيح الإمام البخاري ط دار إحياء التراث.

٢٦ – صحيح الإمام مسلم ط عام ١٣٢٩، ط المطبعة المصرية.

٢٧ – فلسفة الحضارة لإلبرت شفينسر ترجمة عبدالرحمن بدوبي دار الأندلس لبنان عام ١٩٨٠م.

٢٨ – القيم الكبرى التي يقوم عليها المجتمع الإسلامي والحضارة الإسلامية للدكتور محمد على الهاشمي بحث ألقى في اللقاء الرابع لمنظمة الندوة العالمية للشباب الإسلامي عن الإسلام والحضارة ودور الشباب المسلم بالرياض عام ١٩٧٩ ط أولى عام ١٩٨١م.

٢٩ – مدخل إلى الفكر الفلسفي لبوخينسكي ترجمة د. محمود حمدي زقزوق ط مكتبة الإنجلو مصرية عام ١٩٨٠م.

٣٠ – مدخل إلى التصور الإسلامي للإنسان والحياة لعابد توفيق الهاشمي ط دار الفرقان عمان ط أولى عام ١٩٨٢.

٣١ – المرأة وحقوقها في الإسلام لمحمد الصادق عفيفي سلسلة دعوة الحق ط الأمانة لرابطة العالم الإسلامي.

٣٢ – مسند الإمام أحمد بن حنبل.

٣٣ – معالم الثقافة الإسلامية للدكتور عبدالكريم عثمان.

٣٤ – معالم الحضارة وأثرها في النهضة الأوربية لعبدالله علوان ط أولى عام ١٩٨٠م الناشر دار السلام حلب وبيروت.

٣٥ – المعجم المفهرس لألفاظ القران الكريم لمحمد فؤاد عبدالباقي دار الأندلس ط لبنان.

٣٦ – المعجم الوجيز لمجمع اللغة بمصر ط عام ١٩٩٠م.

٣٧ – الموافقات للشاطبي ط دار المعرفة بيروت.

٣٨ – الموطأ للإمام مالك بن أنس تحقيق محمد فؤاد عبدالباقي.

٣٩ – نظرات في الثقافة الإسلامية لعز الدين الخطيب التميمي وآخرين ط دار الفرقان عمان ط أولى عام ١٩٨٤م.

الفهرس العام



الحضارة في المشروع الإسلامي
بين عطاء الماضي، ومشكلة الحاضر، ووعد المستقبل

نـــدوة

"التحديات التي تواجه الأمة الإسلامية في القرن المقبل"
المنعقدة بجامعة الإمارات العربية المتحدة
في الفترة من ٢٠ – ٢٢ ديسمبر ١٩٩٧م

للأستاذ الدكتور

يحيى هاشم حسن فرغل

أستاذ العقيدة بقسم الدراسات الإسلامية

«الحضارة في المشروع الإسلامي
بين عطاء الماضي، ومشكلة الحاضر، ووعد المستقبل»

بسم الله الرحمن الرحيم

((إنْ تمسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإنْ تُصبِكُمْ سَيِّئَةٌ يُفْرَحُوا بِهَا وإنْ تَصْبِرُوا وتَتَّقُوا لايَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيَئاً إنَّ اللَّهَ بمَا يَعْمَلُونَ مُحِيط)). ١٢٠ ال عمران .

((إنْ يُمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُه))

١٤٠ ال عمران.

القضية اليوم هي قضية التحدي الحضاري.

نحن على مفترق طرق كالذي حدث أيام انهيار الإمبراطوريتين الرومانية والفارسية، وانبثاق الحضارة الإسلامية على حسابهما.

وكالذي حدث أيام انهيار الدولة الإسلامية في الغرب، وتراجعها في الشرق، وانبثاق الحضارة الأوربية الحديثة على حساب طرد المسلمين من أوربا، واستعمارهم في آسيا وأفريقيا....

نحن على مفترق طرق :

فيه أخذت بوادر السقوط تظهر على مجرى الحضارة الأوربية الحديثة.

وأخذ الإنسان المعاصر يتلفت يمنة ويسرة، يحاول أن يفهم مغزى الأحداث ويتنبأ باليد التي سوف تتناول الشعلة : شعلة الحضارة.

ونحن نخطئ اليوم - خطأ تاريخياً - عندما نعرض الإسلام عرضاً مجزءاً مفتتاً.

ربما كان هذا العرض التجزيئي صالحاً عندما كان البناء الإسلامي قائماً شامخاً قوياً لا يحتاج إلى اكثر من سد ثغرة هنا أو ثغرة هناك.

أما اليوم ونحن نشهد الركام يتساقط حولنا فإن العرض التجزيئي يصبح عبثاً أو تخريباً أو خطيئة. لأنك عندئذ إنما تأخذ قالباً من البناء المتساقط لتقول : هذا هو الإسلام، وهو أمر يدعو إلى السخرية.

لن يفهم الناس شيئاً عندما تحدثهم عن أهل الحل والعقد، ولكنهم يستعدون للفهم عندما نقدم لهم ذلك ضمن الإطار الحضاري الكامل. ولن يفهم الناس عنا شيئاً عندما نحدثهم عن ربا التفاضل أو ربا النسيئة أو المضاربة، ولكنهم يستعدون للفهم عندما نقدم لهم ذلك ضمن خطة بناء الحضارة في الإسلام. ولن يفهم الناس عنا الكثير عندما نحدثهم عن حجاب المرأة وقوامة الرجل، ولكنهم يستعدون للفهم عندما تخرج لهم هذه القضية كجزء طبيعي للحضارة الإسلامية. ولن يفهم الناس شيئاً كثيراً عندما نحدثهم عن وجوب إعفاء اللحية وستر العورة، ولكنهم يدركون ذلك ضمن الحرص على شخصية

الحضارة الإسلامية بسماتها العامة.

القضية اليوم ـ وقد تهدم الكثير من البناء ـ هي قضية تقديم البناء في صورته الكاملة. البناء الكامل في جوهره الحقيقي. إنها قضية الحضارة.

وجوهر الحضارة في الإسلام يتلخص في أنها قامت على التصميم الهندسي الإلهي للحضـــارة :

بناء من العلم والعمل والإيمان.

ساحته التسليم للمالك.

طاقته المحركة العبودية للخالق.

آليته : سيطرة الآخرة على الدنيا.

وهكذا قامت الحضارة الإسلامية في أسمى صورها على يد بانيها الأكبر : محمد رسول الله .

الحضارة مشروع إسلامي

قيام الحضارة على هذه الأرض كان هو الهدف من هبوط آدم عليه السلام إليها.

ولما كان الهدف من خلق الإنسان هو في قوله تعالى : (وما خلقت الإنس والجن إلا ليعبدون)، فإن الهدف من إنزاله إلى الأرض هو في قوله تعالى : (إني جاعل في الأرض خليفة).

والخلافة هي جوهر مفهوم «الحضارة».

الخلافة هي أن يخلف بعض بعضا.

والمعنى الساذج لأن يخلف «بعض بعضاً» لا يمكن أن يكون هو المقصود في قوله تعالى «خليفة».

لأن جميع الحيوانات ـ بحكم التناسل ـ يخلف فيها بعض بعضا.

ولايصح أن يكون المقصود بالخلافة قاصراً على معنى الوكالة في التصرف، فهذه الخلافة بمعنى الوكالة أيضا ليست خاصة بالإنسان - فهناك الملائكة على سبيل المثال - إذن لابد من خطوة أخرى لفهم الخلافة هنـــا :

وهي أن يخلف اللاحق السابق.. في البناء على ماخلّفه السابق . فتنشأ من عملية الخلافة طبقات متوارثة من البناء تتلوها طبقات.. وذلك هو خصوصية الإنسان فيما نعرف. وتلك هي خلافته. وتلك هي حضارته.

ومن هنا جاء تساؤل الملائكة، واعتراض إبليس. جاء تساؤل الملائكة في قولهم : «أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء..». لا يمكن أن يعنى الملائكة بذلك المعنى الساذج من الفساد وسفك الدماء كالذي يحدث من أنواع الحيوان الأخرى، وإلا لكانوا في مستوى من الإدراك لا يسمح لهم بهذا الخطاب الإلهي.

ولكنهم في تساؤلهم لاحظوا الجانب السلبي في عملية الخلافة وبناء الحضارة. كانوا يعنون مستوى عاليا من الفساد، هو الفساد الحضاري أو الجانب السلبي في بناء الحضارة.

ولذلك فإن الله ردهم - إجمالاً - إلى الجانب الإيجابي الذي جهلوه (قال إنى أعلم ما لا تعلمون.)

إذن فالحضارة مقصود إلهي رفيع، ملحوظ أساسا في عملية إنزال الإنسان إلى الأرض.

ومن هنا جاء قوله تعالى : «هو الذي جعلكم خلائف في الأرض، فمن كفر فعليه كفره، ولا يزيد الكافرين كفرهم عند ربهم إلا مقتا ولا يزيد الكافرين كفرهم إلا خساراً» ٢٩ فاطر.

إذن فهي خلافة، وهي حضارة تحت مقاييس الإيمان والكفر.

وهي خلافة، وهي حضارة معتنى بها من الله منذ البداية. «فإما يأتينكم منى هدى فمن تبع هداي فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون».

وهي خلافة، وهي حضارة ممدود لها الحبل في عدالة الله إلى يوم أجل «ولا يزيد الكافرين كفرهم عند ربهم إلا مقتا، ولا يزيد الكافرين كفرهم إلا خسارا». «ثم جعلناكم خلائف في الأرض من بعدهم لننظر كيف تعملون». ١٤ يونس. «واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح». ٦٩ الأعراف. «واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد عاد وبوأكم في الأرض» ٧٤ الأعراف.

ومن هنا يحق لنا أن نقول إن الحضارة كانت هي الإبداع الذي من أجله خلق الله الإنسان، إبداعا إلهيا : كالفلك، والشمس، والقمر، والأرض والنهر، والزهرة، وكالغابة، وكبيت النمل، وكعش النحل.

هو إبداع من إبداعات الله تعالى، خلق الله من أجله : الأرض، والدنيا، والإنسان.

لا يتعارض مع كونه إبداعا لله أن كان الإنسان موكولاً إليه إقامته، أو بعبارة أدق : أن كان الإنسان باختياره عنصراً فعالاً في إقامته. لأن كون الإنسان عنصراً فعالاً وبإرادته في مكونات هذا الإبداع هو نفسه إبداع من إبداعات الله سبحانه وتعالى، ظهر بإرادته وقدرته وكرمه.

ومن هنا كان وجود الشيطان - أيضاً - على مشارف الحضارة ودخائلها عنصراً فعالاً في إقامتها، من حيث أنه يدعم مبدأ تكوين الإنسان المسئول، ويؤكد دور الإنسان المختار. الشيطان يتعرض للإنسان بالوسوسة، فيتغلب الإنسان على وسوسة الشيطان - أو ينهزم - فيستقيم أو يظهر دوره الفعال المختار المسئول. ولكن : «إن كيد الشيطان كان ضعيفاً» تماماً كما كان كيد أعداء يوسف - وهم أعداء له يسعون إلى موته وتأثيمه وسجنه الخ - يمضون بإرادتهم في مشروعهم، ولكنهم في نفس الوقت يمضون - ويكيد الله - في إقامة القدر النافذ الذي أراده الله : ليوسف «وكذلك مكنا ليوسف في الأرض» «ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين».

* * * *

حضارة لا إله إلا الله :

ومن هنا كانت أهمية «لا إله إلا الله» باعتبارها شرطاً في تحقيق التكليف الأكبر بإقامة «الحضارة».

ألم يقل محمد رسول الله–صلى الله عليه وسلم– («وجعلت لي الأرض مسجداً..» وقال الله تعالى : «وأن المساجد لله..» إذن فهي الأرض لله. وهي إذن أيضاً : الحضارة (الأرض + الإنسان + الزمن) لله. وأن الحضارة لله.

ومن هنا كان الرفض القاطع للشرك. فهو - أي الشرك - لا يعنى إهدارا للإنسان الذي يتجه لغير الله فحسب. ولكنه يعنى إهدارا للمشروع الأكبر «للحضارة» إذ تتجه لغير الله.أية حضارة تتجه لغير الله فهي فوق أنها حضارة مشركة هي أيضاً حرب على المشروع الذي يضعه الله (للإنسان والأرض والزمن) أي للحضارة.

لابد من «لا إله إلا الله «لتكون الحضارة لله» حسب المشروع الإبداعي، فإذا لم تكن كذلك كانت انحرافاً عن الحضارة الإلهية المرادة أصلاً.

انحرافاً إلى مشروع آخر ينظر إلى وجوده - كما ننظر إلى الشيطان أو إلى عصيان ما - باعتباره تأكيداً لكينونة المشروع الأصلي، أي ليكون المشروع - حسب التصميم الموضوع له - قائما باختيار الإنسان ومسئوليته حسب تكليف صاحب المشروع.

تصبح الحضارة «لغير الله» تأكيداً للحضارة التي هي «لله» في نفس الوقت التي هي فيه اعتداء على تلك الحضارة.

تماماً كما ينحرف أحد المنفذين لمشروع هندسي عن إرادة صاحب المشروع - ليقيم مشروعاً آخر - عمارة بدلاً من بيت، أو كوبري بدلاً من شارع - ليؤكد بظهوره هكذا أن الذي التزم إنما التزم باختيار وإرادة.

* * * *

وبنفس القدر كانت أهمية «محمد رسول الله» كعنصر أساسي لقيام

الحضارة. أهمية «محمد رسول الله» ومن قبل مبعثه : عيسى رسول الله، موسى رسول الله، إبراهيم رسول الله، نوح رسول الله.. إلخ.

لأنه بعد أن ترتبط الحضارة بكونها لله وحده، كان لابد من رسول يبين ماهو «لله»، وماهو «لغير الله».

رسول من صاحب المشروع مبين للمشروع. وبيان الرسول الذي يأتي هو شريعة الله سبحانه. وفي شريعته تأتى الملامح والمواصفات الأساسية للمشروع المطلوب.

وكان لابد أيضاً من أن يأتى الرسول بحيث يمكن تصديقه ويمكن تكذيبه ليقوم الإنسان بالمشروع مختاراً غير مقسور وفقا لأصول المشروع نفسه، غير مقسور كالنحل في مشروعه،غير مقسور كالنمل في مشروعه، غير مقسور كالقمر في مشروعه.

شريعة الله هي «كتالوج «المشروع الذي بغيره لايكون المشروع لصاحبه. بغيره لاتكون الحضارة لله.

أركان المشروع الإلهي للحضارة :

ولقد وضع مشروع الحضارة على الأرض وفقا لأركان ثلاثة من عناية الله : العلم، والعمل، والإيمان.

ولهذا أعد آدم منذ البداية وجهز بهذا العلم. «اقرأ باسم ربك الذي خلق خلق الإنسان من علق، اقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم علم الإنسان مالم يعلم». «وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم» ٣١ ـ ٣٢ البقرة.

وتعليم الأسماء هو في بعض وجوهه تعليم عملي لأنه تعليم لا من أجل العلم بالأشياء في حد ذاتها، ولكن من أجل «التعامل مع الأشياء».

وهذا العلم ـ العلم العملي ـ هو جوهر بناء الحضارة.

العلم العملـــي :

يقول تعالى : «كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته...» لم يقل ليتأملوا. وما تدبر آياته ؟ إتباع بعمل.

«يا أيها الذين آمنوا لم تقولون مالا تفعلون كبر مقتا عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون».

ويقول رسول الله صلى الله عليه وسلم (اللهم إني أعوذ بك من الأربع. من علم لا ينفع وقلب لا يخشع، وعين لا تدمع، وبطن لا تشبع). حديث شريف.

وفي الأثر : (من عمل بما علم ورثه الله علم مالم يعلم ووفقه فيما يعمل حتى يستوجب الجنة، ومن لم يعمل بما يعلم تاه فيما علم ولم يوفق فيما يعمل حتى يستوجب النار).

يقول عيسى بن مريم عليه السلام فيما يروى عنه في الآثار الإسلامية : (إلى متى تصفون الطريق إلى الدالجين وأنتم مقيمون مع المتحيرين، إنما يبتغى من العلم القليل ومن العمل الكثير).

ومن أقواله أيضا :(إن الزرع لا يصلح إلا بالماء والتراب، كذلك لايصلح الإيمان إلا بالعلم والعمل، ويلكم يا عبيد الدنيا إن لكل شيء علامة يعرف بها وتشهد له أو عليه، وإن للدين ثلاث علامات يعرف بهن : الإيمان والعلم والعمل). (١)

وعن سهل بن عبد الله التستري : (الناس كلهم سُكارى إلا العلماء، والعلماء كلهم حيارى إلا من عمل بعلمه).

وقال أبو سعيد الخراز: (العلم ما استعملك، واليقين ما حملك). أي على الفعل.

وعن ابن المنكدر قال :(العلم يهتف بالعمل، فإن أجابه حلّ وإلا ارتحل).

ويقول ابن عبد ربه : (العلم علمان : علم حمل، وعلم استعمل، فما حمل منه ضر، وما استعمل منه نفع).

ويعرف ابن فورك - من المتكلمين - العلم (بانه ما يصح ممن قام به إتقان الفعل.)

وعن أبى الدرداء (إنك لا تكون عالما حتى تكون متعلماً،ولا تكون بالعلم عالماً حتى تكون به عاملاً.)

وينضم إلى ركني العلم والعمل في المشروع الإلهي للحضارة على الأرض : ركن الهداية بالإيمان.

ذلك أنه إذا كان العلم حظا مبذولاً للجميع (علّم الإنسان مالم يعلم..) فإن العلم وحده لا يكفي، وبعبارة أدق : العلم الذي يرشح لا بتناء العمل عليه - هذا العلم وحده لا يكفي.

لابد من الهداية. وهي لا تعطى كما يعطى العلم - للجميع - وإنما تعطى لمن يتعرض لها بالإيمان والتسليم. لأن التسليم شرط بديهي في قبولها : «قل إن هدى الله هو الهدى.» ١٢٠ البقرة. «إن علينا للهدى..» الليل. «من يهد الله فهو المهتد.» ٩٧ الإسراء. «وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله.» ٤٣ الأعراف. «وإن اهتديت فبما يوحي إليّ ربى.» ٥٠ سبأ. (والله لولا الله ما اهتدينا..) صحيح البخاري

ولذلك كان أنفع الدعاء وأعظمه - كما يقول ابن أبى العز في شرحه للعقيدة الطحاوية - دعاءُ الفاتحة (أهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين).

إن العقل المتعلم - المستقل عن الهدى - يمكنه أن يصل إلى شيء من الظن، لكنه لا يصل مستقلاً إلى شيء من الهدى الذي تشعر فيه النفس بالطمانينة والسكون واليقين.

إن الفلسفات والعلوم التجريبية التي يصل إليها العقل مستقلاً خاضعةٌ لما تخضع له عقولنا من النسبية والنقصان.لذلك فإن ما نصل إليه اليوم من علم يظهر لنا نقصُه غداً، وما نزال نكتشف بتقدم البحث جهلنا، وهزال معارفنا، وحاجتنا إلى الهدى واليقين الذي لا تفرزه عقولنا.

في ظل العلوم التجريبية والفلسفات الناقصة يتقدم العلم التجريبي، ويطرد الحصول على منافع الدنيا، لكن الإنسانية في عملية بناء الحضارة لابد لها من أهداف ثابتة واضحة راسخة على مدى القرون، وإلا كان ضلالها عن أهدافها لا يمكن تلافيه أو البرء منه.

والعلوم النسبية تضل دائماً عن الأهداف البعيدة الراسخة. فهذا ليس من شأنها ولا يمت إلى قدرتها بسبب، ومن هنا كان الإنسان "حيوان الحضارة" بحاجة إلى مصدر خارجي يهديه إلى هذه الأهداف ويرسم لها الطريق : (الصراط المستقيم).

ومن هنا جاءت ملاحقة العناية الإلهية للإنسان وهو يُعَد للقيام بمهمته «بناء الحضارة» بعد أن «علمّه» جاءت هذه الملاحقة في قوله تعالى «فإما يأتينكم منى هدى فمن تبع هداي فلا يضل ولا يشقى، ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة».

ولا يتلقى الإنسان هذا الهدى إلا من نافذة الإيمان. و لكي يقوم الإيمان فالطريق في «التسليم».

ويتضح ذلك - في الذاتية الإسلامية - من حقيقة كبرى مؤداها أن الاتجاهات الفكرية البشرية مهما اختلفت ومهما وضعت من شروط - على اختلافها - للتوصل إلى المعرفة فإنها تتنازل عن شروطها هذه في الأسس التي تقوم عليها، وتؤمن بهذه الأسس إيمانا تسليمياً نزولا على حكم الضرورة العملية.

فعلت ذلك الفلسفة العقلية اليقينية، والفلسفة اللاادرية، والفلسفة التجريبية (١)، أقرت بذلك علنا، أو أقرت به خفاء.

ومن هنا كان خطاب الوحي إلى البشرية. وكان مدخل هذا الخطاب عن طريق «الإنذار باليوم الآخر» في جميع رسالات الأنبياء، كما تحدث عن ذلك القرآن الكريم، وفي رسالة محمد–صلى الله عليه وسلم– (كما جاء في القرآن الكريم أيضاً، وفي السيرة النبوية في وضوح شديد. «يا أيها المدثر قم فأنذر»

«يا معشر قريش أنقذوا أنفسكم من النار فإني لا أغنى عنكم من الله شيئاً».

والإنذار يصنع موقفا يتلخص في كلمتين :

خبر عن مجهول، يقابل بالتصديق أو يقابل بالتكذيب. وهو منطق عملي يركز فيه المنذر على أمر نمارسه في حياتنا العملية - جميعا مهما اختلفت فلسفاتنا - : الأخذ بالأحوط فيما يتضمن الخبر عنه تحذيرا من خطر محتمل «إن عليك إلا البلاغ» ٤٨ الشورى.

وهنا تبدأ الخطوة الأولى في الإيمان، وهي خطوة تحقق اليقين في النجاة. ولأنها خطوة مبنية على التسليم لله - في موازاة الذين يسلمون لغيره - فإنها تجر وراءها عناية الله بزيادة الهدى، وعنايته بزيادة الإيمان، وعنايته باليقين التام «هو الذي أنزل السكينة في قلوب المؤمنين ليزدادوا إيمانا مع إيمانهم».

وهكذا صنع إيمان أبى بكر وعمر وعلي وعثمان والصحابة والتابعون - وفقا لشروط عملية، طبقت فيما يتعلق بأركان الإنذار الأربعة : في مصدره، وموضوعه، وحامله، ومتلقيه.(٢)

«تبارك الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا».

هكذا وفقا للذاتية الإسلامية.

الأخروية :

إذن فالحضارة - وفقا للمفهوم الإسلامي مراد إلهي يصنع - باختيار وابتلاء - وفق الإرادة الإلهية.

وقيام حضارة أخرى تتصف بالإنسانية دون الإلهية هو ابتلاء وفرز يؤذن بتدافع حضاري محتوم.

ومن هنا فإننا نؤكد أنه لا أمل في قيام نظام إسلامي دنيوى بحت، حتى في الأمور الدنيوية، حتى في الأمور المتصلة بماديات هذه الدنيا. فالتصور الإسلامي لابد أن يجعلها مغموسة بالنظرة الأخروية. هذه هي طبيعة هذا

النظام.

وهذا هو اختيار الله لنا في هذا النظام.

فمن أراد نظاماً إسلامياً للحضارة فليدرك البعد الأخروي في كل فقرة من فقراته، وكل حلقة من سلسلاته...

والذين يتصورون قيام حضارة إسلامية دنيوية بحتة يجربون خدعة بلقاء، وسوف ينتهي بهم الطريق إلى سد.

لأنهم من البداية حاولوا أن يطلبوا من النظام الإسلامي للحضارة ألا يكون إسلامياً.

البعد الأخروي لابد منه عند اختيارنا للإسلام.

وتلك هي الحضارة الإسلامية في ذاتيتها التي تحققت.

وهي هي الحضارة الإسلامية في ذاتيتها إن أردنا لها أن تحقق مرة أخرى.

وهكذا وفقا للذاتية الإسلامية قامت الحضارة الإسلامية على أركانها الثلاثة المترابطة : العلم والعمل والإيمان.

حضارة فذة في تاريخ البشرية، مرت بأطوارها في البناء والاستقرار قرونا طويلة.

إن المشروع الإسلامي للحضارة باعتماده لقاعدة الربط بين العلم والعمل هو الذي خرج رجال الحضارة وجهابذة العلم من أمثال : ابن الهيثم، والكندي، والفارابي،وابن سينا، والبيروني، والطوسي، والبغدادي، والدينوري، والرازي، والقزويني، والإنطاكي، والزهراوي، والخوارزمي، وجابر، والجاحظ، وابن البيطار،وابن النفيس، وابن حيان، والإدريسي، والمسعودي، وابن بطوطة، وابن زهرة،.

والحقيقة الهامة هنا هي أن العلم التجريبي الذي حققته الحضارة الغربية الحديثة لم يقم على ميراث أوربي غربي بقدر ما قام على ميراث إسلامي.

يقول المؤرخ الأوربي.. اغناسيو أو لاغويه في (كتابه العرب لم يستعمروا أسبانيا) (لقد ولد الغرب المعاصر من أسبانيا «الفونس العاشر» ومن صقلية «فريدريك الثاني» وهما المعجبان بالحضارة الإسلامية المتحمسان لها، تلك الحضارة التي كانت كأنها «قابلة» أو أم «مرضع» للحضارة الغربية)(١).

وهذا المنهج التجريبي يدين في الحقيقة لروجر بيكون الذي يعترف في صراحة لا لبس فيها، وفي وضوح لاشائبة فيه أنه مدين في منهجه - الذي تبناه بعد قرنين - سميه فرنسيس بيكون.. مدين به للعرب و للحضارة العربية.

وهذه الحقيقة التي حاول الغربيون - وما زالوا يحاولون -جاهدين أن يخفوها فيما مضى يعلنها الآن بعض المنصفين منهم، مثل بريفولت الذي يتحدث في كتابه «بناء الإنسانية» عن أصول الحضارة الغربية، فيقول (إن روجر بيكون درس اللغة العربية، والعلوم العربية ، في مدرسة أكسفورد على خلفاء معلميه في الأندلس،وليس لروجر بيكون، ولا لسميه من بعده الحق في أن ينسب إليهما الفضل في ابتكار المنهج التجريبي، فلم روجر بيكون إلا رسولا من رسل العلم والمنهج الإسلاميين إلى أوربا المسيحية)(١).

و يعترف رتشارد نيكسون رئيس الولايات المتحدة الإمريكية الأسبق بفضل الحضارة الإسلامية فيقول : (بينما ذبلت أوربا في العصور الوسطى تمتعت الحضارة الإسلامية بعصرها الذهبي، وقد أسهم الإسلام بمجهودات هائلة في مجال العلوم والطب، والفلسفة، وفي كتابه «عصر الإيمان» لاحظ ول ديورانت أن الإنجازات الهامة في كل الميادين قد تحققت على يد مسلمين في هذه الفترة، وكان ابن سينا أعظم الكتاب في الطب، الرازي أعظم طبيب، والبيرونى أعظم جغرافي، وابن الهيثم أعظم صانع للآلات البصرية، وجابر أعظم كيميائي.. وكان العلماء العرب فاعلين في تطوير الفكرة العلمية.. وعندما دفع الرجال العظام من عصر النهضة الأوربية إلى الأمام حدود المعرفة.. فقد راوا أكثر لأنهم وقفوا على أكتاف العمالقة من العالم الإسلامي.)(٢).

ثم يقول ريتشارد نيكسون (إن حضارتنا ليست متفوقة على حضارتهم الموروثة، إن شعوب العالم الإسلامي كانوا أكثر مقاومة لجاذبية الشيوعية من مقاومة أولئك في الغرب، وإن رفضهم الواسع للمادية وثقافة الغرب الأخلاقية المسموح بها - أى في الغرب - رجعت عليهم بالفضل).

وطيلة خمسة قرون من ٧٠٠ إلى ١٢٠٠ م - كما يقول نيكسون - فإن العالم الإسلامي تقدم وتفوق على العالم المسيحي فيما يتعلق بالقوة الجيوبوليتيكية، ومستوى المعيشة، والمسئولية الدينية، وتقدم القوانين، ومستوى تعلم الفلسفة، والعلوم والثقافة.

وكما تقول المستشرقة الألمانية زيجفريد هونكة (إن العرب لم ينقذوا الحضارة الإغريقية من الزوال، ثم نظموها،ورتبوها،وأهدوها للغرب فحسب، إنهم مؤسسو الطرق التجريبية في الكيمياء والطبيعة والحساب والجبر والجيولوجيا وحساب المثلثات وعلم الاجتماع، لقد قدم العرب أثمن هدية : وهي طريقة البحث العلمي الصحيح التي مهدت لمعرفة الطبيعة وتسلطه عليها اليوم).(٣)

على أن المسألة في حقيقتها كانت أعمق مما تقدم

ذلك أن الحضارة الإسلامية لم يقتصر دورها على مجرد رعاية تراث الفكر الإنساني السابق عليها وتقديمه للحضارة الأوربية الحديثة، ولكنها تعدت ذلك – كما قدمنا –إلى وضع المنهج التجريبي، إنقاذا له من براثن الحضارة الأوربية القديمة (الإغريقية)، حيث كان – أي هذا المنهج – موضع الزراية والاحتقار من الإغريق، وأوربا في عصورها الوسيطة. يقول فيليب فرانك في كتابه «فلسفة العلم» (كانت العادات الاجتماعية – أي عند الإغريق – لا تشجع على الاتصال بين نمطي المعرفة : النظري والعملي، وإذا حاول إنسان ذو مكانة اجتماعية أن يطبق الفلسفة أو العلم على إحدى المشاكل التقنية فإنه كان يواجه بنقد مرير. وقد كان الاختبار العملي للمبادئ العامة يتطلب عملا يدويا، وكان العمل اليدوي في نظر اليونانيين القدامى شيئا يلائم

العبيد ولايليق بالرجال الأحرار).

ثم يقول : (لقد وجه أفلاطون نقدا شديدا إلى العلماء الذين عززوا نظريات الميكانيكا البحتة باختبارات مفردة وكما يقول بلوتارك :لقد عيرهم أفلاطون لأنهم أفسدوا الهندسة، وجعلوها تهبط من شيء عقلاني غير مادي إلى شيء مادي محسوس.. كان عليهم أن يستخدموا «المادة» وهي تحتاج إلى كثير من العمل اليدوي، وهي موضوع العمل الحقير)(١).

وعلينا هنا أن نتذكر أن العلماء الكبار الذين طبقوا العلم على العمل في الحضارة الأوربية القديمة كانوا من غير اليونان : مثل أبقراط.. كان من أسيا الصغرى، وأرخميدس كان من صقلية، و إقليدس، وبطليموس، كانا من الإسكندرية، أما أرسطو فكما يقول الفيلسوف الفرنسي روجيه جارودي (كان قد اهتم بالفيزياء وعلوم الطبيعة حبا في تصنيف العلوم السابقة، وليس سعيا وراء التجديد أو تسخير الاكتشاف للتطبيق)(٢).

في هذا الوقت أو بعده كان السلف من المسلمين يقررون أن (العلم يهتف بالعمل، فإن أجاب حل، وإلا ارتحل) وكانوا يستعيذون مما استعاذ منه الرسول-صلى الله عليه وسلم-(من علم لاينفع).

وإذا كان الإسلام قد أسدى للإنسانية خدمته الحضارية في توجيهاته للربط بين النظر والتطبيق، أو العلم والعمل – العلم التجريبي – لا بمساعدة التراث اليوناني، ولكن رغم أنفه، فإن الإنسانية ما تزال تتطلع إليه في لهفة، لتأخذ من يده التوجيه الذي تشتد حاجتها إليه اليوم، وهو الربط بين العلم والعمل والإيمان، الذي يجعل لهذا العلم هدفا أسمى، وغاية عليا من وجود الإنسان والعلم والحضارة، وهذا هو ما تحتاج إليه الإنسانية اليوم لتعالج أو تحد من الكارثة التي تندفع إليها الحضارة المعاصرة، بسبب تقدم العلم التجريبي الخالي من الإيمان بالله سبحانه وتعالى.

تفكك أركان المشروع :

لم يبدأ التداعي الحضاري في المجال الإسلامي إلا بدخول التفكك في هذه الثلاثية التي قام عليها المشروع. التفكك في ثلاثية العلم والعمل والإيمان.

وأول ما دخل التفكك وبعنف فإنه جاء في مفصل الربط بين العلم والعمل.

ولقد جاء هذا المرض الحضاري من الفلسفة اليونانية التي انفتح لها المسلمون من نافذة «العلم» والشغف بالمعرفة.

وانتشر هذا المرض عن طريق «المتكلمين» الذين خاضوا بحسن نية في مباحث نظرية لا صلة لها بالعمل، كالعلاقة بين الذات والصفات، وخلق الأفعال، وخلق القرآن، والجوهر والعرض.. الخ ومن هنا بدأ التداعي.

ومن عجب أن الحضارة الغربية المعاصرة لم تصل إلى ما وصلت إليه إلا بالتمرد على هذا التراث اليوناني والأخذ بالمنهج التجريبي كصورة من صور الربط بين العلم والعمل : درساً تلقته عن الحضارة الإسلامية.

ولكن هذا العجب يلحقه الأسى إذ أن هذه الحضارة الغربية لم تكمّل الدائرة الثلاثية فاستبعدت عنصر الإيمان، وقامت على العلمانية.

ومن هنا تتضح الفروق الذاتية بين المشروع الذي قامت - وتقوم - عليه الحضارة الإسلامية وبين مشروع قامت عليه الحضارة الغربية المعاصرة. يتضح الفرق أساساً في أن هذه الحضارة الغربية قامت في جوهرها نقضا من ناحية وتأكيداً من ناحية أخرى للمشروع الأصلي للحضارة «أن الحضارة لله». ثم تتضح الفروق بعد ذلك : في أن فصلت بين العلم والعمل من جانب، والإيمان من جانب آخر.

والمسلمون اليوم مدعوون إلى مشروعهم الأصلي الذي «جُعلوا» له، لا إلى مشروع آخر هو ذاته نقض لذات المشروع الأصلي : نقض للذاتية الإسلامية.

مشكلة الحاضر
مشكلة الذاتية الإسلامية

يقول الرسول-صلى الله عليه وسلم-: (بدأ الإسلام غريبا، وسيعود غريبا كما بدأ، فطوبى للغرباء) رواه مسلم في صحيحه. وفي مسند الإمام أحمد بسنده عن عبد الرحمن بن سنة أنه سمع النبي صلى الله عليه وسلم يقول :

(بدأ الإسلام غريبا ثم يعود غريبا كما بدأ، فطوبى للغرباء). قيل يا رسول الله : ومن الغرباء ؟ قال : (الذين يصلحون إذا فسد الناس ؛ والذي نفسي بيده ليحازن الإيمان إلى المدينة كما يحوز السيل، والذي نفسي بيده ليأرزن الإسلام إلى ما بين المسجدين كما تأرز الحية إلى جحرها).

صميم المعركة المحتدمة الآن هو في الدائرة الأولى لصنع الإنسان المسلم؛ في الفكر والثقافة؛ تلك الدائرة التي توشك أن تنهار. لقد تهاوت بالفعل دوائر خارجية، تم صناعتها وتهاويها تاريخيا، دائرة بعد الأخرى.تهاوت دائرة الدعوة بالجهاد. وتهاوت دائرة الدولة الإسلامية.وتهاوت دائرة التشريع. وبقي قلب البناء : الدائرة الثقافية الذاتية.

تلك الدائرة التي توشك أن تنهار.ولكنها توشك بعد ذلك أن تعود

صميم المعركة الدائرة الآن ليس في ظواهرها السياسية أو العسكرية، ولكنه في أعماق مشكلة الذات الثقافية.

هنا لم يتركنا الله ورسوله حيارى أمام الحل المطلوب.

وهو حل ثقافي في المقام الأول، وبخاصة بعد أن ذابت قلاع المقاومة المتقدمة.إنه حل المحافظة على الذات حل المحافظة على التميز

حل المحافظة على الخصوصية حل الغربة.

(بدأ الإسلام غريبا وسيعود غريبا كما بدأ، فطوبى للغرباء).

ببساطة لكي نكون ((نحن)). ولكي نتهيأ لنصر موعود ؛ ليس لغير الذات

الإسلامية. ولكي نقدم للعالم شيئا غير ما هو فيه مما بدت عوراته، وانحلت قوائمه، وأصبح على شفا جرف هار من انهيار مرصود.

ولكي نتعرف على ذاتية الوجود الإسلامي يجب أن نقرر مبدئيا أن الإسلام نسق عضوي متكامل. والنسق لا يقبل التفكيك. تماما كما هو الحال في أي كيان عضوي متكامل، كنظام الذرة، والخلية، وجسم الحيوان، والفلك .

وإذا قبلنا تفكيك نسق ما فإن هذا يعني أننا قبلنا تدميره : للقضاء عليه يقينا، ولحساب غيره احتمالا. الأنساق لا تفكك، وإذا فككت دمرت.

وإن بعض المفكرين في الدائرة الإسلامية - في هذا القرن العشرين بالذات -ليقومون بدور تفكيك الإسلام، ظنا منهم أنه من الممكن أن يعودوا إلى تركيبه بعد ذلك تركيبا عصريا:

فيأخذون منه «إفراد الله بالعبودية» ليروجوا للحرية «الليبرالية» : مع أن إفراد الله بالعبودية جزء من النسق الإسلامي العام، والليبرالية جزء من النسق العلماني العام ؛ فهيهات.ويأخذون منه تكريم الله «للإنسان» عبدا لله، ليروجوا لما يسمونه حقوق الإنسان :مع أن تكريم الله لعبده الإنسان جزء من النسق الإسلامي.وحقوق الإنسان جزء من النسق العلماني الذي تقوم عليه (عصبة !) الأمم.

ويأخذون منه رعاية الإسلام للفقراء ليروجوا للاشتراكية : مع أن رعاية الفقراء جزء من النسق الإسلامي، وإفقار الأغنياء جزء من النسق الشيوعي.

ويأخذون منه شرعية «البيع» و «الربح» ليروجوا للربا : مع أن الربح جزء من النسق الإسلامي في الاقتصاد،والربا جزء من النسق العلماني........ وهكذا ...

قالوا :تلك الحضارة (المسيحية اليهودية الإلحادية !!) هي العلم، والإسلام دين العلم. وتغافلوا عن وضعية العلم في البناء الإسلامي، وهي وضعية الأداة التنفيذية، لا الفيلسوف، ولا المشرع،ولا المنظر، ولا المقوم !!

قالوا : هي العقل، والإسلام دين العقل. وتغافلوا عن وضعية العقل في

الإسلام، وهي وضعية المخلوق الساجد لأمر الله.

قالوا :هي القوة والإسلام دين القوة. وتغافلوا عن وضعية القوة في البناء الإسلامي، وأنها مطلقة في جانب الله، مقهورة بشرع الله في جانب المخلوق.

قالوا : هي الرفاهية والغنى والجمال، والإسلام دين الغنى والزينة والجمال

وهكذا ...

صنعوا ملامح القربى والتشابه مع الحضارة الغربيه ليمحقوا تميز الإسلام، وليمحقوا ذاتيته، ولتظل القبلة الحضارية هناك.

صنعوا للحضارة الإسلامية ملامح القرب والتشابه، وأعلنوها بغير خصوصية لتنزلق في مزالق التبعية.

طمسوا ملامح الخصوصية، فأفقدوا الأمة شرط النصر من الله الذي إنما يأتي لمن ينصرون الله..

طمسوا ملامح الغربة، فأفقدوا الأمة شرط عودتها إلى الإسلام، أو شرط عودة الإسلام إليها

«... ويعود غريبا كما بدأ» حديث صحيح .

أسقطوا الخصوصية، فأسقطوا الملامح، فأسقطوا الشخصية وأهدروا الذاتية.

لمصلحة من ؟؟ «المعاصرة»كما يقولون !! وأولى بهم أن يسموا ذلك «اعتصارا».

لمصلحة«التجديد» كما يقولون، وأولى بهم أن يسموه التبديد.

إن الذي يقوم به هؤلاء المفكرون لن يعود على الإسلام بالمعاصرة ؛ وإنما يعود عليه بالتفكيك ومن ثم التبديد.

إن للإسلام شخصيته الحضارية، والشخصية كائن عضوي يؤخذ ككل، أو على الأقل تجري المحاولة في هذا الأخذ على هذا الأساس.

التفكيك قد لا يضر بالمادة أو الجماد. قطعة الحجر عندما تقسم إلى عشرة قطع فإن كل قطعة منها تظل منتسبة بالفعل إلى «الحجر» ولاتصبح شيئا آخر.

أما الشخصية – ككائن عضوي – فإنها إذا فككت لا تصبح هي هي ..

وكذلك لا تصبح هي هي إذا أعيد تركيبها وفقا لمنظومة أخرى.

إن فقدان الخصوصية الشخصية ليس بعثا ولكنه اقتبار.

لا يبعث الإسلام وهو أشلاء مختلطة بالمسيحية، أو باليهودية، بالاشتراكية أو بالشيوعية، بالرأسمالية أو الربوية، بالديموقراطية أو الليبرالية، بالدكتاتورية أو الأوتوقراطية أو الثيوقراطية، بالتقدمية أو التطورية أو الرجعية، بالوسطية أو الثورية، بالراديكالية أو الأصولية، بالعقلانية أو العلمانية أوالعلموية، بالقومية أو البعثية أو الماركسية، بالعصرنة أو الإنسانية أو عالم القرية الواحدة المحكومة بمجلس الأمن.

لقد ذهب –أو يجب أن يذهب –إلى مهملات المداد – قول بعضهم : (علينا أن نسير سيرة الأوربيين ونسلك طريقهم لنكون لهم أندادا، ولنكون لهم شركاء في الحضارة : خيرها وحلوها ومرها،وما يحب منها وما يكره، وما يحمد منها وما يعاب).

لقد ذهبت - أو يجب أن تذهب - إلى مزبلة الحاضر القريب بلايين الكلمات التى كتبها الاتباعيون للحضارة (المسيحية اليهودية الإلحادية) يروجون بها لها، ليجعلوها هي القبلة، بزعم أنها هي العصر، وأنها هي العلم.

ولقد كذبوا، فهذه الحضارة ليست هي العصر، وإنما هي المستبد بالعصر، وهذه نزعة إلى استعمار الزمان، بعد استعمار المكان، نزعة إلى استعمار التاريخ بعد استعمار الجغرافيا. أما العصر الحقيقي فهو عصر الله الذي اقسم به «والعصر إن الإنسان لفي خسر، إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر».

وهذه الحضارة ليست هي العلم، وإنما هي المحتكر للعلم، باسم القوة.

فالعلم والعلم التجريبي نفسه منهج بشرى قديم.- وللإسلام فيه دور رائد أصيل -.

وهو- أي العلم - مع ذلك ليس روح هذه الحضارة، ولا روح عصر هذه الحضارة.

روح هذه الحضارة، وروح عصر هذه الحضارة نعثر عليه في الدنيوية أو العلمانية. نعثر عليه في الصراعية او التطورية. نعثر عليه في الأصولية المسيحية والأصولية اليهودية. نعثر عليه في التخليط بين هذا كله مع الإلحادية.نعثر عليه في مسحة السفسطة اليونانية القديمة، التى حاصرها الفكر الإسلامي في سجن «العندية» ثم انبعثت على يد الفلسفة المعاصرة في مذاهب «التطورية» و «النسبية» و «التاريخية»..

ليست تلك إذن هي حضارة العصر أو حضارة العلم.

ذلكم تزييف لهذه الحضارة يراد به بعد ذلك تزييف للإسلام، فلا يعود الإسلام بذاته، أو بشخصيته.فلا يعود الإسلام غريباً، ولا يعود الإسلام إسلاماً، ولا يعود الإسلام.

ولا تظهر ذاتية الإسلام بالتفكيك، إنما تظهر بإدراك خصوصيته التركيبية، وهي تظهر في النظر إلى قضاياه الأساسية مقارنة بنظرة الغرب إليها.

ففي العلاقة بالله نجد المحور في الإسلام هو إسلام لوجه لله، وفي الغرب العصري نجد أرقى شكل من أشكال النفاق الفكري : إذ يعلن الحياد إزاء المسألة. !

وفي العلاقة بالزمن نجد المحور في الإسلام هو الأخروية. وفي الغرب نجد المحور هو الدنيوية.

وفي العلاقة بالآخر نجد المحور في الإسلام هو التعدد وصولا إلى التوازن ، وفي الغرب نجد المحور هو الصراع وصولا إلى الإبادة.

وفي العلاقة بالبيئة نجد المحور في الإسلام هو في الاستفادة منها مسخرة من الله مكفولة بشريعته. وفي الغرب نجد المحور هو المغالبة حتى وهم السيطرة.

وفي العمل من أجل الترقي نجد المحور في الإسلام هو الجهاد في سبيل الله، بينما نجد المحور في الغرب هو دعوى جبرية التقدم.

وفي قضية الحقوق نجد المحور في الإسلام يدور حول حقوق الله المنعم بحقوق الإنسان، بينما نجد المحور في الغرب هو حقوق الإنسان المنتهبة بأيدي قوانين صراع البقاء.

وفي قضية الضعفاء نجد المحور في الإسلام هو النصرة من الله بواسطة الضعفاء «... فإنما تنصرون بضعفائكم». بينما نجد المحور في الغرب هو النصرة على الضعفاء بواسطة السوبرمان.

وفي قضية التشريع نجد المفارقة التي لا تستبين إلا بالتسليم لله - الذي هو أساس الإسلام - هذا التسليم الذي لا يكون إلا بتطبيق الشريعة تطبيقاً كاملاً قد يعذر فيه تقصير المستضعفين، ولا يعذر فيه إنكار الجاحدين. الشريعة : أهدافاً، وأحكاماً، عامة، وجزئية. وإن يكن مع النزول على أحكام الواقع في التدرج والانتقال والتيسير، مع الأخذ بوسائل التنفيذ الحديثة المتجددة.

وقد يتعالم بعضهم فيقول : إن الوسائل الحديثة تجر معها قيما خاصة بها.

ونقول : نعم، لكن في التشريع الإسلامي العلاج لذلك. إذ نأخذ من هذه الوسائل تحت قواعد التشريع الإسلامي : الضرر يزال - ارتكاب أخف الضررين - سد الذرائع - رد المفاسد مقدم على جلب المصالح بعد حساب الموازنة بينهما.. إلخ.

نعم لقد درج الفكر - في المجال الإسلامي - المعاصر على اصطياد جهات التشابه بين الإسلام وبين غيره من الأديان والمذاهب والأنظمة، وجرى التركيز

على ذلك، حتى كدنا نرى كل دين أو مذهب أو نظام - قائماً بذاته هناك، يعلن تفرده وكينونته وشخصانيته ماعدا الإسلام.

فككنا الإسلام.

قلنـــــــا:

في الفلسفة اليونانية «العقل» وفي الإسلام «العقل»، ثم أخذنا بالفلسفة اليونانية

في الفلسفة المعاصرة «العلم» وفي الإسلام «العلم» ثم أخذنا بالعلموية.

في الفلسفة «النيتشوية» «القوة»، وفي الإسلام «القوة»، ثم أخذنا النيتشوية: في النظام العلماني «الدنيوية» وفي الإسلام «الدنيوية» ثم أخذنا بالعلمانية.

في النزعة الحضارية «المتعة» وفي الإسلام «المتعة» ثم أخذنا بالمتعوية.

في اليهودية «التوحيد» وفي الإسلام «التوحيد» وفتحنا الباب لليهودية.

في المسيحية «المحبة» وفي الإسلام «المحبة والرحمة» وفتحنا الباب للتنصير.

في الصوفية الهندية «النرفانا» وفي الإسلام «ابن عربي» وفتحنا الباب للنرفانا...... وهكذا. صار الإسلام مزقا وأشلاء...وفي ركام المزق والأشلاء تضيع الشخصية كما يضيع الوجود.

إذا كان «س» من الناس له أنف ففي كل واحد من الناس أنف. وإذا كان له «أمعاء» فلكل حيوان أمعاء... أين «س» إذن ؟ من هو «س» ؟ مزقناه. قتلناه. إذن فنحن أمام جريمة.

وأسلوب ثان في محاولات محو الذاتية : ذلكم هو الذي اتبعه المستشرقون منذ وقت غير قصير، وتابعناهم فيه إلى حد كبير. وهو أن تمزق حقائق الإسلام وتوزع على اكياس«جانبية» يسهل التخلي عنها : فهذا كيس «الصوفية» توضع فيه «المحبة». وهذا كيس«السلفية» يوضع فيه «الاتباع»

وهذا كيس «المعتزلة» يوضع فيه «التنزيه». وهذا كيس «المعاصرة «يوضع فيه «العقل أو العلم». وهذا كيس «الأصولية» يوضع فيه «الالتزام».

فإذا بما هو «الإسلام» أصبح «لاشيء»، وعندئذ تتصدى العلمانية لمئه فتصبح العلمانية إسلاماً أو الإسلام علمانية. ذلكم هو اسلوب التوزيع لميراث الإسلام !!

أما الأسلوب الثالث فهو ما رسمته المنطقية الوضعية أو المذهب التحليلي من منهج دقيق في التعامل مع الإسلام، وهو أن تؤخذ العناوين من تراث الحضارة الإسلامية وتفرغ من مضمونها الإسلامي، وتحقن بمضامين جديدة واقعية ؛ وكما يقول أساتذة الوضعية المنطقية (أن نملأ الصور المفرغة لتلك المبادئ بمضمونات جديدة) ؛ وعلى هذا الأساس يعاد تفسير مفاهيم الإسلام وعقائده، فيكون «الله» جل جلاله ماذا ؟ صفات، وتكون الصفات ماذا ؟ «العلم» مثلاً ؛ وهات «العلم» أفرغه من مضمونه القديم واملاه بالمضمون الحديث، فيصبح هو «العلم التجريبي».. و «يا دار ما دخلك شر». وهكذا....وتحول القضية برمتها إلى باطنية عصرية، أو إلى وجهة نظر لغوية!!!

هذه هي أساليب العصر الثلاثة :التفكيك بحثاً عن التشابه، والتوزيع من أجل التمزيق. والتفريغ من أجل التزييف.

هذه هي أساليب العصر في تدمير الذاتية الإسلامية... وهكذا ترتكب الجريمة الكبرى!

والمسلم في مستقر «الذاتية» ليس أمامه إلا أن يرفض هذه الأساليب جميعاً ويلزم بيته الذي هو : «الإسلام».

الإسلام هو «ما يميزه». وهو فيما يميزه ليس تلك الشطائر أو المزق أو «العرائس» التى تقدم من هذا الجانب أو ذاك.

المسلم يرفض الانسياق إلى تناول الإسلام من خلال رؤية يونانية، أو لاتينية، أو ماركسية أو براجماتية، أو تاريخية.. وهو يرفض الانسياق إلى تناول «عرائس» كاذبة مغشوشة تقدم إليه بعناوين من تراث قديم..وهو يرفض

الانسياق إلى مسارب التيه بتسمية ما هو من الإسلام بأسماء الفرق والمذاهب..

الإسلام هو كلمة «الإسلام» لفظاً ومعنى. وما يميزه هو معنى كلمته.

«إسلام الوجه لله» وسيطرة الآخرة على تصرفاته تحقيقاً لهذا «الإسلام».

إن الإبقاء على الذاتية إنما يكون بإبراز نقاط المفارقة والاختلاف : تلك بديهية لا يمكن أن تكون محل خلاف وإن غابت عنا طويلاً.

ففي الحضارة الغربية سيطرت الدنيوية، أما في الذاتية الإسلامية فسيطرت الأخروية.

في الحضارة الغربية التسليم «للإنسان» أما في الذاتية الإسلامية فالتسليم «لله».

ذلكم جوهر الذاتية الذي في ضوئه يعاد النظر في كل ما يبدو من مظاهر التشابه بين الإسلام وبين الحضارة الغربية، فإذا لكل شيء من هذا التشابه معنى مختلف.

ولا يعنى هذا رفض الحضارة الغربية جملة، إذ مع كون ذلك انعزالاً قاتلاً وانتحاراً جماعياً، فإن فيه افتئاتا على الله : لأنه لا تخلو هذه الحضارة من خير فيكون نكران هذا الخير نكراناً لنعم الله، وحرماناً من فضله.

وإذا كان لابد من الانتقاء واختيار ما يصلح فإن السؤال يظل قائماً : ما مقياس ذلك، ما مقياس ما يصلح وما لا يصلح ؟ «لنا» ؟

ذهب بعض الكاتبين إلى «أخذ التكنولوجيا» كما هي، وانتقاء بعض القيم النافعة. وهو رأى يحتاج إلى مراجعة وتمحيص. إذ لابد من مقياس. والمقياس هو في قلعة الذاتية الإسلامية القائمة على التسليم لله، والسيادة للآخرة.

عندئذ لابد من أن نعلن رفض استيراد ما يأتى من تلك الحضارة في باب القيم، والأهداف، والأحكام التشريعية العليا لأنها جميعاً جاءت تحت «سيطرة

الدنيوية».

ثم نعلن الأخذ بما عندهم من «الوسائل» التى يمكن أن نستخدمها لقيمنا وأهدافنا وشريعتنا أو بعبارة أشمل وأدق لتأكيد ذاتنا.

حتى التكنولوجيا لابد فيها من المراجعة. على أن يتم ذلك على أسس من أصول شريعتنا : في تحقيق المصلحة «من المنظور الإسلامي» وسد الذريعة «من المنظور الإسلامي» وارتكاب أخف الضررين «من المنظور الإسلامي» أيضاً.

وماعدا ذلك فمصيره الفشل المؤكد. وكما يقول الشاعر الفيلسوف محمد إقبال :

كل من أهمـــل ذاتيـــــه فهو أولى الناس طرا بالفنا

لن يرفي الدهر شخصيته اكـل من قلب عيـش الغربـا

وعلة الفشل هنا أن ضمائر ذواتنا ممغنطة بما لا يتفق مع أقطاب هذه الحضارة الغربية. إن المغناطيس الذي صنعت به الذاتية الإسلامية تكون أقطابه من : جبريل، ومحمد، والقران.. فكيف ينجح في داخله مغناطيس معاد : تكونت أقطابه من وليم جيمس، والقديس بولس، و كارل ماركس ؟!

كيف ينجح مجال مغناطيسي كهذا معاد لمغناطيس عقيدة «الملك» الذي هو بيد الله، ومغناطيس «الملكوت» الذي هو بيد الله كذلك ؟ «تبارك الذي بيده الملك وهو على كل شيء قدير» تبارك ١. «فسبحان الذي بيده ملكوت كل شيء وإليه ترجعون» ٨٣ يونس.

ولا يتوهم واهم أننا ونحن نتحدث عن ذاتية النسق الإسلامي نعنى حصيلة التراث التي تكونت عبر القرون. كـــــلا.

فما هكذا يكون موقف الإسلام من تراث أمة وشعب، وهو أصلاً صاحب الموقف الفاحص الناقد الرافض لمنطق «إنا وجدنا آباءنا على أمة.»

ولكن الذاتية الإسلامية تعنى ما هو إسلام خالص، نطق به «الوحي»:

قرآنا، وسنة.

وتراثا بمقدار اقترابه من القرآن والسنة :

إن هذه الذاتية تتلخص في :

الإسلامية : إسلام الذات لله.

الإلهيـــة : خضوع الذات لله.

الأخروية : ربط مصالح الدنيا بمصالح الآخرة.

٢ - مشكلة الأصالة والمعاصرة:

الأصـــالة : تعنى الرجـــوع إلى الأصل ، والأصل يعنى الإنســـان ، أو إنسانية الإنسان :

بفطرته التى فطره الله عليها في شطرها الضروري «الطبيعي» .كفطرة ربانية تقوم على جوانب متكاملة : جسدية وعقلية ، ووجدانية واجتماعية ، وكونية .

وشطرها الإرادي التكليفي القائم على التسليم الاختياري للخالق ، مقابل تسليم بقية المخلوقات تسليماً طبيعياً لخالقها سبحانه وتعالى . «ومن يسلم وجهه إلى الله وهو محسن فقد استمسك بالعروة الوثقى» ٢٢ لقمان.

والتسليم الاختياري الإرادي لله تعالى يعنى الدخول في دينه وهو الإسلام . «إن الدين عند الله الإسلام» ١٩ آل عمران.

والدخول في دين الله يعنى الاستقامة على نهج الله وصراطه «وأن هذا صراطى مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله .» ١٥٣ الأنعام ،والاستقامة على نهج الله تعنى التسليم لإرادته والخضوع لمقاصده سبحانه والعمل وفقاً لشريعته .

المقصود بالأصالة على هذا النحو إذن هو :

(إنسانية الإنسان = فطرته الطبيعية + فطرته الإرادية التسليمية التكليفية).

إن الأصالة في حياة الإنسان تعنى المستقر الثابت الممتد في الماضي والحاضر والمستقبل .

والمستقر الثابت هنا إما أن يكون مستقراً ثابتاً بالضرورة ، وهذا هو الجزء الذي وضعه الله فينا عقلاً وجسداً وروحاً واتصالاً بالمجتمع واتصالاً بالكون . فتسلم له ضرورة .

ثم هو الجزء الذي أراده الله منا فنسلم له اختياراً : ديناً وتشريعاً ، وخلافة في الأرض .

التراث :

ومن هنا يمكننا أن نتصفح التراث لنميز فيه بين ما يتفق مع الأصالة وما يتعارض معها . هنا يمكننا أن نقول : ليس كل ما في التراث أصالة . إذ ليس من المعقول - بداهة - أن يكون كل ما يلتقطه الإنسان في طريقه طوال الأحقاب والقرون إضافة للإنسان كإنسان : فطرة طبيعية وفطرة إرادية .

هناك الكثير جداً من التراث الذي لا ينتسب إلى الأصالة بدرجة أو بدرجات .

إن التراث ليس إلا الحصيلة التاريخية لحركة الإنسان : ما بين الأصالة والمعاصرة في وقت من الأوقات .

وإذا أردنا مزيد توضيح لهذه النقطة في مجال تراث الفكر الإسلامي فإننا نلقي نظرة سريعة على مسار هذا الفكر في عصوره الأولى ما بين الأصالة وما كان يسمى المعاصرة آنذاك .

فسوف نجد الخط البياني الذي يبدأ بمجموعة الإيمان بالنص إلى أن ينتهي في أقصى اليسار بمجموعة الإيمان بالفلسفة .

حيث نجد في أقصى اليمين : القرآن والسنة ، لنرتب بعدهما موقع الصحابة والتابعين ، ثم أئمة الحديث ثم أئمة الفقه ، ليدخل المسار بعد ذلك مع علماء الكلام : أشاعرة ومعتزلة ، ثم ما يسمى الفلاسفة المسلمون ، ثم أتباع الفلسفة اليونانية .

هذا كله موجود في التراث الإسلامي .

فليس بوسعنا إذن القول بأن كل ما في التراث أصالة . فليست نظرية وحدة الوجود أصالة ، وليست فلسفة إخوان الصفا أصالة . وليست نظرية العقول العشرة أصالة . وليس ادعاء الحلول الإلهي أصالة . وليست شيوعية القرامطة أصالة . وليست إباحية الحشاشين أصالة .

وإنما هو ماض ، يدرس لتعرف خباياه ومداخله ومخارجه لأهداف مختلفة .

وكما أنه ليس كل ما في التراث أصالة ...فكذلك ليس كل ما في الأصالة تراثاً .

فليس القرآن تراثاً ، وليس الوحي عموماً (قرآناً وسنة) تراثاً ؛وإنما هو الأصل ؛ أصل حاضر ، حي ؛ وينبغى أن نتعامل معه على هذا الأساس .

فأين يأتى دور التراث إذن ؟ هنا نقول : دور التراث ... ، أو بعبارة أصح : دورنا نحن مع التراث..هو أن نأخذ منه وندع . ومقياسنا في هذا الأخذ والترك هو : أن نأخذ منه كلما كان هذا الأخذ أقرب إلى الأصالة... وأقدر على المعاصرة ، ونترك : كلما كان الأخذ ابعد عن الأصالة وأعجز عن المعاصرة .

وإذا عرفنا الأصالة والتراث على هذا النحو عرفنا معنى المعاصرة . وعرفنا ما ينبغي من المعاصرة التى تحافظ على الأصالة وتتمشى معها .

معنى المعاصرة إذن :

أن نعيش بأصالتنا مع عصرنا .

نعيش بأصالتنا لأنها نحن .

مع عصرنا : لأن العيش مع العصر ضرورة واقعة أولاً ، ورسالة واجبة ثانياً .

أما أنه واقع ، فلأنها - أى المعاصرة - واقع زمني ، يتصف به كل البشر؛ إنه مثل السماء والأرض والشمس والقمر .. ، وهو ليس حكراً على لأحد ، وليس استعماراً للزمن ، يحق لأحد. إننا- واقعاً - لا يمكننا أن نغلق الأبواب دون عصرنا . فهو يقتحمنا ، ويجرفنا ، أردنا أم لم نرد:

التكنولوجيا ، الحروب النووية ، والفضائية ، الهندسة الوراثية ، ثورة الاتصال ... الخ.

إنه يتحتم علينا أن نعيش «عصرنا» . لكن بأي معنى ؟ هل نعيش «له»..؟ أو نعيش «معه» .. ؟

أن نعيش «لعصرنا» يعنى أن نكون ملكا له ، نفقد ذواتنا ، ونفرغ أنفسنا من محتواها، لنحشوها بكل ما يأتى من جديد ، تنتجه «المنطقة الاستعمارية للعصر» . فنفقد بذلك الأصالة من أول خطوة .

إن هذا منهج خاطئ ، وهو فوق ذلك منهج فاشل .

لأن أصالتنا تعيش في دمائنا ، وتنبض في أدمغتنا ، وتنبع من فطرتنا، يقول علي-رضي الله عنه وكرم وجهه- في وصيته لابنه الحسن : (اعلم أيا بني أنك خلقت للآخرة لا للدنيا)(١). وكتب عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - إلى العلاء بن الحضرمي وهو بالبحرين؛ يقول (فانظر الذي خلقت له ودع ما سواه ، فإن الدنيا أمد ، والآخرة أبد ، فلا يشغلنك شيء مدبر خيره ، عن شئ باق شره)(٢).

أما أن نعيش مع عصرنا ، فإنه يعنى أن نفهمه ، وأن نشعر بهمومه ، وأن نستغل إمكاناته لنعبره إلى المستقبل ، إلى ما بعد العصر .

إن هذا العصر سيال متحرك نحو المستقبل ، وعلينا نحن أن نساهم في وضع صورة ما بعد العصر . صورة المستقبل المفتوح . نعبر «المنطقة الاستعمارية للعصر» تلك التى رفعت أعلامها الحضارة المعاصرة ، بعد أن استعمرت الجغرافيا والتاريخ ، أعلنت أنها استعمرت «العصر» . وعلينا نحن أن نعيش مع هذا العصر لنعبره إلى ما بعده . ولعلنا بذلك نكون أكثر صلاحية لإبداع صورة المستقبل ، أكثر من أولئك المنغمسين في أحضان العصر .

إن المعاصرة بالنسبة لنا - إذا أردنا الاحتفاظ بالأصالة - لا تعنى العيش للعصر .

وإنما العيش معه ، أو بعبارة أدق : في موقع قيادته أو على الأقل في موقع التأثير فيه لحساب المشروع الإسلامي للحضارة . من أجل تقديم

المساهمة الإيجابية المبدعة لتغييره .

ولا يكون ذلك إذا أفرغنا ذواتنا وحشوناها بمحتويات العصر . وإنما يكون إذا احتفظنا بذواتنا ، وجعلنا من أصالتنا : إيماناً ، وعلماً وعملاً ، أدوات نعالج بها العصر من أجل المستقبل .

إنه لا يصح أن نخسر العصر ، تماماً ، كما أنه لا يصح أن نخسر الأصالة .

إن التقوقع والجمود والهروب من العصر خيانة لرسالة الأصالة فينا .

إن الأصالة بشقيها : الطبيعي والاختياري .. تدعونا إلى الإمساك بناصية العصر .

إذا خسرنا العصر خسرنا الأصالة ، لأن الأصالة تدعونا إلى إعادة تشكيل العصر ، من أجل إعادة تشكيل المستقبل .

ومن الناحية الأخرى : فإننا إذا خسرنا الأصالة خسرنا العصر أيضاً، لأننا عندما نخسر الأصالة نخسر أنفسنا ، ومن خسر نفسه فإنه لا يملك شيئاً .

وعلى أساس ما تقدم فإنه يمكننا أن نقول :

ليست الأصالة مناورة لفظية ، أو مراوغة فكرية ، أو بعثا للأموات ، أو إقامة للمهرجانات ، أو تفتيشا عن خامل الثقافات .. أو استعراضاً لألوان الفلكلور ، أو تخشعاً أمام قبور الفراعنة ، أو انتشاء بأعياد النيروز ، أو تغزلاً بمكارم قحطان ، أو تعصباً لما يسمى التراث ...كلا ، إنما الأصالة بكلمة بسيطة هي :

الاستقامة على فطرة الله ، طبيعة فينا ، و ديانة منزلة علينا .

كذلك فإن المعاصرة ليست هي : القبعة ، أو الجينز ، أو الفيديو ، أو الرطانة بلغات العالم المتحضر ، أو اقتناء للوحة لفان جوخ ، أو الرقص في أعياد الميلاد ، أو تبادل الكؤوس ومخاصرة النساء في الحفلات ..ولكن

المعاصرة هي : تحرير العصر من الأسر ، وحث الخطى نحو المستقبل إلى عصر جديد ، نخط فيه سورة العصر على أعلام الأمم ، أو هيئة الأمم إن شئت... «والعصر إن الإنسان لفي خسر ، إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق ، وتواصوا بالصبر».

يقول رسول الله–صلى الله عيه وسلم–:(ما من مولود إلا يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه ، أو يمجسانه ، كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء) رواه البخاري ومسلم .

«فأقم وجهك للدين حنيفاً ، فطرة الله التى فطر الناس عليها ، لا تبديل لخلق الله ، ذلك الدين القيم» ٣١ الروم .

واللـــــــه أعلم

(٢) مشكلة الإبادة

يخطئ الفكر الإسلامي المعاصر خطأ جوهرياً عندما يناقش موضوعاته ومشاكله(١) بعيداً عن الإطار العام لها الا وهو الذاتية الإسلامية وصراع الحضارات.

إن ما يحكى عنه بعض الكتاب من اعتراف الإسلام بتعددية الأديان أو تعددية الحضارات، إنما هو نوع من الخلط أو الإبهام . فالتعددية التي جاء الاعتراف بها في الإسلام إنما هي تعددية الأمر الواقع ، وليست تعددية الأمر التكليفي ، أو ما ينبغي أن يكون .

تعددية الأمر الواقع في الأديان كما في قوله تعالى «لكم دينكم ولى دين».

تعددية الأمر الواقع في الشرائع كما في قوله تعالى - وهو بصدد توجيه الرسول–صلى الله عليه وسلم– ((في التعامل مع أهل الكتاب)) فاحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق لكل جعلنا منكم شرعة ، ومنهاجا ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة، ولكن ليبلوكم فيما آتاكم فاستبقوا

الخيرات ، إلى الله مرجعكم جميعاً، فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون».

وهي تعددية الأمر الواقع في الحضارات في قوله تعالى «ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيراً ، ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوي عزيز» .

تعددية الأمر الواقع بين إيمان وإسلام وإحسان في جهة ، وكفر ونفاق وفساد ومعصية في جهة أخرى ، وليست تعددية الأمر التكليفي المطلوب ، ولا تعددية الأمر الذي ينبغي أن يكون .

ففي الإسلام «إن الدين عند الله الإسلام» ، «ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يُقبل منه».

«قل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر ، إنا أعتدنا للظالمين ناراً أحاط بهم سرادقها ، وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوى الوجوه بئس الشراب وساءت مرتفقا» ٢٩الكهف ، «وكم أهلكنا قبلهم من قرن هل تحس منهم من أحد أو تسمع لهم ركزا» ٩٨مريم .

وفي الأمر الذي ينبغي أن يكون ليس إلا شريعة واحدة بين الأنبياء جميعاً .ولا تختلف بين نبي ونبي ، ورسالة هنا ورسالة هناك إلا اختلافاً عارضاً - بحسب الاختلاف فيها بين عالمية ومحلية ، وخالدة ومؤقتة - اختلافاً لا يعني الخلاف، كما يفيد ذلك قوله تعالى «شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً والذي أوحينا إليك ، وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه .» .

وفي الأمر الذي ينبغي أن يكون ليس إلا حكم الله وحده «ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون .» ... «فأولئك هم الفاسقون» ... «فأولئك هم الظالمون .» .

وفي الأمر الذي ينبغي أن يكون ليس إلا حضارة واحدة «إني جاعل في الأرض خليفة» «ولينصرن الله من ينصره» .. «وإذا قيل لهم لا تفسدوا في الأرض قالوا إنما نحن مصلحون ، ألا إنهم هم المفسدون ، ولكن لا يشعرون.».

الاختلاف الموضوعي بين الحضارتين :

وعلى هذا الأساس - من الاعتراف بذاتية الإسلام - علينا أن نعترف بأن هناك تناقضاً بين النسق الإسلامي - أو بتعبير آخر بين الحضارة الإسلامية - والحضارة التي تسمى «غربية تارة ، وأوربية تارة ، وعالمية تارة أخرى» .

وهو إذن تناقض موضوعي : تماماً كما يكون التناقض بين المحافظة على «ذات» في مقابل المحافظة على «ذات» أخرى . ويخطئ من يظن أن هذا التناقض - أو الصراع - يرجع فحسب - إلى ثار تاريخي ، أو كراهية انفعالية متبادلة أو إلى سوء الفهم بين الجانبين . كلا ليس الأمر كذلك .

ليست القضية أننا طردناهم من الشرق الأوسط قديماً ، حيث هو في نظرهم قد كان مستعمرة أوربية : يونانية ، ثم رومانية ، لقرون طويلة ، ثم قضى عليها الإسلام .

وليست القضية أننا طردناهم - كما يعتقدون - من الجزيرة العربية ، تلك التي يقول عنها القس الشهير «زويمر»: : إن للمسيح الحق في استرجاع الجزيرة العربية ؛ - نعم هكذا - أو طبقاً لقول القس جيمس كانتين مؤسس الإرسالية الأمريكية عام ١٨٨٩ (إن من واجبنا أن نعيد هذه المنطقة إلى أحضان المسيحية)!!.

ليست القضية أننا أنزلنا المسيح إلى منصب النبوة ، وحرمناه مجد الألوهية .

وليست القضية أنهم ضربونا بقبضات شديدة استمرت قرنين فيما يسمى الحروب الصليبية .

وليست القضية أنهم افتروا على الله الكذب وشتموا رسول الله ، وهتكوا مقدساتنا، وقذفوا أمهاتنا وكتبوا في أعراضنا ما لم يكتبه «اليهود» عن «مريم» .

وليست القضية أنهم طردونا من الأندلس ، أو أزاحونا من على حدود فرنسا ، أو أزهقوا وجودنا في مناطق من أوربا الشرقية وشمال البحر

الأبيض المتوسط ..

وليست القضية أنهم يسفحون دماءنا في أفريقيا ، وأوربا ، ويقطعون شرايينا في آسيا، ويتركونها تسفح أنهاراً وجداول ..

وليست القضية أنهم أخرجوا فلذات أكبادنا من فلسطين ويستوردون إليها من لا يكادون يعرفون أكثر من أسماء قبائلهم ممن يسمون «الفلاشا» .. أو من أشباههم.

ليست القضية ذلـــــــك فحسب .

لو أن القضية كانت ذلك ـ فحسب ـ لجاز للبعض أن يخدروا وعينا بكلام عن نسيان الماضي ، وتصفية الأحقاد ، واستقبال النظام العالمي الجديد «بأيد متشابكة وقلوب مفتوحة»....كـــلا ...

إن التناقض بين ذاتية الحضارة الإسلامية ، وذاتية تلكم الحضارة الغربية ، أو «الأوربية»، أو «العالمية» تناقض موضوعي تحركه النظرة إلى المستقبل ، أكثر مما تحركه مواريث التاريخ ، أو عقم الحاضر ...

تناقض يتحرك بطبيعته من كونهما حضارتين متنافستين على «المستقبل».

حضارتين تتصف كل منهما «بالعالمية» ...

فالإســـــلام ديـــــــن «عالمي» وحضارة عالمية .

وهذه الحضارة ـ الغربية ـ تعلن على الأشهاد أنها حضارة «إنسانية» وتصدر إلى أنحاء العالم قيمها ومفاهيمها فيما تسميه «الديموقراطية» و«حقوق الإنسان» و«قرارات مجلس الأمن».

حضارة أخذت تدس أنفها في كل دولة ، ومدينة ، وشارع ، وزقاق ، وبيت ...أخذت تقول : نعم ، وتقول : لا ، في شئون السياسة والاقتصاد ، والتربية ، والإعلام ، والحرب، والثقافة والرياضة ، وأوقات العمل ، وأوقات الفراغ ..

وهي تتسرب بكلمتها تلك تحت شعار «العالم الذي أصبح كقرية» عن طريق : الخبر ، والجندي ، والكمبيوتر ، والقروض ، والمنتديات، والمؤتمرات(١)، ومراكز البحوث ، والسلام الزائف .. .

وهي مستعدة لإدخال كلمتها عن طريق النظريات المزيفة عن «نهاية التاريخ»، وفوكوياما ، أو عن طريق كلمة وقحة لمن يقول لك : أنت تأكل خبزهم فيكف ترفض «هُمْ». !

نعم ، حضارة تزعم أنها إنسانية ، عالمية ، والإسلام رسالة عالمية أيضاً . ومن هنا كان التناقض شيئاً غير قابل للنسيان . كان التناقض بين حضارتهم وبين الإسلام - كدين وحضارة - تناقضاً موضوعياً ، ومعركة على «المستقبل».

وللأسف فإنهم يدركون هذه الحقيقة أكثر مما ندركها نحن ..فهم أساتذة «تاريخنا» الذي نتعلمه منهم ... وهم أساتذة الاجتماع والنفس .. وهم أساتذة الاقتصاد ... وأساتذة الفلك والفضاء ...وهم أساتذة الاستراتيجية ، والسياسة ، والحضارة ...

هم يدركون بمقتضى استاذيتهم لعلم الحضارة : أنه لا مكان في العالم لحضارتين «عالميتين» ... إلا أن يقع بينهما تنافس ، وتزاحم ، وتدافع ، وتآكل في الحدود ، وصراع على محل «القلب» ..

وإذن فسيلعنهم تاريخهم إن تركوا فريستهم - نحن - بعد أن اصطكت الركب ، وأناخت الأقدام ... إنهم يدركون هذه الحقيقة ويحسبون أنهم يلعبون «الآن» الدور الأخير في معركتهم مع هذه الحضارة «الإسلامية» ليقذفوا بها إلى مكان سبق أن قذفوا إليه «الهنود الحمر» !! هم يدركون هذه الحقيقة ويعلمون - أكثر مما علموا عن الهنود الحمر - أنهم يتعاملون مع حضارة «عاتية» دوختهم واستعصت عليهم في وقت أصبح فيه وُرّاث هذه الحضارة في أضعف حالاتهم وأحط أحوالهم.

ولذا فإن ضعفنا لا ينسيهم خطورة حضارتنا ، ولا ينسيهم خطورة انبعاث هذه الحضارة مرة أخرى . إن ضعفنا - الذي يعيرنا به أفراد منا

يسيلون بكلماتهم كما يسيل الحوض بالماء النازل فيه ـ هذا الضعف لا ينسيهم قصوائية المعركة التي تدور ، ولكنه يُسيل لعابهم لضربتنا الضربة الأخيرة ، وللقضاء علينا القضاء النهائي .

إنهم «يعتقدون» أنهم أمام الفرصة التاريخية التي إن أضاعوها فسوف تدور الدائرة عليهم من جديد .

لـــذا فإنهم يصفوننا جغرافياً ، ويصفّوننا جسدياً ، ويصفّوننا تاريخياً، ويصفّوننا حضارياً .. يزهقون قطرات الدم الأخيرة من عروق حضارتنا ، من حقيقة ذاتنا . من جوهر وجودنا .

إنهم يدركون أن المعركة معركة حضارية موضوعية بين حضارتين عالميتين تتقاتلان على «المستقبل».

ومن هنا فإنهم يلعبون معنا اللعبة بوجه جامد ، وعصب بارد ، وبسمة المشفق على «الذبيح».

كأنه يقول : لماذا تتعب نفسك ، وتتعبنا معك ، فأنت قدرنا ، ونحن لا نتركك .. فتعال ساعدنا على أن ندخلك أحضان الفناء .

إنهم يقتلوننا ، نعم . وهم يقتلوننا بإشفاق ؟ نعم !! لأن نظرتهم إلى القضاء علينا نظرة موضوعية !! تماماً كالذي يذبح شاة ..ويربت على وجهها، وربما ... يقبلها ، ثم يذبح !!هكذا حالهم معنا ، وهكذا حالنا معهم !!

يقتلوننا بالمذاهب الفلسفية ، وبالروح العلمية ، ومناهج البحث .

يقتلوننا ويستغربون : لماذا لا نُقتل ؟ !

وللأسف ـ الذي يصل إلى حد الكارثة ـ ينخدع البعض منا ببسمة القاتل، فينهضون إلى مساعدته.

وللأسف ـ الذي يصل إلى حد الكارثة ـ ينخدع البعض منا ببسمة القاتل، فينهضون إلى مساعدته بهدهدة الذبيح .

نعم ؛ ولقد ساعدناهم ، وساعدناهم من قبل كثيراً .

ساعدناهم بالاعتداء على ذاتية الإسلام .

ساعدناهم بتفكيك النسق الإسلامي .

وساعدناهم بتزييف «الكلمات» و«المصطلحات» الإسلامية .

افهمونا أن الغرب قد جاء إلينا من أجل «الاستعمار» . وابتلعنا الكلمة ، وقد كان الصحيح أن يقولوا إنه جاء إلينا من أجل «الاستخراب» .. وأفهمونا أن استعمارهم - أو استخرابهم - هو من أجل «القطن» ، لتشغيل مصانع النسيج في يوركشاير ؟ والآن ماذا بعد «القطن»..؟

وأفهمونا أن استعمارهم - أو استخرابهم - هو من أجل قناة السويس . والآن ماذا بعد قناة السويس ..؟

وأفهمونا أن استعمارهم أو استخرابهم - قد جاء من أجل البترول . والآن أو بعد الآن - ماذا يكون بعد البترول ؟ !

إنها «التعمية» على الهدف في عملية الصراع الحضاري ؟!

ذلك أنه قد كان لنا - وما يزال - زعماء فكر ، هم خريجو كلية فكتوريا، والميرديديه، وقهاوى باريس ، وشارع الشانزلزيه ، وقبعات التخرج في عقر جامعاتنا !!

فلم يكن لفم هؤلاء - وهو ممتلئ بشرابهم - أن ينطق بأن القضية صراع حضارات.

وعندما ظهرت الكلمة على لسانهم من ناحية ، ومن ناحية أخرى بعد أن انكشف الغطاء - في صراعنا معهم - عن التأخر الحضاري الذي «نتمتع» به، بعد أن ظهرت الكلمة وأنها «صراع الحضارات» ، جرى تزييفها مرة أخرى فقالوا : هو صراع حضاري ؛ ولكنه يعنى أن «نتحضر» مثلهم .

أن نعيش كما يعيشون . ونلبس البدلة كما يلبسون ونحلق الذقن كما وليتهم أرادوا من ذلك أن نأخذ من حضارتهم «الوسائل» التي تعيد الحياة إلى حضارتنا ، والقوة إلى «وجودنا» ؛ والسلامة إلى «نسقنا»..!!...لا... ولكنهم

يهدفون إلى أن نخسر حضارتنا ، ونعيش بحضارتهم .

ازاحوا الفهم الصحيح لحقيقة صراع الحضارات وأنه صراع يدور بين حضارتين تتمتع إحداهما - اليوم - بالسيادة على العالم ، وتنزوى أخراهما في جمود .

صراع بين حضارتين ، إحداهما يمكن أن نسميها «إنسانية» بحق !! أى يستقل بها الإنسان فلسفة وتوجهاً ، وتطبيقاً ، وأخرى «إسلامية» إلهية!!

نعم : فالإسلام دين حضارة ؛ وقد وضع حجر الحضارة الإسلامية على الأرض في تلك الزاوية التي كتب عليها قوله تعالى «إني جاعل في الأرض خليفة.» .

فالحضارة وفقاً للمفهوم الإسلامي مراد إلهي ، يصنع وفق التكليف الإلهي ، وقيام حضارة مقابلة تتصف بالإنسانية دون «الإلهية» ، هو إعلان لمعركة حضارية موضوعية بالمفهوم الصحيح لهذه الكلمة .

لن تنتهي هذه المعركة في تصورهم إلا بإبادة الإسلام وحضارة الإسلام.

ولن تنتهي في تصورنا إلا بصنع الحضارة وفقاً للتكليف الشرعي .

عداؤهم لنا

بين سوء العرض وسوء الفهم وسوء القصد

ليست القضية أن المسلمين هم المسئولون عن عداء الغرب لهم ، حيث يسيئون عرضهم للإسلام ...

ولكنها على العكس من ذلك ، أنهم في الغرب يتجاوزون سوء العرض هذا ويذهبون إلى عمق علاقتهم بالحضارة الإسلامية ؛ باعتبارها خطراً موضوعياً على حضارتهم . إنه من السطحية والسذاجة - إن لم يكن من التآمر - أن يظن البعض منا أن المسألة ترجع إلى طريقة عرض الإسلام... وتنتهي المشكلة .

وإلا فـإنه في كل دين ، وفي كل مـذهب ، وفي كل نظرية ، وفي كل أيديولوجية هناك من يسئ العرض ، ولا أحد من الجادين يتوقف عند أولئك الذين ينبتون على هامش هذه الأديان والمذاهب ممن يسيئون العرض ؛ جهلاً أو قصداً ....

في المسيحية هناك من يسيء العرض . وفي الديموقراطية هناك من يسيء العرض . وفي الليبرالية هناك من سيء العرض . وفي الاشتراكية هناك من يسيء العرض . ولا تكون هناك نهاية المطاف .

ويبتلى الإسلام بمن يسيء العرض من المبشرين، والمستشرقين، أوالجهلاء .. تماماً كما هو الحال مع غيره ، لكنه هو وحده الذي يقولون عنه: لولا سوء العرض ...

يا سادة : إن في الغرب رجالاً يحققون ، ويدققون ، ويذهبون إلى المصادر الأصلية ، كعلماء وخبراء وفلاسفة ، وإعلاميين ....فما هي القضية إذن .. ليست القضية إذن قضية سوء فهم ، أو سوء عرض ..

القضية أنهم هناك يدركون الخطر الموضوعي الذي يأتيهم من انبعاث الحضارة الإسلامية مرة أخرى ، ثم يذهبون يشوشون على منطلقاتهم وأهدافهم ويستأجرون العملاء من سماسرة الثقافة والإعلام ليشيعوا مقولات

ساذجة تبعدنا عن أصل المشكلة وتضللنا عن جوهر القضية . وإلا فقولوا لنا هل كان أرنست رينان متأثراً بسوء عرض الجهلاء منا للإسلام وهو يقدم كراهيته للإسلام في ذورته الاكاديمية : إذ يقول في خطاب افتتاحي في الكوليج دوفرانس حول تصنيف الشعوب السامية في تاريخ الحضارة : (...الشرط الأساسى لتمكن الحضارة الأوربية من الانتشار هو تدمير كل ماله صلة بالسامية الحقة : تدمير سلطة الإسلام الثيوقراطية ، لأن الإسلام لا يستطيع البقاء إلا كدين رسمي ، وعندما يختزل إلى وضع دين حر وفردي فإنه سينقرض . هذه الحرب الدائمة، الحرب التي لن تتوقف إلا عندما يموت آخر أولاد إسماعيل بؤسا ، أو يرغمه الإرهاب (!!) على أن ينتبذ في الصحراء مكاناً قصيا . الإسلام هو النفي الكامل لأوربا ، الإسلام هو التعصب ، الإسلام هو احتقار العلم ، هو القضاء على المجتمع المدني ، إنه سذاجة الفكر السامي المرعبة ، يضيق الفكر الإنساني ، يغلقه دون كل فكرة دقيقة ، دون كل عاطفة لطيفة ، دون كل بحث عقلاني ، ليضعه أمام حشو سرمدي : «الله هو الله» المستقبل هو إذن لأوربا ، ولأوربا وحدها ، ستفتح أوربا العالم ، وتنشر فيه الدين الذي هو الحق، الحرية ، احترام البشر ، هذا الاعتقاد القائل بأن ثمة شيئاً ما إلهياً في صلب الإنسانية).(١)

أو فقولوا لنا لماذا يكتب «باول شمتز» مثلاً في كتابه «الإسلام قوة الغد العالمية» قبيل الحرب العالمية الثانية ـ ليُحذر من تواكب الحركة الإسلامية مع الحركة القومية العربية الإسلامية وما يمثله ذلك من خطر محدق بالغرب!! يقول المؤلف (إن انتفاضة العالم الإسلامي صوت نذير لأوربا ، وهتاف يجوب آفاقها يدعو إلى التجمع والتساند الأوربي لمواجهة هذا العملاق الذي بدأ يصحو ويزيل النوم عن عيني).

حتى إنه يقلل من أهمية افتقاد العالم الإسلامي للتقدم التكنولوجي في هذه المعركة التي ينذر قومه بها ، إذ يقول (من الممكن أن يعارض المرء هذا الرأي .. فإن الإسلام فقد سيطرته على بعض الأشياء المادية ، وخاصة ما

يتصل بالحرب ، فهو لم يلحق بالتقدم التكنولوجي الحديث . ولا أستطيع أن أدرك لماذا لم يعوض الشرق الإسلامي ما فاته في هذا الميدان ، إذ لا تحتاج العلوم الحديثة إلى طبيعة عقلية خاصة ، بل يتطلب الإلمام بها والتفوق فيها الخبرة وتوجيه الخبراء.

ومن المؤكد أنه غالباً ما يحدث أن تكون حضارة ذات منزلة عالية في التقدم التكنولوجي .. هي أقل درجة من حضارة أخرى لم تبلغ تطورها بعد في هذا المجال ما بلغته الأولى .

إذن فهناك احتمال كبير في أن يصبح شعب- ظهر حتى الآن أن مواهبه في الناحية التكنولوجية ضعيفة- سيداً على شعب آخر استولت التكنولوجيا على حواسه ومشاعره ، فلم ينقذه أحد .. لماذا لا يتعلم العالم الإسلامي ما تعلمناه في مجال التكنولوجيا ، وفي مقابل هـذا: سوف يكون من الصعب علينا استعادة التعاليم الروحية التي فقدتها المسيحية ، بينما لم يزل الإسلام يحافظ عليها .(١)

ويبنى المؤلف تحذيره على ما يلمسه من مصادر القوة التي يملكها العالم الإسلامي ؛ وهي : الموقع الجغرافي ، والخصوبة البشرية ، والثروات ، والمواد الخام ، والدين الإسلامي (الذي له قوة سحرية على تجميع الأجناس البشرية تحت راية واحدة ، بعد إزالة الشعور بالتفرقة العنصرية من نفوسهم ، وله من الطاقة الروحية ما يدفع المؤمن به على الدفاع عن أرضه وثرواته بكل ما يملك، مسترخصاً في سبيل ذلك كل شيء ، حتى روحه .. يحرص على التضحية بها فداء لأوطان الإسلام.) .

ثم يتساءل : (أي قوة وجدانية بعثت هذه الإرادة اليوم في الشرق ؟) ثم يجيب (قوة الوحدة الفكرية للإسلام ، ووجود الإحساس الحي للدين الإسلامي ، فهو ينتصر في كل مكان ينزل فيه الميدان مع الأيديولوجيات الأخرى) .

بل إنه ليستشعر الخطر من مجرد أداء المسلمين لفريضة الحج

واتجاههم إلى القبلة في صلواتهم .. إذ يقول (إن اتجاه المسلمين نحو مكة - وطن الإسلام - عامل من أهم العوامل في تقوية وحدة الاتجاه الداخلي بين المسلمين، وأسلوب يضفي على جميع نظم الحياة في المجتمع الإسلامي طابع الوحدة ، وصفة التمسك).(٢)

و ها هو ناشر الكتاب الألماني يقدم له بهذه العبارة (باول شمتز عاش في القاهرة عدة سنوات ويعرف جيداً الأسس التي ينبثق عنها تطلع الشعوب الإسلامية إلى الاستقلال ، الذي يعد أهم مشكلة سياسية في الوقت الحاضر ، وهذا الكتاب يوضح الخطر المتوهج الذي يمر عليه الإنسان في أوربا بكل بساطة ، وفي غير اكتراث ، فأصحاب الإيمان بالإسلام يقفون اليوم- قال هذا قبيل الحرب العالمية الثانية- في جبهة موحدة معادية للغرب ... وهذا الكتاب هو نداء وتحذير يجب أن يلقى الاحترام الجدي من أجل مصالح الغرب وحدها(١) ... هكــذا فهل كتب باول شمتز ما كتب لما وجده من سوء عرض للإسلام يرتكبه بعض الجهلاء من هنا أو من هناك ؟ !!!

أو فقولوا لماذا نشر المفكر الأمريكي «صمويل هانتنجتون» الأستاذ بجامعة هارفارد كتابة المعروف باسم (صدام الحضارات) وفيه يبشر لصدام مستقبلي هائل بين الديانات والثقافات الحديثة ممثلة في الثقافة الأوربية الأمريكية الغربية من ناحية ، وبين الديانات والثقافات القديمة .. لكنه خص الحضارة العربية الإسلامية بأكثر قدر من التركيز لأنها - كما يعتقد - ستكون أولى تلك الحضارات القديمة وأقدرها على الازدهار وتحدي الغرب قريباً .. ولذلك يقول الرجل : يجب على الغرب الاستعداد من الآن لصدام المستقبل هذا، بل العمل على إجهاض قوة الحضارات الأخرى ، خاصة الإسلامية قبل أن تكتمل.

وهناك دراسة أخرى نشرتها مجلة الايكونومست البريطانية في ٨ يناير عام ١٩٩٤ ، ركزت على أن مستقبل العالم مهدد بقوتين كامنتين ، أمامهما فرصة البزوغ ، بل الصدام مع الآخرين : هما اليابان والقوة الإسلامية المنتظرة .!

و ها هو الرئيس الأسبق للولايات المتحدة الأمريكية - ريتشارد نيكسون : يدرك السمة العالمية الحضارية للإسلام ، حيث يقول (إن الإسلام ليس ديناً فقط ، وإنما هو أساس حضارة رئيسية ، إننا نتحدث عن العالم الإسلامي بصفته كياناً واحداً - ليس لأن هناك مكتباً إسلامياً يوجه سياساته – ولكن لأن الدول منفردة تشترك في اتجاهات سياسية وثقافية مشتركة مع الحضارة الإسلامية ككل.) (١) .

فهل فهم نيكسون ذلك من سوء العرض للإسلام ؟

ثم يقول ريتشارد نيكسون : (للعمل في العالم الإسلامي فإن على صناع السياسة الأمريكية المناورة داخل وكر أفعى من سم النزاعات الأيديولوجية والصراعات الوطنية)(٢) .

والمدهش أنه يعترف بعد ذلك بأن بعض الأمريكين (يتغاضون عن حقيقة أن الإسلام لا يشمل مبدأ إرهاب ، وأن ثلاثة قرون قد مرت منذ أن انشغل المسيحيون في حروب دينية في أوربا .)(٣) .

ثم يعترف بفضل الحضارة الإسلامية فيقول : (بينما ذبلت أوربا في العصور الوسطى تمتعت الحضارة الإسلامية بعصرها الذهبي ، وقد أسهم الإسلام بمجهودات هائلة في مجال العلوم والطب ، والفلسفة ، وفي كتابه «عصر الإيمان» لاحظ ول ديورانت أن الإنجازات الهامة في كل الميادين قد تحققت على يد مسلمين في هذه الفترة ، وكان ابن سينا أعظم الكتاب في الطب، والرازي أعظم طبيب ، والبيروني أعظم جغرافي ، وابن الهيثم أعظم صانع للآلات البصرية، وجابر أعظم كيميائي .. وكان العلماء العرب فاعلين في تطوير الفكرة العلمية .. وعندما دفع الرجال العظام من عصر النهضة الأوربية إلى الأمام حدود المعرفة .. فقد رأوا أكثر لأنهم وقفوا على أكتاف العمالقة من العالم الإسلامي). (١)

ثم يقول ريتشارد نيكسون (إن حضارتنا ليست متفوقة على حضارتهم الموروثة ، إن شعوب العالم الإسلامي كانوا أكثر مقاومة لجاذبية الشيوعية من

مقاومة أولئك في الغرب، وإن رفضهم الواسع للمادية وثقافة الغرب الأخلاقية المسموح بها - أى في الغرب - رجعت عليهم بالفضل).

وطيلة خمسة قرون من ٧٠٠ إلى ١٢٠٠ م - كما يقول نيكسون - فإن العالم الإسلامي تقدم وتفوق على العالم المسيحي فيما يتعلق بالقوة الجيوبوليتيكية ، ومستوى المعيشة، والمسئولية الدينية ، وتقدم القوانين ، ومستوى تعلم الفلسفة ، والعلوم والثقافة .

ثم يرجع انحسار الحضارة الإسلامية إلى انتصارها في الحروب الصليبية ، كما يرجع تفوق الغرب إلى انهزامه إذ يقول (إن عقوداً من الحرب قلبت الطاولات ، وكما كتب ديورانت : إن الغرب خسر الحرب الصليبية ، لكنه ربح العقائد (!!) ، وتم طرد كل محارب مسيحي من أرض اليهودية والمسيحية المقدسة (كذا !) . لكن الإسلام استنزف نتيجة انتصاره المتأخر ، ودمر وخرب على يد المغول - بالمقابل - في عصر من ظلام الغموض والفقر ، بينما المهزوم مدفوعاً بالجهد ونسيان الهزيمة تعلم كثيراً من عدوه ، ورفع الكاتدرائيات في السماء ، وعبر بحور العقل ، وحول لغاته الجديدة إلى لغة دانتى وفيلون ، وتحرك بروح معنوية عالية إلى النهضة)(٢).

فهل كتب نيكسون ما كتب تحت سوء عرض منا للإسلام ؟؟ .

وحين أصدر جان بيرك ترجمته لمعاني القرآن عام ١٩٩٠ نجده يبرر اهتمامه بتقديم معاني القرآن للغرب بقوله (لأن الكثير من المفكرين والناس الآن ينبذون الصورة المادية للحياة المعاصرة ، ويرفضون مجتمع الاستهلاك ، هذا المجتمع المادي المحض .. ويفضلون على المدنية المعاصرة مدنية الإسلام الروحية وينادون بالعودة إليها).

فهل كتب هذا نتيجة سوء العرض منا ؟

ولما كان قد قدم في ترجمته للقرآن الكريم معاني القرآن مشوهة فكأنه أراد أن يقول للمفكرين الغربيين الذين أصبحوا يرفضون حضارة الغرب الآن ويرون أنها على وشك الانهيار، لأنها فقدت الأساس الروحي والأخلاقي ..

يريد أن يقول لهم : وهذا هو الإسلام أيضاً مليء بالخرافات والتناقضات ... الخ). (١)

اما جان بيرك نفسه فيكاد يلتمس لنفسه العذر فيما يكون قد حدث من مخالفة في ترجمته للقران الكريم بالرجوع إلى وجوب الأخذ بالمنهج التاريخي إذ يقول : (يبقى صحيحاً القول بأن الديناميكية الدينية ذاتها تتطور عبر التاريخ - ليس في مبادئها وأصولها بالطبع، ولكن في صياغتها وأشكالها وتطبيقاتها ، فتلك أشياء خاضعة للتأقلم والتطور وتختلف باختلاف العصور والأزمات). (٢)

ومن الواضح لدينا أن استثناءه (المبادئ والأصول) من عملية التأقلم.. الخ ، ليس إلا تغطية لفظية للهدف ، الذي هو إيصال الديناميكية الدينية التاريخية إلى (صياغة) المبادئ والأصول ، وما ذلك إلا صياغة كلمات الله تعالى ما دمنا بصدد ترجمة القران الكريم !

وهذا المنهج التاريخي هو المدخل «الحديث» لنسف أصالة المسلمات الإسلامية .

فهل ذهب جان بيرك إلى ذلك نتيجة سوء فهم أو سوء عرض ؟ .

أهو سوء عرض منا ذلك الذي جعل منصراً مثل : بروس ج. نيكولز يدرك حقيقة الإسلام بدقة يغبط عليها حين يقول :

إن الإسلام هو أكثر من عقيدة دينية ، إنه نظام متكامل للحياة والدين. فالإسلام يدمج كل المؤسسات الدينية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية على أسس الإيمان والاقتناع والالتزام بقبول الله ربا ، والاستسلام كلية لإرادته ، ثم يستمر قائلاً :

(إن مركز الإبداع في الإسلام هو التوحيد ، أي الشهادة بأن لا إله إلا الله ، والتوحيد يعنى أن الله هو الخالق أو السبب الجوهري لكل الوجود والنشاط ، ويؤكد أن الإنسان هو المسئول عن تحقيق إرادة الله) .

ثم يستمر قائلاً (ففي المؤتمر الإسلامي الدولي الذي عقد في لندن في

نيسان (إبريل) ١٩٧٦م حول «الإسلام وتحديات العصر»، تم تقديم الإسلام كنظام متكامل من القيم ومصدر إلهام لكل منجزات العلم والدراسات الإنسانية والمصدر الوحيد الراسخ للإيمان والسلوك). (١)

كيف يمكن القول إذن بأنهم يحاربون الإسلام لأنهم لم يفهموه ؟! .

انظروا مثلاً إلى الفهم الصحيح للإسلام الذي يقدمه المنصر كينيث أ . كراج عن الإسلام ، حيث يقول :

(دعونا نواصل الحديث عن الجسور ، إن للقرآن والإنجيل أرضية مشتركة من الإيمان بأن الخالق : «هو (الله) الذي يقول كن فيكون» ، إن الخلق المبدع هو لله، والأرض الطيبة كذلك، وهي التي ينظر إليها على أنها مسكن الإنسان ومجال نشاطه و «الأمانة» التي حملها، والإنسان هو «خليفة» الرب في «حكم» النظام الطبيعي ، وهو في ذلك مسير بإرادة إلهية،وتفهم الغاية الإلهية بالنسبة للعالم من خلال تسخيره للإنسان الفلاح والزارع والتقني والفنان والعالم الذي يمتلك ويستكشف ، ويستغل العالم بتفويض إلهي ، كما أنه يكون مسئولا عن أعماله هذه أمام الرب ، فالإنسان مخلوق أدنى من الرب، وهو عبد للسلطة الإلهية ، وخليفة ومندوب في مواجهة الطبيعة . من هذا المنطلق توجد جوانب عديدة من الفهم المشترك تساعدنا على القيام باتخاذ الموقف الصحيح في وجه كل ما من شأنه أن يتعدى على الكرامة الإنسانية والمجال الإلهي ، وليس فقط فيما يتعلق بالقضايا المعاصرة كالسلطة والبيئة، والمسئولية عن الموارد والعدل الاجتماعي والتراحم ، بل بأكثر من هذا، والقرآن (سورة ٢ : ٣٣ وما بعدها) يرى أن الشيطان هو رأس الاتهام ، فبعد أن اعترض على خلافة الإنسان ، ثم تمرد على الرب لنفس السبب ، فإن هدفه التاريخي هو إغواء البشر ، وتشتيت وإفساد العمل البشري والثقافة ، حتى يستطيع أن يثبت للرب خطأ ما قام به بتكريمه للدور الإنساني ، وهذه الموضوعات مثيرة جداً ، وإذا كان من الواجب «أن ندع الرب يكون رباً» يجب علينا كذلك «أن نجعل الإنسان يكون إنساناً» . ومن هنا بالطبع كانت ضرورة الهدى كما يطلق عليه الإسلام ، والذي يسترشد به الإنسان في أزمة مصيره عبر التاريخ ، ومن

هنا أيضاً جاء تعاقب الأنبياء المرسلين لتحذير وتوجيه الاستجابة البشرية ، إذن فالنظرة القرآنية إلى الأنبياء في التاريخ لا تختلف كثيراً عن مرامي أمثلة المسيح عن الكرم والكرامين والرسل ، فخصوصية مهمة اليهود غير واردة ، ولكن مسئولية الإنسان أمام الرب في تسخير الطبيعة عبر التاريخ حقيقة هامة في المفهوم الإسلامي للخلق ، وفي مكانة النبوءة المتميزة في التاريخ).

ويستمر قائلا : (هنا تبرز بالطبع بعض العقبات ، ولكن قبل أن نتطرق إليها هنالك بعض السمات القرآنية الأخرى لمخلوقية الإنسان الأساسية ، والتي تساعدنا في مهمتنا.

فالطبيعة تحت وصاية الإنسان هي بالنسبة للقرآن دنيا من الآيات ، وهذا اللفظ موجود في كل صفحة من صفحات القران تقريباً ، إن الآيات تشد الانتباه ، وهذا هو أساس العلم كله، فالإنسان يلاحظ ويراقب ويصنف ، ثم يسخر الظواهر الطبيعية ، والإسلام هنا يشعر بالفخر والاعتزاز في تشجيعه السيادة الإنسانية من خلال اليقظة الماهرة والقيام بالجهد اللازم وبكل دقة ، ونحن ننحني لننتصر ، فالطبيعة لم تعط العلوم من خلال طرح بيانات معينة ، بل حقق ذلك الإنسان من خلال التساؤلات التي طرحها على الطبيعة والتي قامت بالرد عليها .

غير أن اليقظة التي تتطلبها هذه الآيات هي أكثر بكثير من كونها عقلانية).

ثم يقول : (إن النفور الموروث لا يزول بسهولة ، وكثيراً ما يؤكد القران على أنه قدم بطريقة تسهل على الناس فهمه ، فالقرآن ليس طلسماً قصد به إخفاء الحقيقة من خلال التعبير والأخبار ، كما تدعى ذلك فئة من الأحبار .

ونحن لن نندم إذا درسنا وتتبعنا جدية القرآن ، ومن ثم اكتشفنا الوجهة التي يقودنا إليها.

وبتسخير كل ما لدينا من صدق ودهاء من أجل المسيح علينا أن نتنبه إلى جدية القران، وهذا شئ كان من المفروض أن نقوم به منذ زمن طويل

جداً).

ثم يقول : (وهذه أمور بالطبع تتعلق بفهم الإنسان وفهم المسيح ، وهما مفهومان يكملان بعضهما بعضاً) .

لقد رأينا كيف يشرع الإسلام فيما يخص الله ، والإنسان ، وإضافة إلى ذلك يرى القرآن أن هذا التشريع يلائم الطاعة في وجود شروط معينة تمثلها بصورة عامة الدولة الإسلامية التي أُنيط بها النظام السياسي منذ الهجرة ويأتي بعد ذلك نمط الحياة اليومي (الصلوات اليومية الخمس والصوم والحج والزكاة) ونظام التكافل الاجتماعي في الأمة الإسلامية .

وعلى ضوء هذا وبالإضافة إلى فحوى التقاليد التي تدعمها وتعززها فقد نظر الإسلام إلى الإنسان على انه يمكن أن يتحسن حتى يبلغ درجة الكمال ، فالإسلام واثق بأن التشريع في القرآن ، والرحمة في المجتمع ، والسنة التي يمكن أن تحتذى، والانضباط في الأنماط الاجتماعية ، والرعاية التي يمكن أن يوفرها نظام الحكم الإسلامي ستكون كافية لتحقيق واجب الإنسان والدعوة الموجهة إليه لعبودية الله .....

إن الكتاب المقدس يركز بشكل كبير على مسألة الرحمة والغفران الكافية لأن نولد من جديد في المسيح المصلوب ، وهنا فإن الكتاب المقدس الذي يدعو إلى أن عيسى هو المخلص يلزمه أن يواجه الحيرة الأساسية والكراهية الراسخة في الإسلام لهذا المفهوم ، ولكن حتى هنا وبسبب صعوبة المهام التي نواجهها هنالك بعض الأمور اللاهوتية العقدية التي ينبغي توضيحها .

انطلاقاً من مقطع هام في القرآن (٤ : ١٥٧ وما يليها) ونتيجة لاعتبارات أخرى في اللاهوت الإسلامي ، فإن الإسلام يرى :

أ - أن المسيح لم يصلب .

ب - أن الصلب ما كان من الواجب أن يحدث .

جـ - أن الصلب لا حاجة له أن يحدث .

فالإسلام ينكر حدوث الواقعة تاريخياً ويرفض احتمال حدوثها على أساس أخلاقي كما يرفض الضرورة لها على أساس عقائدي .) .

ثم يقول : (فالمسلمون يعتقدون أن يسوع ما كان ينبغي أن يتعذب بهذا المعنى الذي يتضمن عجز الرب في الدفاع عن خادمه (بل وأكثر من هذا إن قلنا «ابنه» !) . ومن هذا المنطلق فإن الرب «يودع قدرته» في حقيقة أن المسيح لم يمت .

علاوة على ذلك فإن تحمل عقاب الإثم نيابة عن الآخرين ليس من الأخلاق في شيء فالقرآن يقول «ولا تكسب كل نفس إلا عليها ولا تزر وازرة وزر أخرى» (سورة ٦ : ١٦٤). إذ ليس من العدل معاقبة (أ) لذنب ارتكبه، (ب)، ولهذا فالمسلمون يشعرون بأن فكرة البديل النصرانية هي فكرة غير أخلاقية إلى حد بعيد).

ثم يقول : (ولكن هل هذه المعاناة التي تفتدى الإنسان ضرورية للقدرة الكلية الإلهية ؟ فالإسلام يقول إن رحمة الله تسع جميع مخلوقاته والقرآن يؤكد : «إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون» (٣٦:٨٢) . وهذا يعنى أن المغفرة الإلهية عمل مهيب يحدث دون جهد، ولهذا فإن فكرة «المخلص» الذي «مكن» الرب من أن يغفر لنا توحي بالعجز الرباني . فهل يحتاج الرب أبداً «للمساعدة» من أجل تحقيق إرادته !؟

وهذا يوضح أننا نحتاج لأن نكون فطنين وحذرين جداً فيما نقوله أثناء الدعوة خشية الوقوع في مفاهيم خاطئة ، ما هي الطريقة التي يمكن أن نوضح بها «ضرورة» الصليب باعتباره شكل ومضمون القدرة الربانية في المغفرة ؟ هل يمكن لمغفرتنا - إذا جاز التعبير - أن تكون مشكلة الرب ؟). (١)

إذن فالأمر في دائرة التنصير لا يرجع إلى سوء الفهم منهم ، أو سوء العرض منا ، ولكنه يرجع إلى شعور عميق بالعداوة لهذا الدين بالرغم من فهمهم له ، فالأمر هو ما يقول جورج بيترز في بحثه بعنوان «نظرة شاملة عن إرساليات التنصير العاملة وسط المسلمين»:

(إنني أميل إلى الاتفاق مع فاندر ، و زويمر ، و فريتك ، وآخرين فيما ذهبوا إليه من أن الإسلام حركة دينية معادية للنصرانية ، مخططة تخطيطاً يفوق البشر ، لمقاومة إنجيل ربنا يسوع المسيح) .

إن الإسلام هو الدين الوحيد الذي تناقض مصادره الأصلية أسس النصرانية ، وترفض بكل وضوح موثوقية وصحة الإنجيل وأبوة الرب ، وأن المسيح ابنه ، وضرورة موته وكفايته لمفهوم الخلاص ، وتبرير بعثه .

إنه الخلاف الأكبر في النصرانية وفي الكتاب المقدس أملنا في الخلاص. ولكن محرك هذا الخلاف هو الإسلام وليس النصرانية .

وفي ذات الوقت فالنظام الإسلامي هو أكثر النظم الدينية المتناسقة اجتماعياً وسياسياً ، ويفوق في ذلك النظام الشيوعي (!!) ، ولكن هذه الحقيقة يجب ألا تحبط عزم المنصرين ..... ثم يقول : (إن الإله الموجود فينا !! أعظم من الإله الموجود في العالم !!! ، وأعظم حتى من الإله الذي يتحدث عنه الدين الإسلامي.)(١)

* * * *

فأين القضية إذن ؟ هل ترجع كما يشيع البعض إلى سوء الفهم منهم أو سوء العرض منا ؟ أم هل المطلوب أن نزيدهم فهما ليزدادوا عداوة ؟

وانظروا ما جاء عن العداوة المغرضة التي تصل إلى جذور البرامج الدراسية في الغرب: وقولوا لنا : هل تقررت بدافع سوء عرض منا للإسلام؟؟. وهل كان من المتوقع أن نضع نحن لهم مناهجهم الدراسية ؟

يقول مارسيل بوازار : (في الولايات المتحدة الأمريكية تتهم لجنة من جمعية دراسات الشرق الأوسط الكتب المدرسية برداءة الإعلام عن الإسلام ، وبالأخطاء فيما يتعلق بالوقائع التي تتضمنها عن المسلمين ، ... نتائج التحقيق الذي قامت به اللجنة مفزعة .. كتب التاريخ العام المدرسية تخصص عموماً ٨ ٪ على أبعد تقدير من محتواها للشرق الأدنى والأوسط، معظم هذه المادة غير كافية ، فضلاً عن أنها تعالج أساساً الحضارات القديمة ، حضارات بلاد

الرافدين و وادي النيل ولا تتحدث عملياً عن تاريخ الثقافة الإسلامية.

ومن جهة أخرى : محررو هذه الكتب المدرسية يُظهرون مثل المدرسين مسبقات كامنة، معززة بتحرير ناقص ، وببحث قليل الدقة ، وبتقديم غير سديد، وهكذا فإن التلاميذ الأمريكيين عندما سئلوا لم يجيبوا عن الإسلام إلا كدين !! وكثير منهم زعموا أنهم لا يعرفون المسلمين إلا في منظور حركة المسلمين السود «بلاك مسلم».

وأجريت مؤخراً دراسة أخرى محددة جغرافياً بمنطقة واشنطن استنتج منها أن ١٥ ٪ فقط من الكتب المدرسية المتوافرة يمكن أن ينصح بها كأدوات تربوية ، أما الانتقادات الرئيسية فهي الآتية :-

* قلما قدم الإسلام كإحدى ديانات التوحيد الكبرى في العالم .
* حوكم التاريخ والحضارة العربية بميزان المعايير العرقية الخالصة .
* استخدمت قوالب فظة ، مقدمة في أسلوب تحقيري لوصف حضارة العرب.(١)

وفي الكتب المدرسية الفرنسية :

يخص الرسول (.... الذي مازال يكتب بطريقة مغلوطة - بنعوت قيمية محددة:

- محمد الفقير يشعر بالأمن بفضل زواجه .
- وخلال سفره التقى بيهود ونصارى .
- وبتكريسه أوقات فراغه للتأمل حصلت له رؤى «على طريقة الأنبياء» ! وقرر التبشير : بـ «الرب ـ الله» .
- أخرج من مكة فظل مشغولاً باسترجاعها .
- منذ البداية التجأ للعنف .
- مكنه فنه في قيادة الجموع (!!) من توحيد أنصاره الذين زرع فيهم روح التعصب ووعدهم بالجنة إذا ماتوا في سبيل «الحرب المقدسة» .

** أما تقديم الإسلام في تلك الكتب المدرسية فإنه يجمع جميع القوالب:

" التعصب، الخضوع ، الإهمال ، الاستسلام .. الخ" .. الإيمان الإسلامي ليس جديداً ؛ قلد واستعار كثيراً، خاصة من اليهودية ، عقيدته هي من أكثر العقائد بساطة ، وممارساته الثقافية محدودة جداً .

الفتح العربي يوصف دائماً بـ «الصاعق» ؛ كتاب مدرسي واحد أشار إلى أن دوافع التوسع لم تكن دينية حصرا ، أما بالنسبة للكتب الأخرى فتفسير ذلك هو في الجبلة الحربية للعرب الذين أعمتهم رغبتهم في فرض تضيف إلى ذلك بعض الكتب : الضعف الداخلي للدول التي ستفتح!! ، ورغبة البدو في الخروج من الصحراء الحارقة للاستيلاء على المدن .

– أدت الحرب المقدسة إلى صراع رهيب بين الصليب والهلال ، سبب المسلمون (الذين يسمون سراسنة) خراباً مخيفاً في حوض البحر الأبيض المتوسط .

وأخيراً عندما يعالج مؤلفو هذه الكتب الثقافة الإسلامية لا يخشون الوقوع في

التناقض:

فبينما الحرب المقدسة قضت بالاختفاء على كل فرد غير مسلم ..!! نجد أن اليهود والمسيحيين في الأراضي المفتوحة هم الذين كان لهم نصيب الأسد في ميلاد الحضارة الإسلامية ، هذه الأخيرة التي ليست سوى اقتباس : خليط وانتحال .. طابعها الجوهري هو افتقاد الأصالة .. لدرجة أن بعض الكتب المدرسية في تمارينها ـ التي من المفروض أن تشغل فكر التلميذ النقدي ـ تطلب في سؤال إيحائي أن يشرح : (في أي مجال تفتقد الحضارة الإسلامية الأصالة ؟) .

كل شيء فيها تقليد : العلوم الطبيعية والإنسانية ، الفن ، الأدب ، وحتى المعمار، وهو مجال يعترف فيه للمسلمين ـ عادة ـ بالتفوق ـ ليست حسب الكتب المدرسية سوى تقليد .

وفي التعديلات التربوية الأخيرة التي أعدت في فرنسا –بزعم إنصاف

الإسلام – يبدو الإسلام كثقافة ماض «مشرحة» وكدين للفقراء ، تمت مماثلته مع العمال المهاجرين غير المتخصصين : لم تعد صورة المجتمع صورة قوة تناحرية خطيرة ، كما تستخلصها الكتب المدرسية القديمة ، بل هي بالأحرى شبيهة بصورة حضارة ميتة تصدر يدها العاملة .

هل يعود السبب لتبرير أيديولوجي ؟ أم لتأثيرات عرقية ؟ أم لقصور مؤلفي الكتب المدرسية ؟ يظل السؤال مطروحاً) .

هنا يسارع بوازار إلى القول : (لكن مما لا شك فيه أن ظلماً دائماً انصب على الإسلام والمسلمين .) (١)

إننا نؤكد أن هؤلاء عندما يختارون موقع العداء للإسلام وحضارته ، ويصفونه بوكر الأفعى ، كما فعل نيكسون ، فإن ذلك لا يرجع في الأعم الأغلب - كما يشيع البعض - إلى سوء عرض منا ، أو سوء فهم منهم ، ولا يرجع إلى ما عليه حال المسلمين اليوم من تخلف ، أو ما عليه حال بعضهم من تطرف ، ولكنه يرجع إلى اختلاف جذري في أصول كل من الحضارتين ، وفي الوقت الذي يدركون فيه ذلك يدركون تحرك كل منهما نحو العالمية ، فيجعلهم ذلك يفزعون إلى خططهم المدروسة في الإساءة إلى الإسلام ، وتشويه صورته عمداً، ومحاولة القضاء عليه ، بكل ما يملكون من وسائل الدفاع عن الذاتية الخاصة .

و شهد شاهد في جريدة عصرية، يقول :

(لا أعتقد أن الأحداث سبق أن تدافعت وتراكمت على الأمة العربية في شكل سلسلة من التحديات المعقدة والمرهقة بمثل ما جرى في الآونة الأخيرة .

حتى يبدو الأمر وكأننا قوم مستهدفون من الشرق والغرب على حد سواء.

وإنه بينما يعم المجتمع الدولي بأسره موجة من التفاؤل .... في ظل الوفاق العالمي بين القوتين ... فإن الأمر يبدو مغايراً تماماً في عالمنا العربي (١) الذي هبت عليه رياح التشاؤم وتولدت في ربوعه أحاسيس القلق ، من

مجرد رصد ما هو قادم إلينا وما يجرى تصديره لأوطاننا، بدءاً من هجرة اليهود السوفيت ، ومروراً بمحاولات تغيير الأوضاع القانونية لمدينة القدس (٢) ، ووصولاً إلى النوايا الرامية لإبقاء بؤر التوتر على حالها كأنها أشبه بسرطان ينخر في جسد الأمة ، سواء في لبنان أو في الخليج ، إضافة إلى ما يجرى في الضفة والقطاع من ممارسات بربرية يشيب لها الولدان).(١)

ويشهد رئيس تحرير الجريدة فيقول : (كان انزعاجنا شديداً ونحن نتحدث عن هجرة اليهود السوفيت إلى الأرض العربية المحتلة في إسرائيل . وكنا محقين في انزعاجنا وتحسبنا للأخطار ، رغم أننا كنا نتخوف من هجرة عشرات أو بضع مئات الألوف ، وبحد أقصى نصف مليون مهاجر إلى إسرائيل خلال خمس سنوات . الآن ماذا نقول وماذا نفعل وقد تكشفت الخيوط ، واتضحت معالم الصورة (٢) فإذا بما كنا نتخوف منه من قبل لا يمثل إلا أقل القليل مما تتوعدنا به من مخاطر هذه المؤامرة الكبرى (٣) .إذن فهو خروج يهودي كبير اخر ، يذكرنا بالخروج اليهودي من أوربا في أعقاب الحرب العالمية الثانية الذي اتجه إلى فلسطين الجريحة عام ١٩٤٧ وساهم في صنع نكبتها ..) .

(إن القضية ليست قضية مخاطر تهدد شعب الضفة وغزة فقط ، ولا الشعب الفلسطيني ككل ، وإنما قضية مخاطر تهدد الدول العربية كلها .. بعضها مهدد بالخطر عاجلاً والآخر لن يتأخر طويلاً). (٤)

ويقول الصحفي الكبير صلاح الدين حافظ بعد رحلة إلى أمريكا : (إن الانحياز الأوربي الأمريكي للمسيحيين في «الشرق» عامة ، وفي «مصر» خاصة ، ليس حباً لذواتهم، ولكن تحت تصور أنهم سلاح تفكيك لوحدة الأمة وعنصر طعن ضد الأغلبية .

وبقدر ما هناك في الغرب الأوربي الأمريكي من نقد أحياناً للإسلام والمسلمين ، فإن هناك أيضاً نقداً واضحاً لأقباط مصر على وجه الخصوص ، وحين تساءلنا بعجب جاءت الإجابة أكثر عجباً .. ذلك أن أقباط مصر ما زلوا

يرفضون الانحياز «الأعمى» للمسيحيين الأوربيين والأمريكين ، ويفضلون بقاءهم كجزء من قوميتهم المصرية ، ومن حضارتهم العربية...) .

ثم يقول صلاح الدين حافظ : (علينا أن نستشرف المستقبل ونستعد له . والمستقبل الذي أراه ـ بتواضع شديد ـ هو الذي سوف تعود فيه حركة التاريخ إلى الصدام التاريخي القديم .. صدام الغرب الأبيض مع الشرق الملون(٥) .

صراع المستقبل لن يتركز حول صراع الأيديولوجيات السياسية الذي ساد خلال نصف القرن الأخير بين الماركسية والرأسمالية .

ولكن صراع المستقبل سوف يكون صراع قوميات(١) ، وديانات(٢) حيث الاستقطاب سيكون حاداً بين حضارات الغرب البيضاء الحديثة ، وبين حضارات الشرق وديانته القديمة ، بما فيها حضارات اليابان والصين والهند، والعرب والأفارقة ، مرة أخرى صراع ديانات وقوميات).

ويقول الكاتب السياسي الأستاذ محمد سيد أحمد عما يدور حالياً بيننا وبين الغرب (هل هي صيغة عصرية للحروب الصليبية ؟) معلقاً بذلك ـ فيما ينقله عنه الدكتور محمد عصفور- على الأخطار الكامنة في المخططات الأوربية، لأنها تطرح صورة للمواجهات عن منطقة البحر المتوسط توحي بأنها بين أوربا المسيحية من جانب والصحوة الإسلامية من جانب آخر ، وأن أوربا المسيحية أصبحت تستخدم الدولة اليهودية درعاً لها فيما سوف يبدو لعرب عديدين صيغة عصرية للحروب الصليبية على مشارف القرن الواحد العشرين، وأن هناك مشاعر مكبوتة عارمة ، وإحساساً طاغياً بالإحباط عم أمتنا العربية بأسرها ، وأن مخططات السلام لابد وأن تبدو في مثل هذا السياق مؤامرة صليبية صهيونية تستهدف تجريد الأمة العربية من روحها ومن هويتها .

وقد نبه الأستاذ محمد سيد أحمد إلى أن المؤسسات الأوربية ليست فقط بصدد ضم إسرائيل إليها ، بل إنها في الوقت نفسه تعمل من أجل حث الأقطار العربية على التسليم بدور متميز لإسرائيل في المنطقة (٣) .

فليقولها صريحة : صراع ديانات أو حضارات !! دماء مسفوحة في قدس الذاتية ؟ صح !

هكذا قلنا منذ مطلع هذا القرن ! وهكذا ندفع اليوم فاتورة الحساب ، أسف : لم نقلها نحن منذ مطلع هذا القرن ، ولكن قالها قوادهم ومخططوهم ، وسياسيوهم ، ومؤتمراتهم ... !!

قالها القس زويمر ، والقس جيمس كانتين ، والقس ينغ ، والقس اكسنفلد، والقس سيمون (٤) .

وقالها ويليام جيفورد ويلجراف في المؤتمر التبشيرى بلكنو (متى توارى القرآن ومكة عن بلاد العرب ، يمكننا أن نرى العربي يتدرج في سبيل الحضارة (!!!) التي لم يبعدها عنه إلا محمد وكتابه .) .

وقالها اللورد هانوتو (إن الدين الإسلامي يبعث في الإنسان الخمول والكسل ، ولا يوقظه منهما ، وإن تقدم المسلمين مستحيل ونجاحهم بعيد لأن الإسلام معتقدهم يحول دون ذلك، وأن كل حكومة انفصلت عن الشرق وسارت على منهاج أوربا علماً ومدنية نجحت .) .

قالوها ثم جاءت سلسلة الأحداث لتصدق ما قالوا :

في تركيا ، ومصر ، وفلسطين ، ولبنان ، وقبرص ، وفي شرق أوربا في بلغاريا،ويوغوسلافيا ..وفي الجمهوريات الإسلامية في الاتحاد السوفيتي ، وفي الفليبين،وكشمير ، وإندونيسيا ، وفي نيجيريا وإريتريا وتنزانيا وجنوب السودان.. الخ وفيما يحدث للمتحجبات في فرنسا ، وبريطانيا (!!)

لكن هل وصلنا بهذا إلى القاع الذي لا قاع بعده ، وعندئذ لم يبق إلا الصعود كما يقول أصحاب التغيير المادي الميكانيكي للأحداث ؟ !كلا ، فهناك في اتجاه القاع ما هو أسفل منه، إلى باطن الأرض . إلى عملية الاستئصال .

لا تستغربوا . واقرؤوا-من قبيل إنعاش الذاكرة- مراسم الملكة جوانا «عودة إلى دروس الأندلس» !!.

ما الحكم في قوم كلما وجه إليهم أمر للتنفيذ مصمصوا شفاههم قائلين: عفواً نحن غير قادرين ؟

أليس من قوانين الله ـ منطقياً ـ أن يتم الاستغناء عنهم ؟

ما الحكم في قوم كلما واجههم تكليف إلاهي مصمصوا شفاههم قائلين: نحن غير قادرين ؟ وإذا دُعُوا إلى التخلص من الربا قالوا : إن كان حراماً فنحن غير قادرين ؟ وإذا دُعُوا إلى الجهاد قالوا : إن كان واجباً فنحن غير قادرين . وإذا دُعُوا إلى الوحدة قالوا : خير ، لكن نحن غير قادرين ؟ وإذا دُعُوا إلى الأخوة الإسلامية : قالوا : جميل ، ولكن نحن غير قادرين. وإذا دُعُوا إلى تصحيح في سياسة التعليم يربط فيه بين العلم والعمل والإيمان قالوا: تحيرنا بين النظريات والبرامج ، وما نحن بقادرين . وإذا قيل لهم : صححوا علاقتكم بالدنيا اجعلوها في أيديكم لا في قلوبكم قالوا : تلك صوفية، وما نحن بقادرين . وإذا قيل لهم:احرصوا على الحرية ، اسلكوا اليها من باب العبودية لله وحده .. قالوا : تلك مثل عليا وما نحن بقادرين . وإذا دُعُوا إلى شيء من الاقتصاد يبتعدون فيه عن الإسراف والتبذير وتمويل رأسمالية العدو ، قالوا عادات ، وما نحن بقادرين . وإذا دُعُوا إلى قلب المعادلة السائدة بينهم بين اللهو والجد ، خذوا أنفسكم بالجد ، وأجعلوا اللهو هامشاً محدوداً قالوا : تلكم دعوة إلى الكآبة وما نحن بقادرين .

وإذا دُعُوا إلى تحري الحل في مآكلهم ومشربهم والبعد عن الحرام والمشتبهات ، قالوا : وكيف نعيش ؟ نحن غير قادرين . وإذا دُعُوا إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر قالوا : وما شأننا ؟ نحن غير قادرين ؟ وإذا دُعُوا إلى الأخذ على يد الظالم قالوا : صعب ، ونحن غير قادرين . وإذا دُعُوا إلى مخاصمة الفسق في الفن وفي الإعلام .. قالوا : إزاي؟ نحن غير قادرين . وإذا دُعُوا إلى إلزام نسائهم بالحجاب ، قلبوا شفاههم ، وقالوا : نحن غير

قادرين. وإذا دُعُوا إلى تربية أولادهم على طاعة الله .. قالوا نحاول ، ولكن نحن غير قادرين . وإذا دُعُوا إلى العفة وما يوصل إليها من الكف عن إثارة الشهوات ، نظروا بجانب من عيونهم إلى نظريات في علم النفس ، وعلم الجمال ، وقالوا: نحن غير قادرين . وإذا دُعي علماؤهم إلى الجهر بكلمة الحق، قالوا : نحن غير قادرين.وإذا دُعي حكامهم إلى عدم موالاة الكافرين .. الحل هو في خلافة الحضارة التي تؤمن بقوله تعالى «يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر بالآلاف» قالوا : نحن غير قادرين . وإذا دُعُوا إلى التضامن مع المستضعفين من إخوانهم الذين يذبحون بالآلاف ، قالوا : نحن غير قادرين.

بماذا شهد هؤلاء على أنفسهم ؟

هل ينطبق عليهم رفع التكليف في قوله تعالى .. «لا يكلف الله نفساً إلا وسعها .» .

أليس معنى الآية ابتداء أن الله لا يكلف إلا بالوسع ؟ فهم ماداموا قد كلفوا فمعنى هذا أنه في وسعهم ؟

وعلى هذا الأساس يكون قولهم نحن غير قادرين محض كذب وتهرب ؟ !

وهل ينطبق عليهم رفع التكليف إذا كانوا هم أنفسهم مساهمين بدرجة أو بأخرى في صنع الخطأ أو الخطيئة ؟

أو مستفيدين بدرجة أو بأخرى ـ باستمرار هذا الخطأ أو الخطيئة ؟

أليست الأغلبية اليوم دائرة بين هذا وذاك .. بين صانع ، أو مستفيد ؟

قد يقال : المشكلة ترجع إلى تضارب الأفكار ، واختلاطها ، وعلى سبيل المثال: يقول بعضنا : العلمانية ، كلها شر ، ولكن آخرين يرفعون إمكانية التضامن معها ، والتصالح مع بعض فصائلها .

هكذا فإن الرؤية قد أصيبت بالاختلاط . حسناً ، فمتى يكشف الحق ؟ هنا : لابد من الابتلاء .

قد يقال : المشكلة ترجع إلى اختلاط في البشر ، حيث لا يظهر فيهم مؤمن خالص ، من منافق خالص ، من كافر خالص . ويقول بعض هؤلاء : تحتاج الحركة الإسلامية إلى فصل هذه الفصائل ، وإلا وقعت الحركة في شر النتائج ، شر الفشل . حسناً : فمتى ينفصل هؤلاء من هؤلاء ؟

هنا : لابد من عذاب ينزل للتمييز ، فالمؤمن ينجلي كما ينجلي الذهب في النار ، وغيره يتساقط كما يتساقط التراب ، أو كما يتساقط الغبار .

هنا لابد من سريان قانون التمييز . «ما كان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب» ١٧٩ آل عمران . «ليميز الله الخبيث من الطيب ويجعل الخبيث بعضه على بعض فيركمه جميعاً فيجعله في جهنم، أولئك هم الخاسرون». ٣٧ الأنفال . «والبلد الطيب يخرج نباته بإذن ربه والذي خبث لا يخرج إلا نكداً، كذلك نصرف الآيات لقوم يشكرون» ٥٨.

قد يقال : التمييز موجود ، فنحن نعرف الطريق ، ونعرف من هم أربابه، ولكنا غير قادرين . غير قادرين على فعل شئ . والله لا يكلف نفساً إلا وسعها. فعندئذ يقال :

وإذا كنتم قد خرجتم من إطار المكلفين فما معنى وجودكم ؟ إنكم بذلك قدمتم شهادة الإزالة.

هنا : لابد من عذاب ينزل ـ لا لمحض الابتلاء، ولا لمحض التمييز ولكن لغرض المحق ، والإزالة كما تمت إزالة أقوام من قبل .

منطقياً : ماذا ينتظر لقوم كلما واجههم تكليف إلهي مصمصموا شفاههم قائلين : لا حول ولا قوة إلا بالله ، نحن غير قادرين ؟؟ وهم قد أخرجوا إلى الوجود أصلاً من أجل القيام بهذه التكاليف ؟ أليس المعقول أن ينتظروا الإزالة؟

أما حسابهم يوم القيامة فشئ آخر .

أليست الإزالة هي الحل الوحيد في شأنهم ؟ ليأتى قوم غيرهم .

«وإن تتولوا يستبدل قوماً غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم».

إن هؤلاء - نحن - أكثر الأجناس على وجه هذه الأرض تعرضـا للإزالة ، لعدة أمور :

أولاً : لأننا إنما خرجنا على ظهرها وارتفع ذكرنا فيها لمهمة خاصة هي القيام برسالة الإسلام .

«كنتم خير أمة أُخرجت للناس .. تأمرون بالمعروف وتنهوّن عن المنكر» فعندما نتخلى عن هذه الرسالة - ونحن نكاد نفعل - يزول سبب وجودنا ، ونذهب شرائم بددا .

ثانياً : لأننا لو بقينا وانتصرنا على أعدائنا بنصر الله لكان في ذلك نصر للزيف الذي نحن فيه ، وإعلاء لشأنه ، وهذا لا يمكن أن يكون ، لأنه لا يجوز في حق كماله تعالى .

ثالثاً : لأننا بخلاف أعدائنا ، لا نحن عملنا من أجل الدنيا كما يعملون ، فننال وعد الله كما ينالون «من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف إليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يبخسون».

ولا نحن عملنا من أجل الآخرة ، كما عمل بناة الأمة الإسلامية ، فننال وعد الله كما نالوا «وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم ، وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم ، وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا، يعبدونني لا يشركون بى شيئاً» .

إننا أولى الناس بالتعرض للإزالة لولا ...

لولا ضمان من وعد الله لبقية تبقى .

هي التى سيوكل إليها بناء الحضارة الإسلامية ، ووراثة الحضارة الغربية المتداعية .

في رواية لمسلم بسنده عن ثوبان قال : قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم- : ((إني سألت ربى لأمتي ألا يهلكها بسنة عامة(١) .. وألا يسلط

عليهم عدواً من سوى أنفسهم فيستبيح بيضتهم(٢) وإن ربى قال : يا محمد إني إذا قضيت قضاء فإنه لا يرد ، وإني أعطيتك لأمتك : ألا أهلكهم بسنة عامة ، وألا أسلط عليهم عدواً من سوى أنفسهم ، يستبيح بيضتهم ، ولو اجتمع عليهم من بين أقطارها حتى يكون بعضهم يهلك بعضاً ، ويسبى بعضهم بعضاً)) .وعلى وجه التأكيد فإن عوامل التفاؤل بعودة الإسلام للنفوذ على المستوى العالمي هو أقوى من عوامل الضعف الواضحة في المسلمين المعاصرين كما يتبين من وعد المستقبل .

مشكلة التكنولوجيا

لا يأس أمام احتكار العدو لما يسمى أسلحة الدمار الشامل ..

لا يأس أمام تحول حلف الناتو إلى عداوة الإسلام بعد سقوط الاتحاد السوفيتي ..

نعم ؛ من الحق أن يقال : أين نحن من قوله تعالى (وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل) إلى حد .. (ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم ، الله يعلمهم)(١).

لكن من الحق أيضا أن يقال : إن الاستراتيجية الإسلامية لا تتوقف عند ساحة قد برع فيها العدو ..

وإنما هي تمتد إلى ساحة ليس للعدو فيها نصيب ..

ولنقرأ معا استراتيجية عمر-رضي الله تعالى عنه- باعتبارها الاستراتيجية الإسلامية التي وضعت لنا ولكننا عنها غافلون . فلنقرأ رسالة عمر بن الخطاب إلى سعد بن أبي وقاص رضي الله تعالى عنهما:

(أما بعد : فإني آمرك ومن معك من الأجناد بتقوى الله على كل حال.

فإن تقوى الله أفضل العدة على العدو وأقوى المكيدة في الحرب .

وآمرك ومن معك أن تكونوا أشد احتراسا من المعاصي منكم من عدوكم.

فإن ذنوب الجيش أخوف عليهم من عدوهم . وإنما ينصر المسلمون بمعصية عدوهم لله . ولولا ذلك لم تكن لنا بهم قوة . لأن عددنا ليس كعددهم . ولا عدتنا كعدتهم.

فإن استوينا في المعصية كان لهم الفضل علينا في القوة

وإلا ننصر عليهم بفضلنا لم نغلبهم بقوتنا.

فاعلموا أن عليكم في سيركم حفظة من الله ، يعلمون ما تفعلون ، فاستحيوا منهم ، ولا تعملوا بمعاصي الله وأنتم في سبيله .

ولا تقولوا : إن عدونا شر منا فلن يسلط علينا ، فرب قوم سلط عليهم شر منهم ، كما سلط على بني إسرائيل – لما عملوا بمساخط الله – كفار المجوس ، فجاسوا خلال الديار وكان وعدا مفعولا.

واسألو ا الله العون على أنفسكم كما تسألونه النصر على عدوكم، أسأل الله تعالى ذلك لنا ولكم)

وإلى أن ننتصر نحن بهذه الاستراتيجية سوف يمر وقت طويل .

ذلك لأن المسلمين لم ينتصروا انذاك بقيادة عمر–رضي الله تعالى عنه–فحسب، ولكنهم–في المقام الأول–انتصروا بجيش عمر الذي تحقق كل فرد فيه بأوصاف المجاهد المؤمن بتلك الاستراتيجية .

نحن نحتاج إلى وقت يجري فيه اقتناع المسلمين–على مستوى الشعوب– بتلك الاستراتيجية ، ليضعوها في بؤرة شعورهم ، وينطلقوا منها في أعمالهم، نحتاج إلى وقت نتجهز فيه بهذه الاستراتيجية قبل أن نصل إلى ميدان القتال.

ومع ذلك فإن تلك الاستراتيجية تظل حجة قائمة علينا ، تقطع أعذارنا ، كما تقطع رقبة كل الاستراتيجيات الأخرى التي تغفل عنها ، لكي لا يبقى أمامنا غير استراتيجية عمر.

وهي استراتيجية لا تتعامل مع أسلحة الدمار فحسب – وإلا لفقد الإسلام ذاتيته ، وفقد من ثم مبرر وجوده ومبرر انتصاره – ولكنها تتعامل

في المقام الأول مع أسلحة البناء ،وهنا يملك الإسلام مبرر اضطلاعه بدوره المنتظر إنسانيا .

البناء داخل النفس ..

البناء داخل الروح ..

البناء داخل علاقة الإنسان بالله ..

وتلك مواقع لا تطالها أسلحة الدمار..

عندئذ تكون المنطقة قد وضعت قدمها على بداية الطريق ..

تكون قد ملكت مصيرها ..

تكون قد وضعت يدها على بداية صنع الحضارة الخاصة بها ، العالمية حقا .

عندئذ ينكشف هباء الموقف المعادي لله ، ممحوقا مكرهم فيه بمكر الله .

يقول تعالى : (ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين)(١).

ويقول تعالى : (أ فأمنوا مكر الله فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون)(٢).

ويقول تعالى : (يوم لا يغني عنهم كيدهم شيئا ولاهم ينصرون)(٣).

ويقول تعالى : (أم يريدون كيدا فالذين كفروا هم المكيدون)(٤).

ويقول تعالى : (والسماء ذات الرجع .و الأرض ذات الصدع . إنه لقول فصل . وما هو بالهزل . إنهم يكيدون كيدا ، وأكيد كيدا . فمهل الكافرين أمهلهم رويدا .)(٥).

إنه لا يمكن أن يكون المستقبل لانتصار الحضارة التي تقوم على العرقية وتعمل وفقاً لسياسة التطهير العرقي ، والإبادة البشرية والتصفية الجسدية : في الأندلس ، وفي أمريكا «الهنود الحمر» وفي افريقيا (مئات الملايين في تصدير السود إلى أمريكا ...) في التفرقة العنصرية ، وأخيراً في شرق أوربا ، : البوسنة والهرسك ... وبلاد البلقان ، وحلف الناتو الذي أعلن عدواته للاتجاه إلى الإسلام (١) . ثم في شرقنة الإسلام(٢) أو بالأحرى شرنقته .

تلك حضارة غبية لا ترى أبعد من وقع أقدامها .كيف لهؤلاء أن يطهروا العالم من المسلمين ؟ مليار مسلم ؟

هنا تظهر عناية الله بالمسلمين في التكاثر وزيادة النسل .

إنهم لا يبتعدون في سياستهم تلك عن غباء السياسة الإسرائيلية التي تظن أنها يمكن أن تسحق مائتي مليون عربي .

فعناصر المقاومة في الإسلام مكفولة :

أ - القنبلة الذُرية ، في مواجهة القنبلة الذَّرية .

ب - المقاومة الخالدة في بقاء قدس أقداس هذه الحضارة «القرآن».

جـ - بشارة الرسول («بدأ الإسلام غريباً . وسيعود غريباً كما بدأ» .

إن الاستمرار في هذا الغباء لن تجنى منه الإنسانية غير المواجع والآلام . ولكنه - أبداً - لن يحقق أغراضهم في إزالة «الآخر» وذلك عمق سياساتهم...

مقارنة :

إننا نقول لقيادات الحرب في صفوف الحضارة الغربية .. لقد وسعناكم في إطار أهل الكتاب . ففي أى إطار وسعتمونا أنتم ؟ وبماذا سميتمونا ؟

هل وسعتنا حقوق الإنسان الصادرة عنكم وهي حقوق مشروطة بالتخلص من حركة النهضة الإسلامية ؟

هل وسعتنا حريتكم الفكرية ، وهي تحتضن مقولات الفسق والفجور في روايات سلمان رشدي وما أشبهه ؟ ولا تسع بحثاً علمياً حول مصداقية إبادة اليهود في ألمانيا كتبه روجيه جارودي ؟

هل وسعتنا علمانيتكم ، وهي مشروطة بالتخلص من الإسلام باعتباره لا يأخذ بالعلمانية ؟

هل وسعتنا ديموقراطيتكم وهي مشروطة بالتخلص من الإسلام باعتباره آخذاً بشريعة إلهية ؟

هل وسعنا نظامكم العلماني - في شرق أوربا - في البوسنة والهرسك وبقية المسلسل ؟

هل وسعتنا نظمكم التربوية وأنتم الذين لا زالت مناهجكم تلقن تلاميذكم الأكاذيب والأحقاد ضد الحضارة الإسلامية - كما هو ثابت في الدراسات التي تناولت هذا الموضوع في مصادركم نفسها ؟

ما الحل ؟ وأين التعدد البديل عن صراع الإبادة ؟

إذا أردنا أن نجيب من منطلق قيمي بحت فلابد أن نتفق على أن الحل الوحيد هو في انتصار الحضارة التي تسمح للآخر بأن يوجد على ظهر هذه الأرض .

الحل هو في خلافة الحضارة التي تتعايش في ظلها الأقليات والطوائف .

الحل هو في خلافة الحضارة التي تؤمن للثقافات المختلفة أن تعبر عن ذاتها ؟

الحل هو في خلافة الحضارة التي تسمح للأفكار المختلفة بأن تعبر عن ذاتها في كافة أرجاء المعمورة ولو وقفت منها (حضارتنا الرائدة) موقف النقد والنكران .

الحل هو في خلافة الحضارة التي تؤمن بأنه «لا إكراه في الدين» .

الحل هو في خلافة الحضارة التي تمتثل لأمر الله في قوله تعالى :

«لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يُخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتُقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين» .

الحل هو في خلافة الحضارة التي تؤمن بقوله تعالى «يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا ..» .

الحل إذن : هو في خلافة الحضارة الإسلامية، فهي التي انطوت ـ مع الخلاف ـ على السماحة ، ومع الإنكار على التسامح، : نظرياً كما انطوت على ذلك عمليا ...

ولأمر ما ـ وربما كان هذا الأمر هو ما نحن فيه ... ضمن الإسلام (لأهل الكتاب)، موقعاً حصيناً في المجتمع الإسلامي . وقام المسلمون على تقدير هذا الموقع ، ولم يخامرهم قط خاطر التطهير العرقي ، أو إبادة «الآخر» ...

لقد كانت الحضارة الإسلامية وعاء انصهرت فيه القوميات والجنسيات والعروق والشعوبيات ، ابتداء من أقصى الشرق في الصين ، مروراً بفارس ، والشرق الأوسط وتركيا والأندلس ...

وكما يقول شيخ الأزهر الراحل (الإمام الاكبر الشيخ جاد الحق إبراهيم جاد الحق–رحمه الله–) في رسالة له إلى مؤتمر برلمان «أديان العالم» الذي انعقد في شيكاغو في الفترة من ٨/٢٨ إلـــــى ١٩٩٣/٩/٤

(إن المسلمين لم يقترفوا في تاريخهم الطويل ما يشينهم :

فلم يضطهدوا شعباً ولم يُكرهوا أحداً على الدخول في الإسلام .

ولم يقوموا بعمليات تطهير عرقي أو تفرقة عنصرية ، ولم يحدث أن أبادوا أتباع دين من الأديان الأخرى . وليس أدل على ذلك من أن البلاد التي دخلت في الإسلام ـ منذ كان وفي العصور المتعاقبة وللآن ـ مازال بها الجمع الغفير من الديانات الذين كانوا بتلك البلاد حين دخلها الإسلام ، ولو كان الحكم الإسلامي وقتذاك قد مارس ما يمارسه أصحاب الديانات الأخرى في العصر الحاضر ما بقى في بلاد المسلمين من أتباع الأديان الأخرى أحد).(١)

وانظر إلى ما يقوله الأستاذ الدكتور أحمد طربين - أستاذ التاريخ الإسلامي عن معاملة الدولة العثمانية للمسيحيين : (يبدو أن كثيراً ممن كتب في هذا الموضوع ، يرى أن الدولة العثمانية أساءت معاملة غير المسلمين ، وخاصة بعد أن ضمت إليها العالم العربي الإسلامي... وبالمقابل فإن عديداً من المؤرخين المنصفين يرون أن السلاطين برغم اعتقادهم في قرارة نفوسهم بأن المسيحيين لابد أن يكونوا حلفاء طبيعيين للقوى الأوربية المسيحية المعادية للعالم الإسلامي ، فإنهم لم يتجاوزوا حدود معاملة المسلمين السمحة - السابقة - بل كان تسامح الأتراك العثمانيين مع مسيحيي الولايات العربية أشد وضوحاً من تسامحهم مع مسيحيي البلقان الذين كانوا في بلادهم أغلبية تتآمر مع النمسا. كما يرون أن الدولة العثمانية حافظت على أملاكهم وحرية عبادتهم وكنائسهم ، وفتحت لهم أوسع أبواب العمل الحر في الزراعة والصناعة والتجارة ، فانتظموا في سلك الحرف المختلفة على قدم المساواة مع زملائهم المسلمين ، وكانوا معهم في تعاطف وود ، بل إنهم برزوا في ميدان التجارة الخارجية لصلتهم مع الأوربيين ، وتكونت منهم طبقة برجوازية غنية ، وها هي ذي سجلات المحاكم الشرعية في مختلف الحواجز العربية تشهد بذلك...).(١).

إن عجز الحضارة الأوربية المعاصرة عن دور التسامح هذا هو الذي يشكك في إمكانية التعدد الحضاري بعيداً عن مظلة الإسلام .

إن الإسلام هو المرشح الوحيد لوراثة الحضارة المعاصرة - لمصلحة الإنسانية - وليقوم بنفس الدور الذي قام به في وراثة الحضارة اليونانية والرومانية والفارسية من قبل .

هناك كانت الوراثة بأن ضم العمل إلى العلم .

واليوم فإن الوراثة بأن يضم الإيمان إليها .

وهذا لا يعنى القول بأن الحضارة الإسلامية تنحصر ضمن قيود ضيقة ، أو أنها خاضعة دائماً لتفاصيل ما تم إنجازه في تاريخ الحضارة الإسلامية .

إن أقصى ما نقرره من قيود للحضارة الإسلامية لا يتعدى الثلاثية التي أشرنا إليها : العلم والعمل والإيمان .

وهي بعد ذلك - ومع ذلك تقبل أن تتم إنجازها في صور متعددة ولكنها متقاربة، فيصبح التعدد هنا كالتنوع داخل الجنس الواحد ، فيخرج إلى الوجود حضارة إسلامية ينتجها العرب، كما يخرج إليه حضارة إسلامية ينتجها الفرس ، أو حضارة إسلامية ينتجها العثمانيون، أو حضارة إسلامية تنتجها أوربا.

إن الجمع بين أركان الحضارة الثلاثة التي هي العلم والعمل والإيمان :

هو مجمع تحديات المستقبل بالنسبة للإنسان على هذه الأرض .

وفي الوقت نفسه هو مجمع وعودة لمستقبل الإنسانية.

وهنا تبدو لنا ملامح خلافة الإسلام في مستقبل صنع الحضارة .

خصوصاً إذا لاحظنا بعض الظواهر التي تبدو أمامنا منذ الآن ومن أهمها :

١ - أن العالم المسيحي صائر حتماً إلى الأخذ بوجهة نظر الإسلام عن المسيح ، وهذا ما تؤكده الدراسات التي يقوم بها اللاهوتيون الكبار في أوربا .

٢ - أن الملحدين في العالم يتحولون - كما نرى - إلى الأخذ بدين من الأديان ، إذ هم يتناولون إلحادهم كدين ، وهم سوف يلتفتون حتماً إلى إجراء المقارنة بين ديانة الإلحاد ، وبين الأديان الأخرى ، وليس غير الإسلام دين يصلح لمخاطبة هذه العقول .

٣ - أن عالم القوة النووية صائر حتماً - كما نرى - إلى فقدان القدرة على استخدامها، ولو تعجل في استخدامها لكان ذلك ضد مصلحة العالم الذي يملكها إذ تتساوى حينذاك في الخراب جميع الأقدام

٤ - أن العالم الإسلامي صائر حتماً إلى ولادة جديدة ، وهذا هو

مصدر الفزع عند كهنة الحضارة الغاربة .

والخطر الذي يتهدده هو : خطر التعجل ، تعجل الولادة قبل أوانها من ناحية ، وخطر الغفلة عما تستوجبه ساعة الميلاد من ناحية أخرى .

وعلى العالم الإسلامي أن يستفيد من درس العروبة في معالجاتها الخاطئة، لقضية الخلافة الإسلامية عند سقوط الدولة العثمانية أولاً ، وقضية الوحدة العربية ثانياً، وقضية فلسطين ثالثاً ، وقضية النظام العالمي الجديد أخيراً.

ويبقى عبء خطير على العاملين في مجال الدعوة الإسلامية : أن يعدوا أنفسهم لهذا الميلاد بالتخلص من سلبياتهم ، ومنها ما يقع فيه بعض فصائلهم من خشونة في الأسلوب تارة، ومن نظرة تشاؤمية للمستقبل تارة ، ومن فقر في القدرة على الاجتهاد تارات.

حضارة متداعية

ليس من شك في أن المشروع الذي قامت عليه الحضارة الأوربية المعاصرة استبعد الدين تماماً(١)، فما الذي قام بدور الدين في هذه الحضارة؟ هل قامت الفلسفة الأوربية بهذا الدور ؟

يقرر ألبرت شفيتزر أن الفلسفة الأوربية المعاصرة انصرفت عن القيام بدور إيجابي في هذا المجال ، سواء على المستوى العالي من الفلاسفة ، أو على المستوى الشعبي من أتباعهم، وذلك لأنها - أى هذه الفلسفة المعاصرة - تقلصت وانحسرت إلى مجالات ثلاثة :

١ - الفلسفة النقدية التى أسفرت عن الشك في كل القيم العقلية والأخلاقية الراسخة .

٢ - اللهاث وراء العلم ، الذي أصبح في نظر الفلسفة المعاصرة (هو الذي من حقه أن يقدم الحقيقة الواقعية ، وهو بعد ذلك إنما يقدمها - لا

كحقائق ثابتة ـ ولكن كفروض ونظريات)(٢)

٣ - الاستغراق في دراسة ماضي الفلسفة ، حيث أصبحت الفلسفة من هنا مجرد علم يستخلص النتائج التى وصلت إليها العلوم الطبيعية والتاريخية حتى أصبحت الفلسفة عملياً هي تاريخ الفلسفة. (٣)

وبهذا أصبحت الفلسفة (خاوية من التفكير الحقيقي وراحت تتأمل في النتائج التى وصلت إليها العلوم الجزئية ، لكنها فقدت القدرة على التفكير الأصيل.)(١)

يقول : ومنذ ذلك الوقت والأفكار الأخلاقية التى تقوم عليها الحضارة تجوس أنحاء العالم فقيرة لا مأوى لها ، ولم تتقدم نظرية في الكون لتسندها إلى أساس متين.) (٢)

هذا لا يعنى أنه ليست لهذه الحضارة إيجابيات شامخة :

في مجال العلوم ، والتخصص ، والتكنولوجيا ، وتوزيع العمل ، والإنتاج والتسويق، والاستهلاك ، واختزال المعرفة (الكمبيوتر) واختزال الزمن والمكان ، و هي اليوم تتربع على عرش العلم ، وتملك قوة الذرة ، وتمشى على القمر ، وتجوب الفضاء وتزرع قلوب الموتى في الأحياء ، وتصنع أجناساً جديدة من النبات والحيوان بالهندسة الوراثية ، وتفجر الطاقة الكهربائية من شعاع الشمس ، وتصنع السدود والأنفاق والكباري مئات الكيلومترات ، وتحفر تحت المحيط أنفاقاً مثل المدن. (٣)

وبشيء من التحديد فإن إجمالي الناتج القومي في أمريكا يبلغ أكثر من ٢٠٪ من إجمالي الناتج القومي العالمي ، وفيها أكبر عدد من أصحاب الملايين، وأصحاب البلايين، ففيها ٦٤ ألف مليونير ، و ٥٠٪ من إجمالي عدد أصحاب البلايين في العالم ، ولديها قدرات نووية تدمر الكرة الأرضية ست مرات إذ تملك اكثر من ٢٥ ألف رأس نووي ، ولازالت هي الدولة الوحيدة في العالم التى تنفق سنوياً ٢٨٠ مليار دولار ـ أى مليون دولار في كل دقيقة على مدار السنة ـ على إنتاج الأسلحة وتطويرها بكل أشكالها وأنواعها.(٤)

لكن تعالوا بنا نتجاوز هذه القشرة الخارجية لنلقى نظرة على الخواء الذي ينخر كالسوس في عظام هذه الحضارة .

يقول ألبرت شفيتزر : (إن الاتساع الرائع في المعارف المادية والقوة لا يكون جوهر الحضارة .) (٥)

(وإن الأعمال المبتكرة : عقلية ومادية لا تعطى آثارها الحقيقية إلا إذا استندت الحضارة في بقائها ونمائها إلى استعداد نفسي يكون أخلاقياً حقاً .)(٦)

وأنه (إذا فقد الأساس الأخلاقي تداعت الحضارة حتى لو كانت العوامل العقلية والفنية والمادية تعمل عملها في اتجاهات أخرى .) ... ثم يقول (إن مستقبل الحضارة يتوقف على تغلبنا على فقدان المعنى واليأس اللذين يميزان أفكار الناس ومعتقداتهم في هذه الأيام ...ولن يكون في وسعنا ذلك إلا إذا اكتشف غالبية الناس لأنفسهم معنى أخلاقياً عميقاً راسخاً عن طريق نظرية أو عقيدة في الكون . وبغير مثل هذه التجربة الروحية العامة لا سبيل إلى المباعدة بين عالمنا وبين الانهيار الذي يغذ في السير إليه .) (١)

وهاهو تشارلز فرانكل في كتابه «أزمة الإنسان الحديث» يشير إلى أن كثيراً من فلاسفة العلم المعاصر مثل مرتيان ونيبور ومانهيم يتحدثون عن (التقدم الفكري والعلمي - وهو أكبر مفخرة لما أتاه الإنسان الحديث - على أنه مجرد أحبولة وخداع ، وأن هذا العالم الحديث قد أعطى مكاناً مركزياً في الحضارة لجزء من الحياة البشرية ، ليس في حقيقته سوى جزء صغير بالنسبة إلى الأجزاء التى تعمل على التقدم الإنساني ، وأن حماسة كوندورسيه وجون ستيوارت مل للعلم الحديث وإيمانهما بالعلم وأملهما في المستقبل تنبذ - الآن - على أنها أوهام قوم، معرفتهم بالطبيعة البشرية مسطحة جداً ، مثل مفهومهم لإمكانات الحياة البشرية ومعضلاتها.)(٢)

ويقول ألبرت شفيتزر (لن نفلح في بناء حضارتنا على أساس ثابت وطيد إلا إذا تخلصنا نهائياً من الفكرة السطحية عن الحضارة - هذه الفكرة

التى نتشبث بها وتملك علينا أنفسنا - ثم نأخذ من جديد بالنظرة الأخلاقية ...) ويقول (يجب أولاً أن نكون متأهبين للعمل الإيجابي في العالم والحياة ويجب ثانياً : أن نكون أخلاقيين .)(٢) ثم يقرر أنه لا سبيل إلى إقناع الناس (بالأخلاق عن طريق الدعوة والوعظ بل لابد من أن تنشأ العقلية الإيجابية الأخلاقية التى تنبع من نظرة عقدية تشمل الكون والحياة ...) (٣)

ثم يقول (هذا هو المصير الذي انتهينا إليه : لقد فقدنا كل نظرية الكون.(٤)

ثم يقرر حقيقتين هامتين : (أن طابع الحضارة أخلاقي في أساسه وأنه لابد من ارتباط وثيق بين الحضارة وبين نظرتنا إلى الكون .)(٥)

ثم يقول (لم يكن ذنب الفلسفة أن الفكر المجرد لم يفلح أبداً في بناء نظرية في الكون ذات طابع متفائل أخلاقي ، إنما أذنبت الفلسفة في حق هذا العصر بعدم اعترافها بهذه الواقعة وإصرارها على أوهامها ، وكأن في ذلك فعلاً ما يعين على تقدم الحضارة .)(٦)

حتى في مجال تحرير الرقيق نجد الخواء ...

يقرر أرنولد توينبى أن المحرر قانوناً لم يكن أحسن حالاً من مملوك مسلم إذ يقول (بالنسبة لهذا المملوك فإن استرقاقه الشرعي قد يفتح الطريق أمامه ليصبح سيد عدد من المحررين قانوناً ، أى المعتقين شرعاً ، إذ العتق يشمله هو أيضاً).

ثم يقول : (والسود في الولايات المتحدة الذين حرروا قانونياً في سنة ١٨٦٢ لا يزالون يشعرون إلى الآن ، وقد مر على تحريرهم أكثر من قرن ، بأن الغالبية البيضاء من مواطنيهم لا تزال تنكر عليهم حقوقهم المدنية الكاملة ، وهم في شعورهم هذا على شيء كثير من الحق(١)).

ويقرر رشدي فكار أن الحضارة المعاصرة تفخر بإنجازاتها على مستوى السلبيات :

١ - الحروب المدمرة الأولى والثانية(٢) .

٢ – تعدد وسائل الفناء للبشرية كأنما لا تكفي المتفجرات الذرية ، وإنما أضيفت إليها الهيدروجينية والكيماوية والبيولوجية .

٣ – عصر تشرنوبيل وما أحدثته من رعب بالتلوث الذرى وما حملته من سموم رياح الشمال القاتلة ووصلت أصداؤها إلى الجنوب ، وأتلفت آلاف الأطنان من المحاصيل والمنتجات .

٤ – عصر المضاربات التجارية ، ليس فقط في البنيات الاقتصادية وإنما في المستخرجات الطبية والصيدلية سعياً وراء الربح .

٥ – وتعدد أنواع الأدوية والسموم بحثاً عن الكسب ولو لحساب إفشال الكبد والكلى .

٦ – التلوث القيمي حيث يفاخر البعض بخروجهم على القيم والتقاليد والتنكر لكل رباط مقدس حتى المحرمات أبيحت باعتبار أنها مجرد (تابو) .

٧ – وأسست جمعيات (٤) لاباحة العلاقة مع المحارم .

٨ – كما أبيح الشذوذ الجنسي وشرع للعلاقة المثلية في مجال الجنس .

٩ – وأصبح موكب الفضائح الأخلاقية بما فيه من رشوة وجنس وعلاقات جنسية ، علنياً، على كل المستويات ، وأصبح قاسماً مشتركاً لا ينفصل عن العظمة.

١٠ – وأصبح المنتحرون على مستوى كبار الأدباء ، والقادة والمتخصصين في الدراسات النفسية والاجتماعية والانثروبولوجية من أمثال : جاكوب مورينو ، وجان لوفيقر وهمنجواى، ومارياكالاس ، ودالیدا ... إلخ .

وقامت المراهنة الصناعية على دعائم فاسدة من :

تلوث البيئة بافتقاد سلامة الجو ،

وتلوث الجسد بالكيمائيات ...

وتلوث العلاقات الاجتماعية ، بأمراض الجنس والإيدز .

وتلوث العلاقات القومية بالفتن والقلاقل وبرك الدماء ؛

وتلوث العلاقات السياسية والاقتصادية بالزيف والغش والمضاربة :

حيث أعطيت لها أسماء التكتيك والاستراتيجية ومناطق النفوذ .

وصارت حضارة العقل التى قدمت اللامعقول على حد تعبير برتراندرسل.(١)

* * * *

وإذا كان الردع النووي الذي يحتكره كبار السدنة في هذه الحضارة هو الذي يؤجل انهيار المعبد على رؤوس الجميع فهل بقى في المعبد رادع أخلاقي أو عقلاني يمنع انفلات الكارثة النووية الشاملة ؟؟

وماذا تكون هذه الكارثة المحتملة والتى إن لم تقع فإنها تؤثر سلبياً بمجرد احتمال وقوعها .. ؟ ماذا تكون هذه الكارثة ؟

سؤال طرحته منظمة الأمم المتحدة على عشرة من كبار العلماء في العالم - من بينهم أ. الدكتور محمد عبد الفتاح القصاص - واستغرقت الدراسة حوالي عام ، وتم تسليمها إلى بيريز دى كويلار السكرتير العام للأمم المتحدة آنذاك .

وكانت نتائج الدراسة على النحو التالى :

١ - سوف يموت في الساعات الأولى ما بين ٢ إلى ٣ بليون شخص .

٢ - ٢ بليون آخرون ينتظرهم شتاء نووي مظلم تنخفض فيه درجة الحرارة إلى ما بين ٢٠ - ٢٥ درجة تحت الصفر .

وفي نهاية الشتاء النووي المظلم وبعد أن تنقشع غمامة الدخان الأسود هناك مرحلة تساقط الغبار الذرى .

٣ - تنشأ - عن قنبلة ذرية عادية - عاصفة سرعتها ٧٥٠ كيلومتراً ، وتدمر أى مبان - مهما كانت قوتها - في بؤرة التدمير .

٤ – الموجة الحرارية الناشئة عن طاقة القنبلة تكفي اشعال حرائق تصل درجة حرارتها إلى مئات الدرجات المئوية .

٥ – تحدث نبضة الكترو مغناطيسية تكفي لتعطيل كل الاتصالات السلكية واللاسلكية ، وتدمير كل الأجهزة الإلكترونية في قارة أوربا (٢) .

وبغير الردع النووي ماذا صنعت ـ بالفعل ـ هذه الحضارة ؟

يعلق الفيلسوف الفرنسي روجيه جارودى على ضحايا الحضارة المعاصرة فيقـــــول :–

(لقد أطلق مؤرخونا بحق اسم الغزوات البربرية على الأهرامات التى بناها تيمورلنك بسبعمائة ألف جمجمة بعد احتلاله أصفهان .

فماذا نقول عن إبادة ملايين الهنود الحمر في أمريكا على يد الفاتحين الأوربيين أصحاب المدافع ؟

وماذا نقول عن تخريب أفريقيا بانتزاع حوالي عشرين مليوناً من سكانها السود مما يعنى أن عدد الضحايا بلغ مائتي مليون إذ كان أسر كل أسير يكلف قتل عشرة أفراد .

بل ماذا نقول عن مذابح آسيا وحرب الأفيون ؟ والمجاعات التى فتكت بملايين الهنود بفضل الاستعمار وفرض الضرائب ؟

وماذا نرى في ضحايا الحرب العالمية الأولى والثانية ؟

وماذا نرى في قنبلة هيروشيما ؟

وماذا نرى في حرب فيتنـــــام ؟

وماذا نرى في ضحايا فلسطين ؟

وماذا نسمى في عالمنا اليوم النظام العالمي للسيطرة الغربية ، هذا النظام الذي أنفق أربعمائة وخمسين مليارا من الدولارات على التسلح عام ١٩٨٠ وتسبب في العام نفسه فيموت خمسين مليوناً من البشر في العالم بسبب لعبة المبادلات التجارية ؟

وهكذا - يقول جارودي - يعتبر الغرب إلى أبد الآبدين أكبر مجرم في التاريخ .)(١)

* * * *

وماذا عن العنف العالمي الذي تصنعه هذه الحضارة ؟

يلاحظ المراقبون السياسيون أن العالم الغربي يشهد تياراً من العنف لم يسبق له مثيل منذ نهاية الحرب الباردة ؟

الحروب الأهلية في الاتحاد السوفيتي السابق .

وحرب الابادة في البوسنة والهرسك .

والحروب التى تجرى في المدن بين عصابات الشوارع : في الولايات المتحدة الأمريكية، وبريطانيا ، وإيطاليا وألمانيا وفرنسا واليابان ، والتى تنظمها منظمات على أعلى مستوى من السيطرة والتحكم والإدارة والمال. (٢)

وهل أغنت المظلة النووية عنهم من الله شيئاً ؟!

إن الاتحاد السوفيتي تبدد وهو مسلح نووياً ، وكما يقول الدكتور مصطفي محمود (ماتت روسيا و هي واقفة بدون حرب ، وعلى ظهرها حمولة من القنابل الذرية تكفي لنسف الكرة الأرضية وفي الفضاء تدور سفينتها العجيبة «مير») .

ثم يقول (وسوف يسقط العملاق الغربى بنفس الداء ، ودون أن يطلق عليه المسلمون (!!) رصاصة واحدة.

سوف يموت من الداخل ، هذه المرة بمرض مختلف : اسمه الترف ، والوفرة والشبع، والتخمة ، وعبادة الشهوات ، والغرق في الملذات .

هذه المرة الميكروب : اسمه البطالة ، و المخدرات ، والجريمة المنظمة والمافيا ، وعجز الميزان التجاري ، وصراع العملات ، وكساد السوق ...

وكعادة كل حضارة مترفة ازدهرت فنون الانحلال ، وسينما العنف ،

ومسرح العبث، وغناء العهر ، وروايات الجنس التى تخلف البلادة والاكتئاب.

ثم سر المكروبات : غرور القوة الذي يورث التمرد على كل شيء ، حتى على الخالق وقوانينه وسننه ، فنراهم يقننون الشذوذ ، ويحتفلون بزواج الرجال بالرجال ، والنساء بالنساء، وينظر قضاؤهم في مشاكل هذا الزواج من النفقة والحضانة والميراث وكأنهم يخرجون لسانهم لحكمة الخالق التى أعمرت لهم الأرض فراحوا يخربونها بهذا الزواج العقيم ، ويحتفلون بهذا العقم ، ويتبادلون التهاني).

كل ذلك يهون ، أو يقاس - مع الفارق - على آثام حضارات تداعت من قبل.

لكن : هل من قياس لما تصنعه هذه الحضارة من كارثة بيئة الأرض : كوكباً ضمن المنظومة الفلكية(٢) ؟!

الوراثـــة

إذا كانت الصين - فيما يقال - تتطلع بمليارها إلى وراثة هذه الحضارة المتداعية ، فقد يتساءل البعض منا : -لم لا نتطلع بدورنا - إن صلح أمرنا كما يقول الدكتور رشدي فكار(١)- إلى مكاننا في هذه الوراثة ؟ بمليارنا الإسلامي الذي يرتكز على الوطن العربى و الذي يمتد إسلامياً في اسيا وافريقيا ؟

الآخرون المتطلعون إلى هذه الوراثة يتفاوتون في ارتكازهم على وحدة الأرض ، أو وحدة اللغة ، أو وحدة التاريخ ، أو وحدة العقيدة ، بينما نحن المسلمون نرتكز على هذه الركائز جميعاً ؟

لقد فاتت الفرصة على اليابان لوراثة هذه الحضارة فيما يقوله هارولد لاسلكي (لقد كان من الممكن ان تتعلم اليابان كيف تكون قنطرة بين الشرق والغرب ، ولكن يبدو أنها لم تستفد شيئاً سوى ذلك الدرس الغث : الاستعمار الاقتصادي ، لقد اكتشفت «المهارة» في لندن وبرلين وباريس ونيويورك ،

ولكنها ـ أي اليابان لم تكتشف مثلهم الهدف الكبير الذي تهب له هذه المهارة..)(١) .

ويتفاءل بعض المفكرين الغربيين بوراثة الإسلام لهذه الحضارة المتداعية، إذ يقول روجيه جارودى (لقد سبق للإسلام أن أنقذ إمبراطوريات متهافتة من الفناء في القرن السابع الميلادي.) .

ولعل هذا هو ما يبيته القدر للإسلام مرة أخرى أن يرث الحضارة المعاصرة ليعطيها ما قد فقدته : هدف الإيمان.

أن تكون الحضارة لله .

يقول الله تعالى : «إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده .» ١٢٨ الأعراف .

ويقول تعالـــى: «ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادي الصالحون.» ١٠٥ الأنبياء .

ويقول تعالـــى : «وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الأرض ومغاربها التى باركنا فيها» ١٣٧ الأعراف.

ويقول تعالـــى : «وأورثكم أرضهم وديارهم وأموالهم وأرضاً لم تطؤوها» ٢٧الأحزاب.

ويقول تعالـــى : (بدأ الإسلام غريباً ويعود غريباً كما بدأ) .

لكن السؤال الذي ينبغى أن يلح على المسلمين اليوم هو : إذا كان الإسلام هو المرشح الوحيد لإنقاذ هذه الحضارة أو لوراثتها ، فهل المسلمون المعاصرون مرشحون أيضاً لهذه الوراثة؟

إنه كما يقول بعض المفكرين - الدكتور يحيى الرخاوى - لا يمكننا ذلك (ونحن لا نفعل إلا أن نكرر حياتهم على مستوى أفشل وبمحتوى أضحل) . (ولن يغير من الأمر شيئاً أن نضيف إلى نموذجهم نشاطاً خاصاً بالجانب الوجداني القلبى المتدين .. وليس بديلاً ما ندعيه من ممارسات إسلامية لمجرد

أن اللافتة تعلن شيئاً مختلفاً عن لافتتهم ، نمارس تحته ما يملونه علينا . ولن ينفعنا أن نشق أنفسنا إلى نصفين : فنعيش حياتنا العلمية والسياسية والاقتصادية بأسلوب علماني تمت صياغته هناك . ونعيش حياتنا الروحية بتسليم عاطفي حالم . ولن يصلح من شأننا أن نستغل الحماس للإسلام لتجميع طاقات الشباب لتحقيق تغيير يؤدى في النهاية إلى الوجه الآخر من نفس الحضارة العلمانية التى تشيع قرب غروبها) .ثم يستمر قائلاً : (ليس بالضرورة أن يكون تأزم حال المسلمين يعنى تأزم الإسلام . فكما نكرر دائماً : «أزمة جيل ليست بأزمة مصير» و «أزمة نخبة ليست بأزمة أمة)(١) .

إن المسلم المرشح لهذا الدور لن يتحقق عن طريق الإشباع الاستهلاكي، والتطلع إلى شهوات الدنيا ومتاعها أو جمع فتات موائد الكبار من الصواريخ وأسلحة الدمار . وإنما يتحقق مستعيداً لذاته ، وبنائه ، كإنسان في عصر عزت فيه إنسانية الإنسان . فهو بملياره الذي نطمع أن يتحلى في سلوكه بالقرآن ، يمثل الإنسان المتوازن المتعادل روحاً وجسداً ونفساً .. المتعادل في مشيته وإنفاقه ، بل حتى في صوته الخاشع لربه ، ومنه يستمد الهدى والنور. الإنسان الذي يعيد إلى التصميم الهندسى للحضارة كما أراده الله : جانب الإيمان في ثلاثيته : العلم والعمل والإيمان.

هذا المسلم بسلوكه المتميز يمكنه أن يكون هو أداة التصحيح لمواريث هذه الحضارة ، بإرجاعها إلى طريق «الحضارة لله». إلى طريق الإسلام ممثلاً في عصر النبوة بالوحي الخالد ، والسنة الشريفة والاجتهادات البناءة في تراث المسلمين هو الذي يشق طريقه الآن إلى قلوب البسطاء في كل مكان ، كما يشق طريقه إلى العمالقة في حضارة الغرب ، بعد أن أعيتهم الطرق ، طالبين النجاة لعقل كرمه الله ، وإنسان أسلم وجهه لله .

ولكن ذلك كله لن يكون إلا وفق سنن الله في الكون . إن العناية الإلهية تظللنا في جميع أدوار حياتنا ، ولكن من العناية الإلهية أيضاً أن يكون هذا الكون خاضعاً لنظام ، وأن تكون الحضارة خاضعة لقوانين الله .

إنه لا عناية بغير النظام .

ولا رحمة بغير القوانين .

قوانين الله في التغيير ، قوانين الله في النصر ، قوانين الله في الحصول على الدنيا ، قوانين الله في عموم البلاء ، قوانين الله في التلاؤم بين الحكام والمحكومين ، قوانين الله في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، قوانين الله في قبول الدعاء أورده ... !

والله أعلم

الهوامش

(١) انظر اقتضاء العلم العمل للبغدادى ص ٦٨ .

(١) انظر كتابنا «الأسس المنهجية لبناء العقيدة الإسلامية» نشر دار الفكر العربى ١٩٧٦ وانظر كتابنا «فلسفة التسليم»، وكتابنا «مداخل إلى العقيدة الإسلامية» لطلاب كلية أصول الدين .

١ - تفصيل هذه الشروط العملية في كتابنا «فلسفة الإنذار».

٢ - أنظر (ما يعد به الإسلام) لروجيه جارودي ص ١٤٠

٣ - أنظر بحث «الإسلام والعلم» لفضيلة الإمام الأكبر المرحوم الأستاذ الدكتور عبد الحليم محمود شيخ الأزهر الأسبق ، ضمن بحوث المؤتمر الخامس لمجمع البحوث الإسلامية من ص ٥٣٥\٥٤٥ (١) صـ ٤٣ .

٤ - أنظر «شمس العرب تسطع على الغرب» لزيجفريد هونكة ص٣٣٩ و ٣٧٥.

٥ - أنظر (فلسفة العلم) لفيليب فرانك، ترجمة علي علي ناصف ، طبعة بيروت ص ٤٩.

٦ - أنظر (ما يعد به الإسلام) لروجيه جارودي ص ١١٨- ١١٩.

٧ - من صوت (إقبال إلى الأمة العربية) للصاوي شعلان.

٨ - خطب علي ومواعظه كرم الله وجهه ، في كنز العمال ، المجلد السادس عشر ، طبعة دمشق ١٩٩٣.

٩ - أخرجه ابن سعد في الطبقات الكبرى

(١) كمشكلة الاقتصاد والتربية والإعلام والجهاد ... الخ .

(١) أنظر مقال محمد حسنين هيكل الذي تضمن بياناً عن معركة تطويع العقل المصري لقبول الصلح مع إسرائيل ، وكيف انفق الغرب على هذه المؤتمرات في مدى عامين أو ثلاثة ما يساوى «تكاليف حرب كبرى» جريدة الخليج ١٩٩٦/٥/٢١ .

(١) كتاب «الإسلام اليوم لمارسيل بوازار» بحث الحبيب الشطي الأمين العام لمنظمة المؤتمر الإسلامي ووزير خارجية تونس الأسبق صـ ٣٤ ـ ٣٥ طبعة ١٩٨٦ ـ اليونسكو .

١٠ - المصدر السابق ص ٣٥٦

(١) المصدر السابق صـ ٩٢ .

(٢) المصدر السابق صـ ١١ .

(١) مقال صلاح حافظ ـ الخليج ١٩٩٤/٢/٢٥ .

(٢) انتهزوا الفرصة ـ ترجمة حاتم غانم ، طبعة فبراير ١٩٩٢ صـ ٤٠ .

(٣) انتهزوا الفرصة صـ ٤٥ .

(٤) انتهزوا الفرصة صـ ٤٣ .

(١) صـ ٤٣ .

(٢) انتهزوا الفرصة صـ ٧٦ .

(١) مقال رجب البنا صـ ٩ ، الأهرام ١٩٩٤/٣/٦ .

(٢) الأهرام ١٩٩٥/٧/٢٩ .

(١) أنظر كتاب «التنصير : خطة لغزو العالم الإسلامي» وهي تضم مجموعة أعمال المؤتمر الذي عقد عام ١٩٧٨ بكولورادوا بالولايات المتحدة الأمريكية ، ونشرته دار نشؤل ، ونشر بالعربية .... صـ ٢١٤ ٢٧٤،

(١) أنظر المصدر السابق .

من صـ ٢٧٤ إلى صـ ٢٨١ .

(١) المصدر السابق : التنصير خطة لغزو العالم الإسلامي من صـ ٥٤٩ إلى صـ ٥٦٨ .

(١) أنظر كتاب «الإسلام اليوم» لمارسيل بوازار ، ترجمة ونشر اليونسكو ، صـ ٢٢ إلى صـ ٣٠ .

(١) مارسيل بوازار : «الإسلام اليوم» صـ ٢٦ ـ ٢٩ .

(٢) ولو لاحظ جوهر القضية لقال الإسلامي : أنظر أفغانستان ، وباكستان والفليبين ، وقبرص وإريتريا ، وجنوب السودان .. الخ .

(١) يشير إلى قرار الكونجرس الأخير باعتبار القدس عاصمة موحدة لإسرائيل .

(٢) مقال بالأهرام ١٩٩٠/٤/٥ صـ ٨ .

(٣) معالم الصورة كانت واضحة منذ قيام إسرائيل في خريطتها من النيل إلى الفرات !!

(٤) إنها كبرى منذ الأندلس إلى تركيا إلى إسرائيل ..

(٥) الأهرام ١٩٩٠/٤/٦ .

(١) عفواً ليست معركة الوان في جرعة تزييف أخرى .

(٢) محشورة حشراً .

(٣) صح النوم !

(١) انظر جريدة الوفد ١٩٩١/٨/٥ ، والأهالي ١٩٩١/٧/١٣ .

(١) انظر سعيد حارب في كتابه (الخليج العربي أمام التحدي العقدي). والغارة على العالم الإسلامي .

(١) أى كارثة عامة

(٢) أى جماعتهم

١١ - ٦٠ الأنفال

١٢ - ٣٠ الأنفال

١٣ - ٩٩ الأعراف

١٤ - ٤٦ الطور

١٥ - ٤٢ الطور

١٦ - ١١ الطارق

(١) أنظر تصريح الأمين العام للحلف في صحف ١٩٩٥/٢/٣ .

١٧ - أنظر أبعاد هذا الاعتداء على الإسلام في كتاب (الاستشراق : المعرفة. السلطة . الإنشاء) للدكتور إدوارد سعيد ، ترجمة كمال أبو ديب ، نشر مؤسسة الأبحاث العربية - لبنان

(١) مجلة الأزهر - ديسمبر ١٩٩٣ .

(٢) أنظر المجلة العربية للعلوم الإنسانية التي تصدر عن جامعة الكويت العدد ٣١ صـ ٢٦٩

(١) وإن كان يلجأ إليه فبأغراض عارضة أحياناً .

(٢) فلسفة الحضارة ص ١٤ .

(٣) المصدر السابق ص ١٦ .

(٤) المصدر السابق ص ١٧ .

(١) المصدر السابق ص ١٤ .

(٢) أنظر مقال للدكتور مصطفى محمود بالأهرام ١٩٩٢/١٠/٣١

(٣) بحث للدكتور عبد الخالق عبد الله بجريدة الخليج في١٩٩٢/٩/٢١ .

(١) فلسفة الحضارة ص ١ .

(٣) المصدر السابق ص ٧

(٣) أزمة الإنسان الحديث ص ١٥٢ - ١٥٣ ، وهذا يذكرنا بمدبر الحضارة الإسلامية (ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير) .

(١) فلسفة الحضارة ص ٤ .

(٢) المصدر السابق ص ٦ - ٧ .

(٤) المصدر السابق ص ١٨ .

(١) تاريخ البشرية ص ٢٤ الجزء الأول نشر الأهلية للنشر والتوزيع بيروت

١٩٨١ ترجمة د. نقولا زيادة .

(٢) وأضيف : والثالثة المستمرة من انتهاء الحرب العالمية الثانية ، في البلاد الإسلامية ابتداء من مسلسل فلسطين إلى البوسنة إلى الشيشان .. الخ

(٣) نهاية عمالقة ص ١٣٢ .

(٤) وأضيف : واقيمت مؤتمرات ، وصيغت قوانين .

(١) المصدر السابق ص ١٣٢ .

(٢) المصدر السابق ص ١٣٧ .

(١) الأهرام ص ٣ ، ١٩٨٨/١٠/٩ .

(١) مايعد به الإسلام ص ٣٧ - ٣٩ .

(١) الأهرام ١٩٩٢/٩/٣٠ ص ١ .

١٨ - أنظر أبعاد هذه الكارثة في كتاب (الأرض في الميزان) لآل جور نائب رئيس الولايات المتحدة الإمريكية ، ترجمة د. عواطف عبد الجليل ، نشر مركز الأهرام للترجمة والنشر .

(١) محنة الديموقراطية لهارولد لاسكى جـ ١ صـ ١٢ - ١٣ .

(٢) أنظر كتابة «نهاية عمالقة صـ ١٣٧ - ١٣٩ ».

(١) الأهرام ١٩٨٤/١/١٦



المشروع الإسلامي وأساليبه الجهادية في مواجهة النظام العالمي الجديد

ندوة

"التحديات المستقبلية التي تواجه الأمة الإسلامية في القرن المقبل"

في الفترة من ٢٠ – ٢٢ ديسمبر ١٩٩٧م

أ.د./ عبد الحليم عويس



المشروع الإسلامي وأساليبه الجهادية في مواجهة النظام الدولي الغربي

بقلم أ.د./ عبد الحليم عويس

جبهات المشروع الغربي ووسائله:

إن ما يجرى في عالم السنوات الأخيرة للقرن العشرين، بل ومستهل القرن الحادي والعشرين الميلادي، لا يمكن أن ينفصل عن الثوابت التي تحرك المتصارعين على المسرح، وهي الثوابت التي تحدد أهدافهم المرحلية، وإن كانت تتغير من أجلها وسائلهم، وتَبْرُزُ في كثير من تصريحاتهم، بل ولا يستطيعون – في بعض الأحيان – إخفاء معالمها الحقيقية!!

وعندما أعلن الرئيس الأمريكي (جورج بوش) مصطلحه الشائع: (النظام العالمي الجديد) عشية بدء الحشد الدولي ضد العراق سنة ١٩٩١م لم يكن الأمر – في حقيقته – إلا تحذيراً أمريكياً معروفاً درجت أمريكا – من خلال عدد من رؤسائها في القرن العشرين[١] – على استعماله في الأزمات الكبرى لتفريغ شحن البغضاء العالمية تجاهها، ولتحسين صورتها القبيحة في العالم، بينما كان الذين يفقهون ثوابت الصراع العالمي يتعاملون بحذر ورفض باطني لهذه الألاعيب السياسية التي لا تليق بعالم متفوق علمياً وعقلياً على هذا النحو ويقف على أبواب قرن جديد!!

إن نائب وزير الخارجية الأمريكي (لورانس إينجْلِبرغَر) قد سارع بالتصريح بأنه لا يستطيع أن يصف ما سيكون عليه شكلُ النظام العالمي الجديد الذي أعلنه رئيسهُ الأمريكي.. فكيف يمكن التعاملُ الفكريُ العام مع مصطلح لا يدري صانعوه ما يريدون به!!

أما العالم اللغوي الأمريكي وأحد مستشاري الأمن القومي نعوم تشومسكي فقد حَدد – كعالم لغة وسياسي أمريكي بارز – معالم هذا النظام

(١) لتتذكر مبادىء ولسون الأربعة عشر ووعود أيام عصبة الأمم .. وغير ذلك من صور التحذير!!

العالمي الجديد في عبارته التي يقول فيها:

إن النظام الجديد المقصود يقوم على أساس سيطرة ثلاث قوى على الاقتصاد العالمي، وسيطرة قوة أحادية في المجال العسكري على العالم .. ثم يعلق: إن اجتماع الولايات المتحدة للدول الضعيفة لنفوذها العسكري والسياسي والمجزرة القاسية التي تعرض لها بلد تجاسر على القيام بعمل مستقل عن ملكوت ذلك النفوذ وخدمات المرتزقة البريطانيين والأمريكيين في المستقبل هي المعالم القادمة للنظام العالمي الجديد. وهذه المعالم تتضح شيئاً فشيئاً فيما تنقشع عنها العبارات الخطابية[1].

وغني عن البيان أن الإيماءات التي فُهمت من إعلان الرئيس بوش عن النظام الجديد هي غيرُ - بل عكسُ - هذا التحديد الذي أورده نعوم تشومسكي عالم اللغة والمستشار السياسي.

فالحقيقة أن هذا النظام الدولي الجديد يُعيد إلى العالم ذكريات انفراد بريطانيا بحكم العالم وفرض التجزئة والتمزق والتخلف وفرض إسرائيل على العالم الإسلامي، فمع نهاية القرن العشرين تقف أمريكا الموقف نفسه، وتلعب بالعالم الإسلامي اللعبة نفسها، وتخترقه في بنيته الأساسية، فتفرض عليه تشويه دينه، وتفتعل صوراً من التطرف لتبرير إعلان حرب عالمية عليه، مثلما افتعلت أزمة الخليج لإعلان حرب عالمية على العراق ولتمزيق العرب جميعاً، وتأمين البترول العربي، بعد أن ظلت مشكلة التزود بالتبرول طوال عشرين سنة مسلطة كالسيف على رقاب الأوربين والأمريكان - حسب تعبير ميشيل ألبير[2]. وتفرض عليه إهمال لغته والتنكر لها، والتدخل في تطوير تربيته الدينية، وتاريخه، وبقية مقوماته الأساسية.

إن ميشيل ألبير يضيف إلى نتائج انتصار المائة ساعة والذي تحقق بنسبة ١ إلى أف ١/١٠٠٠ - زوال المضمون الحقيقي للعالم الثالث نفسه بعد زوال مضمون القوة الشيوعية السوفيتية خلال السنوات الأخيرة من عقد

(١) محمد خليفة: النظام الدولي بين المقصود والمنشود: ص١٤، ط١/١٩٩٢ مالطة.
(٢) انظر ميشيل ألبير: الرأسمالية ضد الرأسمالية ص٩، نشر مكتبة الشروق، ط١/١٩٩٥ مصر.

الثمانينات.

وأنا أضيف إلى استنتاجات "ألبير" أن هذا النظام الجديد الذى صحب معركة المائة ساعة قد قصد إلى أن يصيب العرب والمسلمين - بخاصة - بشروخ كبيرة كانت هي الهدف الأول من هذه المعركة التي خُطط لها بدقة وصبر منذ أكثر من عقد من الزمان، بل ربما منذ حرب ١٩٧٣م، التي توحد فيها العرب وانتصروا تحت شعار "الله أكبر" مع خيانة القوى الدولية كُلَّها لهم، ووقوفها ضدهم، بعد أن استثمروا طاقاتهم - ولاسيما الإيمانُ والبترول - الاستثمارَ الأمثلَ لفترة قصيرة!!

إن هذا النظام الغربي الأمريكي الجديد الذي سنتعامل معه - شئنا أم أبينا - بعد انفراده بالهيمنة على العالم، يفْرض على العالم الإسلامي مذهبيته وحضارته وعاداته وتقاليده بطريقة قسرية تعتمد الإعلام والتربية والاقتصاد والقوة السياسية والعسكرية طريقاً لتحقيق مآربها ... وقد يحاول بعضُ سدنة هذا النظام وأجرائه في المحيط الإسلامي أن يهذبوا من مضمون كلمة (التغريب)، لكنها - في مصادرها، وعند المحايدين الأوربيين أنفسهم - تعني - كما يقول (كورنليوس كاستوديادس): "تحويل الحضارات والمجتمعات إلى النمط الغربي لضمان سهولة السيطرة على هذه المجتمعات، وامتصاص مواردها الطبيعية، اعتماداً على القوى العسكرية والحداثة بنزع الهوية والقتل العرقي واقتلاع الجذور لإدراج المجتمع، تحت لافتة التخلف، وإدماجه في استراتيجية التنمية التي تُحوِّل الاستعمار إلي استعمار اقتصادي عن طريق تدخل صندوق النقد الدولي، والبنك الدولي"، ومكا يقول (سرج لاتوش) "إن عملية تغريب العالم الثالث تعني أولاً قتل الهوية، اي قتل اللبنات الاقتصادية والاجتماعية والأخلاقية التقليدية؛ لتحل محلها كميُ من الحدادة مصيرُها الصدأ، وما يتم اقتراحه على شعوب البلدان النامية كبديل لهويتهم الثقافية الضائقة عبارةُ عن هوية قومية عبثية وانتماء كاذب للمجتمع الدولي[1].

(١) نقلاً عن د/زينب عبدالعزيز، بحث: أبجدية الحوار بين الحضارات، مقدم لمؤتمر نحو فلسفة إسلامية جديدة، القاهرة ١٩٩٣م.

إن هذا النظام التغريبي القهري الجديد ينطلق، في طوره القوي مع نهاية القرن العشرين، من خلال عدد من الجبهات الأساسية التي تُفرض على الفكر الإسلامي، والأمة المسلمة كلها في شتى طوائفها، أن تتعامل معها، وأن تتهيأ لمواجهتها، وأن تتخلص من كل الهواش والمعوقات الداخلية وصور التمزق الفكري الترفي والنفاقي، استعداداً للوقوف في وجهها..

إن هذه الجبهات الزاحفة تعتقد أنها أمام (فرصة سانحة) - كما قال ريتشارد نيكسون - وكُلُها تخطط لهذا اليوم منذ عقود لترث الأرض ومن عليها، وأهمُها القصة الإسلامية القابلة للالتهام ... وكلها يتعاون مع الآخر، وكلها يظن أنه سيسبق لتحقيق أهدافه ويظن أن تناوله لبعض المتعاونين معه تنازل شكلي أو وسائلي.. وأنه سيكسب الألفية الثالثة، وكلها - في هذه المرحلة - قد نسيت ما بينها من خلافات جوهرية، ومن تاريخ دموي رهيب..

إن هذه الجبهات الزاحفة على العالم الإسلامي والعالم الثالث كله ثلاث جبهات رئيسية هي:

أولاً: الجبهة التغريبية المادية العلمانية التى يمثلها مجتمعةً حلفُ الناتو (الأطلنطي)، الذي أبقى على نفسه لمقاومة الإسلام، والمدّ الأصولي المتطرف الذي اخترعته أجهزته.

ثانياً: والجبهة الثانية هي جبهة الفاتيكان، والكاثوليكية.

ثالثاً: والجبهة الثالثة هي الجبهة الصهيونية العالمية، التي تظن - وهي محقة إلى حد كبير - في أنها تركب العالم المسيحي لتحقيق أغراضها.

أولاً: الجبهة التغريبية العلمانية :

مع بداية العام الميلادي ١٩٩٥م وتولي (ويلي كلايس) منصبه كسكرتير عام لحلف الأطلنطي (الناتو)، أصدر (ويلي كلايس) تصريحاً يمثل تهديداً واضحاً معلناً بدء الحرب العالمية على الأصولية الإسلامية، وقد اقترح أن يساعد الحلف في حربه العالمية على الإسلام - مبدئياً - خمسُ دول شرق أوسطية هي تونس - أولاً - ثم مصر والمغرب وموريتانيا وإسرائيل ... وعندما

أدرك (ويلي كلايس) أن تصريحه يمكن أن يوقظ المسلمين أو يوحد صفوفهم، حاول التخفيف من تصريحه قائلاً: إن الإسلام ليس هدفنا؛ وإنما الأصولية والأصوليون هم الموضوع. وقد حاول مندوب الأهرام في روما (ميشيل رجاتا) المشاركة في عملية التضليل والتمييع فكتب في جريدة الأهرام[1] تحليلاً يحاول فيه تحسين صورة (ويلي كلايس)، زاعماً بأن (ويلي كلايس) يحاول مدّ جسور الحوار مع هذه الدول الخمس؛ لكي يواجه حلف الأطلنطي المشكلات الجديدة بالحوار من أجل الأمن الأوروبي بعد أزمة البوسنة وأعمال العنف والإرهاب في بعض دول البحر المتوسط، وأشار ميشيل راجاتا مندوب الأهرام المتطوع بالدفاع عن (ويلي كلايس) إلى أن كلايس لم يقصد بتصريحاته الدخول في حرب مع الإسلام، ولكنه يخشى التطرف لأنه قد يتحول إلى عنف وإرهاب، كما يخشى انتشار أسلحة الدمار الشامل كما في حالتي العراق وكوريا الشمالية - دون أن يذكر إسرائيل - ومع ذلك حاول مندوب الأهرام في روما (ميشيل راجاتا) تبرير هذا بأنه قد يثير مسألة إسرائيل في اجتماعه مع مندوب إسرائيل والدول الأربعة عندما يجتمع بهم في بروكسيل!!

وتشاء عناية الله أن يقوم الدكتور مصطفى محمود - جزاه الله خيراً - بتعرية تصريحات (ويلي كلايس) في العدد نفسه من جريدة الأهرام في مقال بعنوان (التاريخ يُسرع الخطى) قائلاً: "إن الإسلام يا سادةُ هو الهدفُ، وإن الشحن لامست لمشاعر الاستفزاز والكراهية والرفض العالمي لكل ما هو إسلامي أمرٌ مخطط له، ومُبرم بليل؛ وذلك لتجيء حركة حلف الأطلنطي في حربه العلنية على الإسلام تتويجاً طبيعياً ونجدةً متوقعةً ومطلوبةً لإنقاذ العالم من تهديد أخطر من التهديد الشيوعي، وكارثة أخطر من الطاعون الدمّلي اسمها الأصولية الإسلامية .. إنه الإسلام ذاته هو المراد اصطياده بطُعم الإهارب؛ وأين العشرات أو المئات الذين راحوا ضحية الإرهاب (الإسلامي) على حدّ تعبيرهم من الثلاث مائة ألف قتيل والثلاثة ملايين مطرود ومشرد بفعل العدوان الصربي المجرم في البوسنة الذي تجاوز حدود العدوان إلى

---

(1) الأهرام: بتاريخ ٢٢ فبراير ١٩٩٥.

الاغتصاب وحرق الأطفال والأسرى أحياء .. على مسع ومرأى من العالم؟. دون أن تتحرك جيوشُ حلف الأطلنطي لتفعل شيئاً حاسماً لوقف تلك البشاعات ومازال نزيفُ الدم في البوسنة المسلمة مستمراً ومن بعد ذلك في الشيشان المسلمة ... والعالم يتفرج ... ثم لا ينفعل إلا للجرائم الفردية التي ترتكبها قلة من الأصولية!!

أنه الإسلام نفسهُ، هو المطلوب الإتيانُ به في السلاسل والقيود(١).

وهكذا يناشد الدكتور مصطفى محمود المسلمين – حكاماً ومحكومين – ونسأل الله أن يستجيبوا له – أن يتقوا الله في أمتهم وألاّ يقودوها إلى الانتحار الجماعي، وألا تقف أجهزتهم الرسمية في خندق أعضاء (الناتو) الذين يتهيؤون لإقامة مجزرة جماعية للمليار مسلم بدعوى التطرف والأصولية!!

ثانياً: الفاتيكان وتنصير العالم:

مع بداية التسعينيات وسقوط الشيوعية بدأ الهجوم البابوي الواضح ضد الإسلام، على أساس أنه إذا كانت الثمانينات لإسقاط الشيوعية فإن التسعينيات مخصصة لإسقاط الإسلام وتنصير العالم، ولهذا الغرض أصدر البابا يوحنا بولس الثاني وثيقتيه (روعة الحقيقة) و(ادخلوا في الرجاء) وهو في وثيقته الثانية يتحدث عن القرآن قائلاً: إن أي شخص يقرأ القرآن وهو على دراية مسبقة بالعهد القديم والجديد، سيلحظ بوضوح سياق الاختزال الذي تعرضّ له التنزيلُ المسيحيُ. ومن المحال ألا يُصدم المرءُ من عدم الفهم الذين يظهر بوضوح فى القرآن لما قاله الله عن نفسه.. إن الله القرآني تطلق عليه أجمل الأسماء المعروفة في اللغة الإنسانية، لكنه في نهاية المطاف، مجرد إله يظل غريباً عن العالم. إنه عبارة عن "إله جلالة" فحسب، وليس أبداً (عمانويل) أي (الله معنا)(٢).

---

(١) الأهرام ١٩٩٥/٢/٢٢ مقال: التاريخ يسرع الخطى: د. مصطفى محمود.
(٢) د. زينب عبدالعزيز: يوحنا بولس الثاني والإسلام: ص١٤، ط١ القاهرة، ديسمبر ١٩٩٤.

وتعلق على هذا الكلام الذي لا يليق برجل في هذا المستوى الفكري والديني الدكتورة زينب عبدالعزيز أستاذة الحضارة الفرنسية بجامعة المنوفية قائلة: «لا شك في أن القارئ لهذه الإجابة لا يمكنه إلا أن يشعر بالامتعاض، ليس لما بها من جهل ومغالطات متكررة على مدى أربعة عشر قرناً فحسب، بل لأنها صادرة عن البابا يوحنا بولس الثاني شخصياً ومتى .. في نهاية القرن العشرين»[1].

أما أن يأتي البابا اليوم ويعلن على العالم أجمع الأكاذيب والمغالطات المكررة نفسها، ويواصل السير في طريق الهجوم الممتد عبر القرون، على أيدي ترسانة مؤججة بمختلف أجهزة الإعلام التنصيري – فذلك لايعني سوى أحد أمرين لا ثالث لهما بكل أسف: إما أنه يتزعم الهجوم على الإسلام والمسلمين، وبالتالي هو (يبارك) المجازر لاقتلاع الإسلام، وإما أنه في مستوى يُرثى له من المعلومات لا يليق بمكانته؟!!

وكيف سنتحاور مع الفاتيكان إذن إذا كان هذا هو الفكر المطروح عن الإسلام من أعلى سلطة كنسية في العالم. لكن عجبنا سيزول إذا علمنا أن الدعوة للحوار والتي يتبناها أحياناً البابا نفسُه هي دعوة مباشرة للتنصير، أو على الأقل مجرد ذريعه لإتمام الغرس التنصيري بلا مقاومة، أو كما يقول الباب نفسه:

"إن الكنيسة تستعمل الحوار لكي تُحسن حمل الناس على الارتداد والتوبة عن طريق تجديد ضميرهم وحياتهم، تجديداً عميقاً في ضوء سر الفداء والخلاص. إن الحوار الصحيح يرمي إذن بادئ ذي بدء إلى تجديد كل الناس بالارتداد الباطني والتوبة مع احترام كل الضمائر".

ولا يفوت البابا أن يوضح كيف أن الكرسي الرسولي يسعى إلى التدخل لدى حكام الشعوب والمسؤولين عن مختلف المحافل الدولية أو الانضمام إليهم بمحاورتهم أو إخضاعهم للحوار لمصلحة المصالحة وسط صراعات عديدة»[2].

---

(١) المرجع السابق: ص١٥.
(٢) د. زينب عبدالعزيز: يوحنا بولس الثاني: ص٤١.

وبقدر كبير من الوضوح يعلن الباب خطته لتنصير العالم خلال السنوات الباقية من القرن العشرين، وقبل بداية الألفية الثالثة التي يطمح البابا أن تكون ألفية خاصة بالكاثوليكية وحدها، وأن تنتهي سلماً بالترغيب الفاتيكاني أو حرباً بالترهيب الأمريكي الأوروبي - كلُ العقائد الموجودة في الأرض إسلاماً أو بوذية أو عقائد مسيحية تُخالف الكاثوليكية، من خلال توحيد الكنائس والتعاون مع المخابرات الأمريكية والحكام والمفكرين الذين ينضمون لقافلة التغريب والتنصير من العالم الثالث..

ولهذا يقوم البابا بوضوح شديد بتقسيم الفترة الزمنية الباقية من هذا القرن إلى مرحلتين:

المرحلة الأوليك بمثابة إعداد الأتباع وتهيئتهم نفسياً بصورة عامة ثم يتم التركيز بعد ذلك على المرحلة الثانية: وهي آخر ثلاث سنوات في هذا القرن، تُخصص كلها للاحتفال بسر المسيح المُنْقذ .. أي بسرّ تكوينه الثلاثي(١).

أما العام الأول من هذه السنوات الثلاث ١٩٩٧م فسيخصص للتأمل حول السيد المسيح، ويرى البابا: أنه لابد من التأكيد على إبراز الطابع المسيحي الشديد على اليوبيل الذي سيُحتَفَلُ فيه بسر الخلاص لكافة البشر (يسوع) (المسيح المنقذ) الوحيد للعالم بالأمس واليوم وإلى الأبد، مع إحياء مضمون الأسرار السبعة للكنيسة وبخاصة التعميد الذي يمثل - وفقاً لكتاب التعليم الديني الجديد الذي أصدره البابا في ديسمبر ١٩٩٢م - الأساس للتعاون بين كافة المسيحيين، وكذلك بين كل الذين لم يتقاربوا بعد كلية من الكنيسة الكاثوليكية، أي اليهود والمسلمين وأتباع الديانات العالمية الأخرى(٢).

وأما العام الثاني لهذا الاحتفال ١٩٩٨م فيكرسه البابا للروح القدس، بما أن سر التجسيد قد تم بفضل الروح القدس المساوي للأب والابن(٣).

---

(١) د. زينب عبدالعزيز: الخطة الخمسية للبابا يوحنا بولس الثاني: ص١٥، دار الوفاء للطباعة والنشر ديسمبر ١٩٩٤.
(٢) الخطة الخمسية للبابا: ص١٩، ٢٠.
(٣) الخطة الخمسية للبابا: ص٢٠.

وأما العام الثالث والأخير ١٩٩٩م، فسيخصص لتمجيد الأب الثلاثي التكوين، والعمل على إبراز قيمة المحبة والرحمة، خاصة وأن الطريق إلى العدالة والسلام في العالم تحفه العديد من الصراعات وعدم المساواة الاجتماعية والاقتصادية المتعددة الأشكال[١].

ويلاحظ أن البابا يتعامل مع العالم من منظور شمولي، وكأنه عالمه وحده أو عالمُ الكاثوليكية الفاتيكانية وحدها، دون مراعاة لحقوق الجيران من يهود ومسلمين ومسيحيين غير كاثوليك وبوذيين وغيرهم.

كما أننا يجب أن نتساءل أكثر عن ذلك السر غير المعلن عن معنى (القربان) الذي يقصده البابا والذي يخصص له عاماً كاملاً، تسْبقه عملية إسقاط الديون الدولية التي تثقل كاهل البشر .. هل هذه الديون هي القربان الذي يُقدم ثمناً لتنصير البشر، وهل يقع الاحتفال بعد ذلك بابتلاع القربان تدْشيناً للتنصير العالمي المدفوع الأجر وتعبيراً عن إتمام الصفقة؟ وهل تنتشر العقائد بهذه الطريقة؟

وهل يقبل الله جل جلاله أو المسيح عليه الصلاة والسلام هذه الأساليب التي تستغل فقد الناس وضعفهم وترغمهم على الإذعان لما لا يؤمنون به.

ثالثاً: المسيحية الصهيونية :

نجح اليهود - عبر تخطيط دقيق محكم - أن يدخلوا في بنية الفكر الأوربي كثيراً من المعتقدات والأفكار التي تحقق لهم تسخير المسيحية - ولا سيما البروتستانتية - لأهدافهم.

وقد نجحت الأديان اليهودية التي تسربت إلى صميم العقيدة المسيحية[٢] في إدخال ثلاثة مفاهيم أساسية تخدم اليهود، وهي:

١ - الإيمان بأن اليهود هم شعب الله المختار.

---

(١) الخطة الخمسية للبابا: ص٢١.

(٢) نقلاً عن محمد السماك: الأصولية الإنجيلية: ص٣٦، ٣٧، طبع مركز دراسات العالم الإسلامي، مالطة ١٩٩١م.

٢ – الإيمان بأن هناك ميثاقاً إلهياً سرمدياً يربط اليهود بالأرض المقدسة في فلسطين.

٣ – ربط الإيمان المسيحي بعودة السيد المسيح بقيام دولة صهيونية أي بإعادة تجمع اليهود في فلسطين.

وعلى امتداد القرن السادس عشر الميلادي تتابعت هجرات اليهود الأسبان بعد سقوط الأندلس الإسلامية ١٤٩٢م، إلى بريطانيا وهولندا وبليجكا هاربين من محاكم التفتيش، فكان لهم تأثيرهم في حركات الإصلاح الديني المسيحي، وبالتالي كان للمهاجرين البروتستانت إلى أمريكا آثار مباشرة في بلورة الشخصية الأمريكية، وبخاصة وأن المهاجرين الأوائل من الإنجيليين أعطوا أبناءهم أسماء عبرانية، وأطلقوا على مستوطناتهم أسماء عبرية وفرضوا تعليم اللغة العبرية في مدارسهم وجامعاتهم، حتى أن أول دكتوراه منحتها جامعة هارفارد في عام ١٦٤٢م كانت بعنوان "العبرية هي اللغة الأم"، وأول كتاب صدر في أمريكا كان "سفر المزامير"، وأول مجلة كانت مجلة "اليهودي"[1].

وخلال القرون التالية تبلورت المسيحية الصهيونية الأمريكية واحتلت مكانة متميزة في الفكر الأمريكي، لدرجة امتزج معها الرئيس جيفرسون باتخاذ رمز لأمريكا يمثل أبناء إسرائيل تظللهم غيمة في النهار وعمود من نور في الليل بدلاً من شعار النسر، كما تبّنى مؤسس الكنيسة المورمونية القس جوزف سميث نظرية البعث اليهودي في فلسطين، وارتفعت خلال القرن التاسع عشر الدعوات الأمريكية الإنجيلية لتوطين اليهود في فلسطين.

وفي ١٩١٨،٨/٣١م بعث الرئيس الأمريكي ولسون مذكرة إلى الحاخام ستيفن وايز يبلغه فيها بموافقته على وعد بلفور، وبدأت الصهونية المسيحية الأمريكية من ذلك التاريخ تقوم بدور رائد وعلني في تحقيق هذا الوعد ... وما زالت حتى اليوم ...

---

(١) نقلاً عن محمد السماك: الأصولية الإنجيلية: ص٦٣.

ويوجد في الولايات المتحدة نحو سبعين مليون بروتستانتي ينتمون إلى ٢٠٠ طائفة، أكثرها مغالاة في تبني العقيدة الصهيونية هي الطائفة التدبيرية التي يبلغ عدد أتباعها أكثر من أربعين مليوناً[١].

وتعتقد الصهيونية المسيحية أن ثلاث إشارات يجب أن تسبق عودة المسيح هي: قيام إسرائيل، واحتلال مدينة القدس، وإعادة بناء هيكل سليمان على أنقاض المسجد الأقصى، وعندما زار الرئيس الأمريكي جيمي كارتر إسرائيل في مارس ١٩٧٩م تحدث أمام الكنيست الإسرائيلي فقال عن علاقات أمريكا بإسرائيل:

"إنها علاقات فردية لأنها متأصلة في ضمير الشعب الأمريكي وفي أخلاقه، وفي دينه وفي معتقداته"[٢].

أما الرئيس رونالد ريجان، فهو محطة بارزة في طريق المسيحية الصهيونية، وهو دارس - من وجهة نظر يهودية متعصبة - للعهد القديم، ويؤمن بكل النبوءات الواردة فيه، بل إنه ليؤمن بأن عودة المسيح يمكن أن تكون خلال خمسين سنة أي في الربع الأول من القرن الحادى والعشرين للميلاد .. وفي عام ١٩٨٣م تحدث ريجان أمام المذيعين الدينين عن العهد القديم قائلاً: "بين دفتي هذا الكتاب الوحيد توجد جميع الإجابات عن جميع المشكلات التي تواجهنا اليوم"[٣].

ويوجد الآن أكثر من ٢٥٠ منظمة من المنظمات المسيحية الصهيونية منتشرة في الولايات المتحدة الأمريكية.

وبإيجاز شديد هذه هي المعالم الكبرى للخريطة الفكرية الأوروبية التي يجب أن يتعامل معها الفكر الإسلامي مع نهاية القرن العشرين، بعد أن دخل أبطالها في سباق محموم مرحلة الإجهاز الأخير لوراثة الأرض، وتأميم الألفية الثالثة لحسابها.

(١) محمد السماك: الصهيونية الإنجيلية: ص١٧.
(٢) محمد السماك: السابق: ص٨٦.
(٣) السابق: ص٩٣.

اللوحة السوداء والبديل الإسلامي:

إنه كما يجب علي الفكر الإسلامي أن يرصد أنواع الخلل التي تدور في محيط الحضارة الغربية، وذلك لكشف الثغرات في المشروع الحضاري الأوروبي الأمريكي، الذي يريد بعضهم فرضه علينا، ولتحجيم إشعاعات هذا المشروع، ولبيان خطره على العالم كله في المستويات القيمية والروحية والنفسية والفكرية والإنسانية بعامة، وخطره على أصحابه أيضاً، دون أن يؤدي ذلك إلى الوقوف عند رصد هذه السلبيات وقوفاً قدرياً سكونياً ينتظر ما يأتي به الغد القريب أو البعيد .. فعوامل سقوط الخصوم لا تفيدنا إذا بقينا غير جديرين بالقيادة، وغير مؤهلين داخلياً وخارجياً - لصناعة حضارة بديلة، وعاجزين عن إقناع العالم بمشروع حضاري رباني إنساني جديد ينقذ التاريخ من السقوط في وهدة الانتحار العالمي الذي يمثل النتيجة الحتمية لانتصار المشروع التغريبي...

أقول: إنه كما يجب على الفكر الإسلامي أن يرصد هذا الخلل الأوروبي الذي يفرض وطأته على العالم، وتدفع الإنسانيةُ كلها ثمنه - يجب عليه كذلك أن يستوعب اللوحة السوداوية بأبعادها الثلاثة التي وقفنا عندها، والتي تتمثل في الصراع على حكم العالم في الألفية الثالثة القادمة... (البعد التغريبي العلماني المادي، والبعد التنصيري الفاتيكاني .. والبعد الصهيوني العالمي الذي يمتطي الإنجيلية الأمريكية للسيطرة على العالم)...

إن هذه التيارات تلهث ظانةً أننا أمام (نهاية التاريخ)، وأنه قد حان الوقت لوراثة الأرض ... ومن أجل هذه الغاية عقد التيار العلماني التغريبي خمسة مؤتمرات حتى اليوم ذات صفة عالمية مدعومة بأجهزة الأمم المتحدة، حتى يفرض رؤيته التغريبية اللادينية، وهذه المؤتمرات هي: مؤتمر حقوق الإنسان في جنيف، ومؤتمر السكان في القاهرة، ومؤتمر التنمية الاجتماعية في بروكسل، وبقى مؤتمران أخيران أحدهما عن المرأة والثاني عن الحرية، وبانتهاء هذه المؤتمرات تتضح لنا طبيعة الدين العلماني التغريبي الجديد المكون من سبعة مواثيق دولية يراد لها أن تكون دستوراً يفرض على العالم

مثل (اتفاقية الجات)، بصرف النظر عن الخصوصيات الدينية والأخلاقية والحضارية لتلك القوى التي تعيش مع أوروبا وأمريكا نهاية القرن العشرين وبداية الألفية الثالثة.

وفي الوقت نفسه تسعى القوة البابوية الكاثوليكية لقطف الثمرة، وفرض الكثلكة على العالم، معتمدة على تنسيقها مع المخابرات الأمريكية، وعلى إمكانية إقناعها للدول الكبرى بإسقاط ديونها مقابل القبول بالكثلكة.

ولا يقل الصهاينة اليهود في مضمار المنافسة عن شريكيهم في السبق!! بيد أن هذه القوى التي تظن أن العناية الإلهية تخلت عن الكون وتركته لمكرها وقهرها، واستخلفتها على الأرض لتقيم موازين الظلم، وتكيل الأمور بكيلين، وتقسم العالم إلى أول وثالث، وتفرض في كل قراراتها الفقر والجهل على غيرها ... هذه القوى لا تخلو من تناقضات ... بل إن ساعة الصدام بينها قادمة. وقد تشهد بداية الألفية الثالثة ظهوراً لوعي أمريكي يرفض هذه العبثية الصهيونية التي تقوده إلى حتفه، ويرفض هذا الانهيار الذي يقوده إليه مرشحون للرئاسة لا يهمهم إلا قيم الانتخابات كما أن البابا سوف يدرك أن محاولته كثلكة العالم عملية ساذجة، وأن التعدد العقدي والفكري والحضاري سنة إلهية لا يقوى هو - بكل إعلاناته ومواثيقه على تغييرها - وأولى به إن كان مؤمناً بالله والقيم السماوية ورسالات الأنبياء أن يتفاعل مع الإسلام ويتجاور معه تحاوراً حقيقياً من أجل إنقاذ الحضارات الإنسانية وسفينة البشرية الموشكة على الغرق..

إن على الفكر الإسلامي أن يستكشف السبل لفضح هذه المخططات والتوعية بها واستثمار تناقضاتها، وتقديم "الإسلام - كبديل "حسب تعبير" مراد هوفمان[1] وعندما يستوعب الفكر الإسلامي التحديات الراهنة، ويحسن تقديم الإسلام كبديل، فإنه سوف يجد قوى كثيرة تقف معه، سواء في داخل بلاده، أم من هؤلاء الإنسانيين الأحرار المتطلعين إلى عالم آخر، والذين يشعرون بالهوة القادمة، من بين أبناء الحضارة الأوروبية - الأمريكية -

(١) اسم كتاب لمراد هوفمان نشر بيت التمويل الكويتي، ومؤسسة بافاريا للنشر.

أنفسهم - وإنني لأسجل هنا، وأضع عدداً من الخطوط، تحت تلك العبارة البليغة الوجيزة التي كتبها الإعلامي السويسري المسلم الكبير (روجيه دوباسكوية) في كتابه الذي ظهر بالعربية تحت عنوان "إظهار الإسلام"[1]... يقول "دوباسكوية": "إنني قابلت في المغرب السفير الألماني دكتور مراد هوفمان، الذي أخبرني بإسلام شخصيات هامة في ألمانيا، منها المتحدث باسم الحزب المسيحي في بون، والسفير السويدي الأسبق في المغرب ... وقد اتصلت بالأخير - أي بالسفير السويدي في المغرب - فقال في معرض حديثه: "إن الإسلام هو الطريق الطبيعي للمفكر الأوروبي"..

أجل: الإسلام هو الطريق الطبيعي للمفكر الأوروبي، وغير الأوروبي، شريطة أن يجد المفكر بين يديه فكراً إسلامياً يحسن عرض الإسلام بطريقة إنسانية عصرية بعيدة عن الانفعال والوقتية والضغط المحلي والظرفي والتمزيقي والإسقاطي والجمودي... إن الصهيونية تعمل في المجتمع مباشرة منذ مؤتمر بال ... أي منذ قرن ... فكيف يسعى بعض المسلمين لتغيير العالم - بالعنف والتطرف والانفعال والقتل والتمزيق؟!! إن تغيير الاتجاهات الفكرية العالمية يحتاج إلى وقت وصبر، وإلى امتلاك وسائل التغيير الصالحة للعصر .. وإلى ترتيب البيت الإسلامي من الداخل حتى يستوعب - ويستعد - لمواجهة التحديات التي تحيط به بعد أن يقتنع بخطورتها، وبأنها تريد اقتلاع جذوره وتدمير بنيته.

ولا يمكن في ظل الفوضى الفكرية والسلوكية السائدة أن يتم حوار إيجابي بين الحكام والمحكومين، والمفكرين والقياديين ... إننا نستطيع أن نرصد كتابات كثيرة إنسانية تقف معنا، ومنها كتابات (روبرت اغروس، وجورج ستانسو) حول (العلم في منظورة الجديد)[2] وكتابات (بوشنسكي) حول (الفلسفة المعاصرة في أوروبا)[3]، وكتابات أخرى سردها الرئيس (علي

---

(١) روجيه دوباسكوية: إظهار الإسلام: ص٧، طبع دار الشروق ١٩٩٤م.
(٢) نشر عالم المعرفة - الكويت.
(٣) نشر عالم المعرفة - الكويت.

عزت بيجوفيتش) في الفصل الأخير من كتابه (الإسلام بين الشرق والغرب) وهو الفصل الذي عنونه باسم (الطريق الثالث: خارج الإسلام)(١) ومن خلاله يرصد ذلك الطريق الثالث (اللاإسلامي) الذي يرفض التجريبية المادية الملحدة، والروحية المسيحية المجردة، ويرى (بيجوفيتش) - استنتاجا من بعض تقارير مجلس الفاتيكان الثاني - أن هناك اتجاهاً مسيحياً ظهر في المجلس اعترف فيه بأن الموقف الزوجي المتطرف للكاثوليكية لا يمكن الاحتفاظ به. وقال الكاردينال (شاردان): (في اعتقادي أن العالم سيتكيف بآمال المسيحية إذا تكيفت المسيحية بآمال هذا العالم) أليس في هذا الكلام إشارة إلى أسلمة المسيحية؟ - هكذا يقول (بيجوفيتش) وهو يقول لنا أيضاً: إن الدين الأوروبي العلماني يتعرض في رموزه - أو أصنامه - بتعبيرنا نحن - لضربات قوية، وإلى كفر من داخل الحضارة الأوروبية نفسها، فصنم مثل الحرية أصبح يتعرض لضغوط تطالب بتدخل أكثر من قبل المجتمع، وعلى قدر أكبر من الكبح للحرية المفرطة، وكذلك يتعرض صنوه (الديمقراطية) للضغط نفسه. بل أن هذا الإفراط في الديمقراطية اصبح يعامل ضمن ما أطلق عليه (أزمة الديمقراطية) ويطالب الكثيرون (بديمقراطية معتدلة)، وبالحاجة إلى إجراءات تصحيحية تتعلق بالحرية المبالغ فيها.

يقول المفكر الغربي "سولجسنتين" في محاضرته بجامعة هارفارد: "إن على الديمقراطية المعاصرة - إذا أرادت أن تصحح مسارها - المطالبة بالعودة إلى الإيمان بقوة مهيمنة على مصير الإنسان، هي التي تحدد له قيمه ومسؤولياته الأخلاقية والاجتماعية، وكذلك الإيمان بوجود قيم أخلاقية عالمية وموضوعية شاملة لكل البشر، وهي تعلو على كل اعتبارات الحرية الفردية"(٢).

ويسخر (ألفريد ميللراماك) من هذه الأصنام الجديدة بكلمات موجزة في كتابه (الدين والاقتصاد) ينقلها عنه (الدكتور مراد هوفمان) يقول فيها: "نظراً لأن الإنسان يدفع ثمن حريته في إنكار الله، بملئه عالمه بالأصنام والأوثان

(١) هو الفصل العاشر من كتابه: الإسلام بين الشرق والغرب، نشر مؤسسة بافاريا ١٩٩٤م.
(٢) نقلاً عن: أحمد صدقي الدجاني: وحدة التنوع وحضارة عربية إسلامية، ص١٠٧ نشر دار المستقبل العربي، ط١، ١٩٩٠م.

والطاغوت، فإن قصة الإيمان لا تكمل فصولها إلا بقصة الكفر، إن الله، وهو العلي الأعلى، يستبدله الكافر بآلهة وأرباب أخرى فيستفحل فقدان الجوهر أو الذات"[1].

وحتى العقلانية التي تقدم كصنم يضاف إلى الحرية والديمقراطية بمعناها المطلق واللاديني ... هذه العقلانية التي يقدمها لنا كاتب عربي مثل الدكتور (نصر أبوزيد) - بالإضافة إلى الحرية - كمقصدين شرعيين يجبّان مقصدي (الحفاظ على الدين، والحفاظ على العرض)... هذه العقلانية التي تريد أن تستغني عن الوحي والوجدان والضمير، وتكتفي بالتجربة الحسية .. هذا الأقنوم الوثني يتعرض - أيضاً - لنقد شديد - بمفهومه هذا - من قبل كثير من الأحرار الإنسانيين الغربيين أنفسهم؛ فالعقل يؤدي دوره في إطار التفاعل الإيجابي مع الدين والنقل، وفي إطار إيمان أصحابه بأنه ملكة محدودة المدى مثل كل القدرات والطاقات الإنسانية. أما عقلانية التنوير المادي الغربي التي ترى أنه لا سلطان على العقل، وأن بإمكان العقل أن يهدم كل الثوابت والمطلقات في الحياة الإنسانية.. هذه العقلانية التي تؤله العقل، وتهدم الدين المطلق، وتنفي دور المطلق في النسبي، وترشيد الثوابت للمتغيرات ورعايتها لها، إنما هي عقلانية مسؤولة عن كل صور الإلحاد والمادية والوضعية التي أصابت الحضارة الأوروبية - الأمريكية - بأزمة قاتلة..

بل إن (هوفمان) يعزو إلى هذه "العقلانية" ظهور كثير من الحركات الوجدانية والصوفية في داخل اليهودية والمسيحية، تلك التي أصبحت تشك في العقلانية برمتها، وعلى رأسها الشك المتزايد في عقلانية العلوم الغربية وأنظمة المجتمع الغربي، ذلك لأنها رأت فيها عقلانية لقحت فأنتجت شؤم الاستراتيجية النووية، وتخريب الطبيعة، وتخلف الشعوب الضعيفة، ولم تفلح في تجنيب البشرية أهوال النازية (التي ذاقها ضحايا معسكر التعذيب[2])، ولا أهوال الشيوعية والدكتاتوريات البوليسية!! وعلى الصعيد الآخر صعيد

(١) الإسلام كبديل: ص٢٦.

(٢) مراد هوفمان: الإسلام كبديل: ص٩١.

الجهة الصهيونية يمكن القول: إن الصهيونية مهما كان ضغطها على المجتمع الأمريكي والكنائس المسيحية... فإن هناك قطاعات أمريكية تقاوم هذه الهيمنة، وتعتبرها مخالفة للمسلمات المسيحية عقيدة وتاريخاً...

لقد أوردت جريدة الأهرام القاهرية في صفحتها الأولى(١) خبراً تذكر فيه أن ثمانية من كبار رجال الدين المسيحيين الأمريكيين طالبوا الرئيس الأمريكي بيل كلينتون بالضغط على إسرائيل من أجل وقف توسعها في القدس، وطالبوا بوضع مشكلة القدس في موقع متقدم على جدول أعماله، وأنهم أدانوا في بيان لهم استيلاء إسرائيل على أراضي الفلسطينيين بالقدس، ولم يعترفوا بأي دور إسرائيلي خاص في القدس .. وعلى الرغم من توغل ما يسمى بالصهيونية المسيحية في الكنائس الأمريكية فإن هناك قاعدة معارضة كبيرة للتدخل الصهيوني من داخل الكنيسة الإنجيلية نفسها، ومن خارجها. وأهم قاعدة لهذه المعاضرة الإنجيلية تتمثل في المجلس الوطني لكنائس المسيح، ويضم هذا المجلس ٣٤ طائفة يبلغ عدد أتباعها نحو الأربعين مليون شخص(٢). ومن الكنائس الإنجيلية المتعاطفة مع هذا الخط الكنيسة المشيخية، والكنيسة المنهجية، والكنيسة المعمدانية، والكنيسة الأسقفية .. أما من خارج الكنيسة الإنجيلية فثمة كثيرون يرفضون الأنا الصهيوني والإسرائيلي في محيط الكنيسة الأرثوذكسية والكاثوليكية بدرجات متفاوتة ومنها منظمة الرهبان الأمريكيين، ومنظمة مؤتمر الرفاه الوطني الكاثوليكي، ومجلس كنائس الشرق الأوسط الأرثوذكسي الذي يقف بقوة ضد القيادة المسيحية الصهيونية الدولية(٣).

إننا لا نستطيع أن ننكر أن الفكر الإسلامي مطالب - لكي يستطيع مواجهة اللوحة السوداء التي يفرض عليه التعامل معها من الخارج في المحيط العالمي - بأن يقوم بعملية نقد ذاتي لبنيته وأساليبه ورموزه في إطار الرغبة

---

(١) الأهرام ٦ شوال ١٤١٥/ ٧ مارس ١٩٩٥م.
(٢) محمد السماك: الأصولية الإنجيلية: ص١٦٥.
(٣) محمد السماك: المرجع السابق: ص١٧٦، ١٨١.

الصادقة في تعديل المسار لا لهدم الماضي، ولا لنفي التاريخ .. فمما لا شك فيه أنه على الرغم من كثير من إيجابياته مازال بعيداً في داخل بلاده، عن موقع التأثير والقرار.

ومن الغريب والطريف انه كان صاحب التأثير والقرار في مواجهة القوى الاستعمارية وكان له فضل قيادة حركات التحرير لكنه سرعان ما نحى بعد ظهور ما يعرف بعصر الدويلات المستقلة! لقد نجح الاستعمار وسادته وعبيده في الإيقاع بين الإسلام وصانعي القرار والقيادات الفكرية التي تحمل أسماء إسلامية، وبالتالي فمازال الفكر الإسلامي في موقف دفاعي لا يحسد عليه في صراعه مع التغيير والهجمات التى تريد اقتلاع الجذور الإسلامية والعربية، ومع وجود تأثيراته الشعبية القوية التي لا تنكر إلا أنه يعيش الآن خارج الجامعة والمدرسة والمصنع، والحقل والسوق، بينما تنتشر الأفكار الغربية الوافدة، في هذه كلها وفي الاعلام كله، وفي أجهزة التفكير والتخطيط المنتشرة في الدول الإسلامية..

لقد فرض هذا الغياب على الأزهر بدرجة ما (وهو المصنع الأول للفكر الإسلامي السليم)، وفرض هذا الغياب بدرجة كبيرة على القرويين والزيتونة وبقية الجامعات الإسلامية التي توشك أن تكون جامعات لاهوتية أو فقهية تتعامل مع العلوم الإسلامية على أنها علوم تخصصية حرفية لا على أنها علوم إشراق فكري وإشعاع دعوي، وفي ضوء هذا كله فإنه على الفكر الإسلامي أن يقوم بنقد ذاتي صريح، وعليه تجاوز الإقليمية والمحلية مع استيعابهما، وعليه بعده ذلك أن يفكك أكواماً من العقد الصعاب، وألا تغيب عنه المعالم الأساس بعيداً عن الجزئيات لكي يبقى واعياً بدوره كمشروع إنساني وحضاري ورسالة سماوية لإنقاذ البشرية ودعوة الناس للحق والخير. وفي سبيل هذه الغاية عليه أن يتغاضى أو يعالج بحكمة كثيراً من الفروع والجزئيات والوسائل التي يضعها الصغار في الطريق!!

* * * *

الأصل في الجهاد في الإسلام أن يكون لنشر العدل وإزاحة العقبات التي تمنع الناس من الاعتقاد السليم وتجبرهم على أن يكونوا قوالب جامدة يخضعون لقول فرعون: "ما رأيكم إلا ما أرى".. وقد احتج بعضهم بقوله تعالى: «وقاتلوا المشركين كافة» متجاهلاً بقية الآية: «كما يقاتلونكم كافة» ... أي أن القتال العام إنما يكون في مواجهة عدوان عام يريد استئصال الدين واللغة والوطن والتاريخ وكل مقومات الوجود.

لكن الأصل في نشر الإسلام قبل أن يفرض علينا أن ندافع عن ديننا - أن نلجأ إلى العفو والتسامح ونشر الدعوة بالحسنى ... وقد فند الشيخ محمد الغزالي رحمه الله دعاوي المتشددين في فقه معنى الجهاد (القتال).. فرد عليهم أدلتهم القرآنية دليلاً دليلا ... ففي الآية القرآنية: «ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفاراً حسداً من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق فاعفوا واصفحوا حتى يأتي الله بأمره. إن الله على كل شيء قدير» الآية ١٠٩ (من سورة البقرة).

يحكي الشيخ الغزالي أن ضعاف النظر يقولون: إنه لا عفو ولا صفح، بل الآية منسوخة. ويرد الشيخ الغزالي على هؤلاء بأن الراسخين في العلم يرون الآية محكمة ويجعلون الحلم والأناة والتجاوز من ألزم الخلال للداعية.

ولربما فشل القول اللين في إقناع فرعون بأنه بشر عادي، وليس إلهاً كما يزعم، بيد أن هذا الفشل لا يقيم سياسة الدعوة على المخاشنة وإغلاظ القول، بل يجب أن تبقى هذه السياسة ملتزمة السماحة والترفع (الشيخ محمد الغزالي، جهاد الدعوة بين عجز الداخل وكيد الخارج ص٢٩، ط دار الكتب، الجزائر).

- ويعقب الشيخ موضحاً قضية هامة يسقط في فهمها كثيرون فيقول: (يجب أن نعرف الفروق بين أسلوب الدعوة وبين عمل الدولة ووظائف أجهزتها التنفيذية..!!

فأسلوب الدعوة أساسه الإقناع والجدل الحسن والحوار الهادىء أما الأجهزة التنفيذية للدولة فتقوم على الشرطة والقضاء والجيش أي على صيانة الأمن، ومنعه الجرائم .. ولو اقتضى الأمر إعدام المجرمين، وجب الاقتصاص منهم، أو حبس معتدين استغلوا حرياتهم في الإفساد، أو إطفاء فتن أهاجها أصحاب شغب – ولا مساغ للخلط بين طرق الدعوة القائمة على الحكمة والموعظة الحسنة، وبين وسائل الحكومة في حرب الجريمة، وفي صيانة الدم والمال، والعرض): (الشيخ محمد الغزالي، جهاد الدعوة بين عجز الداخل وكيد الخارج ص٢٩، ط دار الكتب: الجزائر).

وكذلك يرى هؤلاء أن آية سورة الروم منسوخة .. قال تعالى: (فاصبر إن وعد الله حق ولا يستخفنك الذين لا يوقنون) (الآية ٦٠).

ويرد الشيخ الغزالي بقوله على هؤلاء:

(والزاعمون للنسخ يرون أن السيف أغنى عن الصبر!! وهذا جنون. فجهاد الدعوة القائم على الإقناع والاستدلال يحتاج إلى صبر ليس له آخر ... والتزهيد في الصبر تعطيل للرسالة، وإنما يجيء القتال لحماية الصابرين من طغيان ذوي الترف والغرور!!

وختام الآية مشعر بأن الصبر المطلوب هو سياج للثقة، والثبات على الحق، في وجه من يحاولون زلزلة المؤمنين... وهو خلق لا ينفك عنه أصحاب الدعوات) (الشيخ محمد الغزالي، جهاد الدعوة ص٦٠، ويعقب على ذلك أيضاً قائلاً بطريقة حاسمة:

إن الحرية الدينية من خصائص الإسلام، وإن صيحة (لكم دينكم ولي دين) فاجأ الإسلام بها أتباع الأديان الأرضية والسماوية جميعاً، بل هي في التاريخ السياسي – خلال القرون الطوال لمسيرة الإنسانية – تعتبر بدعة إسلامية!!!

قد تقول: فما الذي جعل بعض المسلمين يتحدث عن الحرب الهجومية ويسيغها؟

والجواب: التجارب المرة مع الحاخامات والكرادلة، وكراهيتهم المنكرة للإسلام، ورغبتهم المجنونة في إخفاء اسم محمد وكتابه...

إن أغلب هؤلاء الرؤساء يودّون لو عبد المسلمون الأصنام وانقطع ترددهم على مساجد ينبعث منها التكبير والتوحيد أناء الليل وأطراف النهار... (الشيخ محمد الغزالي، جهاد الدعوة ص٨٢).

وينتهي الشيخ الغزالي إلى تنبيه المسلمين إلى مجال الجهاد الاكبر في هذا العصر (بعد بناء الأمة من الداخل).. إنه الغزو الحضاري الكاسح الذي نغفله ونلجأ إلى الأعمال الجزئية والعنيفة، بينما أحسنت أوروبا استغلال هذا السلاح ضدنا... يقول الشيخ الإمام محمد الغزالي:

"شيء جديد وقع في أساليب القتال، استغله الأوروبيون على نطاق واسع، فأجدى عليهم أكثر من أسراب الطائرات، ومن فرق الدبابات!! هولون من الغزو الثقافي البالغ الخبيث" فقد أشاع الأوروبيون أنهم تركوا الدين، وأسقطوا لواءه، ومشوا بعيداً عنه! وعلى المسلمين إن أرادوا التقدم أن يفعلوا مثل ذلك!!

وقد جند ساسة أوروبا بعض الدكاترة والصحافيين، ومن أطلقوا عليهم لقب مفكرين وعدداً آخر من الساسة الكارهين لله ورسوله، ووضعت تحت أيدي الجميع وسائل مادية وأدبية فعالة ... وتحقق للمستعمرين الجدد ما أرادوا، فإذا عمامة مفتي فلسطين تختفي ويختفي الجهاد الإسلامي معها ... وإذا جماعات المناضلين تقاتل تحت لواء العلمانية وحدها.

من تقاتل؟ جيشاً مفعم المشاعر باليهودية وهيكلها ولقبها الديني العتيد (إسرائيل) .. أي أن المسلمين يقاتلون بغير عقيدة قوماً يتفانون لإحياء عقائدهم...!! (الشيخ محمد الغزالي، جهاد الدعوة ص١١٠) فلابد من أن نستعد لجهاد العدو بعقيدة مضادة ... هي الإسلام وحده.

هذا هو ميدان الجهاد الأكبر الآن ... كما يحدده الشيخ الغزالي ... وعلينا أن نبحث في وسائل التمكين، وأن نفك معادلات الانفصام بيننا وبين

بعضنا، ونفضح الخونة والكارهين للإسلام .. لأن البداية كانت دائماً كما يقول القرآن: (إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم) (!!)....

ولا ينسى الشيخ الغزالي أن يتصدى لأكبر قضية تتصل بالدعوة في العصر الحديث ... ذلك العصر الذى طغى فيه نفوذ الدولة على نفوذ الأمة، فأصبحت الدولة المالكة الكبرى – إن لم تكن الوحيدة – لمعاهد التعليم ومناهج التربية ووسائل الإعلام وأجهزة الثقافة... وهي كلها مؤسسات سبقنا الغرب إلى تسميمها وتعطيل دولاب فعاليتها الحضارية، بل وتوجيهها لخدمة منظومته الحضارية بكل إسفافها ولا أخلاقياتها.. مستتراً طوراً في أمم متحدة، وحضارة إنسانية واحدة، وطوراً في نظام دولي جديد!!

فماذا يفعل الدعاة المسلمون في وجه هذا الوضع الذي أصبحت فيه الدولة بعيدة عن طبيعة الأمة وروحها وحضارتها..؟!!

هل يعلن الحرب الصريحة عليها؟ أو يحاول التفاهم معها لعلها تفهم أنها – مع الأمة والدعوة – في سفينة واحدة؟ وأن أعداء الدعوة هم أعداء الدولة، وإن تظاهروا بعكس ذلك...!! يقول الشيخ الغزالي في هذه الإشكالية: "من الممكن جداً أن تكون بين الدولة والدعاة شعرة معاوية، فلا يستعجل أحد المعركة أو الخلاف، مادامت هناك رغبة في إيثار السلام وخدمة الإسلام، وعندي أن الأمر يحتاج إلى تصحيح النية، وإلى إظهار الزهد الحقيقي في الدنيا ومناحيها، وأعتقد أن الحاكم الذي يشعر بأن الدعاة لا يسألونه شيئاً في يده ولا يزاحمونه على دنيا عنده، بل يريدون الخير له وللأمة، فإنه يكف عن مقاومتهم بالضراوة التي نراها الآن من بعض الحكام المسلمين للأسف الشديد.

أما النظام الدولي الجديد والقديم، فكلاهما يعادي الإسلام، ولا يجوز أن ننخدع بعناوين براقة مثل (حقوق الإنسان) وكرامة الشعوب واحترام الديمقراطية، وغيرها من العناوين التي يراد لهاأن تكون بديلاً عن الإسلام، ... فإذا كان الإسلام – كما ثبت في عشرات التجارب – سيجد التنفس والانتعاش فيها، فإن النظام الدولي يقتله معه!!

ومـا دام المسلمـون ضـعـفـاء مـسـتـهلكين ممزقين، فإن أي نظام دولي لن يعطيهم إلا ما ينتهي به إلى تحقيق أهدافه منهم ... أهدافه هو لا أهدافهم هم ... وكفانا تعطيلاً للعقول، وامتهاناً لحقائق الأشياء .. فليس بين الحق والباطل إلا ما ذكره القرآن حقيقة ثابتة إلى يوم القيامة: "ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم"!!

ثم يوضح الشيخ الغزالي: (للدولة أولاً وللأمة كلها ثانياً) - أهداف قادة النظام الدولي الجـديد والقـديم الثـابتـة التي لم تتـبـدل قط من الناحـيـة الاستراتيجية، فيقول الشيخ الغزالي: لا عجب إذا طمع الفاتحون الجدد في الإتيان على قواعد الإسلام بعدما قدروا على هزم جيوشه في ميادين القتال.

وخطتهم التى وضعوها واضحة: يجب أولاً إبعاد الإسلام عن أن يكون رباطاً عاماً بين بنيه في مشارق الأرض ومغاربها.

فعن طريق إحياء النزعات الوطنية في كل إقليم مستعمر تموت الجامعة الإسلامية من تلقاء نفسها.

هذه الضربة النازلة بالإسلام - كرباط سياسي - يجب أن تلحقها ضربة أخرى تنال من الإسلام كموجِّه شخصي وجماعي.

وذلك يتم بإضعاف وازع التقوى وإشاعة ضروب الشهوات كما ترى الخطة الغربية - والسبيل إلى ذلك عندها كما لمسناه وشاهدناه:

١ - فصل الدين عن مناهج الدراسة كلها.

٢ - وفصله عن تقاليد المجتمع.

٣ - وفصله عن آفاق الحياة النابضة.

٤ - ثم تركه يذوي بعيداً حتى تخمد أنفاسه بين الوحشة والضياع!!

هذه هى سياسة الغرب التي نفذتها إنجلترا وأمريكا وفرنسا وهولندا وروسيا وسائر الدول التي أتيح لها أن تحتل شبراً من أرض الشرق الإسلامي.

وقد تفاوتت أساليب التنفيذ، كما تفاوتت ضروب المقاومة التي أبدتها الشعوب المغلوبة!!

* * * *

ومصر ... الحضارة والتاريخ ... مصر حطين وعين جالوت والعاشر من رمضان ... مصر الأزهر ... مصر رائدة العالمين العربي والإسلامي ... مصر التى يراد لها أن تصبح ذيلاً مهمشاً لا قيمة له ... حتى تسقط بلاد العرب أمام المؤامرة الصهيونية والأمريكية التي ابتلعت فلسطين والقدس .. وتريد التهام كل بلاد العرب .. كما تؤكد وثائقهم .. مصر التي تواجه إسرائيل التي تتمتع بتفوق نووي ساحق، وبتفوق في كثير من المجالات ... مصر هذه لا يجوز أن تخدع نفسها، فتصبح أداة سلبية لا تكاد تجد لها دوراً إسلامياً أو عربياً بعد أن يراها الجميع قد سبقتهم إلى الركوع لمخططات العدوّ البعيدة ... مصر يجب أن تبحث لها عن دور بعيد المدى عظيم الأثر، وهو مجال الدعوة التي تعوضها عن كثير مما خسرته في المجالات العسكرية والاقتصادية .. فبالدعوة – على المدى الطويل – (إذا جنّدت مصر لها جيش الأزهر، وطورت وسائل الدعوة، واستحدثت – عبر شركات خاصة وعامة – إنتاجاً إعلامياً تحمله القنوات التلفازية إلى العالم – باللغات المختلفة – يقدم حقائق الإسلام بعقل علمي ... وبحقائق موضوعية، وبوسائل جذابة) إن مصر إذا فعلت ذلك ستكون لها رسالة، وسيلتئم شمل داخلها الذي أصبح نسيجه مهدداً بالتفكك من خلال مجلات وصحافيين ومفكرين يتعاملون بحقد مع كل الأشياء وبخاصة مع كل ما يتصل بالإسلام.

ويضاف إلى هؤلاء مجموعة المتطرفين من الشيوعيين، والعلمانيين – في بعض الصحف – الذين لا يتحاورون، بل يحاربون بالقلم حرباً لا أخلاقية مع بني وطنهم، بينما يتكلمون بأدب – مع غير المصريين ومع غير المسلمين!!

وعندما تقوم مصر بهذا ستحل نهائياً – مشكلة العنف المحسوبة على بعض الاتجاهات التي تتمسح في الإسلام ... هؤلاء الذين لا نستبعد أن تكون

وراءهم قوى أجنبية على رأسها:

١ - أمريكا.

٢ - إسرائيل.

٣ - إيران (بدرجة قليلة جداً!!).

إن هؤلاء المتطرفين يتمتعون بجهل شديد .. ويساعدهم غياب الأزهر الفعال المؤثر، وغياب دعاته المثقفين القادرين عن الساحة.

إن هؤلاء الذين يحملون راية العنف الآن من أجهل الناس بطبيعة الإسلام، وبطبيعة الرسالة التي حملها محمد نبي الرحمة عليه الصلاة والسلام إلى البشرية وقدمتها السيرة في كتب الشمائل وكتب الحديث التي قدمت أخلاق الرسول - وسوراً من هذه الأخلاق لم يعرف التاريخ لها نظيراً.

ومن نكد الدنيا أن بعض هؤلاء المحسوبين على الإسلام ينسون الرحلة النبوية الطويلة ... رحلة الحب في سبيل الله ... رحلة الوصول إلى القلوب عن طريق إشاعة الرحمة والحب والشعور بالأخوة الإنسانية والرغبة المخلصة في إنقاذ من تدعوه وليس في الإيقاع به ... ينسون كل هذه الرحلة، وينسون سيرة نبيهم الكريم عليه الصلاة والسلام مع خصومه الذين حاربوه وتآمروا على قتله واستعانوا عليه بكل قوى الشر الوثنية واليهودية والنصرانية، ويعيدون إلينا منهج الفرق النصرانية مع مخالفيها من الفرق الأخرى حين كانت مشانق الأرثوذكس تعقد - بإخلاص شديد ورغبة عارمة في إرضاء المسيح - عن طريق تقديم آلاف الرؤوس من الكاثوليك والبروتستانت الهراطقة.

حقيقة أن هؤلاء لم يرتكبوا - والحمدلله - شيئاً من ذلك.

وحقيقة أنهم لم يذبحوا مخالفيهم كما فعلت الكنائس مع مخالفيها.

وحقيقة أن صفحة الحضارة الإسلامية منذ ظهر الإسلام وحتى اليوم هي أطهر وأزكى صفحة عرفتها البشرية في احترام العقائد الأخرى الواضحة التي لا تعمد إلى الخيانة العظمى من داخل البناء العقدي الإسلامي.

وحقيقة أن حالات ملاحقة المخالفين كان أكثرها لاعتبارات سياسية يتساوى فيها المسلم مع غير المسلم وإن اختلفت الواجهة التي تمسح فيها الحاكم الظالم.

وحقيقة أن الأكثرية الإسلامية كانت بصفة عامة – وهذه حقيقة تاريخية ثابتة – كانت أكثرية مضطهدة من حكامها .. وكثيراً ما كان ذلك بتواطؤ مع الأقلية المدللة، ومع القوى الخارجية المعادية .. كل ذلك صحيح.

لكننا من باب تنقية الحضارة الإسلامية من أية شائبة، حتى ولو كانت صغيرة بالنسبة إلى غيرنا .. نرفض، وندين، ظاهرة العنف والحقد، سواء كانت في سبيل أغراض خاصة واضحة ... أم في سبيل أغراض خاصة تتلفع برداء الرغبة في خدمة الإسلام.

لكن الصغار الذين يعنفون، فيقتلون ويروعون الآمنين، لا يعرفون من الجهاد إلا الصور المظلمة التي احتشدت بها عقولهم .. سواء من بعض أئمتهم الجاهلين، أم دوائر الحقد التي تنشر الحقد في المجتمع، مثل مجلة (الحوادث) التي تنشر (غسيل المجتمع القذر)، أو مجلة (روز اليوسف) التي يبدو وكأنها تنشر في (شيكاغو) .. وليس في مصر ذات التقاليد العريقة في العروبة وذات الدور الأساسي في الحضارة الإسلامية وذات الطبيعة الشرقية ... ويضاف إليهما (الأهالي) ... وبعض ما ينشر ثانياً في القنوات التلفازية .. مما يحرك الصدور، وينشر الأحقاد، ويغذي العنف .. وما ينشر في السينما!!

– إن الجهاد يجب أن يرتبط بالدعوة الإسلامية ويجب أن يدور حولها... وإذا ملأنا الفراغ بهذه القضية، فسنعالج الداخل ونكون في موقف هجوم سلمي، في الخارج ... وتاريخ الإسلام يعلمنا أن الإسلام انتصر على التتار المنتصرين عسكرياً (بالدعوة) ويعلمنا أن رجالاً قليلين – مع إمكانات محدودة – ومع صدق وإخلاص وتخطيط وانسجام بين الحكام والمحكومين .. يمكن أن يتغير بهم وجه التاريخ!!

الجهاد الإسلامي في مواجهة القوى العالمية:

أن الفكر العالمي يقدم لنا تجارب احتفظت بأصولها وثوابتها في أشد المحن، ونجحت في صناعة حضارة، وتفوقت على العصر، وسخرت قوى العصر ومعادلاته لخدمة أهدافها، إن هذه التجارب الناجحة تفرض علينا أن نقاوم طابور الخيانة الذي يريد منا أن نبيع ثوابتنا حتى نلحق بهذا العصر ... فالحق أنهم عبيد وأجراء وليسوا مبدعين أو مفكرين، ومعادلة التقدم لا تفرض التنكر للثوابت.

وسواء كانت (بروتوكولات حكماء صهيون) صادقة أم مفتعلة .. (ونحن نميل إلى مصداقيتها، والواقع يؤيدنا) - فإنها كانت دليل عمل واضح ينسجم مع الطبيعة اليهودية، ونحن نعتقد بأن اليهود قد رسموا خطواتها، بالإضافة إلى مقررات مؤتمر بال في سويسرا (١٨٩٧م).

ولليهود فوق كل ذلك مسلمات انطلقوا منها وتحدوا بها العالم، وأهم هذه المسلمات:

١ - الإيمان المطلق بالتوارة: وهم يقولون: إن التوراة هي التي حفظتنا قبل أن نحفظها.

٢ - الإيمان المطلق باللغة العبرية: وفور قيام إسرائيل اعتمدوا اللغة العبرية التي هي أصعب وأعقد من اللغة العربية لدراسة كل العلوم حتى الطب والصيدلة.

٣ - الدفاع عن التاريخ اليهودي وتفسير التاريخ العالمي تفسيراً يهودياً حتى الأهرامات يريدون جعلها جزءاً من حضارتهم.

٤ - الإيمان بأرض الميعاد والمقدسات والتشبث بها دون يأس.

٥ - الإيمان بأنهم شعب الله المختار، وبأن الأميين (وهم الأميون بالتعبير القرآني) خلقهم الله ليكونوا خدماً لهم، وليس لهم أدنى حق في الحياة المتساوية مع اليهود، أو كما قال القران على لسانهم: (ليس علينا في الأميين سبيل).

ومن هذه المبادىء الواضحة جداً انطلق اليهود، وركبوا المعادلات الدولية، والقوى الكبرى، والإعلام والاقتصاد، وصولاً إلى أهدافهم.

ومع هذه الثوابت المركزة والواضحة فتح اليهود وسيطروا عليه ووجهوه لخدمتهم ... وما فعله اليهود – ويفعلونه – فعلته اليابان..

– فعندما انهزمت اليابان وضربتها الولايات المتحدة الأمريكية الظالمة بالقنابل النووية، مع أنها كانت قد استسلمت مثل ألمانيا – لم تقف اليابان لتندب الأطلال مقهورة باليأس أو الذل على أبواب الأمريكان والأوروبيين، الذين لا يعرفون الرحمة، ولا الأخوة، ولا المساواة، وإنما قبلت كل شروطهم للاستسلام إلا (شروط النهضة) و(مؤهلات البقاء) وهي:

– عدم المساس بالدين البوذي والعقائد اليابانية الأخرى، ومنها إيمانهم بشخص الإمبراطور سليل آلهة الشمس، الذي كان بطل الهزيمة، ثم أصبح رمز النهضة.

– وعدم المساس باللغة اليابانية.

– وعدم المساس بالتربية اليابانية والتاريخ الياباني.

* * * *

وقد أضاف كل هؤلاء – يهوداً كانوا أو بوذيين – إلى هذه الثوابت المميزة لوجودهم التاريخي والحضاري، الشروط المادية والنفسية للنهضة وهي:

١ – العلم: ولاسيما الكوني والتجريبي والتكنولوجي، وبذل أكبر الجهد وأكثر المال في سبيله.

٢ – العمل والإنتاج، في حدود معدل يومي لا يقل عن ثلث اليوم.

٣ – احترام بل وتثمين الإنسان والوقت والتراث الوطني والقومي والعقدي.

٤ – توفير الدوافع الإيمانية والشروط الاجتماعية والنظم السياسية والاقتصادية التي تضمن التوجيه الكلي لحركة الأفراد والقوى الفاعلة...

* * * *

إن قضايا كثيرة تحتاج إلى أن يتجاوزها الفكر الإسلامي ... فما دامت هناك ثوابت واضحة، لا يستطيع أن ينكرها مسلم ملتزم بما هو معلوم من الدين بالضرورة، يجب أن تكون موضع صراع، حتى وإن بقيت موضع حوار عابر ... كذلك فإن من الظلم لهذه الأمة، والتعويق لمسيرتها، إعلان الحرب في داخل الفكر الإسلامي بين المذهبية واللامذهبية، أو من يسمون بأهل السنة والحديث، وبين السلفية والصوفية، والسلفية والأشعرية وبين الشورى الإسلامية، والديمقراطية التي تلتزم بالشريعة.

إن حواراً علمياً هادئاً كريماً يجب أن يستمر بين الجميع - مهما كانت اللافتات - في ظل رغبة جماعية بالعودة إلى الكتاب والسنة الصالحة والفقه السديد الذي يترجم جوهر الإسلام وروحه، ويجمع الأمة على كلمة سواء، والبصر بسنن الله في صناعة الحضارات ومواجهة الأزمات.

لتكن هناك اتجاهات قومية، أو لتكن هناك اتجاهات وطنية، أو لتكن هناك اتجاهات يسارية، أو لتكن هناك اتجاهات اجتماعية، أو اتجاهات ليبرالية. (هذا عدا الاتجاهات الموجودة في المحيط الإسلامي)... لكن هؤلاء جميعاً - إسلاميين أو غير إسلاميين - حسب الاصطلاح الشائع. هم الواقع الذي آل أمرنا إليه، وهم - بهذا التشرذم - الإفراز الطبيعي لمراحل التخلف، وهم الثمن لسوء عرض الإسلام، وسوء تمثله من جانب ... وللهجمات الخارجية من جانب آخر ... فهل نقبل نحن الإسلاميين أن تشتعل الساحة بالحروب، وهل نفسح الطريق للصهيونية المسيحية وللتنصير، ولمن يريد - خلال خمس سنوات - تدمير العرب والإسلام وبداية ألفية تالية خالية من الإسلام والمسلمين والعرب والعروبة؟!

إن هذا هو عين الانتحار الجماعي، ولا طريق للإقلاع إلا بالدخول في حوار مع الجميع، وهم جميعاً (إلا قلة مأجورة خائنة معروفة) يلتزمون بثوابت الإسلام ولا ينكرونه عقيدة وحضارة، وبدلاً من استنفاد الطاقة في الخلاف حول الشورى الملزمة والمعلمة، يجب عليه أن يبحث عن وسائل التعامل مع الأفكار والتيارات الداخلية لتأصيل ما يمكن تأصيله منها، والوقوف - بدرجة

مقبولة من الوحدة الفكرية – ضد الأخطار الزاحفة من الخارج!!

* * * *

إننا لا نستطيع – ونحن نواجه المشروع الغربي – أن نفصل بين داخل الأمة وخارجها ... فكلاهما يسهم في إمكانات المواجهة، كما أن سلامة البناء الداخلي هي الكفيلة بالاستجابة للتحديات الخارجية ... ونحن لا نطالب الفكر الإسلامي بالغوص في التنظير والتعقيد، بل إن أفكاراً بسيطة واضحة محددة تجد من يخلصون لها ويؤمنون بها تستطيع أن توقف الأمم فوق القضبان الصحيحة ليمضي قطارها – راشداً – إلى محاط النهضة والتقدم ... وكما أن بعضهم يرى أن التبسيط الشديد قد يخل بالأمور، فنحن نرى أن الغموض الفلسفي والتظاهر بالتعقيد، هما علامة ضعف وعجز ونفاق ... ودائماً كان الأنبياء وهداة القافلة البشرية قادرين على مخاطبة كل الناس، والأخذ بيد العامة والنابهين ... بل ربما كان الذين امتلأت عقولهم بأخلاط متناقضة من الأفكار والفلسفات أقل الناس قدرة على العبور إلى محاط الحق، والوصول إلى الصواب المطلق الذي يتناغم مع الفطرة.

ومن المبادىء البسيطة يستطيع الناس أن ينطلقوا إلى المراحل التالية، وسوف يجدون في كل مرحلة الفكر المناسب والمعالم التي يحتاجون إليها، بل والمستوى الفكريُ والتنظيريُ الذي يحتاجون إليه...

وقد قدّم لنا أمام أعيننا – أصحاب المادية الجدلية صوراً مركبة من الفكر المنظّر والمعقّد والجدليُ.. فما أغنى شيئاً حين اصطدم بالحق والفطرة والدين ... فلا ينقصنا أن نتجاوز المسلمات الواضحة لندوّخ أمتنا في تركيبات وتعقيدات، متظاهرين بأننا الأطباء النطاسيون الذين نملك حل ألغاز التقدم وطلاسمه..

إن أسلافنا المسلمين واجهوا العالم بدعوة واضحة ومنهج علمي دنيوي ديني، يقف مع كل حق وخير، ويقاوم كل باطل وشر وقد وضعوه في إطار أخلاقي شرعي، فرأى الناس فيهم الإنسانية التي يريدونها، والتاجر الذي

يطمئنون إليه، والمحارب الشريف، والداعية الزاهد الورع، وشعروا بالأمن والرحمة في ظلالهم.

* * * *

إن هذا - قبل كل شيء - هو ما يحتاج إليه الناس، كل الناس، أما إذا أعطيتهم الطائرة والسيارة مع الاستغلال والاستنزاف والاستعباد والحكومات العسكرية والتخلف القهري، فإنهم سيلعنونك في كل يوم، ويحاربونك بكل ما يستطيعون، حتى وإن اضطروا لاستعمال طائرتك وسيارتك وغسالتك وثلاجتك.

إن تفرقتك العنصرية التي تجعلم تطبق الديمقراطية في بلدك، وتستأجر الحكام العسكريين ليحرموا منها الشعوب التي تجعلها حقلاً لتجاربك ... وتفرض عليها ألا تزرع القمح الذي تأكله، أو تنتج السلاح الذي تدافع به عن نفسها ... هذه التفرقة العنصرية الواضحة جداً في سياسة دول القهر العالمي وعلى رأسها الولايات المتحدة تجعلنا نرفض ما يسمى باوحدة الإنسانية القهرية، والحضارة العالمية ذات الرؤية الواحدة، بل ونفكر بالمفاهيم التغريبية الوثنية الأوروبية التي تريد أن تحتل مكان الدين، وأن تقطع صلة الإنسانية بالله .... وأن تصادر وجود الآخرين وتعبيرهم عن قسماتهم وعقائدهم وتجاربهم في الحضارة والتاريخ.

* * * *

وهنا ... تستطيع مصر - بتبنيها الحقيقي للدعوة الإسلامية بقيادة الأزهر، ثم بالتعاون مع السعودية - وفق خطة صحيحة وبرغبة حقيقية ... تستطيع أن تقدم الإسلام الذي يعالج كل هذه العورات في المشروع الحضاري الأوروبي ... وهذا هو (الجهاد) الحقيقي ... في وجه القوى التي اتخذت كل الإجراءات لإبادة الأمة الإسلامية بلداً بلداً ... واحدة تلو الأخرى ... تحت أشكال مختلفة!!!

والله ولي التوفيق .

الاتهامات التي تثار ضد الحضارة الإسلامية
في الوقت الحاضر وكيفية مواجهتها
(التخلف ، العنصرية ، الانغلاق ، الإرهاب)

نـــدوة

"التحديات المستقبلية التي تواجه الأمة الإسلامية في القرن المقبل"
المنعقدة بجامعة الإمارات العربية المتحدة
في الفترة من ٢٠ – ٢٢ ديسمبر ١٩٩٧م

الأستاذ الدكتور/مصطفى محمد عرجاوي
أستاذ القانون المدني ورئيس قسم القانون الخاص
وعميد كلية الشريعة والقانون – جامعة الأزهر بدمنهور
المحامي لدى محكمتي النقض والإدارية العليا
الأستاذ الزائر بجامعة الإمارات العربية المتحدة
كلية الشريعة والقانون

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة :

الحمد لله وحده لا شريك له، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .. وبعد :

فإن رابطة الجامعات الإسلامية بالتعاون مع جامعة الإمارات العربية المتحدة قد أحسنا صنعاً عندما اختارا مجال التحديات ليكون عنواناً للندوة العلمية التي ستعقد برحاب جامعة الإمارات العربية المتحدة تحت لافتة: «التحديات التي تواجه الأمة الإسلامية في القرن المقبل» وتخيّرتا محاور هذه الندوة لتغطي كافة المجالات الهامة ومنها:

المحور السياسي، والمحور الاقتصادي، والمحور الحضاري، والمحور التربوي، والمحور الإعلامي، والمحور التكنولوجي. وهي بيقين المحاور المهمة للغاية في وقتنا الحاضر.

كل محور من هذه المحاور يشتمل على دراسة العديد من التحديات التي تواجه الأمة الإسلامية ونحن على مشارف القرن الحادي والعشرين، وبحثنا ينضوي تحت محور (التحدي الحضاري)، وذلك لدحض المفتريات التي تثار تجاه الإسلام وحضارته الزاهرة، مع بيان السبل الكفيلة بمحاضرة وتصفية كافة الاتهامات التي يثيرها الذين يجهلون حقيقة الإسلام، فيتهمونه ظلماً بأشياء لا يقبلها منطق واقع هذا الدين وذلك مثل: (التخلف، العنصرية، الانغلاق، الإرهاب)، وغيرها من الاتهامات التي تمضي على شاكلتها بلا بحث أو تمحيص، وتتناقلها وسائل الإعلام بصورة مزرية، بعيدة عن الموضوعية أو الصدق، بعد أن جعل بعض المعاصرين الإسلام هو العدو الأول بعد رحيل الشيوعية، وأفول نجم ما كان يعرف بالمعسكر الشرقي.

سأعرض لموضوع بحثي في موضوعية وتركيز في ثلاثة مباحث هي:

المبحث الأول : في بيان الاتهامات التي تثار ضد الحضارة الإسلامية في زماننا.

المبحث الثاني : في بيان كيفية مواجهة هذه الاتهامات المغرضة.

المبحث الثالث : في تأكيد أن الإسلام هو الراعي الأمثل للحضارة في العالم أما الخاتمة فقد خصصتها للنتائج المستخلصة من هذا البحث، ثم تقدمت ببعض المقترحات لتحقيق المزيد من الرعاية للمسيرة الحضارية للإسلام في الحاضر والمستقبل بمشيئة الله تعالى. هذا وقد راعيت أن يكون هذا البحث مجرد ورقة عمل تقدم لهذه الندوة وذلك لبيان الصورة المثلى لمواجهة الإسلام للمفتريات، وحرصت على الإشارة إلى العديد من المصادر الحديثة والمعاصرة لتمكين من يرغب في المزيد من البحث والتعمق في هذا الموضوع من الرجوع بسهولة إلى هذه المصادر، وقد وثقت -ما أمكن- المعلومات التي أوردتها في هذا البحث، ولا يعني محدودية صفحاته سوى الرغبة في جمع أكبر قدر من المعلومات في أضيق صورة بلا إخلال بالمقصود.

هذا والله سبحانه وتعالى من وراء القصد فهو حسبنا فنعم المولى ونعم النصير.

مدينة العين في : رجب ١٤١٨هـ/نوفمبر ١٩٩٧م

المبحث الأول

الاتهامات الغوغائية ضد الحضارة الإسلامية في الوقت الحاضر

تمهيـد :

لا يمكننا حصر الاتهامات التي تثار أو يمكن أن تثار ضد الحضارة الإسلامية في الوقت الحاضر، سواء كانت هذه الاتهامات تقليدية أو تخضع للمستجدات المعاصرة، يثيرها بعض الجهلاء في غوغائية، وينفخ في نيرانها بعض المثقفين في خبث ودهاء، ويتولى كبرها بعض علماء آخر الزمان مستخفين في أردية البحث الموضوعي، وكل من في قلبه مرض منهم، يتغابى عن الحقائق لتلبيس الأمر على عوام المسلمين، ونشر الحقد والكراهية ضد الإسلام بين صفوف غير المسلمين، وهم جميعاً يعملون في خدمة أعداء الإسلام كمرتزقة أو متطوعين، رغبة فيما عند من لا يرعى للدين حرمة، ويمضي إلى الهاوية مع غير المسلمين، بغض النظر عن عقيدتهم أو هويتهم، فهم يجتمعون على الكيد للإسلام وأهله، بإثارة الأحقاد، وتحريك الفتن، وإلقاء الاتهامات جزافاً، وتسخير وسائل الإعلام لخدمة هذا الهدف الخبيث، للنيل من الإسلام والمسلمين، وإظهار بعض سلبيات المسلمين على أنها سلبيات الإسلام لتبغيضه في نفوس ضعاف المسلمين، وللحد من انتشار دعوته بين صفوف غير المسلمين في أرجاء الأرض.

تتعددت الاتهامات المثارة ضد الحضارة الإسلامية، فهناك من يتهم هذه الحضارة بالتخلف والعنصرية والانغلاق، وهناك من يصمها بالتطرف والغلو والإرهاب في وقتنا الحاضر. فهناك اتهامات تقليدية، واتهامات معاصرة، لذلك نعرض لهذا المبحث في مطلبين هما:

المطلب الأول : الاتهامات التقليدية المثارة ضد الحضارة الإسلامية قديماً وحديثاً.

المطلب الثاني : الاتهامات المعاصرة والمستحدثة ضد الحضارة الإسلامية في الوقت الحاضر.

لأن الاتهامات لا تأتي من فراغ، وإنما تستمد جذورها من منابتها الأولى في قلوب المنافقين، ومن في قلوبهم مرض من المسلمين وغيرهم، وكل تهمة أثيرت أو يثيرها أعداء الحضارة الإسلامية إذا تحققنا منها وعدنا بها إلى سيرتها الأولى سنجدها تتمثل في بييضة نفاق احتضنها مغرض لتفقس ديداناً سرطانية تأبى إلا أن تصيب الجسد الواحد للأمة الإسلامية، بمرض فقد المناعة ضد ما يثار حول الإسلام وقيمه الراسخة، لكن يأبى الله إلا أن يتم للإسلام كلمته، ويرد على المتآمرين كيدهم في نحورهم، ولا يزالون على حالهم المريضة يتهمون، والمخلصون يفندون أكاذيبهم، ويحبطون أعمالهم التآمرية ضد الإسلام، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

المطلب الأول

الاتهامات التقليدية ضد الحضارة الإسلامية قديماً وحديثاً

نماذج الاتهامات التقليدية :

منذ أن صدع رسول الله صلى الله عليه وسلم بالدعوة الإسلامية استجابةً لقول الله تعالى: «فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين»(١)، والحرب مستعرة بين أئمة الكفر ومن تبعهم من الأذناب، ورسول الله صلى الله عليه وسلم وصحابته ومن تبعهم بإحسان على مر الأزمان حتى الوقت الحاضر، وستستمر ما شاء الله لها أن تستمر، في ميادين الوغى حيناً، وفي ساحات السجال العلمي أو السفسطي في أغلب الأحيان، ظاهرةً للعيان حاسرةً متكشفة العورات حيناً، ومستخفيةً تنخر في البنيان في خبث ودهاء باسم الإصلاح في أغلب الأحيان.

---

(١) سورة الحجر، الآية ٩٤.

هذا السلوك التقليدي الجبلّي، فطر عليه معظم غلاظ القلوب، الصم، البكم، العمي وهؤلاء يصدق عليهم قوله تعالى: «الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً»(١)، فيتهمون الإسلام بالتحكم أو ما يعرف (بالديكتاتورية)، وبأنه يفرّق بين البشر على أساس النوع فالذكر له القوامة على المرأة، ويرث ضعف نصيب الأنثى مع وجود رابطة الأخوة، فهما شقيقان ومع ذلك يفرّق الإسلام بينهما في قواعد الميراث كما يدعون، وفي أداء الشهادة، وفي العورة المخفّفة والمغلّظة، وفي كيفية سترها، وحتى في الخروج لأداء العبادات مثل الحج أو الجهاد فليس للمرأة أن تخرج إليهما إلا مع محرم، وعندما يتطلّب الأمر وجودها في ساحات الوغى لمداواة الجرحى أو لغير ذلك مما يصلح له النساء مع أمن الفتن فلا بد من مرافقة المحرم لها أو من يقوم مقامه عند الاقتضاء.

كما اتهموا الإسلام بأنه يقيّد الحرية الشخصية للفرد، فلا يمكنه أن يتصرف في حياته على هواه، فحرّم عليه التطلّع على عورات الناس، وأمره بغض الطرف عن المحارم، وحظر عليه الاستمتاع بحليلة جاره بأي لون كان هذا الاستمتاع سواء بالنظر أو التصنت، وحرّم عليه الانتحار عن اليأس من الحياة أو الإصابة بمرض عضال، مع أن حياته مسألة شخصية لا تهم سواه في الأصل، على حد زعمهم، كما حرّم عليه الإسلام شرب الخمر، والدم المسفوح، وأكل لحم الخنزير، وحرّم أيضاً الحرية التناسلية من غير نكاح، وأسقط كذلك كل العلاقات السفاح، ووضع من العقوبات البدنية ما يكفي لردع المجرم وزجر سواه، بل حكم بالإعدام رمياً بالحجارة على من يرتكب جريمة الزنا بعد إحصان حتى وإن فعل ذلك بعد وفاة زوجته أو تطليقها طلاقاً رجعياً أو بائناً لأن الإحصان يتحقق بالدخول الشرعي وإن كان لمدة ساعة من يوم، لا من شهر، أو سنة، فهو محصن بهذا الدخول، وهذه الصفة تظل لصيقة به مدى حياته، فإذا ارتكب جريمة الزنا فليس له عقوبة إلا الرجم بالحجارة،

---

(١) سورة الكهف، الآية ١٠٤.

رجلاً كان أو امرأة، لأن الإسلام يساوي بينهما في هذا العذاب الأليم، وتلكم العقوبة المدمرة للبنية الإنسانية، التي تعيد البشرية إلى أحقاب البربرية بالرغم من تقدم كل سبل الحياة وتطورها، ومع ذلك فإن العقوبات في الإسلام لا تتغير، ولا تتبدل، ولا تتعدل، لأن الحدود والقصاص يخضعان للنص، ولا اجتهاد مع النص، وهكذا يسترسلون في غيهم، وتلاعبهم بضعاف النفوس والعقول.

هذا بلا ريب بعض زعمهم، وترهاتهم التقليدية ضد الإسلام بصورة عامة، ويمكننا أن نرسم صورة قاتمة لباقي تصوراتهم المريضة عن الإسلام والمسلمين في كافة مناحي الحياة وبخاصة في مجال الأسرة إذ يسمح الإسلام بتعدد الزوجات، وبالطلاق، وغير ذلك مما يحسبونه من المخالفات للقواميس البشرية، وهم لا يعرفون عن الإنسان أكثر من خالقه جل في علاه قال تعالى: «ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير»(١)، فالخالق سبحانه وتعالى هو الذي يشرِّع لعباده الشرائع دون سواه، والترهات بنماذجها المذكورة والمطوية، قد تم تفنيدها، وأصبحت كالهشيم تذروها الرياح، ولا يقف فيها إلا متنطع، أو جهول، ومن يرغب في الوقوف على صور متعددة من الاتهامات مصحوبة بالردود الموضوعية القاطعة في سهولة ويسر، فعليه بالرجوع إلى بعض المؤلفات المعاصرة التي تدحض هذه المفتريات، ومن بينها ما أشرنا إليه في الهامش(١)، ويمكن للمبتدىء والمنتهي الإفادة منها إن خلصت النية وصدق القصد.

---

(١) راجع في دحض لاتهامات والمزاعم الموجهة ضد الحضارة الإسلامية بوجه خاص، وأحكام الشريعة الإسلامية بوجه عام: هذا بيان للناس لفضيلة الإمام الأكبر الشيخ جاد الحق علي جاد الحق - رحمه الله تعالى - جامعة الأزهر ١٩٩٥، وفتاوى إسلامية معاصرة لفضيلة أ.د. يوسف القرضاوي طبعة ١٩٩٣ بالقاهرة، في الفقة المقارن للأستاذ محمد رأفت عثمان مع آخرين الطبعة الأولى ١٩٨٩ مكتبة الفلاح بالكويت، والإسلام وقضايا العضو للدكتور ابراهيم الدبو مع آخرين الطبعة الأولى ١٩٩٧ دار المناهج بالأردن، والايسبسكو والصحوة الإسلامية مختارات من خطب الأستاذ عبدالهادي بوطالب طبعة ١٩٨٥م، الدار البيضاء، وقضية التكفير في الفقه الإسلامي للدكتور أحمد محمود كريمة، الطبعة الأولى ١٩٩٦ بمصر.

أهم الاتهامات ضد الحضارة الإسلامية :

يثير أعداء الإسلام المشاكل للمسلمين، ويضعون العثرات في طريقهم، ويبذلون الوسع في الحيلولة دون أخذهم بأسباب العلم الحديث والإطلاع على المبتكرات لكيلا يتقدموا في هذا الميدان إلا بالقدر الذي يسمح به من لهم الهيمنة على أسرار المخترعات المتقدمة في كافة مجالات الحياة.

إنهم لا يكتفون بهذا السلوك العدائي الواضح وإنما يتهمون الإسلام وحضارته العريقة بالتخلف، والعنصرية، والانغلاق، فالحضارة الإسلامية، في نظر أعداء اليوم الذين يتظاهرون بالتعاون مع المسلمين، لاجتثاث خيرهم، وتسخير ثرواتهم لمنفعة غير المسلمين، هي حضارة متخلّفة، لا تشجع الانفتاح على العالم، كما أنها حضارة عنصرية تميز بين الناس عموماً، وبين الذكور والإناث على وجه الخصوص، فهي عندهم لا تخرج عن كونها إحدى معوّقات التقدم، والتطور، والاختلاط التمازجي بين الأفراد بناءً على حرية الإنسان أن يفعل ما يشاء وقتما يشاء بلا أي قيود سوى ما يقرره القانون الوضعي، وهو عندهم -بيقين- لا يقيّد هذه الحرية، ولذلك فالحضارة الإسلامية في نظرهم السقيم لن تتقدم أبداً، لأنها حضارة عنصرية منطوية على نفسها، ومنغلقة على أصحابها، لا تسمح بالخروج على نواميسها لمجالات التقدم والازدهار، مفضّلةً التخلف حفاظاً على هذه النواميس والشرائع التي يستعصي عليها مجاراة المستجدات من القيم والمبادىء والمصالح المستأسدة في وقتنا الحاضر على حد زعمهم.

الحضارة الإسلامية ومظاهر التقدم :

إن الحضارة تعني العراقة والأصالة مع الأخذ بأسباب النهوض والتقدم في كافة مناحي الحياة، وذلك من خلال معالم معينة توحي برقي أو تخلّف الأمة، والحضارة الإسلامية تتمتع بالعديد من مظاهر التقدم، إن لم تكن هي التقدم ذاته، فيمكن للباحث أن يتعرّف على مدى التقدم الذي تمتعت به الأمم في ظلال الإسلام، وكيف قادها إلى قمم التحضر والرقي في المظهر

والمخبر بلا إفراط ولا تفريط، فالطهارة فيه شرط لصحة بعض العبادات، وهو يدعو إلى التزين، بل يستنكر تصرف من يحظر أو يحد من الزينة المشروعة يقوله الله تعالى في هذا الشأن: «قل من حرّم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق، قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة»[1]. فالزينة -حقاً- بكل مظاهرها المشروعة لا تكون في أبهى صورها سوى للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم هم ثم تخلص لهم بعد مماتهم، بلا ريب بناءً على وعد الله تعالى، وأكثر من هذا فقد أمر سبحانه وتعالى بني آدم أن يأخذوا بأسباب التزين المشروع، وأكد الأخذ بذلك عند التوجه إلى المسجد فقال تعالى: «يا بني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد»[2].

هذا هو التقدم في مجال المظهر، والارتقاء بالإنسان إلى أرفع صورة تتفق مع تكريم الله تعالى له كمخلوق لا مثيل له في هذه الخلقة المتميزة قال تعالى: «ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلاً»[3] وقال سبحانه «فتبارك الله أحسن الخالقين»[4].

وهناك التقدم في البناء والتشييد، وفي مجالات الصناعة، والطب والصيدلة، والعلوم، والكيمياء، والأعلام في هذه المجالات كثير، فالتقدم قد شمل جميع أوجه الحياة، فلا يمكننا أن ننسى ابن سينا، والفارابي، وعباس بن فرناس، الرائد الأول في مجال الطيران البشري، والرازي، وابن النفيس، والدميري، وابن بطوطة، وابن الأثير، وغيرهم من رجال العلم[5]، وسائر مناحي الحياة بما فيها الرحلات، والتاريخ، وعلوم اللغة، والعلوم الإنسانية، فلم يترك

(١) سورة الأعراف من الآية ٣٢.
(٢) سورة الأعراف من الآية ٣١.
(٣) سورة الإسراء من الآية ٧٠.
(٤) سورة المؤمنين من الآية ١٤.
(٥) راجع في هذا الباب مقال:أ.د. جلال علي حسان، عودة إلى تاريخ العلوم الرياضية والطبيعية والتطبيقية، في رسالة الجامعة، عدد نوفمبر ١٩٩٧.

علماء الإسلام مجالاً من المجالات النافعة إلا وكان لهم فيه قصب السبق، في الوقت الذي كانت فيه أوروبا تعيش في عصر الظلام، ولم تكن أمريكا قد اكتشفت بعد، فالحضارة الإسلامية شهودها عيان في بلاد الأندلس (أسبانيا الآن) وفي سائر المدن التي سعدت بالانضواء تحت راية الإسلام، ولم يتقدم الغرب وما كان يعرف بالمعسكر الشرقي إلا على أكتاف التراث الحضاري لعلماء المسلمين، ولولا هذا لكانوا حتى الآن يغطون في سبات عميق.

إن الحضارة المتقدمة في ديار الإسلام، هي ثمرة العلم الذي جاءت الدعوة إليه مع أول آية نزلت على قلب رسول الله صلى الله عليه وسلم مفتتحةً الذكر الحكيم بقول الله تعالى: «اقرأ باسم ربك الذي خلق»[1]، فالقراءة المتأنية هي مفتاح باب اكتساب المعارف، واقتران القراءة باسم المولى جل في علاه، تعني ضرورة أن تكون قراءة نافعة، تعمّق الإيمان في القلوب، وتنأى بالعلم عن كل ما يخالف أحكامه سبحانه وتعالى.

هذه بعض مظاهر التقدم الملموسة للحضارة الإسلامية، فالتخلف دائماً هو تخلف أعداء الحياة عن ركب الإنسانية بعد أن تخلوا عن القيم والمبادىء، وسيّدوا المادية على حساب العقيدة والروح، وهم يعانون الآن من آثار ذلك، ومعاناتهم ظاهرة للعيان في تفشي الأمراض الوبائية مثل (الايدز)، وما خفي كان أعظم، فهؤلاء لا يقدرون للحضارة الإسلامية تقدمها الزاهر، لا في الماضي، ولا في الحاضر بعد أن بدأ المسلمون العودة إلى منابع روافد الإسلام ينهلون منها بقدر يتفاوت من إقليم إلى آخر، وفي هذا بيقين عودة إلى قمة الحضارة والرقي والتقدم.

الحضارة الإسلامية ومبدأ المساواة :

لم يعرف الإسلام العنصرية، ولا تمييز عنصر على آخر باللون أو اللسان أو الإقليم أو الجذور، أو النوع أو العشيرة ....، وذلك انطلاقاً من قول الله

---

(١) سورة العلق، الآية ١.

تعالى: «إن أكرمكم عند الله أتقاكم»[1]، فنظرة الإسلام إلى الإنسان الفرد، وإلى المجتمع بأسره، تخالف في مجموعها نظرة المذاهب والاتجاهات الوضعية الأخرى، يمينية كانت أو يسارية، منصفةً كانت أو مجحفة، إنها نظرة مستقلة ترعى إنسانية الإنسان بغض النظر عن أي اعتبار آخر، فلا فضل لأحد من الناس على آخر إلا بالتقوى، مصداقاً لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى»[2]. أين هذا التمييز العنصري المدعى ؟، أين نماذجه في واقع الحياة الإنسانية في ظلال الإسلام ؟، من يرجع إلى أصول الحضارة الإسلامية في المعاملة، سيجد قمة الشورى في نظام الحكم في عهد الخلفاء الراشدين؛ وغاية المساواة في مساءلة الحاكم للمحكوم.

هذا الصديق أبو بكر رضي الله عنه الخليفة الأول للمسلمين بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لأفراد الأمة بصرف النظر عن جنسهم أو جنسياتهم أو مراكزهم الاجتماعية: "أطيعوني ما أطعت الله فيكم ورسوله، فإن عصيت، فلا طاعة لي عليكم، القوي فيكم ضعيف عندي حتى آخذ الحق منه، والضعيف فيكم قوي عندي حتى آخذ الحق له".

وهذا الفاروق عمر بن الخطاب رضي الله عنه، يقف وسط جموع المصلين يخطب الناس قائلاً: "أيها الناس اسمعوا وأطيعوا" فرد عليه سلمان الفارسي قائلاً له "لا سمع لك اليوم علينا ولا طاعة" فقال له عمر: "ولم؟" قال سلمان: حتى تبين لنا من أين لك هذا البرد الذي ائتزرت به، وأنت رجل طوال لا يكفيك البرد الذي نالك كبقية المسلمين؟".

أين العنصرية هنا، إنسان عادي يسائل أمير المؤمنين أمام جموع الناس عن مصدر الثوب الذي يرتديه، فلا يغضب، ولا يعنّفه، ولا يأمر باعتقاله أو إيذائه، وإنما ينادي ابنه عبد الله قائلاً له: "نشدتك الله، هذا البرد الذي ائتزرت

---

(١) سورة الحجرات من الآية ١٣.
(٢) متفق عليه.

به أهو بردك؟" فيقول: "نعم". ثم يقول موجهاً عبد الله بن عمر خطابه للناس: "إن أبي رجل طوال، لا يكفيه البرد الذي ناله كبقية المسلمين، فأعطيته بردي ليأتزر به" عندئذ يقول سلمان: "الآن مر: نسمع ونطع"[1].

إن هذه المساءلة تعني أن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب[2]، ومن قبله الخليفة الأول للمسلمين أبو بكر الصديق رضي الله عنهما، يحرصان على تحقيق العدل والمساواة بين الناس، حكاماً ومحكومين، الجميع سواء أمام الحق، فأين التمييز العنصري الذي نتهم به الحضارة الإسلامية؟. هل طلبت من غير المسلمين أن يقيموا في مناطق معيّنة، أو إقامة منازلهم بصورة تحدد هويتهم أو عقيدتهم أو غير ذلك؟ إن العار هو الذي يلحق غير المسلمين، ويكفي تذكر محاكم التفتيش، وما وقع في بلاد الأندلس شاهد عيان يشيب منه الولدان، ولكن ماذا نقول سوى يا خجل أين حمرتك؟ ولكن إذا لم تستح فاصنع ما شئت، يا كل من يكيل الاتهامات ضد الإسلام وحضارته العريقة، فالإسلام يمضي ولينبح من ينبح.

الحضارة الإسلامية ومواكبة التطور :

إتهام الحضارة الإسلامية بالانغلاق أو الانطواء والانكفاء على نفسها

---

(١) راجع في التعليق على هذه الصور الوضاء للمساواة والشورى في ضلال الإسلام وحضارته العريقة: مذاهب فكرية معاصرة، محمد قطب ص٢٣٨ - ٢٤٤ - الإسلام وقضايا العصر، د.ابراهيم الدبو مع آخرين ص١٧٨، ١٧٩ - مشكلة الفقر وكيفية علاجها، د. يوسف القرضاوي ص٥.

(٢) لقد انصف عمر بن الخطاب رضي الله عنه، القبطي المصري الذي جاءه يشتكي ابن والي مصر عمرو بن العاص عندما سابق هذا القبطي ابن عمرو فسبقه فعلاه بالسوط قائلاً: كيف تسبق ابن الاكرمين؟ ما هي نتيجة الشكوى، لقد استدعى الفاروق عمرا وابنه، ثم دارت محاكمة علنية قرر فيها الفاروق وارسى مبادىء المساواة في الإنسانية بين الجميع عندما قال لعمرو معنفاً: متى استعدتم الناس وقد ولدتهم امهاتهم أحراراً ثم أمر القبطي أن يقتص بنفسه من ابن عمرو العاص أمام مجلس الحكم، وفي وجود عمرو بن العاص والي مصر، لأن الإسلام لا يعرف العنصرية ولا يحمي الظلم، ولا يميز الحاكم على المحكومين علي الإطلاق، فظل القبطي المصري يكيل لابن عمرو، والفاروق يستزيده حتى شعر المصري بأنه أخذ بحقه من الناحيتين المادية بالقصاص من ضاربه، والمعنوية يرد اعتباره أمام الجميع، فأين التمييز العنصري يا أعداء التقدم والمسواة؟.

دون النظر إلى المستجدات والمستحدثات من الأمور، فرية كبيرة، لأن هذه الحضارة انفتحت على العالم أجمع ونقلت في الماضي من حضارة الفرس والروم ما لا يتعارض مع قيمها ومثلها في شتى مناحي الحياة، ومن ينظر إلى قصور الخلافة والولاة، وتنظيم المدن وتنسيقها، والانفاق على البحث العلمي وتطويره، ورعاية العلماء في كل مجالات المعرفة والتي بلغت حد وزن الكتاب بمثله من الذهب الخالص، تقديراً للعلم، وحثاً على المزيد من البحث والعطاء، وكيف يتأتى الانغلاق لأمة يدعوها قرآنها إلى النظر في ملكوت السماوات والأرض بقول الله تعالى: «قل انظروا ماذا في السماوات والأرض»[1]، وقوله سبحانه: «يا معشر الجن والإنس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السماوات والأرض فانفذوا لا تنفذون إلا بسلطان»[2]، وقوله عز وجل: «ولقد زيّنا السماء الدنيا بمصابيح»[3]، والآيات الداعية إلى التأمل في ملكوت الله تعالى كثيرة، والحضارة الإسلامية لم تعرف الانغلاق على الإطلاق، وكيف تعرفه وهي تؤمن بالعلم والتقدم، وتعرف أنه لأمر "ما" أراده الله تعالى كانت حروف (علم) هي بذاتها حروف (عمل) وهي أيضاً حروف (لمع)، بل من يقرأ كلمة (لمع) بالمقلوب سيجد أنها منطوق كلمة (عمل)، والإسلام بيقين هو دين الفطرة السوية التي تحرص على العمل، فلا شيء يأتي من لا شيء، ولذلك كان هذا الاتهام لا أساس له من الصحة والحضارة الإسلامية التي تربض في كل مكان قديماً وحديثاً، خير شاهد على كذب هذا الاتهام.

هذه هي جملة الاتهامات التقليدية التي يسوقها غير المسلمين ضد الحضارة الإسلامية افتراءً عليها، بهدف طمر واقع جلّي، وإخفاء حقيقة لا يعتريها الشك لحظة، ولكن هذا دائماً هو شأن الزبد فإنه إلى جفاء، وأما ما ينفع الناس فإنهم يحتضنونه ويحرصون عليه تحقيقاً لمصالحهم، ولذلك يمكث

---

(١) سورة يونس من الآية ١٠١.
(٢) سورة الرحمن، الآية ٣٣.
(٣) سورة الملك من الآية ٥.

في الأرض، قال تعالى: «فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض»[1]، والاتهامات الغوغائية مصيرها الاجتثاث من فوق الأرض إيماناً منا بقوله تعالى: «ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار»[2].

(١) سورة الرعد من الآية ١٧.
(٢) سورة ابراهيم، الآية ٢٦.

المطلب الثاني
الاتهامات المعاصرة والمستحدثة ضد الحضارة الإسلامية في الوقت الحاضر

مضمون الاتهامات المعاصرة والمستحدثة :

لقد تفرّغت بعض الدول لمهاجمة الإسلام بعد أن تخلّصت مما يعرف بالمعسكر الشرقي بتفكيكه، والقضاء عليه إلى غير رجعة، أصبح همها بعد ذلك محاربة الإسلام، بصورة مباشرة أو غير مباشرة، من خلال توجيه الاتهام إلى حضارته العريقة، بأنها لا تعرف سوى الغلو والتطرف، وتتعامل بأسلوب الإرهاب، فمن ليس معنا فهو ضدنا، هكذا يدعون على الحضارة الإسلامية، ولم يدركوا أن الإسلام هو دين الوسطية قال تعالى: «وكذلك جعلناكم أمةً وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً»[1]، لا يعرف الغلو ولا المغالاة، ولا يميل إلى التطرف، ويحظر الإرهاب والتدمير، لأنه يدافع عن الفضيلة والقيم النبيلة، فكيف يسمح باستعمال وسائل غير مشروعة لتحقيق أهدافه مع رفضه التام (للميكافيلية) وللأساليب الملتوية في الوصول إلى الحق؟.

لا يمكننا حصر الاتهامات التي تتساقط على الحضارة الإسلامية وعلى كافة ما تضمنه الإسلام من مبادىء وقيم وأحكام صالحة للتطبيق في كل زمان ومكان بلا إفراط ولا تفريط، ولكن يمكننا أن نحدد أهم الاتهامات المعاصرة والمستحدثة، بل الاتهامات اليومية التي توجه إلى الإسلام في معظم وسائل الإعلام الذي تملك ناصيته الصهيونية العالمية، وغير المسلمين من الطوائف الأخرى أو الملاحدة، هذه الاتهامات هي: الغلو، التطرف، الإرهاب، الأصولية، ويعنون بهذا كله أن تصرفات بعض المنحرفين من المسلمين هي الممثلة لهذا الدين الذي لا يعني عندهم سوى هذه المفاهيم الظالمة، أو هكذا أرادوا،

---

(١) سورة البقرة من الآية ١٤٣.

وأشاعوا، وأذاعوا، وكرروا هذه الاتهامات حتى أصبحت شبه مقرر ثابت في معظم وسائل الإعلام المسموعة والمقروءة والمرئية، وذلك مسايرة للاتجاه الذي يريد إحلال العداء للإسلام محل الشيوعية البائدة(١).

الحضارة الإسلامية لا تعرف الغلو(٢) :

ما من مسلم أو غير مسلم لا يعرف بيت الله الحرام أو يشاهد الكعبة المشرفة غالباً، لأنها تظهر للعيان بعد انتشار وسائل الإعلام فلا أحد يكاد يجهلها إلا النزر اليسير. ما قول من يتهمون الحضارة الإسلامية بالغلو وهي لم تعد بناء الكعبة على قواعد ابراهيم عليه السلام؟ لقد فتح رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة، وصارت دار إسلام، وعندئذ عزم على تغيير البيت ورده على قواعد ابراهيم عليه السلام، ولم يمنعه من ذلك مع قدرته عليه سوى وقوع أعظم منه من عدم احتمال قريش لذلك، لقرب عهدهم بالإسلام(٣). أبعد هذا سماحة وحرصاً على ترابط الصفوف ومناهضة الغلو، ومجافاة من يمضي في سبيله المتشدد والمعسّر على عباد الله(٤)، بالرغم من قوله تعالى: «فإن مع العسر يسراً إن مع العسر يسراً»(٥)، وقوله سبحانه: «وما جعل عليكم في الدين من حرج»(٦)، فكيف يخطر ببال غافل اتهام الحضارة الإسلامية بالغلو،

---

(١) وهذا ليس بمستغرب بعد أن أعلن وزير إحدى الدول الكبرى في المعسكر الغربي أن الإسلام الآن هو العدو بعد أن تخلصنا من الشيوعية إلى غير رجعة.

(٢) تدور الأحرف الأصلية لكلمة (الغلو) ومشتقاتها على معنى واحد يدل على محاوزة الحد والقدر، قال ابن فارس: "الغين والام والحرف المعل، أصل صحيح يدل على ارتفاع ومجاوزة قدر" أنظر: معجم مقاييس اللغة مادة (غلوى)، ولسان العرب مادة (غلو)، ومختار الصحاح مادة (غلا)، والقاموس المحيط مادة (غلو)، وتاج العروس مادة (غلو)، ويقال غلا في الدين غلوا، بمعنى تشده ونصلت حتى جاوز الحد. والغلو في الشرع عرفه ابن تيمية بأنه: "مجاوزة الحد بأن يزاد في الشيء في حمده أو ذمه، على ما يستحق ونحو ذلك". والغلو عند الشاطبه وابن حجر يعني: "المبالغة في الشيئ والتشديد فيه حتى يتجاوز الحد". أنظر: اقتضاء الشراط المستقيم ٢٨٩/١. والأغتنام ٣٠٤/٣، وفتح الباري ٢٧٨/١٣.

(٣) إعلام الموقعين، لابن قيم الجوزية، ضعة فرج الله الكردي بمصر ٢٣/٣.

(٤) قال ابن تيمية: مررت أنا وبعض أصحابي في زمن التتار بقوم منهم يشربون الخمر، فأنكر عليهم من كان معي، فأنكرت عليه، وقلت له إنما حرم الله الخمر لأنها تصد عن ذكر الله وعن الصلاة، وهؤلاء يصدهم الخمر عن قتل النفوس، وسبي الذرية، وأخذ الأموال فدعهم، إعلام الموقعين ٥/٣. وأنظر في أحكام تغيير المنكر بالقوة، القضايا الثلاث للدكتور محمد رأفت عثمان طبعة دار الفضيلة، الطبعة الأولى. ١٤١٠هـ ١٩٨٩م ص٢١ - ٣٣.

(٥) سورة الشرح، الآيتان، ٥-٦.

(٦) سورة الحج من الآية ٧٨.

وهي تعتمد السماحة والتيسير على عباد الله تعالى؟، لكن بلا ريب أصبح الأمر يستلزم بيان مظاهر هذه السماحة للناس حتى لا ينخدعوا بتلبيس أهل الباطل عليهم من خلال ما يدسونه من سموم في وسائل الإعلام وبصورة لا تنقطع.

الحضارة الإسلامية ضد التطرف :

لقد فتح المسلمون العديد من البلدان، واستمروا في الفتوحات حتى دانت لهم الفرس والروم، هل قاموا بهدم حضارتهم، أو تدمير مساكنهم، أو إزالة كنائسهم، أو تخريب عامر من ديارهم؟. إن هذا لم يحدث، لأن الأصل في الإسلام هو مراعاة كل ما يحقق الخير لأربابه وإن كان لا يصح في قاموس القيم الإسلامية، طالما أنه لا يضر بالعقيدة أو العبادة، أو يشيع الفساد بين صفوف الناس، فإذا كانت الحضارة الإسلامية ليست ضد التطرف فلماذا لم تذهب بكل تراث الماضي والحضارات الرومانية والاغريقية والفرعونية ... وغيرها من الحضارات؟.

قد يقول البعض: بأن هذه الحضارات لم تكتشف في العهد الزاهر للإسلام، ونقول لهم: إن بعض معالم الحضارة في مصر وإيران والعراق والشام ... كانت ظاهرة للعيان، ونحن الآن السنا ننتمي إلى دين الإسلام؟ مع هذا ننقب عن الآثار، ونحافظ عليها، ونمنع التصرف فيها بكل صوره، ونجرّم هذا التصرف حفاظاً على الثروة الحضارية بغض النظر عن كونها نشأت في ظلال الإسلام أو اكتشفت في ربوعه، وهذا لا يختلف عليه أحد في ديار الإسلام بالرغم من اختلاف التوجهات السياسية والعقدية، فالكل حريص على التراث الحضاري، لا فرق بين التراث الإسلامي وغيره في هذا المضمار، فأين التطرف المزعوم؟.

الحضارة الإسلامية تبرأ من الإرهاب :

كيف يمكن لدين بعث رسوله رحمةً للعالمين أن يقال عنه أنه يحمي

الإرهاب؟. قال تعالى: «وما أرسلناك إلا رحمةً للعالمين»[1]، ولحضارة تقوم على السماحة في ظلاله أن توصم بالإرهاب؟، مع أن قارىء التاريخ المسطور، والمشاهد لمعالمه وواقعه المجسّم المنظور، لا يمكنه أن يصدق هذه الفرية، لأن المسطور والمعلوم من حضارة الإسلام يشهد بصدق براءة هذه الحضارة من عبث الإرهاب، وتصرفاته الهمجية، المنافية لجميع الأديان، لأن الإرهاب هو العدو الأول للحضارة، فهو يحسبها من البدع الضالة المضلة فيأخذ في إزالتها كأنها والمنكر سواء، فكيف لحضارة إسلامية زاهرة برسومها ومعالمها في كافة أصقاع الأرض أن تسمح بمهادنة هذا البلاء الذي يحرق الأخضر واليابس، بعيداً عن كل القيم والشرائع السماوية، وأولها الإسلام الذي يمنع قتل المرتد عنه إلا بعد استتابته لمدة ثلاثة أيام وبصورة متواصلة، لأن الدين الإسلامي وحضارته الخالدة، لا تتعطش للدماء، بل إن أول ما يقضي فيه يوم القيامة من الحقوق الدماء، كما علمنا المصطفى صلى الله عليه وسلم. فكيف تسمح حضارة هذا الدين بفعل الجاهلية قبل بعث خاتم الأنبياء والمرسلين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين؟.

إن الإرهاب الذي يطلق عليه الغرب حيناً مصطلح الأصولية، ويعني بها التطرف والغلو الإسلامي، والإسلام يبرأ إلى الله تعالى من كل هذه المفاهيم المغلوطة، هذا الإرهاب مرفوض ومبغوض ومنهي عنه شرعاً، ويمكن لمن يرغب الوقوف على أسبابه وصوره، وكيفية معالجته أن يرجع لما سطر عنه في المؤتمرات والمؤلفات العديدة، وسنكتفي بالإشارة إلى بعضها في الهامش[1]، حرصاً على عدم التوسع في تناول موضوع قُتل بحثاً، وهو مرفوض إسلامياً بغير جدال..

---

(١) سورة الأنبياء الآية ١٠٧.

المبحث الثاني

كيفية مواجهة الاتهامات المغرضة للحضارة الإسلامية

تحديد لب المشكلة وجوهر الاتهام :

إن الحكم على الشيء فرع عن تصوره، فلا يمكننا أن نعرض لحل مشكلة معينة إلا بعد التعرف على حقيقتها، ومسبباتها، وسبل الخلاص منها، ثم بعد ذلك نعرض الحل الأمثل الذي يؤدي إلى إنهاء هذه المشكلة، أو على الأقل يعمل على الحد من آثارها، ويضع الضوابط لمنع ظهورها في المستقبل بكل وسيلة مشروعة.

لقد استعرضنا الاتهامات الموجهة للحضارة الإسلامية، وبيّنا أن من أهمها: التخلف، والانغلاق، والعنصرية، والإرهاب الذي هو ثمرة (الغلو والتطرف). هذا هو لب ما يوجه للحضارة الإسلامية في وقتنا الحاضر ونحن على مشارف القرن الحادي والعشرين.

كيفية مواجهة الاتهامات التقليدية :

يمكن مواجهة الاتهامات التقليدية للحضارة الإسلامية بمحاصرة كل اتهام ودحضه بقوة، وعدم التردد في نشر مضمونه مقروناً بالرد عليه، أو على الأقل إبراز عكس ما جاء في هذا الاتهام، فمثلاً إذا كان الاتهام للحضارة الإسلامية ينصب على التخلف، فيكون الرد بإبراز الدور المتميز للحضارة الإسلامية، وكيف نبغ العلماء في كافة مناحي الحياة، ولم يتركوا مجالاً في الأرض أو في السماء، في البر أو في البحر أو في الجو إلا وتعمقوا فيه، ووضعوا له الدراسات، وقدموا فيه الأبحاث التي تعمل على تطويره وتحديثه بصورة غير مسبوقة في الوقت الذي كانت فيه أوربا تعيش في الظلام الدامس، فالتقدم هو السمة الحقيقية للحضارة الإسلامية، وهكذا يكون الشأن دائماً في كل ما يثيره أعداء الإسلام من تهم تقليدية أو

مستحدثة[1].

مواجهة الحضارة الإسلامية للتخلف[2]:

بضدها تتميز الأشياء، ولن ندفع عن حضارتنا هذه التهمة إلا بالحرص على بيان مظاهر الحضارة الإسلامية، ومدى تقدمها في الماضي، والرعاية والعناية المخصصة لها في وقتنا الحاضر، وأن العالم أجمع لم يحقق تقدمه من فراغ، وإنما عاش لقرون عديدة على ثمار الفكر الإسلامي وحضارته التي لم تضن على الراغبين في التعلم أن تكسبهم كافة المهارات التي أتاحت لهم فرصة تطوير الأداء وتحقيق التقدم بفضل ما كان لنا ثم صار إليهم، وهذا لا يعني نهاية المطاف على الإطلاق، لأن الحضارة الإسلامية لا تعرف الجمود أو التقهقر، وإنما تسعى إلى التقدم بخطى حثيثة، وبضاعتنا التقدمية ينبغي علينا استردادها، وبيان مدى ما يمكننا إضافته إليها، حتى لا نكون عالة على غيرنا، ولا يقتصر دورنا على الاستهلاك فحسب، بل نتحول إلى حضارة منتجة وأمة متقدمة، ونسخّر وسائل الإعلام لخدمة هذا الهدف، فنعلن عن كل تطور استجد على ساحتنا، ليمكن من خلال هذا الجهد النافع للبشرية، أن نجتث فرية التخلف بالفعل لا بالانفعال، وبالعمل لا بمجرد إطلاق الحناجر، وفتح

---

(١) راجع رسالة الجامعة، التي تصدرها جامعة الإمارات العربية المتحدة - العددالثالث عشر نوفمبر ١٩٩٧، مقال للدكتور جلال علي حسان يبرز جهود علماء المسلمين في مجال العلوم الرياضية، والطبيعية، والتطبيقية ص٧.

(٢) راجع في التخلف ومظاهره وأسبابه وكيفية مواجهته، والدراسات التي تدور عنه، العديد من المؤلفات والبحوث والندوات التي صدرت في هذا الشأن، ويمكن الإشارة لبعضها، فمن هذه المصادر: دكتاتورية التخلف العربي. د. غالي شكري، طبعة الهيئة المصرية للكتاب بالقاهرة - الإنسان وفلسفة التنمية: (ازمة مجتمع). د. حيدر موسى عبدالعظيم، مؤسسة عز الدين للطباعة، بيروت - لبنان - التنمية والتخلف في العالم العربي. د. حيدر. طبعة دار الفكر العربي، بيروت، لبنان - التحدي أمام الجنوب (تقرير لجنة الجنوب) مركز الدراسات بيروت، لبنان الطبعة الأولى - الأتجاهات النظرية لتراث التنمية والتخلف، عبدالملك مقومي، طبعة المؤسسة الجامعية، بيروت . لبنان - التخلف لماذا؟ والتقدم لم لا ؟. أحمد بركات. طبعة دار الفكر.، دمشق، سوريا مقومي، طبعة المؤسسة الجامعية، بيروت. لبنان - جدلية التخلف والتنمية، غسان بدر الدين ، طبعة المؤسسة الجامعية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى.

قواميس اللغة للتنقيب عن الألفاظ البليغة التي تموت بمجرد خروجها من شرفات الحلق إلى أطراف اللسان، لأنه لا يصح دائماً سوى الصحيح، والدعاية الكاذبة مردودها السيء لا يبقي ولا يذر، لذلك ينبغي أن نحرص على تأكيد عراقة حضارتنا الإسلامية، ونبذها لكل صور التخلف الذي ترفضه مبادىء الشريعة الغراء، ولا ننتظر أن يتولى غيرنا الدفاع عن حضارتنا مهما خلصت نيته، وصدقت عزيمته، فلا يحك جلدك مثل ظفرك، ونحن نعرف موضع الداء، ونعرف أيضاً ما يصلح له من الأدواء، والركب يسير، وفي زماننا الحاضر، لا أحد ينتظر أحداً، والإسلام يحثنا على العمل للدنيا كأننا نعيش أبداً، ولا ننسى أن نعمل أيضاً للآخرة كأننا سنموت غداً، تأسياً بتوجيهات النبي صلى الله عليه وسلم، فهذا هو الحل[1]، ولا حل سواه في تقديري.

مواجهة الحضارة الإسلامية للتفرقة العنصرية[2] :

لم يترك الإسلام مجالاً لما يعرف في عالمنا اليوم باسم التفرقة العنصرية، لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم، ردنا جميعاً إلى أصلنا الأول قائلاً: «كلكم لآدم وآدم من تراب»، والتفضيل للإنسان يكون بناءً على سلوكه وأخلاقياته، وعمله، لا بناءً على شكله أو لونه أو نوعه أو جنسيته ...، هذه حقيقة واقعة، وقد حسمها الإسلام، لأنها من شئون الجاهلية، وعندما عيّر أحد الصحابة آخر بقوله: "يا ابن السوداء" واجهه رسول الله صلى الله عليه وسلم وبيّن له أن هذا من أخلاق الجاهلية، كما أن الإسلام منع وأد البنات، وحارب

---

(١) يشيرعمرو بن العاص إلى هذا المعنى فيقول: أعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً، واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً، راجع: خصائص الشريعة الإسلامية. د. يوسف القرضاوي ص١٢٩ وما بعدها - الإسلام وقضايا العصر، د. ابراهيم الدنو مع آخرين ص٤٤.

(٢) راجع في التفرقة العنصرية وآثارها المدمرة، ما صدر في هذا الشأن من مؤلفات، نذكر منها: الأقليات والاستقرار السياسي في الوطن. د. نيفين مسعد، القاهرة مكتبة النهضة، الطبعة الأولى - مانديلا وجنوب افريقيا بين الماضي والحاضر، وليد عبدالناصر، دار المستقبل العربي بالقاهرة - الإسلام والتفرقة العنصرية، علي بن عميرين، مكتبة التوبة، الرياض - العنصرية والفصل العنصري في جنوب افريقيا. إحسان كيالي، دار طلاس ١٩٨٧، دمشق.

التفرقة بين الذكر والأنثى في كافة الشئون الإنسانية فقد خلق الذكر لمهمة والأنثى لأخرى، في حدود هذا الاختلاف يكون التفاوت، أما أن الأنثى لمجرد كونها أنثى تحرم من بعض الحقوق أو تدفن حية تخلصاً منها، فهذا حرّمه الإسلام وأنكر القرآن على أصحاب هذا المسلك الشائن مسلكهم فقال تعالى: «وإذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسوداً وهو كظيم يتوارى من القوم من سوء ما بُشر به أيمسكه على هون أو يدسه في التراب ألا ساء ما يحكمون»(١).

يجب بيان ذلك للناس، وكيف أن المرأة في الجاهلية كانت تورّث ولا ترث، وكانت تعامل معاملة مهينة حتى في بعض الديانات القديمة، ولم تحصل على حقها كاملاً إلا في ظلال الإسلام، إظهار ذلك بكل صورة ممكنة فيه وغيره من القيم الحضارية والإنسانية الخير العميم، والرد الساطع على جميع ما يثار في هذا الشأن، فالعنصرية لم تعرفها الشريعة الإسلامية ولا حضارة الإسلام، وإنما عرفها غير المسلمين قديماً وحديثاً، ولننظر في الوقت الحاضر ماذا يحدث لبعض المسلمين وعلى مرأى ومسمع من العالم أجمع، وليست وقائع وأحداث البوسنة والهرسك، وفلسطين، ملء السمع والبصر، والعنصرية والتعصب المقيت هو المستأسد على حساب جميع القيم الإنسانية، فينبغي علينا أن نظهر ذلك للعيان من خلال وسائل الإعلام للتخلص من هذا الاتهام الغوغائي بالعنصرية للحضارة الإسلامية العريقة وهي منها بمنزلة المشرق والمغرب، فبقدر ما يقترب الإنسان من أحدهما بقدر ما يبتعد عن الآخر، وبقدر اقتراب الإنسان من الحضارة الإسلامية بقدر بعده عن العنصرية وكافة المناهج غير السوية.

---

(١) سورة النحل، الآيتان: ٥٨ : ٥٩.

مواجهة الحضارة الإسلامية للانغلاق[1] :

لا يمكن لمنصف أن يتهم الحضارة الإسلامية بالانغلاق، لأنها حضارة منفتحة، ومتفتحة على العالم أجمع، فهذا الاتهام محض افتراء، ويكفي للرد عليه أن تكثّف كل دولة إسلامية جهودها في نشر الصور الحضارية للإسلام مع بيان مدى استيعابها للحضارات الأخرى بالقدر الذي لا يؤثر على العقيدة، فالحضارة الإسلامية ليست (إمعة) تقلّد وتحاكي الحضارات الأخرى بلا فهم أو إدراك، أو تنفر منها وترفضها بلا أسباب أو مبررات، لمجرد أنها حضارات غير إسلامية، ولكنها تقبل ما يتفق مع قيم الإسلام، وترفض ما عدا ذلك.

هذا الاتهام بالانغلاق مردود على المتهمين لا على الحضارة الإسلامية، ويكفي تأثر الحضارة العربية في ظلال الإسلام بالحضارات الأخرى في الدول التي دانت للإسلام وأصبحت من بين دياره، لكن ينبغي على قيادات الأمة الإسلامية ووسائل إعلامها المختلفة أن تنقل صورة أمينة لمدى تفتح وتطور الحضارة الإسلامية، لإزالة كافة الشبهات والترهات التي تحيط بحضارتنا الإسلامية الزاهرة.

مواجهة الاتهامات المستحدثة في وقتنا الحاضر :

تكاد تنحصر كل الاتهامات وتصب في قالب وصم الحضارة الإسلامية بالغلو والتطرف والإرهاب، مع أن الإسلام هو دين الوسطية مصداقاً لقول الله تعالى: «وكذلك جعلناكم أمةً وسطاً لتكونوا شهداء على الناس، ويكون الرسول عليكم شهيداً»[2]، فلا مكان في ديار الإسلام للغلو والمغالاة أو التطرف والانجراف إلى الإرهاب الفكري أو الحسي، لأن الحضارة الإسلامية تخضع

---

(١) إذا كان الانغلاق يعني الالتزام بالقيم والمبادىء، وأحكام لشريعة الإسلامية، فبلا شك تلتزم الحضارة الإسلامية بهذه القيم، لأن الانفتاح والتطور لا يعني هدم القديم، والخروج من الهوية، والتنكر للقيم والمبادىء والمثل الإنسانية العليا، لذلك لا أدري ماذا يقصد هؤلاء الذين يتهمون حضارتنا الإسلامية بالانغلاق؟. إنها في الواقع فرية لا تصمد في مواجهة الحق والحقيقة.

(٢) سورة البقرة الآية ١٤٣.

لوسطية الإسلام باعتبارها من أبرز خصائصه، فالمنهج الإسلامي يعتمد الوسط في كل شأن من شئون الحياة بلا إفراط ولا تفريط، ولا يكتفي بأن تكون الوسطية مجرد قناع، أو مظهر شكلي للحضارة، وإنما يحذر من المصير إلى مآل المغالين أو المقصرين، قال تعالى: «اهدنا الصراط المستقيم، صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين»[1]، ووسطية الأمة الإسلامية، إنما هي مستمدة من وسطية منهجها ونظامها، فهو منهج وسط، لأمة وسط، ومنهج الاعتدال والتوازن الذي سلم من الغلو والتقصير في كافة شئون الحياة ومنها معالم الحضارة الإسلامية، وصورها المختلفة فكلها تعتمد منهج الوسطية والبعد عن كل ما ينافى السماحة والتيسير باعتبارهما من أهم الخصائص العامة للإسلام[2].

مواجهة الحضارة الإسلامية للغلو والتطرف :

جاء في الكتاب والسنة ذم صريح للغلو والتطرف، لما فيه من تكلّف ما لا يطاق، وتظاهر بما لا يستطاع إلا بحرج شديد، ومما جاء في صدد النهي عن تجاوز الحد في الإنفاق، والتمسك بجانب الاعتدال في شئون المال، وهو عصب الحياة، قوله تعالى: «والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا، وكان بين ذلك قواماً»[3]، ونهى أيضاً عن المبالغة في العبادة، فقال سبحانه: «ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها وابتغ بين ذلك سبيلاً»[4]، وقوله عز وجل في شأن الجمع بين طلب الدنيا والآخرة: «وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنسى نصيبك من الدنيا»[5].

وقد جاء في السُنّة المطهرة دعوة صريحة للتوسط والبعد عن الغلو

---

(١) سورة فاتحة الكتاب، الآيتان: ٦، ٧.
(٢) راجع في هذا المعنى: الخصائص العامة للإسلام، د. يوسف القرضاوي ص١١٧ - الإسلام وقضايا العصر. د. ابراهيم الدبو مع آخرين ص٣٥.
(٣) سورة الفرقان، الآية ٦٧.
(٤) سورة الإسراء، الآية ١١٠.
(٥) سورة القصص، الآية ٧٧.

والتنطع، ومما جاء في هذا:

١ - عن أبي موسى الأشعري، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن من إجلال الله: إكرام ذي الشيبة المسلم، وحامل القرآن غير الغالي فيه والجافي عنه، وإكرام ذي السلطان المقسط»[١].

٢ - عن ابن عباس، رضي الله عنهما، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «إياكم والغلو في الدين، فإنما هلك من قبلكم بالغلو في الدين»[٢].

٣ - عن ابن مسعود، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «هلك المتنطعون» قالها ثلاثاً[٣] لتأكيد هذا المعنى.

فالأحاديث كثيرة في النهي عن الغلو والتنطع، والمتنطعون هم المتعمقون المجاوزون الحدود في أقوالهم وأفعالهم[٤].

لقد كان من حكمة الخالق، جل في علاه، أن اختار الوسطية لتكون منهاجاً للأمة الإسلامية، فالوسطية من أبرز سمات الإسلام، ويكفي بيان معالمها في وسائل الإسلام لدحض هذه الاتهامات، فالواقع المشاهد أقوى على إزالة كل المفتريات على الحضارة الإسلامية، لأنها لم تكن في يوم (ما) متطرفة ولا منحرفة، بل هي تسلك نهج الإسلام في الوسطية والاعتدال.

---

(١) أخرجه أبوعيد في فضائل القرآن، وأبوداود في السنن حديث رقم ٤٨٤٣، واليهقي في السنن الكبرى ٨/١٦٣، وحسنه الذهبى في الميزان حديث رقم ١٠٥٤٣، والألباني في المشكاة حديث رقم ٤٩٧٢.

(٢) أخرجه أحمد في المسند.

(٣) أنظر صحيح مسلم (باب الغلو).

(٤) راجع: الصحوة الإسلامية بين الجحود والتطرف، د. يوسف القرضاوي ص٢٦. وما أحسن قول القائل: حب التناهي غلط: خير الأمور الوسط.

مواجهة الحضارة الإسلامية للإرهاب :

الغلو يبيض التطرف، والتطرف يفقس الإرهاب، فالإرهاب ثمرة مرة للغلو والتطرف، ولكن ينبغي علينا أن نؤكد على ضرورة الالتزام بأحكام الشريعة الإسلامية، لأن الشخص الذي يقل زاده من التدين علماً وعملاً، أو عاش في محيط لا يبالي بمحارم الله تعالى، يعتبر كل تمسك بالدين تطرفاً وغلواً، بل يتهم كل من يتمسك بعروة الإسلام، ويلجم نفسه بلجام التقوى، ويلتزم شرع الله تعالى بلا إفراط أو تفريط، بأنه من المتطرفين أو المنحرفين، أو من دعاة الإرهاب الفكري(١).

هذا المسلك ليس من الإنصاف في شيء وإنما هو من التجرؤ على الدين، فلا يعتد به، ولا يعوّل عليه، لأننا نعني بالتطرف المبالغة في الاستمساك ببعض الأحكام، وإلزام الناس بها، وهذا هو الذي يؤدي إلى الركون إلى مسالك الإرهاب الفكري أو الحسي، وهو مرفوض في زماننا الحاضر، وتحاربه بلا هوادة حكومات العالم اجمع، ومنها الحكومات الإسلامية، والحضارة الإسلامية معتدى عليها من هؤلاء الإرهابيين، فهي تناهضهم وتقاوم شرورهم فكيف تتهم بهذه الفرية؟.

لا مفر من تكثيف الجرعات الإعلامية في جميع وسائل الإعلام المسموعة والمقروءة والمرئية مع استخدام برامج لتفنيد جميع المزاعم الموجهة إلى الإسلام أو حضارته التليدة، من خلال شبكات (الانترنت) وغيرها من القنوات الفضائية، ومواكبة التطور الحضاري في وسائل الاتصالات بسرعة الرد على الفرية أو الاتهام بمجرد إطلاقه، ليدفن في مهده، ويقبر قبل استفحال خطره،

---

(١) راجع في هذا المعنى: الإسلام وقضايا العصر، د. ابراهيم الدبو مع آخرين ص٤٤ - ٤٨ - الصحوة الإسلامية بين الجمود والتطرف، د. يوسف القرضاوي ص٣٥ - ٣٩ - الغلو في الدين في حياة المسلمين المعاصرة، عبدالرحمن بن معلا اللويحق، (رسالة ماجستير). طبعة مؤسسة الرسالة ١٤١٣هـ ص٢٦ وما بعدها.

ولن يصح دائماً سوى الصحيح، والحق أبلج، والمهم هو المتابعة الواعية لكل ما يثار من اتهامات لحضارتنا الإسلامية العريقة، ولديننا الإسلامي الحنيف، ولا نسمح بمرور أي اتهام بلا تفنيد حتى يتم تبديده، وفي أسرع وقت ممكن قبل فوات الأوان[1].

(١) لقد أشرنا سلفاً إلى بعض المراجع والمصادر التي تعالج مشكلة الإرهاب بعد أن أصبح ظاهرة مرضية في معظم دول العالم، ولن يمكن التخلص منها سوى تضافر جميع الدول، وكل دولة تأوي عصابات الإرهاب أو قيادته، ستعاني حتماً من ويلات هذا الهمجي القاتل، ويكفي تدليلاً على ذلك ما وقع في مدينة الأقصر في نوفمبر ١٩٩٧، فقد قتل من سياح المملكة المتحدة (بريطانيا) بيد الإرهاب عدداً لا يستهان به، وهم يمنحون بعض عناصر الإرهاب الملاذ الآمن بالرغم من خطرهم الداهم حتى على الدول التي تأويهم، فلا مفر من تضافر الجهود لمحاصرة الإرهاب وبتره.

المبحث الثالث

الإسلام هو الراعي الأمثل للحضارة في ربوع العالم

منهج الإسلام في رعاية الحضارة :

يحرص الإسلام على رعاية الحقوق الإنسانية، والمحافظة على كل نتاج الجنس البشري بغض النظر عن هوية صاحبه، طالما أنه يحقق النفع العام للناس، والحضارة الإسلامية خير شاهد على ذلك فبالرغم من قيام بناء الكعبة على غير قواعد سيدنا ابراهيم عليه السلام، فقد استمرت على ما هي عليه، لأن الرسول صلى الله عليه وسلم قد حرص على بقاء السلام الاجتماعي بين سكان مكة وزوّارها ولأنها أصبحت معلماً وصورة ثابتة في القلوب والعقول، لا يمكن تغييرها دون وقوع مخاطر ومحاذير غير مألوفة، لذلك بقيت على ما هي عليه حتى وقتنا الحاضر، وستبقى على حالها إلى أن يرث الله تعالى الأرض ومن عليها، ولم تقم الحكومات الإسلامية سوى بكل ما يحقق التقدم والازدهار لعوامل الحضارة والرقي في كافة ديار المسلمين.

إن منهج الإسلام لا يسمح في وقت الحرب بتدمير المباني أو المنشآت غير العسكرية، بل يتعامل مع كل المظاهر الحضارية والإنسانية معاملة مثالية، ويكفي تدليلاً على تحضر الإسلام ورعايته للحرمات الخاصة، منعه اقتحام البيوت بالظنون للآمر بالمعروف والناهي عن المنكر، بل نهى عن التجسس على الناس، والبحث عن مخالفاتهم، فهذا المنهج الذي يراعي حرمة وحرية الفرد في مسكنه، كيف يمكن تصور عدم مراعاته ومحافظته على كل ما يحقق الخير للناس بصرف النظر عن هويتهم وعقيدتهم ومنهجهم، طالما أنه لا يسيء إلى الإسلام ولا إلى اتباعه؟ ودين هذا منهجه لا ينتظر منه إلا الخير لكل حضارات العالم، وتقديم كل ما يمكن للحفاظ عليها باعتبارها من التراث الإنساني.

الإسلام الراعي الأمثل للحضارات :

لن نطلق للقلم العنان، ولن نسطر الصفحات تلو الصفحات من تاريخ الإسلام المشرق، وأسلوبه الأمثل في رعاية الحضارات للأمم التي انضوت تحت لوائه، صلحاً أو فتحاً، انه تعامل مع حضاراتهم بما يتفق مع أكثر النظم والأساليب مثالية في العالم، وعندما ينبه القادة على جنودهم بعدم قلع الزروع، وقطع الأشجار، وهدم البيع أو الكنائس، وحرق المنشآت ... والحفاظ على كل ما لا ضرر منه في حالة القتال مع الأعداء، هذه المعاملة المثالية الا تعني أن الإسلام يحرص كل الحرص على تحقيق أكبر نفع من الحضارات الإنسانية، مراعاةً لأحكامه في هذا الشأن.

إن من يرجع إلى كتب السيرة والتاريخ المسجل للحروب والمعارك الإسلامية منذ البعثة النبوية وحتى يومنا، سيشعر بمدى حرص الإسلام على حماية المقدسات والحضارات حرصاً يفوق حرص أصحابها، وقد اتفق على ذلك معظم الكتاب من غير المسلمين، وكفى بهم للرد على مفتريات اخوانهم ضد الحضارة الإسلامية والدين الحنيف.

الخاتمة

يمكن لكل ذي بصر أو بصيرة، أن يقرر بلا تحيز أو تعصب أن الإسلام هو الراعي الأول للحضارات وأن كل المفتريات على الحضارة الإسلامية غثاء سيذهب جفاء، وستبقى حضارة الإسلام شجرة طيبة تؤتي أكلها رغم أنف الأعداء.

هذا وقد خلصنا من هذا البحث إلى نتائج ومقترحات.

أما النتائج فنجملها فيما يأتي:

١ - الإسلام يعلو ولا يعلى عليه، حقيقة ملموسة على مدار التاريخ يجهلها بعض أفراد الأمة، ويجب تعريفهم بها، بكل وسيلة ممكنة.

٢ - أن الحضارة الإسلامية لا تعرف التخلف وتحرص على كل ما يحقق التقدم لها ولكل من يلوذ بها.

٣ - الاتهامات الموجهة للحضارة الإسلامية لا أساس لها من الصحة، لأن هذه الحضارة ضد الانغلاق والعنصرية، وكل ما يناهض الحياة الإنسانية.

٤ - الإرهاب هو العدو الأول للحضارات الإنسانية ومن بينها الحضارة الإسلامية، والواقع خير شاهد على ذلك.

٥ - مواجهة التحديات لا تعني إغماض الجفون عن الاتهامات التي تثور من حين لآخر تجاه الحضارة الإسلامية، وإنما تعني ضرورة محاصرتها، وبذل الوسع في تبديدها والقضاء عليها.

٦ - أهمية وسائل الإعلام المسموعة والمقروءة والمشاهدة، وكل الوسائل المعاصرة في دحض المفتريات والتعريف بالحضارة الإسلامية، وأبعادها، وعناصرها المتجددة.

٧ - ينبغي أن لا نكتفي بالرد على المفتريات، بل نسارع بإبراز المظاهر الحضارية لأمتنا الإسلامية لتعريف العالم أجمع بها، ولا ننتظر المفتريات لنجلّي هذه الحقائق.

أما المقترحات فنجملها فيما يأتي :

١ - تخصيص برامج إعلامية عن الحضارة الإسلامية بالتعاون بين بلدان العالم الإسلامي.

٢ - إصدار كتاب أو موسوعة تضم أهم معالم الحضارة الإسلامية في الدول الإسلامية والأقليات الإسلامية.

٣ - عقد المؤتمرات والندوات، بصفة دورية، لتجلية معلم من معالم حضارتنا أو أكثر، ووضع البحوث والمؤلفات، لإثراء المكتبة العربية والإسلامية، بكل جديد، وما يدور حول هذه الحضارة.

٤ - ترجمة المؤلفات التي تتضمن أهم المعالم الحضارية إلى اللغات الحية، لتعريف العالم بها، وليتمكن أبناء الإسلام، من غير الناطقين بالعربية، من التعرف على حضارات الإسلام، وما قدمته للعالم قديماً وحديثاً.

٥ - تقديم الدعم لكل راغب في إجراء بحوث حول الحضارة الإسلامية أو ما يتصل بها، بتيسير المصادر والمراجع، وبعض الخدمات المعاونة لإتمام بحوثهم على أفضل وجه، ثم العمل على نشرها لتعميم الفائدة.

هذا ما وفقني الله تعالى إليه، فإن كان قد صادف الصواب فالفضل من الله والحمد لله، وإن كان قد اعتراه قصور مني فالتمس التوجيه والتصويب، فالإنسان يظل يتعلم من صرخة الوضع إلى أنة النزع، وعذري أني بذلت ما في وسعي، وأرجو المثوبة من الله تعالى في الحالتين، فقد بذلت جهدي[١]، والله الموفق لما فيه الصواب، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

(١) لقد اكتفيت بذكر المراجع والمصادر مفصلة في الهوامش استغناء بذلك عن ذكرها بصورة شاملة في آخر البحث نظراً لضيق الوقت، وبمشيئة الله تعالى سأعمل على إلحاق المراجع بالبحث بصورة مفصلة في المستقبل، فالتمس المعذرة.

أهم المراجع والمصادر

راعيت عند ذكر المراجع ترتيبها حسب ورودها في مواطنها من هذا البحث، ولذلك لزم التنويه.

١ – القرآن الكريم

٢ – هذا بيان للناس فضيلة الإمام الاكبر الشيخ جاد الحق علي جاد الحق (رحمه الله تعالى)، طبعة جامعة الأزهر ١٩٩٥.

٣ – فتاوى إسلامية معاصرة أ.د. يوسف القرضاوي، طبعة ١٩٩٣ بالقاهرة.

٤ – بحوث في الفقه المقارن أ.د. محمد رافت عثمان مع آخرين، الطبعة الأولى ١٩٨٩، مكتبة الفلاح بالكويت.

٥ – الإسلام وقضايا العصر د. ابراهيم الدبو مع آخرين، الطبعة الأولى ١٩٩٧، دار المناهج بالأردن.

٦ – الايسيسكو والصحوة الإسلامية مختارات من خطب أ. عبد الهادي بوطالب، طبعة ١٩٨٥، الدار البيضاء.

٧ – قضية التكفير في الفقه الإسلامي د. أحمد محمود كريمة، الطبعة الأولى ١٩٩٦ بالقاهرة.

٨ – مذاهب فكرية معاصرة أ. محمد قطب، طبعة دار المعرفة، بيروت.

٩ – مشكلة الفقر وكيفية علاجها أ.د. يوسف القرضاوي، طبعة دار الفكر، القاهرة.

١٠ – إعلام الموقعين عن رب العالمين ابن قيم الجوزية، طبعة مصطفى البابي الحلبي، القاهرة.

١١ – القضايا الثلاث أ.د. محمد رافت عثمان، الطبعة الأولى، دار الفضيلة، دبي.

١٢ – لسان العرب

١٣ – مقاييس اللغة

١٤ – مختار الصحاح

١٥ – تاج العروس

١٦ – اقتضاء الصراط المستقيم   ابن تيمية.

١٧ – الاعتصام الشاطبي.

١٨ – فتح الباري ابن حجرالعسقلاني.

١٩ – دكتاتورية التخلف العربي   د. غاني شكري، طبعة الهيئة المصرية للكتاب، القاهرة.

٢٠ – التنمية والتخلف في العالم العربي   د. فؤاد حيدر، طبعة دار الفكر، بيروت، لبنان.

٢١ – التخلف لماذا؟ والتقدم لمَ لا؟

أحمد بركات، طبعة دار الفكر، دمشق، سوريا ١٩٨٦.

٢٢ – جدلية التخلف والتنمية   غسان بدر، طبعة المؤسسة الجامعية، الطبعة الأولى بيروت، لبنان.

٢٣ – الأقليات والاستقرار السياسي في الوطن

د. نيفين مسعد، مكتبة النهضة، الطبعة الأولى.

٢٤ – الإسلام والتفرقة العنصرية   على بن عميريني، مكتبة التوبة، الرياض.

٢٥ – العنصرية والفصل العنصري في جنوب افريقيا

إحسان كيّالي، طبعة دار طلاس، دمشق.

٢٦ – السنن الكبرى   البيهقي.

٢٧ – فضائل القرآن   أبو عبيد.

٢٨ – المشكاة الألباني.

٢٩ – الصحوة الإسلامية بين الجمود والتطرف أ.د. يوسف القرضاوي.

٣٠ – الغلو في الدين في حياة المسلمين المعاصرة د. عبد الرحمن بن معلا اللويحق، طبعة مؤسسة الرسالة ١٤١٣هـ.

٣١ – إدارة الأزمة في الحدث الإرهابي د. أحمد عز الدين، د. أحمد جلال، الرياض، السعودية، طبعة دار النشر.

٣٢ – الإرهاب في القانون الجنائي د. محمد مؤنس محب الدين، مكتبة الانجلو، مصر.

٣٣ – الموت أو ايديولوجيا الإرهاب د. سميره بن عمر، المؤسسة الجامعية، بيروت، لبنان.

٣٤ – السياسة الجنائية للمشرع المصري في مواجهة الإرهاب د. نور الدين هنداوي، دار النهضة، مصر.

٣٥ – الإرهاب كيف نواجهه ونقهره مجموعة من الباحثين، الشركة المتحدة للطباعة.

٣٦ – إحقاق الحق أ. فهمي هويدي، دار الشروق ١٩٩٤، مصر.

٣٧ – الإرهاب الدولي ومسئولية شركات الطيران د. أحمد يحيى، منشأة المعارف بالاسكندرية.

٣٨ – سيكولوجية التطرف والإرهاب (إطار نظري) د. عزت سيد اسماعيل، طبعة جامعة الكويت.

٣٩ – الإرهاب السياسي د. عبد الناصر حريز، مكتبة مدبولي، القاهرة.

٤٠ – الجنون والجريمة والإرهاب د. عبد الرحمن عيسوي، طبعة الدار الجامعية، بيروت، لبنان.

القانون الإسلامي
الوضع الراهن وتحديات المستقبل

ورقة عمل مقدمة إلى ندوة
«التحديات التي تواجه الأمة الإسلامية في القرن المقبل»
«رابطة الجامعات الإسلامية بالتعاون مع جامعة الإمارات العربية المتحدة»

والمنعقدة في المدة من ٢٠ – ٢٢ شعبان ١٤١٨هـ
الموافق ٢٠ – ٢٢ ديسمبر ١٩٩٧م

إعداد
أ.د./ جعفر عبد السلام
أستاذ القانون الدولي العام
بكلية الشريعة والقانون، نائب رئيس جامعة الأزهر السابق
الأمين العام لرابطة الجامعات الإسلامية

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

من المسلم به أن الإسلام عقيدة وشريعة، والعقيدة تنظم العلاقة بين الإنسان وخالقه وتتصل بشكل عام بأسس الإسلام وما يقوم عليه من أركان مثل الشهادتين وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان، ثم تبحث في الإيمان وأسسه، أي الإيمان بالله وملائكته وكتبه والإيمان بالساعة وبأن الإنسان سينتقل من حياة مؤقتة إلى حياة دائمة.

أما الشريعة فتتمثل في الأحكام التي أنزلها الله سبحانه وتعالى لتنظم علاقة الإنسان بمجتمعه بشكل عام، فهي أحكام تحيط بأفعال الناس وتنظمها، وبالذات من حيث بيان ما يحل من الأمور وما يحرم، وما هو مندوب وما هو مكروه ثم ما هو مباح.

فما يميز المسلم عن غيره هو اعتقاده بأن الله سبحانه وتعالى له حكم في كل فعل من أفعال العباد من حيث الجوانب المذكورة، ومن ثم فإن فقهاء المسلمين بذلوا جهودا كبيرة لإظهار أحكام الشارع في مختلف المشكلات والقضايا والأفعال والأقوال التي يقوم بها العباد، وتكون من ذلك مذاهب الفقه الإسلامي المعروفة، ومنها أربعة مذاهب سنية، ومنها مذاهب شيعية من أهمها المذهب الجعفري والمذهب الزيدي. وتكون من ذلك كله القانون الإسلامي.

وهذا القانون يتميز بخصائص معينة، كما أنه يستقي أحكامه من مصادر محددة تختلف عن سائر القوانين الأخرى، وكذا يستمد قوته الملزمة من أوامر الشارع.

والواقع أن استخدام مصطلح القانون الإسلامي هو استخدام جديد، إذ أن المسائل التي تعالجها القوانين الوضعية الآن قد عولجت جميعها تحت مصطلح الفقه الإسلامي، والشريعة الإسلامية، وإن كانت الشريعة مقدسة وتهتم أساسا بالقواعد الكلية. أما الفقه فهو أوسع من الشريعة لأنه يدخل في التفصيلات، ولا يقف عند الكليات.

وهدفنا من تقديم هذه الورقة هو طرح المشكلات الرئيسية التي يثيرها تطبيق القانون الإسلامي في عصرنا الحاضر لأن هذا التطبيق، هو أمل المسلمين جميعا وفي كل مكان.

إن مسيرة تطور الفقه الإسلامي توضح إلي أي مدى كان نفعها ناضجا، ومتطورا، ويحيط بحياة الناس، وبأنشطتهم ويقدم لها الحلول دائما، مستندا إلى القرآن والسنة، ومستخدما العقل وأدوات علمية أساسها الفهم الواعي والمنطق السليم.

ولا شك أن قضية تطبيق الشريعة الإسلامية في حياة المسلمين، قضية هامة، وهي تثير على الفور المشكلات التي تعترض هذا التطبيق، وأهمها، مشكلة الاجتهاد لوضع حلول للمشكلات الجديدة التي أحاطت بحياة المسلمين إنها تحتاج إلى إحياء الاجتهاد من جديد وتنظيم أدواته من ناحية، كما أنها تحتاج إلى تطوير دراسات الفقه الإسلامي في مختلف كلياتنا ومعاهدنا العلمية التي تدرسه.

وستظل قضية تطوير دراسات الفقه الإسلامي على قمة التحديات التي تواجه تطبيق الشريعة الإسلامية والقانون الإسلامي في القرن المقبل.

وسنعالج في هذه الورقة السريعة في مبحثين قضية تطوير دراسات الفقه الإسلامي، وقضية تطبيق القانون الإسلامي في المجتمعات الإسلامية بعد أن نعرض لبعض الحقائق الرئيسية التي تحيط بالقانون الإسلامي في الوقت الراهن.

مبحث تمهيدي

الحقائق التي تحيط بالقانون الإسلامي في الوقت الحاضر

أولاً: الطابع الديني للقانون الإسلامي:

من المسلم به أن القانون الإسلامي هو قانون ذو طابع ديني. ويعني هذا أن الفقيه وولي الأمر وكل من له دور في تأسيس القانون الإسلامي إنما يسعى إلى إيجاد حكم الله سبحانه وتعالى في المشاكل والمسائل التي تعرض للناس في حياتهم وهو يسعى إلى بيان هذا الحكم من القرآن الكريم أولاً، فإذا لم يجد فمن السنة فإن لم يجد فعليه أن يجتهد برأيه مستندا إلى المصدرين الرئيسيين للشريعة. لذا فرغم أن الفقه الإسلامي هو صناعة بشرية لأن البشر هو الذي يقوم بتفسير أحكام الخالق، إلا أنه لابد أن يعتمد التفسير والاجتهاد على مصدري الشريعة الرئيسيين (الكتاب والسنة). ومن هنا جاء الطابع الديني للفقه والقانون الإسلامي.

ومع ذلك فرغم أن المجتهد في الإسلام إنما يسعى لإظهار حكم الله في المسائل المتصلة بأفعال العباد، إلا أن المجتهد أو الفقيه يقوم بعملية بشرية، عملية تفسير وتحليل النصوص ومن هنا اختلف اجتهاد عن اجتهاد، وتعدد آراء الفقهاء في المسألة الواحدة، واختلفوا في كثير من الفروع، وكذا في بعض الأصول.

لذا فلا يوجد تطابق بين الفقه والقانون الإسلامي والشريعة، وإنما يحاول المجتهد أن يصل إلى حكم الشرع في المسألة، وإن أصاب فله أجران وإن أخطأ فله أجر واحد. لذا لا يستطيع أحد الفقهاء أن يدعي أنه ينطق بحكم السماء بلا خلاف، ولا ينفي ذلك الطابع الديني للأحكام الشرعية، وأن الفقيه ليس حرا في أن يتبنى الرأي الذي يراه بنفسه على أساس المصلحة العامة أو على أساس المنطق، وإنما عليه أن يبني حكمه على مصدر من مصادر الشريعة وهذا ما يميز أحكام القانون الإسلامي عن أحكام القوانين الوضعية التي لا تهتم بالنقل، ولا تهتم بالوحي، وإنما تبني الأحكام على أسس أخرى،

قد تدخل في اعتبار الفقيه والمجتهد في الإسلام، ولكن لا يجوز له أن يعتمد عليها وحدها.

القانون الوضعي يهتم بما تسير عليه العلاقات في الواقع ويستخرج القواعد من تطبيق المجتمعات لها، أما القانون الإسلامي فيعتمد على مبادىء وقواعد أوصى بها الله سبحانه وتعالى نبيه. لذا فهي مقدسة وملزمة، لكن لأن البشر هم الذين يفهمونها ويفسرونها بعقولهم، فإن الأحكام العملية والاجتهادية في الفروع لا تحوز صفة القداسة، وبالتالي يمكن أن تتغير من عصر إلى عصر، ومن مكان إلى مكان، وتسير - خاصة في المعاملات - على علل وحكم واضحة إذا تغيرت تغير الحكم الشرعي، لذا قيل بأن الحكم يدور مع علة وجودا وعدما.

ولا شك أن هذه المسائل تحتاج إلى إيضاح أكثر نعرضه فيما يلي:

ثانياً: قواعد الشريعة بين التقديس والمرونة:

١ - لا أريد أن أدخل في الجدل الذي دار حول طبيعة القانون بشكل عام، وهل هو يمثل مبادىء عامة مجردة لا تختلف كثيرا من مجتمع إلى آخر، أي قواعد عامة سرمدية خالدة كما تقول مدرسة القانون الطبيعي، أم يمثل أحكاماً تولدها الأحداث وتحيط بالحياة الاجتماعية لضبطها في كل مجتمع، أم هي قواعد ومبادىء خالصة ترتبط ببعضها البعض وترتد جميعها إلى قاعدة أعلى كما تقول المدرسة القاعدية. لا أريد أن أدخل في هذا الجدل وأستطيع أن أقول أن جانبا كبيرا من هذه القواعد تمثل في الإسلام في الأوامر التي نزلت من السماء لتحكم الإنسان في علاقاته الاجتماعية بمختلف صورها. إن جانبا كبيرا من القانون الإسلامي يمثل قواعد آمره Jun Cognes أمرنا الله سبحانه وتعالى أن نتبعها سواء في قرآنه الكريم أو في سنة نبيه صلى الله عليه وسلم، لكن يبقى أن هذه الأوامر والنواهي أحيانا تبقى قواعد كلية، وتحتاج دائماً إلى عمليات تفسير. وهذا التفسير يقوم به البشر وتوسع في فهمه والبناء عليه فقهاء المسلمين في مختلف العصور، وفي مختلف الأزمنة والأماكن التي دخلها

الإسلام وعاشت على قواعده.

عندما يقول الولى فى كتابه الكريم (يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم القصاص في القتلى الحر بالحر والعبد بالعبد الأنثى بالأنثى..) فلابد أن يعرف معنى القصاص على وجه التحديد وهل يختلف من حالة إلى حالة، وكيف ينفذ القصاص، وما شروط تطبيق مثل هذا الحد، وما حكم القتل الخطأ أو الضرب الذي أفضى إلى موت إلى آخر هذه القضايا والقضايا الأخرى العديدة التي تثيرها معرفة المعنى الدقيق لهذا النص والأحكام التي يتضمنها. وعندما يقول القرآن الكريم (والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاءً بما كسبا..) رأى المفسرون صعوبات كبيرة فيما يتضمنه هذا الحكم أيضا، فمن السارق، وما الشروط التي يجب أن تتوافر فيه، وما السرقة، وكيف تكيف الجريمة في الإسلام. واستقر الفقهاء على وضع ضوابط شديدة لتطبيق هذا الحد، من حيث تقدير ما يعتبر سرقة أو من حيث إثبات الجريمة. أن جريمة السرقة لكي تقوم اشترط الفقهاء في المسروق أن يبلغ نصابا (أي مبلغا كافيا من المال) لابد أن يختلف باختلاف العصور، لكن الحد الشديد – قطع اليد – لا يمكن أن يطبق إذا كان المسروق مالاً يسيرا. وأن يكون في حرز مغلق حتى لا يحمل الشخص العادي وزر نتيجة إهمال من لا يحافظون على أموالهم، وهناك شروط أخرى من أهمها كذلك ألا تكون هناك شبهة ملكية للمال لدى من يسرق.

ولعل من أهم ضوابط تطبيق هذا الحد، هو ألا يحتاج السارق إلى المال المسروق ليسد رمقه.

٢ – وهكذا نجد أنه ولو أن الأحكام التي يتشكل منها القانون الإسلامي قد نزلت من السماء، إلا أنها لابد أن تفسر تفسيرا بشريا، لذا إذا اكتسبت صفة التقديس في أصولها المباشرة والكلية، إلا أننا لايمكن أن نضفي هذه الصفة على عمليات التفسير التي تعد عملا بشريا يختلف من مفسر إلى مفسر، ومن فقيه إلى آخر. وقد أدى ذلك إلى قيام حركة فقهيه

وعلمية كبيرة ميزت القانون الإسلامي. فلقد ولدت مدارس للفقه اختلفت فيما أتت به من أحكام وفقا لاختلاف ظروف الزمان والمكان والتركيب الفكري والديني للفقيه والمفسر.

وظل الفقه الإسلامي يحكم المشكلات التي تثور للناس في حياتهم التي تتطور من عام إلى عام. وكان من الطبيعي أن تختلف الحلول، ومن ثم كانت عندنا أكثر من مدرسة للفقه الإسلامي.

٣ - ومع ذلك ولكي يكون هذا الخلاف محكوما فقد اجتهد العلماء في وضع مقاييس يلتزم الفقيه بالرجوع إليها، ووضع الفقهاء علم أصول الفقه هذا العلم الذي يمكن أن نقول عنه أنه علم المصادر والأدلة للفقه الإسلامي، فهو يوضح المصادر التي يجب الرجوع إليها في معرفة المبادىء والقواعد، أو بالتعبير الاصطلاحي، الحكم الشرعي، كما يضع الوسائل التي تعين على استنباط الحكم الشرعي أو بمصطلح حديث الآليات التي توصل إلى هذا الحكم. ونجد الأصوليين يتوسعون في شرح معنى القياس وكيفية تطبيقه، والاستصحاب والاستحسان، وسد الذرائع والمصالح المرسلة. وأنتج الفقهاء والأصوليون معا ما يعرف اصطلاحا بالقواعد الفقهيه، كقاعدة لا ضرر ولا ضرار والمشقة تجلب التيسير، والضرر الأقل يتحمل لدفع الضرر الأكبر والأمور بمقاصدها ... الخ.

٤ - واستنبط الأصوليون كذلك نظرية المصالح، ومقاصد الشريعة، وهذه المقاصد هي بمثابة المرشد العام للفقيه وللأصولي أيضا، يجب أن يسترشد بها دائماً عند قيامه بالتفسير ومحاولاته وضع الحلول. إن من هذه المقاصد مثلا رفع الحرج وإصلاح الناس وتدعيم الخير في المجتمع والتيسير على الناس في أمور حياتهم. كما تستهدف الشريعة دائماً تحقيق العدالة، وبث مكارم الأخلاق للجماعة المسلمة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وهكذا ... وتراعي الشريعة في هذا الشأن أيضا إيجاد التنظيم الذي يساعد على رعاية الأسرة وضبط إيقاع المجتمع بها وجعلها الخلية الأولى للحياة الاجتماعية في الإسلام.

أن الدراسات حول مقاصد الشريعة تعد من أهم الدراسات التي يجب أن تؤخذ في الاعتبار ونحن نتحدث عن القانون الإسلامي. كما اجتهد علماء الأصول في بيان العلل والحكم التي بنيت عليها أحكام التشريع الإسلامي، وردها بشكل عام إلى تحقيق المصالح المادية والمعنوية للناس وتحقيق العدالة، وتطبيق الأخلاق، وإعطاء كل ذي حق حقه في المعاملات.. الخ. وتكونت نظرية كاملة للمصالح اعتبرت أن محل أحكام المعاملات أقيمت لتحقيق هذه المصالح.

إن الله سبحانه وتعالى شرع أحكامه لهداية الناس وتحقيق السلام والمحبة بينهم، وحثهم على التكافل الاجتماعي الذي يجعل المجتمع الإسلامي مجتمعا قويا بالترابط بين أشخاصه. على أن مصطلح القانون الإسلامي يكاد أن يكون مرادفا لمصطلح الفقه الإسلامي على الأقل في الأربعة قرون الهجرية الأولى. في هذه القرون كان الفقيه يدرس فقهه لتلاميذه، وإذا كان قد اشتهر اربعة مذاهب إلا أن هذ المذاهب الأربعة ليست المذاهب الوحيدة، فهناك أشخاص اجتهدوا وفسروا وعلموا، ولكنهم لم يشتهروا. لذا صح مثلا أن الليث بن سعد أفقه من الشافعي، ولكن تلامذته خذلوه، تلامذة الشافعي اعتنوا بمذهبه ودونوه، وأخرجوا مجلدات فيه، مثل الكتاب الهام "الأم" وكذلك فعل تلامذة أبي حنيفة ومالك وابن حنبل، لذا اشتهر الفقيه بما قدمه تلامذته، لكن هذه المدارس ليست هي وحدها مدارس الفقه الإسلامي.

ثالثاً: الفقه الإسلامي أحد المذاهب القانونية الكبرى في العالم:

وتكونت ثروة فقهيه معتبرة من هذا التجمع للأحكام ولكثرة المدارس التي ظهرت في القانون الإسلامي، وجعلت قواعد الأصول - كما قلت - الخلاف الفقهي محصورا ومحكوما بضرورة تسبيب وبناء الأحكام وبناء كل حكم شرعي على دليل، مما جعل الفقه الإسلامي من أنضج صور الاجتهاد والتشريع على مدى التاريخ الإنساني. ونستطيع أن نقول أن العالم المتقدم قد وعى هذه الحقيقة، واعتبر النظام الإسلامي أحد الأنظمة القانونية الأربعة التي لها صفة العالمية، والتي تفسر على أساسها المادج (٩) من النظام الأساسي لمحكمة العدل الدولية والتي قررت أن يمثل قضاة المحكمة هذه المذاهب

الرئيسية وهي المذهب اللاتيني والمذهب الأنجلو سكسوني والمذهب الجرماني والمذهب الإسلامي.

كان الناس يذهبون إلى الفقيه ويعرضون عليه المشكلة التي تعن لهم، فيعرضها على قواعد الشريعة. كان أبوبكر يسأل الناس من يعرف قرآنا أو حديثا في المسألة، فربما قام إليه نفر وقالوا بما سمعوا هذا بالطبع إذا لم يكن هو لا يعلم، فطبق النص على الحالة وأوجد الحكم الذي تخضع له المشكلة بناء على هذا الذي كان يسمى اجتهادا تماما كما كان يقوم البريتور في القانون الروماني بنفس الدور.

وكان للفقيه المسلم منذ بداية التاريخ الإسلامي موقفه من تغطية كل المشكلات التي تعرض عليه، ولم يرتكب إطلاقا جريمة إنكار العدالة، بل أن القاعدة الأصولية تقول أن لله حكما في كل فعل من أفعال العباد لا ينبغي أبدا أن نسكت عن إطلاقه ولو لم يكن الحل سهلا. وهذا معاذ بن جبل يرسله رسول الله إلى اليمن يسأله بما تقضي بين الناس فيقول بكتاب الله ويسأله فإن لم تجد فيقول فبسنة رسول الله، ويسأله فإن لم تجد فيقول اجتهد ورأي لا ألو (أي لا يقصر) وربما تحار فيما يقصده معاذ بالاجتهاد وبالرأي، ولكنني أؤكد أن الرأي غير الهوى، فالمقصود به هنا أقصى استخدام للعقل لاستنباط الحكم من المصدرين الأصليين وهما القرآن الكريم والسنة ونؤكد ذلك بقوله تعالى: (وإذا جاءهم أمر من الأمن أو الخوف أذاعوا به ولو ردوه إلى الله وإلى الرسول لعلمه الذين يستنبطونه منهم) وعملية الاستنباط هي عملية عقلية كبيرة، تعتمد على أحكام كلية يقوم المجتهد باستخراج علتها ومد الحكم المنصوص عليه إلى المسكوت عنه عند اتحاد العلة.

رابعاً: توقف الاجتهاد وزحف القوانين الوضعية:

– وطالما كان المسلمون يرجعون ما يحدث في حياتهم إلى القرآن وسنة وفقهاء يجتهدون ليظهروا لهم أحكام الله في المشكلات، فقد ظل الفقه الإسلامي حيا يحيط بالحياة ويضفي عليها الشرعية. ولكن عندما تعرضت الدولة الإسلامية للضعف، ثم للتفتت بعد ذلك، فإن عوامل كثيرة غيرت هذا

النظام وبدأ باب الاجتهاد يتوقف عمدا أو بغير عمد.

وتختلف الدول الإسلامية حول الوقت الذي توقف فيه الاجتهاد، ولكنها جميعا خضعت لهذه الظاهرة، بحسب سبق تعرضها للنفوذ الأجنبي أو للاستعمار. ربما تكون شبه القارة الهندية في البداية ثم مصر منذ بداية القرن الماضي وكذلك سوريا والعراق والمغرب العربي. وتختلف ربما ظروف السعودية واليمن عن معظم الدول العربية، ولكنها لم تستطع تجنب التأثير الأجنبي على قوانينها وتشريعاتها لسبب جوهري هو أنها أرادت أو لم ترد، انفتحت على الحياة حولها، واكتشف فيها النفط، فضلا عن أنها محط الرحلات المقدسة للحج والعمرة، حتى قبل انبعاث الإسلام فيها.

إن هناك حقيقة أساسية يجب ألا نغفلها وهي أن الحياة الاجتماعية والاقتصادية والفكرية لعالمنا المعاصر قد تعرضت لتغيرات أساسية عدلت بعمق ما كنا نعيش عليه، اقصد العالم كله من قبل. تغيرت المواد التي كانت تشكل طعام الإنسان وشرابه ومسكنه وثقافته، غشيها العلم الحديث وأخضعها له في الأهداف والوسائل في نفس الوقت. وألف علماء المسلمين في الجبر والفلك وعلوم الأرض إلى جانب تأليفهم في علوم الفقه والأصول والتاريخ.

نقول أن التأثيرات العلمانية قد وضحت تماما في كثير من أسلوب التناول لعلومنا وفي معظم الجامعات الحديثة بما فيها جامعة الأزهر نفسها. ومرت دراسات القانون في عالمنا بنفس المرحلة.

لقد تعرضت اقطارنا الإسلامية في معظمها لهزائم عسكرية ونفسية قاسية، وصار الإحساس بالدونية يسيطر علينا، وزاد من هذه المشكلات، بُعدنا عن دائرة العلوم الحديثة، في الوقت الذي كان الغرب يحرز فيها كل يوم انتصارات جديدة، خاصة انه استطاع أن يطبق منجزات العلوم في الحياة العلمية في كل مجال من مجالاتها، اكتشف ديارا جديدا في البداية وأضاف إلى الرقعة المعمورة، قارة بأكملها هي أهم قارات العالم اليوم وأكثرها تقدما،

أعني القارة الأمريكية، فضلا عن استراليا، والمناطق القطبية. واكتشف الفضاء، ولازالت الأبحاث في نطاقه تترى، ووصل الإنسان إلى القمر ونزل عليه واستطاعت علوم الكيمياء أن تغير وجه الحياة على هذه الأرض، ويقدم العلم جديدا كل يوم في مجال أبحاث الجينات والهندسة الوراثية والعلوم الطبية والزراعية.

والقانون ليس كتابا جامدا، وإنما هو إطار للحياة الاجتماعية، وكلما ظهر نشاط بشري جديد، وجدنا القانون يحيط به ويضع أسس تنظيمه، لكي يمنع الضرر الذي قد ينتج عنه من ناحية، ولكي يضع الأسس العامة للانتفاع به من ناحية أخرى، ليعمل على رعاية المصالح التي يتضمنها هذا النشاط الجديد. ولعل الأمثلة توضح ما نقول: تحدثنا عن حركة الكشوف الجغرافية والتي قادتها أوربا وتتابعت هذه الحركة، بحركة استعمار كبير لمعظم أجزاء العالم الذي لم يكن معروفا على الأقل لأوربا، وانهمكت إنجلترا وفرنسا وهولندا والبرتغال وبلجيكا وألمانيا مؤخرا في هذه الحركات.

وبدأ النزاع ينشب بشدة بين هذه الأقطار، وكادت أن تتقاتل. فاجتمع رؤساء وملوك هذه الدول في برلين عام ١٨٨٦ ووضعوا نظاما ينسق بين مصالحهم وعن طريق التنظيم القانوني الاتفاقي حلوا هذه المشكلة في اتفاقية حملت اسم اتفاقية برلين، وضعت التزامات على عاتق هذه الدول مؤداها أنه لا يكفي لاكتساب حيازة المستعمرات وضع أعلام عليها، وإنما لابد من أن تنشىء الدولة "إدارة فعلية" على الإقليم لكي تحوزه وتمنع الدول الأخرى من إعادة اكتشافه وحيازته واستعماره. لقد قام القانون الدولي هنا بعملية لتنسيق المصالح بين الدول المعنية بالأمر ليمنع النزاع الذي كان يؤدي إلى الاقتتال بينها وليبعد الفتيل الذي كان يخلق المشاكل.

وعند اختراع الطائرات وبداية تشغيلها تجاريا في بدايات هذا القرن، وجدت حاجة ماسة لتنظيم سير هذه الطائرات وهبوطها والعلاقات المالية والاقتصادية بين الدول المشغلة لهذه الطائرات والأقاليم المستقبلة لها إلى غير ذلك من الشؤون.

وكتب الفقيه الفرنسي "فوشيه" مقالا عام ١٩١٧ حدد فيه بدايات الأفكار التي يجب استدعاؤها لتنظيم هذا النشاط الجديد، واهتم بالمعارف القانونية مثل لمن تكون السيادة على الجو الذي تسير فيه الطائرة، هل للدولة التي تحلق فوقه أم للمجتمع الدولي، واستخدم أفكارا قانونية ومبادىء أخذها من القانون الروماني، حول سيادة ما يمكن حيازته، وإذا تعذرت الحيازة الفعلية لأن الجو لا يمكن حيازته، فالحيازة الرمزية كافية وهذه الحيازة نقدرها فيما يمكن أن تصل إليه طلقات المدافع المثبته على الأرض والتي تنطلق في اتجاه الفضاء. ونظمت الدول هذا النشاط الذي لم يعد جديدا بعدة اتفاقيات أهمها الآن اتفاقية شيكاغو والتي عقدت عام ١٩٤٦ كما أن الدول تدخل في اتفاقيات ثنائية لتنظيم رحلات الطيران بينها، بعد أن وضعت اتفاقية شيكاغو قواعد حق المرور البرىء في الجو، والحريات والحقوق الرئيسية التي يمكن أن تعترف الدول لبعضها البعض بها، من حيث التحليق والهبوط، والاستخدامات الأخرى.

ولعل من الضرورات التي يجب التنبه إليها، سرعة التغيرات التي تستلزمها التنظيمات الموضوعة لهذه الأنشطة الجديدة، إن التنظيم عندما يوضع، لا يلبث أن تثور ضرورات تغييره، لأن الإنسان لا حدود لتطلعاته، ولا حواجز لمدى ما يمكن أن يصل إليه عقله. ولازالت الأمثلة من القانون الدولي الأصعب في التغيير عادة. لقد استقرت فيه قاعدة الثلاثة أميال البحرية كحد أقصى لاتساع البحر الإقليمي لكل دولة. بنيت هذه القاعدة على أساس علمي هو أقصى ما يمكن أن تصل إليه طلقة مدفع مثبت على إقليم الدولة في الاتجاه نحو البحر. وزادت حدود طلقات المدافع، بل واخترع الإنسان صواريخ من الأرض للبحر ومن الأرض إلى الجو بمدى كبير جدا. فهل ترتبط الحيازة بالثلاثة أميال؟ لا يمكن ولا يمكن من ناحية أخرى أن تكون الحيازة مرتبطة بمدى المدافع. وبحثت الدول عن قواعد أخرى تبنى عليها سيادتها للبحر الإقليمي واتساعه، ودخلت المصالح الاقتصادية بعد اكتشاف الثروات الحية وغير الحية، وحاولت الدول أن تضع قواعد في مؤتمر الأمم المتحدة لقانون

البحار والذي أخرج اتفاقية تضمنت ذلك في عام ١٩٨٢.

لقد استخدمت الدول في البحث عن أساس للقواعد، ما ساد فيها من معلومات كان بعضها معروفا في القانون الروماني حيث كان فقهاؤه يستخدمون نفس أساليب الفقيه المسلم في ضرورة بناء حكمه أو فتواه على قاعدة من قواعد المصادر ومن بينها قواعد القياس والمصالح المرسلة.

فالمشكلة في تطور القانون الإسلامي، هي مشكلة عدم استخدام العقل، واستبدال الاجتهاد بفقه الشرح على المتون، والتوقف عن تناول المشكلات الجديدة التي أصبحت تطفو على الحياة بدلا من الوقوف عند المشكلات القديمة التي تغيرت بحكم تغير ظروف الزمان والمكان.

خامساً: عدم تقنين القانون الإسلامي:

على أن أحكام القانون الإسلامي توجد في بطون الكتب التي دونها الفقهاء المسلمون ابتداء من القرن الثاني للهجرة، والتي استمرت حتى القرن الرابع تكون مدارس اجتهادية بدأت بالإمام أبي حنيفة النعمان، ثم بالإمام مالك فالإمام الشافعي فالإمام أحمد بن حنبل.

هذا في جانب فقه السنة، ولكن الكتابات التي تلت أصحاب المذاهب اكتفت في الغالب بالتعليق عليها أو الشرح على متونها، دون أن تعمل اجتهادات حقيقية، واستمر الحال على ذلك حتى القرن الثالث عشر الهجري، التاسع عشر الميلادي، حيث بدأت اجتهادات ذات بال يقوم بها الفقهاء بشكل منفرد لمواجهة بعض قضايا العصر، بعد أن تخلف الفقه الإسلامي بشكل عام عن مهمة المواجهة، الأمر الذي أدى إلى حدوث فجوة بين الأحكام الاجتهادية وبين واقع الناس الذي يعيشونه.

في نفس الوقت بدأت الدول الإسلامية تظهر وحدها بعيدة عن دولة الخلافة الإسلامية، وتدخل في أغلبها تحت الهيمنة الاستعمارية الغربية، تلك الهيمنة التي لم تتخلص منها حتى الآن، وإن اختلف شكل الهيمنة وأساليب ممارستها.

وواكب هذه الهيمنة تعديلات رئيسية في القوانين التي تحكم الدول الإسلامية، فقد أخذت هذه الدول في أغلبها بالقوانين الغربية وتأثرت بأسلوب المعيشة فيها، وأخذت العديد من العادات والتقاليد التي تعيش عليها، رغم مخالفتها في الغالب للعادات والتقاليد الإسلامية.

وخلاصة الوضع القانوني الذي ساد في هذه الفترة الطويلة هو ما يلي:

- تراجع أحكام القانون الإسلامي عن حكم المجتمعات الإسلامية وتخلفه عن وضع حلول للوقائع المستجدة في حياة الناس.
- اللجوء إلى القوانين الغربية بشكل أساسي وتطبيقها في الدول الإسلامية.
- بقيت المسائل التي ترتبط ارتباطا وثيقا بالعقيدة وبالحياة الشخصية للمسلمين محكومة بالشريعة والفقه الإسلامي، وأعني بها مسائل الأحوال الشخصية.

ولصعوبة التطبيق بسبب ورود الأحكام دون تقنين في الكتب القديمة الذي قد يكون من الصعوبة فهمها على المحدثين، فقد لجأت العديد من الدول الإسلامية إلى إصدار تشريعات في العديد من مسائل الأحوال الشخصية، كما حدث في مصر إذ قننت أحكام المواريث والوقف والوصية وبعض مسائل الطلاق والفقه في قوانين صدرت في أوائل هذا القرن وآخره.

- إن هناك محاولات شخصية ورسمية عديدة لتقنين أحكام الشريعة قد تمت مثل مجلة الأحكام العدلية، ومرشد الحيران (قدري باشا) ومحاولات أخرى عديدة بذلت دون أن تؤدي ثمارها في القرن الماضي وأوائل القرن الحالي.

دخل العالم الإسلامي في القرن الذي نودعه في مرحلة جديدة من حياته تميزت بأحداث مثيرة تركت بصمات واضحة على تطورها التشريعي فمن ناحية تخلصت أغلب هذه الدول من الاستعمار على الأقل في شكله التقليدي، وان بقيت العديد من مناطق عالمنا الإسلامي تحت نفوذ الدول الكبرى المسيطرة على العالم حتى الآن.

كذلك بدأت معظم الدول الإسلامية تشهد صحوة كبرى تتمثل في المطالبة بالعودة إلى الفكر الإسلامي والتراث الإسلامي وإظهار روح التدين في الناس والتمسك بأحكام الشريعة فيما تفرضه من أسلوب للحياة.

وواكب ذلك إقامة العديد من المؤسسات التي اضطلعت بمهمة تقنين أحكام الفقه الإسلامي منها مجمع الفقه الإسلامي الذي أسسته الدول الإسلامية من خلال منظمة المؤتمر الإسلامي ومجمع البحوث الإسلامية والذي أسسه الأزهر وكذا مؤسسات أخرى للاجتهاد الجماعي في العديد من الدول العربية والإسلامية مثل الكويت والسعودية.

المبحث الأول

تطوير دراسات الفقه الإسلامي

اهتمت المؤسسات التعليمية – أو الجامعات بعبارة أخرى حين وجدت، وأدخلت دراسات القانون في برامجها، بما سطره علماء المذاهب الفقهية، إما في إطار مذهب واحد، كما هو الحال في معظم جامعاتنا الإسلامية أو بمقارنة مذهب بمذهب آخر.

وربما تطور الأمر أكثر بإجراء مقارنة بين الشريعة والقانون الوضعي المطبق في الدولة وهذا الاتجاه لازال في بدايته. والمشكلة هنا أن الدراسة تجري للقانون انفصالا عن دراسات الشريعة في الموضوع الواحد.

ويعيب المقارنة أن دراسات الشريعة تبنى على المذاهب، حيث أن أصحابها هم الذين كتبوها ربطا بواقع القرن الرابع الهجري، بينما الدراسات القانونية تبدو أكثر حداثه، لأنها تتناول ما يعيش عليه الناس الآن من أنظمة وقوانين.

ولا نجد كثيرا حتى الآن الفقيه الجرىء الذي يستخدم أحكام القياس وقواعد المصالح في رد المشاكل المستحدثة إلى هذا القواعد واستخراج أحكام تبنى عليها.

عندما لم يقف فقهاؤنا القدامى أبداً عن وضع الحلول، نجد علماء يعيشون معنا الآن يكثرون من تقرير أن هذه قواعد مستحدثه ليس لها أحكام في الكتاب أو السنة، أو أن هذا مسكوت عنه وهذا لأن تدريس الفقه يجري في واد، والحياة تجري في واد آخر.

لقد أدى هذا ببعض الفقهاء إلى القول بأن الإذاعة صوت من الجان وأن أزيز الطائرات رجس من عمل الشيطان، ولازال الفقهاء في بعض أقطارنا يستنكرون من يقول بدوران الأرض حول الشمس، أو بكروية الأرض، لأن عقولهم لا تتصور ذلك، أو لأن القدماء لم يتعرضوا له!! والأصل في كل جديد أنه حرام حتى يتضح أمره من أن الأقدمين كانوا يرفضون هذا النهج.

الانفصال عن الواقع:

إن أزمة الدراسات الفقهية الآن، وإن معظم من يكتبون فيها منفصلون عن الواقع ولا يبذلون جهدا كبيرا في الإحاطة به، ومعرفة التغييرات التي تدور في المجتمع ومحاولة عرضها على قواعد الشريعة لاستنباط الأحكام الشرعية بالقياس أو بالبناء عليها، مما أحدث ثغرة واسعة بين الفقه الإسلامي والواقع.

والنتيجة التي ترتبت على ذلك في معظم دولنا هو الاضطرار إلى استدعاء القوانين الأجنبية، بل ومتابعة تعديلاتها والاقتباس منها وتطبيقها، تفعل ذلك الحكومات حتى إذا كان لديها مجالس تشريعية، لهذا تفرض مشروعات القوانين إقتباسا منها في معظم الحالات، وتفعل ذلك الحكومات الإسلامية التي ليس لديها مجالس تشريعية وتصدر هذه القوانين من مجالس الوزراء مباشرة. وتراجع للأسف تطبيق القانون الإسلامي في حياتنا.

هل نذكر الحروب والأسلحة التي صارت أشد فتكا بالإنسان، وأسرع فى القضاء عليه، وهل نذكر التطوير المستمر لهذه الوسائل وما ينفق عليها من موارد وثروات الإنسان، هل نذكر مدى التدمير والتخريب الذي جلب على الإنسانية مرتين خلال جيل واحد أحزانا يعجز عنها الوصف، هل نذكر الثورة الصناعية والتغيرات الخطيرة التي أحدثتها في مختلف المجتمعات الإنسانية.

لقد كان هذا يحدث والعالم الإسلامي ينظر إليه بخوف دون أن يساهم فيه حتى حق علينا قول القائل إننا كنا نشعر أن الحياة تتغير دون أن تمتد أيدينا لتغير شيئاً.

لقد دخل البترول في ديارنا واستخرجه الغرب واستفاد به وسوقه، وكان نصيب أمتنا في البداية النذر اليسير منه، لكن لننظر كيف غير البترول حياتنا. لقد كان الكثير من دولنا الإسلامية، تعيش حياة البداوة، تعرف الجمال والخيل والحمير كأدوات للتنقل، والآن تستخدم أعلى نسب للسيارات والطائرات في تحركاتها. وكان الشعراء يصوغون حياتها، وعندما نزل القرآن، صاغ إطارا آخر للحياة في هذه الدول، ولكن الإعلام الوافد والذي يتكاثر علينا من كل

مكان الآن، أصبح يؤثر في عقولنا وأفئدتنا وربما يزيد تأثيره عن تأثير ما جاهد المسلمون في سبيل تأسيسه، وتطورت برامج التعليم في عالمنا كله، ولم يعد التعليم الديني هو التعليم الأساسي في بلادنا كما كان الوضع من قبل وإنما تراجعت أهميته أمام ضخامة ما يعطي للطالب من علوم أخرى، ربما يكون التطور السريع في كم المعلومات قد جعله متخلفا - ووجدت كليات في بلادنا على نمط ما هو معمول به في أوربا، وسادت تأثيرات العلمانية فيه في العديد من دولنا، وأعني بذلك إبعاد الدين عن تفسير العلوم أو حتى مجرد اقترابه منها، الدين ينظم علاقة بين الإنسان وخالقه لمن يعترف بالدين في الدول الأوربية الحديثة ورغم اختلاف الظروف بيننا وبين أوربا في النظرة للدين على وجه الخصوص بسبب الظروف التاريخية لأوربا والتي كانت الكنيسة فيها ضد العلوم وقاهرة للعلماء الأمر الذي أدى إلى استبعادها من دائرة العلم، إلا أن هذا لم يحدث في العالم الإسلامي، وكانت الدعوة إلى العلم والتعلم هو أحد أسس الدين الإسلامي، كما أن المساجد خصصت لتلقي العلوم المعروفة، أي العلوم الدينية وغير الدينية.

الوضع الحالي لتدريس الشريعة:

ولاشك أن الطريقة التي يدرس بها القانون الإسلامي في الوقت الحاضر في كليات الشريعة بل وفي كليات الحقوق كذلك دراسات متخلفة سواء في مناهج الدراسة أم في طريقة التدريس. ولا يمكن أن ننتج قانوناً إسلامياً متطوراً إلا إذا تطورنا.

وإذا أردنا أن نصف الحالة التي عليها التدريس فإنه يمكننا أن نقرر الحقائق الآتية.

أولاً: أن الدراسة على التقسيمات القديمة التي سار عليها الاقدمون، تقسم إلى عبادات ومعاملات. ويقوم عضو هيئة التدريس أي نوع من أنواع العبادات أو المعاملات فلا تخصص دقيق لكل عضو، والتقسيم الذي يتم للمعاملات يعتبر تقسيماً داخلياً للتوضيح وليس على أساس التخصص.

ثانيـاً: أن الدراسـة فى أغلبـهـا تتـبـع مـا كـتب حـتى القـرن الرابع الهـجري، والتطوير فيها غير محسوس.

ثالثاً: أن التأليف الجيد يكاد أن يكون معدوماً، وللأسف يعتبر إخراج الكتب الشـرعـية، من أسوأ أنواع الإخراج شكلاً ومـوضـوعـاً، الأشكال نجـد أستاذاً قد تعرض لمشكلة حديثة أو اجتهد لهضم مـا كتب وأعاد كتابته بشكل جيد.

رابعاً: أن بعض العلوم التي تدرس كعلم أصـول الفقه، تستعصي على الفهم حتى لدى طلاب الدراسـات العليا. ولا يبرز التفوق العلمي الذي شهد به الغـرب لـهـذا الـعلم الفـريد الـذي مكن من الاجـتـهـاد ومن تكوين هذه الثروة العلمية الفذة.

وعلى سبـيل المثال، لا تكاد ترسى أهمـية مـقـاصـد الشـريعـة أو نظرية المصالح أو حتى نظرية المصادر بشكل عام، في الدراسـات الأحوال في كليا الشريعة، إلا بقدر يسير.

وهذا يـجـعلنا نقـرر أن تطوير دراسـات الـفـقـه الإسـلامي في كليـاتنا ومعاهدنا، أصبح أمرا ضروريا.

خامسـاً: أن الدراسة تتم بأسلوب التلقين الكامل والشرح على مستوى الكتب القديمة، لازالت دراسـات الحواشي هي المسيطرة على تدريس الفقه والأصول.

والنتيجة مـعروفة، فـلا تكاد تكون فـقـيـهـا أو عـالما، ولا نكاد نرى فى الإنتاج العلمي حتى الذي يقدمه كبار العلماء للترقية إلى الدرجات الجامعية المختلفة، أي جديد.

سادساً: وبعد أن أدخلت دراسات القانون كليات الشريعة، ظل كل فرع يدرس على حـده، مع أن الهـدف كـان هو دمج الدراسـة ووضـع المشكلات العـمليـة التي تتـضـمـنهـا الدراسـات القـانونيـة أمـام الطلاب الذين أصبحوا بالفعل أعضـاء هيئة تدريس ليتمكنوا من النظر فيها جيداً

بعين البصير ويردونها إلى كتاب الله وسنة رسوله حتى يعرف الوجه الشرعي لها، وحتى يقتبس ما يمكن اقتباسه من هذه الدراسات في إطار فقه المصالح المرسلة والسياسة الشرعية.

سابعاً: لم تبلغ الدراسات العليا غايتها في تخريج علماء متخصصين متعمقين في الدراسات التي يتناولونها، في الأعم الأغلب من الحالات، ونجد أن الدراسات تحتوي على أقوال بتصرف من الكتب الفقهية القديمة، ربما لا تكون مفهومة حتى من كاتبها. كما أن الموضوعات تتكرر كثيراً، وقلما تجد الموضوعات الجديدة والتحديات التي تفرض نفسها على العالم الإسلامي الآن مطروحة للبحث.

والواقع أن أسلوب التدريس الحالي قد فشل، لأن الدراسات الحالية تدرس ما كتب في القرن الرابع الهجري وما قبله، وقليلا ما تتعرض لقضايا فقهية جديدة، ومن ثم فقد الفقه الإسلامي عصاه السحرية التي كان يستخدمها وهي رد القضايا والمشكلات إلى أحكام القرآن الكريم والسنة، ثم يستخرج الحكم إما عن طريق القياس ووسائل الاجتهاد الأخرى المعروفة. أهمل اتباع (المقياس الأصولي) والذى من شأنه أن يولد أحكاما للقضايا والمشكلات الجديدة بشكل الى وسهل.

وبعبارة أخرى لا مناص من تطوير دراسات الفقه الإسلامي بحيث تكون دراسات مقارنة من ناحية، ومتضمنة الدراسات القانونية في نفس أبواب الفقه واسباغ الحكم الشرعي والمشقة تجلب التيسير عليها عن طريق الاجتهاد.

كذلك من الضروري أن نبذل الجهد بتحويل الفتاوي والآراء الفقهية إلى نصوص محكمة تدمج في الدراسات القائمة ليتعلمها الطالب، ولابد من إحياء على أصول الفقه ودراسته دراسة جديدة توضح أهداف الشريعة ومقاصدها وحكم وعلل الأحكام ومصادر الشريعة لكي يسهل الوصول إلى أحكام شرعية للمشكلات الجديدة، ولكي نوجد ما يمكن أن نسميه التواصل الفقهي بحيث نتجاوز المرحلة التي وقف الاجتهاد فيها عن تتبع التغيرات.

لا يمكن أن نطالب الطالب أو حتى القاضي الحديث أو المحكم أن يستخرج أحكاما منضبطة من بطون كتب الفقه التي تتناول موضوعات كثيرة ربما دون تحديد كاف، ودون بلورة منضبطة. لذا فإن التقنين ضروري، والتطوير أكثر ضرورة.

سنحتاج بلا شك إلى مراجعة علمية شاملة لدراسات النظم الإسلامية والقوانين التي تدخل في دائرة القانون العام على وجه الخصوص. إن نظام الشورى وأسلوب تطبيقه قضية هامة تحتاج إلى تدخل تشريعي عام نتبادل فيه الآراء مع كل المجتمعات الإسلامية لمعرفة الآليات المناسبة لتطبيقه، كما ان نظاما مثل نظام الحسبة يجب أن يبعث على ضوء مستجدات العصر، ونفس الوضع بالنسبة لنظام الوقف.

القوانين المالية وقانون الضرائب وإيتاء الزكاة أيضاً مسائل تحتاج إلى بحثها في العصر الحديث ووضع آليات تطبيقها.

كما أن القانون الدولي الإسلامي يحتاج إلى إعادة نظر على أن يعاد تأسيسه على ضوء التغيرات العميقة التي حدثت في المجتمع الدولي وجعلت كل دولة مرتبطة باتفاقات وعهود، وبالتالي فإن نظريات دار الإسلام، ودار الحرب ونظرية الجهاد تحتاج إلى إعادة دراسة على ضوء متطلبات العصر.

المبحث الثاني

تطبيق القانون الإسلامي

من المشكلات التي تواجه المجتعات الإسلامية في كل مكان مشكلة تطبيق القانون الإسلامي في الحياة العملية. أن الكثير من المسائل مرتبطة بهذه المشكلة ففئة ممن تمارس الإرهاب تعمل تحت هذه الراية وتقول أن الإسلام يتضمن حلا لكل مشكلات المجتعات الإسلامية، وهذا صحيح. ولكن هناك العديد من التحديات التي يجب أن تحسم حتى نوضح هذا البعد الهام للحياة الإسلامية.

إن القرآن الكريم يدعونا إلى قيام (أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر) (آل عمران ١٠٤) كما أن فيه أيضاً من النصوص ما يعلن بني إسرائيل على لسان داود وعيسى بن مريم لأنهم (كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه) (المائدة ٧٩). بل وهناك من يستعين بآيات أخرى لتقرير كفر وفسق وظلم من لا يحكم بما أنزل الله (سورة المائدة: ٤٤، ٤٥، ٤٧).

ولا شك أن الحكم بما أنزل الله هو جوهر الدين الإسلامي ولا يقبل من أحد مهما كان أن يحكم في الناس بغير ما أنزل الله سبحانه وتعالى جل شأنه.

وقد وردت العديد من الأحكام التي تلزمنا بأمور في حياتنا وتنهانا أن نأتي أموراً أخرى. ويربط علماء الأصول بين الأمر والنهي وما يفيد في المصدر أن الإلزام أو النهي حتم.

وبصرف النظر عن هذه المسألة، فإن المنطق السليم يوحي بأن نقبل ونتفذ ما قرره القرآن الكريم طالما اتضح الأمر المأمور به أو المنهي عنه، بصرف النظر عن تقسيم الحكم إلى واجب وحرام ومكروه ومندوب. ونحن لا نريد أن نخوض في هذ الأمور الآن.

إنما الصعوبة فيما إذا كان النص لا يفهم منه الأمر أو النهي أو الحكم

الشرعي بشكل عام. أن علماء المسلمين هنا يلتزمون بالتفسير وبمحاولة منهم ما استشكل من أمر ويجب على جماهير المسلمين أو يطيعوهم عملا بقوله تعالى: (وإذا جاءهم أمر من الأمن أو الخوف أذاعوا به ولو ردوه إلى الله وإلى الرسول لعلمه الذين يستنبطونه منهم) (النساء) وقوله تعالى: (وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم). وقوله تعالى: (ما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوه)، (قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله...).

وهذا يجعلني أقوق إن من القضايا الملحة التي يجب التركيز عليها فى المجتمعات المعاصرة، قضية تطبيق الشريعة الإسلامية فهي من ناحية تجسد آمال الأمة الإسلامية في العودة إلى الذات، إلى الجذور، إلى القوة الدافعة للعمل الجيد وفوق كل هذا إلى طاعة الله سبحانه وتعالى.

كذلك لابد أن نشير إلى وجود رفض لتطبيق القانون الإسلامي في المجتعات الإسلامية نفسها من قبل العديد من الجماعات والأحزاب. وتكثر الدعاوي المبررة لهذا الغرض. فهناك من يرى أننا أصبحنا نعيش في مجتمعات سياسية أساس الارتباط بين الشعب فيها هو علاقة المواطنة، وليس الرابط الديني. ومن ناحية أخرى، فهناك من يقول أن المطالبة بتطبيق الشريعة، سيدفع غير المسلمين من أتباع الأديان الأخرى إلى المطالبة بتطبيق شرائعهم مما يثير المشكلات أكثر في المجتمعات الإسلامية.

وهناك من يرى أن القانون الإسلامي، قانون متخلف وجد ليحكم بيئة ومجموعة من الناس منذ ألف وخمسمائة عام وبالتالي فهو لا يعالج مشكلات العصر.

والواقع أن المشكلة ستواجهنا بشكل أكثر حدة في القرن المقبل وبالتالي ينبغي الاتفاق على كلمة سواء حولها حتى ننقذ المجتمعات الإسلامية من إحدى المشكلات الحادة التي تثير فيها القلق والمتاعب.

ولي حول هذه المسألة الملاحظات الآتية:

أولاً: إن الذي يتعمق في دراسة القانون الإسلامي والقوانين الغربية

سيجد أن المبادىء الرئيسية واحدة في كل هذه القوانين. أن قاعدة مثل قاعدة العقد شريعة المتعاقدين واحترام الكلمة المعطاة لا يمكن أن يخلو منها نظام قانوني حديث أو قديم، والشريعة الإسلامية تؤكد على القاعدة في كل مصادرها. كذلك نجد قاعدة مثل احترام حق الإنسان في الحياة والمعاقبة الشديدة على من يقترب منها، قاعدة مؤكدة في كل القوانين والشرائع القديمة والحديثة منها.

وليس أدل على ذلك من قوله تعالى فى سورة المائدة والتي روت قصة هابيل وقابيل وكيف طوعت نفس أحدهما قتل الآخر (من أجل ذلك كتبنا على بنى إسرائيل أنه من قتل نفساً بغير نفس أو فساد في الأرض، فكأنما قتل الناس جميعاً ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعاً). ويمكن أن نقول نفس الكلام على معظم الحقوق السياسية والمدنية للإنسان كحقه في التعبير، وحرية الرأي وحرية العقيدة بشكل عام.

ونجد الإسلام في هذه القضية موحداً للفكر الإنساني مبيناً أن أصل الشرائع الدينية واحد. (شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا. والذي أوصينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن اقيموا الدين ولا تفرقوا فيه). ويطبق علماء الأصول هذه القاعدة في تأكيدهم على أن الشرع من قبلنا هو شرع لنا.

إن وحدة البناء الرئيسي بين الأنظمة القانونية الرئيسية في العالم هو الذي جعل محكمة العدل الدولية تعتبر المبادىء العامة للقانون التي أقرتها الأمم المتحدة مصدراً من مصادر القانون الدولي، وهي التي جعلها تعتبر الأنظمة والقوانين اللاتينية، والانجلوسكسونية، والجرمانية، والشريعة الإسلامية هي التي تشكل هذه المبادىء.

وهذا يجعلنا عندما نطبق الشريعة، لا نخشى من مطالبات أصحاب الأديان الأخرى بتطبيق مبادىء وأصول شريعتهم لأنها في النهاية لن تختلف عل الأقل في الأصول عن أحكام الشريعة الإسلامية، كما يجعلنا نرد بسهولة على دعاوي التخلف وعدم ملائمة الأحكام للعصر الحاضر، لأن الأسس

والأصول والمبادىء والقواعد التي تحكم الفكر القانوني لم تختلف من زمان إلى زمان أو من مكان إلى مكان. الخلاف في التفاصيل وارد، بل الخلاف في بعض الأصول وارد، لكن لن نجد الخلاف العميق والمستحكم بين شريعة وشريعة، بل نستطيع أن نؤكد أن كل القوانين التي أقرتها الأمم المتحدة مأخوذة من شريعة إلاهية.

ثانياً: أنه من الضروري أن نسلم بأنه خارج الأصول العامة والقواعد الكلية ومبادىء العدالة والمساواة واحترام الكلمة المعطاة، سنجد خلافات. وهنا لابد من الرجوع إلى روح المجتمعات والقيم التي تعيش عليها. وهنا سنجد أن القانون الإسلامي، تعلو فيه الروح الإيمانية،وروح تربية الفرد المسلم على الفضائل التي نزلت بها كل الشرائع واضحة. ولقد طالب الكثير من العلماء الذين درسوا الشريعة بضرورة تطعيم الروح المادية، واللاأخلاقية أحيانا التي تفشت في كثير من القوانين والمجتمعات الحديثة بقواعد الشريعة الإسلامية أذكر منهم الفقيه الأمريكي Jessup، والفقيه الإنجليزي مثل Fridmann .

فللأسف تشهد المجتمعات الغربية موجات من التخلف والسقوط نتيجة الإفراط في فهم الحرية وجدت أثرها فيما يقدم من وثائق في قضايا السكان والنظم التي تسود في الأسرة، وهذه الموجات انعكست في قوانين أباحت الشذوذ الجنسي مثلاً، واعتبرت الزواج بين الرجل والرجل والمرأة والمرأة جائزاً، وبالطبع لا تحرم قوانين الحريات الجديدة، شرب الخمر أو الممارسات الجنسية غير المنضبطة.

ولا شك أن هناك نظريات لحماية الأعراض وضبط الأجناس في الشريعة الإسلامية تختلف عن المجتمعات الأخرى، وهي تقوم على نصوص قطعية في مصدري الشريعة الرئيسيين (القرآن والسنة) وبالتالي فلابد من احترام هذه التنظيمات التي فرضت لحماية الإنسان من غرائزه ومن هواه ومن شيطانه. إن التجاوز في هذه الأمور ينذر بالسقوط والانحطاط والغرب يريد منا أن نتبعه في هذا المسلك، وقد حذرنا الله سبحانه وتعالى من أن نسير وراء هؤلاء الناس سواء أكانوا بيننا أو بعيداً عنا، حيث يقول: (ويريد الذين يتبعون الشهوات أن

تميلوا ميلا عظيماً).

أن الأخـلاق هي إحدى الدعـائم الرئيـسيـة التي يقـوم عليـهـا القـانون الإسلامي ونجد هذا واضحاً في القانون الذي يحكم الأسرة ويضبط إيقاعها، ويحافظ على وحدتها، وهو أمر يفتقده الغرب كثيراً ويحتاج إليه بشدة وينبغي الا نفرط فيه أبداً. ويكمله القانون يحمي الأنساب والأعراض.

لكن هذا يجعلنا نسارع بتنظيم الاجتهاد الجماعي لعلماء المسلمين لكي يواكب التشريع الإسلامي مشكلات العصر، وأنا أتحدث هنا عن التفاصيل، عن المسائل الفرعية، لأن الأصول والقواعد الكلية لا تتطور، ولا ينبغي أن تتطور لأنها تمثل الإطار الثابت الذي يحمي المجتمعات من السقوط في الهاوية.

كيف يتم التطوير:

يجب أن يتم التطوير من خلال المتخصصين في القانون والفقه الإسلامي معا، وبتعديل الأحكام في الحلول القديمة التي وضعت لغير مجتمعاتنا ولا تمثل قاعدة آمرة واضحة، وبعبارة أخرى سنجد حلولا عديدة لقضية التطوير:

بأن يتم عن طريق متخصصين يمثلون مختلف المذاهب. كما يحدث الآن عند إعداد موسوعة الفقه الإسلامي في مصر أو في الكويت. ويجب أن يتم التطوير عن طرق لجان تضم رجال الشريعة ورجال القانون الوضعي ليتمكنوا من طرح المشكلات الجديدة وربما فنيين إذا كانت اللجنة لا تعلم كل الحقائق حول المشكلات المعروضة.

والإنصاف يدعوني لذكر كيف نظم المرحوم الشيخ جاد الحق علي جاد الحق شيخ الأزهر السابق قضية الاجتهاد في المشكلات الحديثة.

لقد شكل مثلا لجنة اقتصادية، لبحث المشكلات ذات الطابع الاقتصادي المعروضة على لجنة الفقه المنبثقة من مجمع البحوث حيث كنت أحد الأعضاء فيها. وقد وضع مبدأ رئيسيا امامنا هو القول الفقهي بأن الحكم على الشيء فرع عن تصوره وهذا يعني أنه لابد من الإحاطة الجيدة بحقائق الأشياء المعروضة قبل أن يطرح الحكم الشرعي عليه. لذا استدعى رئيس مجلس إدارة

البنك المسئول عن إصدار شهادات الاستثمار في مصر، وأساتذة الاقتصاد الذين يدرسون هذه المشاكل من زاوية الاقتصاد الوضعي أو علم الاقتصاد بشكل عام، فضلا عن رجال القانون - وكانوا ثلاثة في هذه اللجنة. قدمت مذكرات عديدة تشرح المشكلة، وتطرح التصورات المنطقية لتنظيمها والأحكام القانونية التي وضعت لها، وخلصت اللجنة إلى استنباط ما يمكن أن ينظم شهادات الاستثمار من ضوابط في مصر (وفعل نفس الشيء بالنسبة للتأمين) ومعاملات البنوك، ولكنه لم يكمل هذا العمل الجليل بسبب ظروف عديدة كان آخرها وفاته رحمة الله عليه.

إنني لازلت أذكر كيف نظم قضية الاجتهاد والحمدلله أنه أخرج سفرا في ست مجلدات تتناول ما أصدره من فتاوى.

لقد كانت قضية استيعاب المشكلة بكل حقائقها هي مشكلته الأولى لذا ففي بحث اللجنة لقضية التأمين، استعانت بكل الخبرات العملية من الأشخاص، ووضعت اللجنة أمامها كافة الوثائق التي تصدر من مختلف شركات التأمين، وكل ما لبث عنه في القانون أو في الفقه الإسلامي.

توحيد أعمال الهيئات المعنية بالتقنين :

عندتطوير قانون الأزهر عام ١٩٦١ نص على إنشاء مجمع البحوث الإسلامية وهو هيئة بديلة عن هيئة كبار العلماء التي كانت موجودة من قبل وقد نص على تشكيل هذا المجمع من كبار العلماء الذين يختارون من مصر ومن خارج مصر بالانتخاب. ونص على اختصاصات واضحة له أكبر هيئة شرعية تقوم بالاجتهاد فضلا عن وضع الأحكام للمسائل التي تستجد في حياة الناس. بل أن المجمع قد ضم أعضاء فنيين ليساعدوا العلماء على إجراء البحوث وإصدار الفتاوي الشرعية. كما أن أعضاء المجمع يمثلون مختلف المذاهب الشرعية السنية. كما يوجد بالمجمع مجموعة من اللجان الهامة كلجنة الفقه ولجنة التعريف بالإسلام ولجنة السنة ... الخ ويرأسه شيخ الأزهر.

وقد قام المجمع بجهود طيبة بالفعل لبيان الأحكام الشرعية للمشاكل التي

عرضت عليه، وأن تميزت آراؤه بالطابع المحافظ مما جعل الآراء التي تصدر عنه لا تخرج عن دائرة المذاهب الفقهية الأربعة دون إضافات تذكر، وكثيرا ما توقف عن إبداء الرأي في المسائل الجديدة حتى تتم دراسته جيدا من قبل الفنيين والعلماء. وقد تصدى المجلس في فترة إقامة الشيخ جاد الحق رضى الله عنه لكثير من المسائل التي كادت الحكومة تنزلق إلى متاهات تخالف الشريعة فيها، على نحو ما رأينا في مؤتمر السكان الذي عقد في القاهرة في عام ١٩٩٥م وكان يستهدف إدخال مفاهيم غربية على المجتمع المصري، بل وكثير من المجتمعات الغربية فيما يتصل بمدلول الأسرة والرغبة في إباحة أي نوع من الزواج بين شخصين ليس أحدهما بالضرورة امرأة. وكان بيان المجمع في هذا الصدد يحمل ردا واضحا على هذه المفاهيم، مطالب الحكومة والمسئولين التصدي لكل هذه المحاولات وعدم الاستجابة لهذه الدعوات الشاذة، كذلك تصدى المجمع لمحاولات تشويه الإسلام وأخلاقه فيما يتصل بالختان وأنهى الجدل الواسع الطويل في هذا الشأن بتقرير أن الختان واجب على الرجال ومكرمة للمرأة، بشرط أن تتبع الإجراءات الصحية التي تباعد بينه وبين الوسائل والإجراءات العنيفة التي كان يتم بها خاصة بالنسبة للإناث، وإن كانت الحكومة المصرية لم تستجيب لنداء الرأي وأصدرت قانونا بمنع ختان الإناث طعن فيه بعدم الدستورية والأمر معروض على المحكمة الدستورية الآن.

ولا شك أن من أهم القضايا التي تصدى لها المجمع، وهي مسألة تشغل الناس والرأي العام في مصر، مسألة معاملات البنوك، وكان المجمع محافظا في تناوله لها، فأجمع على تحريم الفائدة بكافة صورها، وكان الإمام الأكبر جاد الحق يتمسك بهذا الرأي سواء في فتاويه الشرعية المنفردة أو أمام المجمع. وجاء شيخ الأزهر الحالي، فأصدر كتابا خالف فيه رأي المجمع وانتهى فيه إلى أن الفوائد البنكية حلال وكذا كافة معاملات البنوك.

وهو ينطلق من مبدأ غريب هو أن ما تدفعه البنوك للأشخاص ربح، والأولى في زمن فساد الذمم أن يحدد سلفا، وأن العلم الحديث والدراسات

الجادة التي تجرى لتحديد الربح سلفا تحسم القضية، وهو لا يسمي العائد فائدته.

والواقع أن الإمام الحالي لم يستطع أن يحمل المجمع على السير معه ولازال المجمع عند رأيه، وإن شاركه في هذا الرأي العديد من الباحثين والكتاب الذين تصدوا لهذه المعاملات. وتوجد هيئات للاجتهاد في بعض الدول مثل السعودية والكويت تقوم بجهود كبيرة لتوضح أحكام الشريعة للناس ولكن مما يؤسف له أن آفة المجتمعات العربية في الفرقة تسيطر عليها، ولا ننظر إلى غيرها إلا فيما ندر من الحالات.

إن الشريعة الإسلامية فصلت بواسطة مذاهب مهما كان الخلاف بينها، إلا أنه نحصر في التفاصيل، وأبقي على وحدة الأمة الإسلامية في الكليات، ورغم صعوبة المواصلات والاتصالات حين ان كتب هؤلاء العلماء فقههم، إلا أن اللقاءات بينهم كانت مستمرة، والبحث في المشكلات ووضع الحلول كثيرا ما كان يتم التشاور فيه بينهم. وكان الفقه لكل المسلمين جميعا وليس لبعضهم، ولم يكن الإقليم الذي يوجد فيه الفقيه، ما فعله على الإطلاق في أن يضع حلولا شاملة للمجتمع الإسلامي بل كان الانتقال من إقليم إلى إقليم سهلا ميسرا للفقيه في كل أنحاء العالم الإسلامي.

ولا شك أن أهم هيئة يجب تقويمها ودعمها من كافة الدول الإسلامية هو مجمع الفقه الإسلامي بمكة، لسبب رئيسي، هو أنه هيئة من كل الدول الإسلامية، تتبع منظمة المؤتمر الإسلامي ومقرها مدينة جدة.

ومجمع البحوث الإسلامية بالأزهر يمثل مصر فيه، كما أن المجلس به علماء يمثلون الدول الإسلامية الأخرى. ويتناول بالبحث والاجتهاد العديد من القضايا المستحدثة في العالم الإسلامي.

إنني أتطلع إلى توحيد هذه الهيئات وأن يكون ما هو موجود منها، روافد للبحث والدراسة للمجمع على أن يصدر الرأي النهائي من قبل مجمع الفقه الإسلامي. إنه طريق هام لتوحيد الحلول ولتنظيم الاجتهاد في الشريعة

الإسلامية. ولكن الأسف يدعوني إلى القول أن الذين يعرفون مجمع الفقه الإسلامي قليلون، والذين يدرسون أعماله أقل، والذين يعملون بما يقدمه لا يوجدون.

إنني ادعو مجمع الفقه الإسلامي إلى إحياء دوره في القرن المقبل لأن المسألة الآن ليست طرفا، وإنما صارت من ألزم الأمور. وهذا الدور في تصوري ينبغي أن يقوم على الأسس الآتية:

١ - توسيع دائرة العضوية فيه، ودائرة العلماء الذين يبحثون مختلف القضايا، بحيث يمثلون كافة المذاهب التقليدية وغير التقليدية وبحيث يكونون من كل أنحاء العالم الإسلامي، بل والأقليات المسلمة التي توجد في أقطار العالم الأخرى مثل الولايات المتحدة الأمريكية، والدول الآسيوية التي بها أقليات مثل الصين واليابان وأوربا. أن الأقليات الإسلامية التي تتواجد في هذه المناطق، تعاني من مشاكل خاصة بها، وتعيش ظروفا تختلف عن تلك التي تعيش فيها أقطار العالم الإسلامي، لذلك فهي تحتاج إلى من يعاونها، ويجتهد في وضع الحلول للمشاكل التي تتعرض لها.

٢ - تشكيل اللجان الفقهية التي تبحث مختلف المشاكل من علماء الشريعة والقانون وغيرهم من الفنيين، ونطالب اللجان بوضع التصورات والحلول التي تراها مناسبة، وتعرض الآراء على هيئة العلماء مجتمعين لأخذ القرار فيها.

ويمكن أن تشكل اللجان على أساس موضوعي بحسب تخصصات الأشخاص في الموضوعات المختلفة للشريعة.

وأتصور أن تكون هناك لجنة أو أكثر للعبادات، وعدة لجان للمعاملات المدنية، وعدة لجان لقضايا الحدود، ولجنة أو أكثر لقضايا العلاقات الدولية، وهكذا.

٣ - يجب أن تحول القرارات التي تصدر من المجمع إلى لجنة خاصة

لتقنينها ووضعها في شكل واحد حتى يسهل تطبيقها.

٣ - يجب أن تحول القرارات التي تصدر من المجمع إلى لجنة خاصة لتقنينها ووضعها في شكل مواد حتى يسهل تطبيقها.

٤ - ترسل هذه الأعمال لكل الدول والمجتمعات الإسلامية في مناطق الأقليات لتطبقها.

ويجب أن يعمل المجمع على أن تكون هذه الأعمال لدى المجالس والهيئات التشريعية في كل الدول الإسلامية.

ولكي تكفل الفاعلية لهذه الأعمال، فإن اللجان الفقهية التي يشكلها المجلس يجب أن تتابع التطبيق، وأن توالي طلب ما فعلت كل دولة في تطبيق قرارات المجمع. إن منظمة العمل الدولية تشكل لجانا فنية تتعامل مع الدول الأعضاء بشكل جيد، ونجحت بالفعل في أن تكفل لقرارات وتوصيات واتفاقات المنظمة التطبيق في معظم الدول.

بهذا وحده نستطيع أن نكفل اجتهادا جماعيا وعند ذلك نجد تطبيق القانون الإسلامي أمرا سهلا.

الخلاصة

نخلص مما سبق إلى أن القانون الإسلامي يتراجع حكمة في الوقت الحاضر في مختلف الدول الإسلامية للعديد من الأسباب أبرزها عدم استمرار الاجتهاد لوضع الأحكام للقضايا الجديدة التي تحيط بالعالم الإسلامي واختلاف الظروف التي يحياها العالم بما في ذلك العالم الإسلامي اختلافاً بيناً عن ذي قبل.

وتبرز قضايا تطوير القانون الإسلامي وضرورة تقنينه وفتح باب الاجتهاد الجماعي فيه كأبرز قضايا يجب التصدي لها من قبل كل العالم الإسلامي في المرحلة المقبلة.

وتتصل بهذه القضية اتصالا وثيقاً وربما تسبقها، قضية تطوير الدراسات الشرعية في كليات الشريعة والقانون بحيث تحيط بالواقع وتصنع الحلول المناسبة له، ونستعين بالقوانين الوضعية في سبيل توضيح المشكلات القائمة والحلول التي تواترت الدول على وضعها لها ثم عرضها على مصادر الشريعة الإسلامية لوضع الحكم الشرعي لها.

إن الاجتهاد الجديد الذي نرجو أن يتحقق يجب أن يحيي أصول الفقه والدراسات المقارنة، وأن يشحذ علماء المسلمين همتهم ويبذلون اكبر جهد لتقنين وتطوير القانون الإسلامي وفقاً للظروف الجديدة.

ويتطلب ذلك استخدام اليات جديدة لنظم الاجتهاد من خلال المجامع الفقهية، ومشاركة كل علماء المسلمين فيها إلى جانب تفعيل دور مجمع الفقه الإسلامي التابع لمنظمة المؤتمر الإسلامي لتقوم بدور أكبر في حسم المشكلات التي تعرض لها المسلمون في كل مكان ووضع الحلول لها.

والله الموفق دائماً إلى ما يحبه ويرضاه

أهم مراجع البحث للمؤلف:

١ – الإمام الشافعي، بحث قدم إلى مؤتمر عقد عن الإمام في الجامعة الإسلامية العالمية بماليزيا عام ١٩٩١.

٢ – المساعدات الاقتصادية بين الدول الإسلامية، مجلة المعاملات الإسلامية العدد الأول ص٢ وما بعدها، أصدرها مركز صالح كامل للاقتصاد الإسلامي بجامعة الأزهر رمضان ١٤١٢هـ.

٣ – فلسفة التشريع الإسلامي والحكم التي يقوم عليها، مجلة الشريعة والقانون العدد الرابع ١٩٨٤م.

٤ – دراسات في القانون الدولي الاقتصادي، دار الكتاب الجامعي ١٩٩٦م.

٥ – الشيخ إبراهيم الشهاوي، الشهاوي في تاريخ التشريع كلية الشريعة والقانون، القاهرة ١٩٨١.

٦ – الشيخ أنيس عبادة، تاريخ التشريع الإسلامي، القاهرة ١٩٧٦.

٧ – عبدالكريم زيدان، المدخل لدراسة التشريع الإسلامي، القاهرة ١٩٧٦.

٨ – الطاهر بن عاشور، مقاصد الشريعة الإسلامية، تونس ١٩٨٩.

٩ – الشيخ محمد أبوزهرة، أصول الفقه، القاهرة ١٩٦٢.

١٠ – الشيخ عبدالوهاب خلاف، علم أصول الفقه، القاهرة ١٩٥٨.

١١ – على جمعة، المدخل، المعهد العالمي للفقه الإسلامي، ١٩٨١.

تقرير عن التحديات القانونية التي تواجه العالم الإسلامي على مشارف القرن الحادي والعشرين

١ – من المقرر أن الإسلام عقيدة ينبثق عنها نظام، وأن العقيدة الإسلامية رؤية كلية للإنسان والكون والحياة تتحكم في سلوك ومفاهيم المسلمين وبالتالي تتحكم في نظمها السياسية والقانونية والاقتصادية والاجتماعية والتربوية، بل تتحكم في إحجامهم وإقدامهم اليومي على أي سلوك على مستوى الفرد والجماعة والمجتمع، وبقدر وضوح العقيدة لدى فرد أو جماعة أو مجتمع ما بقدر ما نرى الالتزام بالنظام المنبثق عن تلك العقيدة في حياة الناس.

٢ – وهذا النظام الذي هو التشريع الإسلامي يتمثل في جزئين متصلين اتصالا وثيق أحدهما ثابت والآخر متغير، فالثابت متفق عليه بين المسلمين ويمكن أن نطلق عليه النظام الأساسي العام الذي يمثل هوية المسلمين وخطابهم للآخر، وأما المتغير فهو مساحة قد يحدث فيها الخلاف في وجهات النظر والرأي بل بعضها يتبع المصلحة فيتغير بتغير الزمان والمكان والأشخاص والأحوال، وهو يمثل مساحة كبيرة من الفقه الإسلامي خاصة في جانب المعاملات.

٣ – ويبنى الفقه الإسلامي على أصول تعد أداة لاستنباط الحكم الشرعي وإيقاعه على الواقع وتعتبر أصول الفقه الإسلامي أحد العناصر المهمة التي يمكن بها استمرار مرونة الفقه وتلبيته لحاجات كل عصر من العصور وعدم التخلف عن حركة الحياة المستمرة التطور والتغير.

٤ – لا شك أنه من القضايا الملحة التي يجب التركيز عليها في المجتمعات المعاصرة، قضية تطبيق الشريعة الإسلامية فهى من ناحية تجسد آمال الأمة الإسلامية في العودة إلى الذات، وإلى الجذور، وإلى القوة الدافعة للعمل الجيد وفوق كل هذا إلى طاعة الله سبحانه وتعالى من ناحية أخرى كثيرا ما اشتغلت هذه المسألة بشكل أو بآخر في مجتمعاتنا الإسلامية وكم سالت الدماء غزيرة، ولا تزال – بسبب دعاوي عدم تطبيق

الحكام المسلمين للشريعة أي القانون الإسلامي بعبارة أخرى.

٥ - كذلك لابد أن نشير إلى وجود رفض لتطبيق القانون الإسلامي في المجتمعات الإسلامية نفسها من قبل العديد من الجماعات والأحزاب. وتكثر الدعاوي المبررة لهذا الرفض فهناك من يرى أننا أصبحنا نعيش في مجتمعات سياسية أساس الارتباط بين الشعب فيها هو علاقة المواطنة، وليس الرابط الديني. ومن ناحية أخرى، فهناك من يقول أن المطالبة بتطبيق الشريعة، سيدفع غير المسلمين من أتباع الأديان الأخرى إلى المطالبة بتطبيق شرائعهم مما يثير المشكلات أكثر في المجتمعات الإسلامية.

وهناك من يرى أن القانون الإسلامي، قانون متخلف وجد ليحكم بيئة ومجموعة من الناس منذ ألف وخمسمائة عام وبالتالي فهو لا يعالج مشكلات العصر.

والواقع أن المشكلة ستواجهنا بشكل أكثر حدة في القرن المقبل وبالتالي ينبغي الاتفاق على كلمة سواء حولها حتى ننقذ المجتمعات الإسلامية من إحدى المشكلات الحادة التي تثير فيها القلق والمتاعب.

ولو أخذنا مصر كمثال لباقي العالم الإسلامي فإن الوضع الراهن للحالة القانونية يمكن دراسته من منطلق النقاط الآتية:

١ - جذور الحالة القانونية في القرن العشرين ابتداء من أواسط القرن التاسع عشر ومحاولات المقارنات والمقاربات التي تمت مثل مجلة الحكام العدلية بتركيا وتأثيرها على مجهودات قدري باشا ومخلوف المنياوي في محاولات التقنين والمقارنة.

٢ - ملامح الحالة القانونية في القرن العشرين وعلاقتها مع حالة التشريع الإسلامي.

٣ - محاولات التقنين والمقارنات في القرن العشرين.

٤ - محاولات تطوير تدريس الشريعة الإسلامية وعلومها وحصر مشكلات

التطبيق.

٥ - مفهوم تطبيق الشريعة والاختلاف في فهمه وطرق تحقيقه ومعوقاته.

ومن الدراسات المبدئية فإن التحديات يمكن أن تلخص فيما يلي:

أولاً: تحديات ترجع إلى الوضع الراهن لعلوم الفقه الإسلامي وتتلخص في:

١ - عدم وجود آليات جديدة في الفقه توائم التطور الرهيب في الحياة وتشبعها بحيث تجعل من الفقه نبعاً مستمراً للعطاء كما كان عبر العصور، وذلك بسبب التغير الجذري في المواصلات والاتصالات والتكنولوجيا مما جعل الأمر لا يعاش في اليوم.

٢ - عدم تطوير تدريس أصول الفقه الذي هو كالأساس للفهم والاستنباط وعدم استفادة هذا العلم بما حققته العلوم الاجتماعية من إنجازات وعدم حسم كثير من مسائله التي يمكن أن تنفع في هذا المجال نفعاً جذرياً.

٣ - الانفصال عن التراث الإسلامي على فهم كثير من ظروفه الزمانية أو التفرقة بين مناهج السلف الصالح ومسائل العصور الماضية.

٤ - ضعف محاولات تقنين الفقه سواء على مستوى الدستور أو القوانين الفرعية وعدم الالتزام فيها بقاعدة واضحة للعمل أو الأخذ.

٥ - عدم الوصول إلى نظريات متكاملة أو نظم تامة كمرحلة من مراحل نمو الفقه الإسلامي وهو الأمر الذي كان من المنتظر في أوائل القرن العشرين أن يتم خلاله.

ثانياً: تحديات ترجع إلى الوضع الراهن للقانون بالبلاد الإسلامية وتتلخص فيما يلي:

١ - انطلاق القوانين المعمول بها من نموذج معرفي آخر غير العقيدة الإسلامية مع الاستمرار في الالتزام بالإسلام كدين في واقع الناس بل وفي بعض القوانين.

٢ - انقسام القوانين المعمول بها إلى ما يتصل بالشريعة وينطلق منها وإلى ما لا يتصل بالشريعة ولا علاقة له بها مما سبب عدم وضوح الأسس التي ينطلق منها القانون وهذا عائق كبير في طريق الإبداع القانوني والتفاعل مع المصادر والواقع وهو ما يسمي بالاجتهاد.

٣ - الانفصال الشعوري لدى جمهور الناس عن أحقية القوانين بها حيث استقر في الوجدان مخالفتها للشريعة لو بوجه من الوجوه مما تسبب معه عدم التزامهم بها والمحاولة الدائمة للتخلص من القانون باعتباره قيدا.

٤ - التخلف الإداري والتنظيمي للأجهزة القانونية تشريعا وقضاء وتنفيذا مما تسبب معه عدم الثقة في استيفاء الحق عن طريق القانون ويندرج في هذا.

أ - سوء تدريب القضاة.

ب - تكدس القضايا واختلاق المنازعات.

ج - سوء الحفظ والاسترجاع للمستندات.

٥ - كثرة القوانين وتضاربها في بعض الجوانب .. الخ من ناحية والاستمرار على القوانين من ناحية اخرى احدث نوعا من عدم التوازن وكل من الجانبين يساعد على خلق مشكلات كبيرة وكثيرة منها:

١ - شيوع الأمية القانونية بين الناس.

٢ - اختلال التعامل الإعلامي مع النظام القانوني.

٣ - عدم القدرة على متابعة التطور السريع في المجالات المختلفة والاحتياجات الجديدة (العلاقات الدولية/ البورصة .... الخ).

٤ - افتقاد الإطار الأخلاقي للتطبيق القانوني.

٥ - عدم القدرة على تحديد المواقف من التطرو السريع للنظام العالمي الجديد (الجات، ووحدة الأرض، وحقوق التأليف ... الخ).

دور الجامعات الإسلامية في مواجهة المتغيرات السياسية والاقتصادية

ورقة عمل مقدمة إلى ندوة
«التحديات التي تواجه الأمة الإسلامية في القرن المقبل»
«رابطة الجامعات الإسلامية بالتعاون مع جامعة الإمارات العربية المتحدة»

والمنعقدة في المدة من ٢٠ - ٢٢ شعبان ١٤١٨هـ
الموافق ٢٠ - ٢٢ ديسمبر ١٩٩٧م

إعداد
أ.د./ محمد بن أحمد الصالح
الأستاذ بكلية الشريعة
جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية - الرياض

بسم الله الرحمن الرحيم

لمحة موجزة عن البحث المقدم لندوة
«التحديات التي تواجه الأمة الإسلامية في القرن المقبل»
رابطة الجامعات الإسلامية بالتعاون مع جامعة الإمارات «أبوظبي»

أولاً: العنوان: دور الجامعات الإسلامية في مواجهة المتغيرات السياسية والاقتصادية.

ثانياً: جاء البحث في نحو ثلاثين صفحة.

ثالثاً: انتظمت العناصر الآتية:

١ - لمحة عن تحديد نقطة البدء في العمل الإسلامي ... ولمن يكون؟

٢ - نقطة الارتكاز وانها الملّة الحنيفية، وجرى الإستشهاد بالآيات الثلاث من آخر سورة الحج، وكيف أن ملة أبينا إبراهيم عليه السلام امتداداً للكلمات التي تلقاها أبونا آدم عن ربه جلا وعلا.

وكيف أن نقطة البدء في العمل الإسلامي هي نقطة البدء في الخلق الإنساني، وقد اكتملت بالنبي الخاتم عليه الصلاة والسلام، فمنذ البعثة النبوية والعمل الإسلامي في تدفق على المستوى الفردى والأسرى، والجماعى والشعبى، والحكومي، وما بين الحكومات الإسلامية وصولا إلى أحدث صوره المعاصرة العالمية، منظمة المؤتمر الإسلامي، من أجل ذلك على كل منا أن يعرف أين يضع ليشارك في هذا الزحف الإسلامي المستمر به وبغيره، وصدق الله العظيم (وإن تتولوا يستبدل قوما غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم) ... وهناك نقطة بدء علينا أن نعرف ديننا وأن نمارسه لندرك حلاوة عباده الله وكرامة العمل له، يقول تعالى: (ولكن الله حبب إليكم الإيمان وزينه في قلوبكم وكره إليكم الكفر والفسوق والعصيان أولئك هم الراشدون فضلا من الله ونعمه

والله عليم حكيم).

فالإسلام يتناول اصلاح الفرد والأسرة، والمجتمع والدولة، والإسلام ليس دين أفراد ولكنه دين جماعة بكل ما تحمله هذه الكلمة من معنى، صلاة الجماعة تفضل صلاة الفرد بسبع وعشرين درجة فما هي مجالات العمل أمام شبابنا؟ نريد أن نحدد معالم الطريق بأن يعرف الشباب أمر دينهم أولاً، وثانياً أن يعرفوا عدوهم الذي من أهدافه الكبرى أن يقع الخُلف في ديارنا بين الشباب والحكام ... ونعمل على تبصير شبابنا ليقدموا إلى الإنسانية شيئا...، ولهذا فنريد من شبابنا المزيد من اليقظة، وعلينا بذل المزيد من الجهد في توجيههم ليعرفوا ما ينفعهم ... وهذه المعرفة التي تقودهم إلى طريقين: الأول: أن تتسع مداركهم بفهم لدينهم ولعدوهم وللعالم من حولهم، والثاني: ضرورة تعاون الأجيال على حل المشكلات.

٣ – يتعين أن نعمل على تعديل السلوك نحو الأرشد والأفضل.

٤ – علينا أن نعود أبناءنا وأنفسنا الحوار البناء ولا نرضى به بديلاً ما استطعنا إلى ذلك سبيلاً... على كل فرد أن يضيء على الطريق شمعة، أو يضع في البناء لبنة، أو يتقدم على الطريق خطوة، يضيف إليها من معه ومن بعده خطوات ولبنات وشموع هي قبس من نور الله، «ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور».

٥ – ونفهم شبابنا أن التربية هي الجهد الذي يقوم به آباء شعب ومربوه لإنشاء الأجيال القادمة على اساس نظرية الحياة التي يقومون بها، إن وظيفة المدرسة ان تمنح للقوى الروحية فرصة التأثير في التلميذ، تلك القوى الروحية التي تتصل بنظرية الحياة وتربي التلميذ تربية تمكن من الاحتفاظ بحياة الشعب وتمد يدها إلى الأمام.

– نشير إلى الدروس المستفادة من جهود دول أخرى سبقتنا إلى ا لتقدم إلى جوانب متعددة في الحياة؛ كاليابان والمانيا والسويد والنرويج .... الخ.

٧ – ولنعد إلى إسلامنا فلنا فيه الغناء الذي استطاع ان يستخرج من النفوس افضل ما فيها.

٨ – الإشارة إلى جهود الصحابة ومدرسة المصطفى صلى الله عليه وسلم.

٩ – الإشارة إلى ثالثة الأثافي ... التحذير من الطامة الكبرى دعاة على أبواب جهنم من اجابهم إليها قذفوه فيها .... أناساً نبتوا في ارضنا من بني جلدتنا، يتكلمون بألسنتنا، ويلبسون ثيابنا، وقد رضعوا لبان اعدائنا إنهم العلمانيون.

١٠ – التاكيد على عدة حقائق شرعية وعلمية وفكرية.

١١ – الإشارة إلى الجهود الخيرة التي حملت لوائها جامعات المملكة وفي مقدمتها جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، وجامعة أم القرى، والجامعة الإسلامية.

١٢ – ولكي تثمر جهود الجامعات فلنضع في حسابنا الجملة المشهورة التي قالها أحد فلاسفة الغرب "نكون أو لا نكون" فهي تنطبق على حال المسلمين، وما يدبر لهم من حرب قذرة في هذا الزمان، وإذا سلمنا بأن البعض من المسلمين قد أبدوا عجزاً ملموساً في الدفاع عن الإسلام، وقصروا في التصدى لأعداء الإسلام والمسلمين في الغرب والشرق على حد سواء، فإن الدور المأمول في الدفاع عن الإسلام يكمن في الجامعات الإسلامية وأساتذتها وبرامجها في الحقبة الزمنية القريبة ... هذه خلاصة موجزة عن البحث الذي نرجو ان يجد القارىء فيه ما يفيد وانه قد أضاف الجديد المناسب في هذا المقام.

والله ولي التوفيق ،،،،،

أ.د./ محمد بن أحمد بن صالح الصالح

جامعة الامام محمد بن سعود الإسلامية – كلية الشريعة

بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله ألقاكم .. وبسم الله أحيي هذا اللقاء ... أحييه خاطراً .. وأحييه فكرة مرت بالرؤوس ... وأحييه واقعاً نعيشه ... ونرجو أن نجني ثماره.

فإن ربنا تبارك وتعالى يقول في محكم التنزيل: «إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها....» (سورة النساء آية ٥٨).

ومن الأمانة علينا أن نبين عظمة الشريعة الإسلامية، وعلوها، وسمو أحكامها، وأنها لم توضع لتنظيم شؤون الجماعات فقط بل إن هدفها الأسمى هو خلق الأفراد الصالحين، وإيجاد الدول المثالية، والعالم المثالي، ومن أجل هذا جاءت نصوصها أرفع من مستوى العالم وقت نزولها، ولا تزال كذلك حتى اليوم.

وجاء فيها من المبادىء والنظريات مالم يتهيأ العالم غير الإسلامي لمعرفته والوصول إليها بعد قرون طويلة، وما لم يتهيأ هذا العالم لمعرفته أو يصل إليه حتى الآن.

ومن أجل هذا تولى الله جل شأنه وضع الشريعة، وأنزلها على رسوله صلى الله عليه وسلم نموذجاً من الكمال ليوجه الناس إلى الطاعات والفضائل، وقد حققت الشريعة ما أرادة لها العليم الخبير فأدت رسالتها أحسن الأداء، وجعلت المسلمين هداة للإنسانية وهم كذلك إلى قيام الساعة.

ولهذا فإن أول ما يتعين علينا تحديد نقطة البدء في العمل الإسلامي ... ولمن يكون؟ لفرد، لجماعة متطوعة، لحكومة قائمة، لمجموعة من الحكومات، إن الإسلام بدأ ومر على بدئه ما يزيد على أربعة عشر قرناً، وها نحن في القرن الخامس عشر ولم يكن بدئه من فراغ، فالإسلام هو الحنيفية السمحة (وما جعل عليكم في الدين من حرج ملة أبيكم إبراهيم هو سماكم المسلمين من قبل وفي هذا ليكون الرسول شهيداً عليكم وتكونوا شهداء على الناس فأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واعتصموا بالله هو مولاكم فنعم المولى ونعم النصير)

(ختام سورة الحج)، هذه الحنيفية مرتبطة بكلمات الله لآدم (فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه إنه هو التواب الرحيم) (سورة البقرة آية ٣٧)، ما ترك الله أبانا الأول بغير هُدى ولكن أكرمه بنعمة التوحيد، وبشره بتتابع الهدى على ذريته (قلنا اهبطوا منها جميعاً فإما يأتينكم منى هدى فمن تبع هداي فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون) (سورة البقرة آية ٣٨) ولنتأمل هنا مظاهر الرحمة: التواب، الرحيم، الهدى، لا خوف، ولا حزن، وإنما الأمن والسعادة.

نقطة البدء في العمل الإسلامي هي نقطة البدء في الخلق الإنساني، وقد اكتملت بالنبي الخاتم عليه الصلاة والسلام، فمنذ البعثة النبوية والعمل الإسلامي في تدفق على المستوى الفردى والأسرى، والجماعى والشعبى، والحكومي، وما بين الحكومات الإسلامية وصولا إلى أحدث صوره المعاصرة العالمية، منظمة المؤتمر الإسلامي، التي جاء إنشاءها بعد حريق المسجد الاقصى وعدوان اليهود عليه، من أجل ذلك على كل منا أن يعرف أين يضع قدمه ليشارك في هذا الزحف الإسلامي المستمر به وبغيره، وصدق الله العظيم (وإن تتولوا يستبدل قوما غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم) (خاتم سورة محمد).

هكذا أتصور العمل الإسلامي كالطواف حول الكعبة، أتصوره عملاً مستمراً دون توقف وكسعى بين الصفا والمروة، وعليك أن تحصى لنفسك عدد الأشواط مع تحديد نقطة البدء، ففي الطواف الحجر الأسود، وفي السعى الصفا حيث أرشد الشرع الحنيف، وهناك نقطة بدء علينا أن نعرف ديننا وأن نمارسه لندرك حلاوة عبادته وكرامة العمل له، يقول تعالى: (ولكن الله حبب إليكم الإيمان وزينه في قلوبكم وكره إليكم الكفر والفسوق والعصيان أولئك هم الراشدون فضلا من الله ونعمه والله عليم حكيم) (سورة الحجرات آية ٧، ٨).

هذا التصور بيان لامتداد الإسلام وشموله والبدء في التكوين الفردى، فالإسلام يتناول اصلاح الفرد والأسرة، والمجتمع والدولة، والإسلام ليس دين أفراد ولكنه دين جماعة بكل ما تحمله هذه الكلمة من معنى، صلاة الجماعة تفضل صلاة الفرد بسبع وعشرين درجة، الصوم والزكاة والحج والمعاملات

كلها تصور روح الجماعية الإسلامية، من أجل ذلك لا اتصور عملا إسلاميا فرديا، ولعل الأمثلة توضح ذلك:

ولنبدأ بعمل تبدو فيه صورة الفرد وتأخذ في تحليله: إنسان يصلى وحده في جوف الليل، هل هناك فردية أكثر من ذلك؟ إنه أولاً تعلم الوضوء والصلاة وقراءة القرآن، وعرف القبلة، واحكام صلاة الليل، ولكنه حين يصلي ليس وحده، سل نفسك وأنت تصلى وحدك في جوف الليل، إنك تحس الأنس بربك، وتحس أنك على هدى المصطفى عليه السلام، وتحس أن آلاف مؤلفة من المسلمين على مدى التاريخ، وعلى امتداد الأقطار قاموا ويقومون ليلاً، وستظل هذه الشعيرة حية إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين، بل تحس أن هذا الحائط والركن الذي تتجه إليه لا يقف حائلاً بينك وبين البيت الحرام، وما وقف مصلى في الصف الأول من المسجد وأحس أن حائط القبلة يحول بينه وبين المسجد الحرام. فبيت الله حاضر دائماً في قلبه، وهناك خط من النور يخترق الجدران ويعبر الصحارى والجبال والبحار، فيحس المصلى بالطائفين والركع السجود حول البيت العتيق.

ولا ريب أن بدء الشكر معرفة الله تعالى، ارأيتم شيئا من حكمة الله في قوله في مطلع الفاتحة، وهي السبع المثاني التي نقرأها في كل صلاة "بسم الله الرحمن الرحيم الحمدلله رب العالمين الرحمن الرحيم" تأملوا وضع "رب العالمين" ومن قبلها ومن بعدها الحمد والرحمة، إن الإسلام دين الجماعة وإن من طبيعته أن يتعاون المسلم مع المسلم لخير الجماعة مصداقا لقوله تعالى: (وتعانوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الاثم والعدوان) (سورة المائدة آية ٢).

ولقد استطاع أعداؤنا أكثر من مرة أن يحولوا طاقة العمل الإسلامي دون أن يدرى أصحابه بذلك، نحو صدام داخلى فيما بينهم، أو صدام بينهم وبين حكوماتهم، فإذا هذه الموجات الطاهرة من الشباب تتكسر على صخور الأنظمة القائمة، وتورث النفوس عداوات وأحقاداً، يحملها جيل لاحق ليتابع العمل وفي

نفسه من الحقد أحيانا، والرغبة في الانتقام أحيانا، وسوء الظن أحيانا، ما يعوق العمل الصالح الخير، وحين أقول جيل لاحق لا أقصد جيل محكومين وحدهم ولكن جيل محكومين وحاكمين.

والقول موصول، حتى نضع أيدينا على الخطوة الثانية التي نرجو بها خيراً لأنفسنا وأمتنا وديننا.

فما هي مجالات العمل أمام شبابنا؟

نريد أن نبين معالم الطريق بأن يعرف الشباب أمر دينهم أولاً، وثانياً أن يعرفوا عدوهم الذي من أهدافه الكبرى أن يقع الخُلف في ديارنا بين الشباب والحكام، فتتحول الطاقات إلى الصراع الداخلى غير المتكافىء، ولكى تتحدد مجالات العمل أو على الأصح تتضح الرؤية، فعلينا أن نزيد هذه الخطوة الثانية تعميقا. لقد حدث هذا الصراع الدامى بين الشباب الإسلامي والحكام في اكثر من قطر، من أقصى المغرب الإسلامي إلى أقصى المشرق، ومع النازحين المسلمين الذين استوطنوا العالم الجديد، فقد حمل البعض منهم بذور الصراع الداخلى أو جاءتهم البذور من حكومات توارثت هذه الصراعات.

فلو قسمنا ورقة إلى قسمين وجعلنا القسم الأيمن منها للعالم الإسلامي، والثاني للعالم غير الإسلامي، وبذلنا جهدنا في إحصاء الأقطار الإسلامية التي حدث فيها الصراع الديني بين الشباب بعضهم مع بعض، وإن جمعهم مذهب واحد، أو بين الشباب وبعضهم البعض مع اختلاف المذاهب الدينية، أو بين الشباب والدولة وإن جمعهم مذهب دينى واحد، أو بين الشباب والدولة، وقد فرقت بينهم المذاهب الدينية، أو بين دولة وجارتها على أساس من الخلاف المذهبى، ثم ننظر كيف جر الصراع دولاً أخرى لم تكن ترغب فيه فاستنزف منها مالاً وجهداً وأورثها تركة ليست لها، تركة من الثأرات والأحقاد.

ولننتقل بعد هذا إلى القسم الثاني من الورقة وفيه العالم غير الإسلامي، ولنأخذ غرب أوربا كنموذج، كانت فيه هذه المشكلات: الصراع القومي، الديني، الصراع المذهبي، الصراع الطبقي، وبعض هذا لازال موجوداً، لكن

القوم تجاوزوا أكثره عن اقتناع بأنه أسلوب لا يزكو به وجه الحياة، ولهذا تحولت ميادين الحروب عندهم إلى متاحف وحدائق وملاعب أطفال، الخنادق والحصون أصبحت دوراً ومصانع منتجة، ومعاهد علم، شغلتهم مسئوليات التقدم العلمي والتقنى والرغبة في التفوق والابداع، أحسوا لو انهم أنفقوا طاقاتهم في الصراع فلن يستطيعوا أن يكونوا شيئاً مذكوراً. ولن يستطيعوا الصمود أمام التقنية المتقدمة في اليابان وأقطار من الشرق الأقصى، ثرواتهم الأساسية وهي الابداع الفكري تتقدم في طريق صاعد أبداً.

وفي لقاء مع أحد مفكريهم الذين عُرفوا بالنظرة الإنسانية الشاملة كان من قوله: حاولوا أن تقدموا إلى الإنسانية شيئا، وحاولوا أن تفهموا شبابكم ذلك لينصرفوا إليه، قيل له: الأمثلة توضح، قال: ابتداء من القلم الذي تكتب به إلى الورق الذي تكتب عليه، إلى الضوء الذي تستضيء به، إلى النظارة التي تضبط بها ابصارك، إلى أجهزة الاضاءة والتكييف، إلى الكثير من أدوات المنزل، إلى كل أدوات الطب وغرف العمليات الجراحية، وأجهزة الاتصال القريبة والبعيدة، والتسجيل، إلى كل أنواع المواصلات البرية والبحرية والجوية، وبعض دولكم وشعوبكم عندها القدرات وفيها الانتاج، ولكن إقرنوا انتاجكم العربي والإسلامي كله بالميزان العالمي، وضعوا التحديات الحضارية أمام شبابكم ووجهودهم إلى العلم والعمل والانتاج.

أيها الاخوة: نستمع إلى ربنا يدعونا للنظر والتفكر فيما حولنا حيث يقول: "ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات مختلفا ألوانها ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود * ومن الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه كذلك إنما يخشى الله من عباده العلماء إن الله عزيز غفور» (سورة فاطر الآية ٢٧، ٢٨).

فهذه جملة من مبادىء العلوم في الكون والصخور والنبات والإنسان والحيوان، وتنويه بمكانة العلم والعلماء.

ولنستمع أيضا لقول الله جل وعلا: «الله الذي خلق السموات والأرض

وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم وسخر لكم الفلك لتجرى في البحر بأمره وسخر لكم الأنهار * وسخر لكم الشمس والقمر دائبين وسخر لكم الليل والنهار وآتاكم من كل ما سألتموه وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها إن الإنسان لظلوم كفار» (سورة ابراهيم الآيات ٣٢ – ٣٤).

فجميع ما تضمنته هذه الآيات جعله الله ملكا لنا وفي متناول أيدينا، فهل تحقق لنا هذا الخير العظيم الذي يحتاج إلى جد وسعي متواصل؟.

ولنقرأ أيضا قوله تعالى: «هو الذي جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور» (سورة الملك آية ١٥).

فالأرض إذن بأسرها مذللة لنا، ومجالاتها متاحة للاستفادة منها، فهل نحن فاعلون؟ لكننا مع الأسف بددنا جهودنا وثرواتنا في صراعات مدمرة، وخلافات مهلكة.

إن أعداءنا لا يريدون منا أكثر من هذه الصراعات التي تمتص حيويتنا، ويضعون نصب أعينهم أن يقوموا بتغذيتها كلما هدأت نيرانها.

خذوا أي حرب بين جارتين مسلمتين، أو حرب داخلية في دولة واحدة على أساس طائفي، أو خذوا أي صراع داخلي في دولة واحدة بين جيلين على أسس دينية أو اقتصادية أو اجتماعية، خذوا أي حرب منها وانظروا تجدوا للأسباب نظائر في دول أخرى ولكنها تستطيع أن تمتص جانب كبير بالحوار البناء وتطوير المؤسسات الدستورية والصحافة، وهي أساليب تدخل لو تأملنا في الدائرة الواسعة لقوله تعالى «والذين يجتنبون كبائر الآثم والفواحش وَإِذَا مَاغضبواهم يغفرون» وقوله تعالى: (والذين استجابوا لربهم وأقاموا الصلاة وأمرهم شورى بينهم ومما رزقناهم ينفقون)، وقوله تعالى: (وشاورهم في الأمر).

وإذا كانت كل دولة على حدة تحسب أرباحها وخسائرها، ولا أرباح في هذه الصراعات الداخلية، فإن الأب الكبير وهو الإسلام يحسب حساب خسائر أبنائه جميعا، ولا ربح عنده في أي حرب داخلية بين المسلمين. في آخر

الأمر كلها عنده خسائر ودماء تنزف من جراح أبنائه وأموال ضاعت من رصيده، وأعمار وجهود تبددت، وكأننا في أندلس جديدة أو في عهد ملوك الطوائف، وينشأ أبناؤنا ليرثوا الأحقاد والثأرات والضغائن والصراعات الداخلية، وكل منهم يعتقد أنه على الحق وأن الآخرين على الباطل، وأن الجنة له وحده هو وقومه، أو أهل مذهبه، وكل الآخرين هم وقود النار.

ولهذا فنريد من شبابنا المزيد من اليقظة، وعلينا بذل المزيد من الجهد في توجيههم ليعرفوا دينهم أولاً، وليعرفوا عدوهم ثانياً، وليعرفوا تاريخهم وحضارتهم وحاضرهم، ولا نقصد بالحاضر اطار ضيق، لكن نقصد العالم من حولهم، المعرفة أولاً وثانياً وثالثاً، هذه المعرفة التي تقودهم إلى طريقين: الأول أن تتسع مداركهم بفهم لدينهم ولعدوهم وللعالم من حولهم، وأن يزدادوا إحساساً بمسئولياتهم، وبطول الطريق وضرورة تعاون الأجيال على حل المشكلات، وأنهم قطرة في نهر الإسلام أو حلقة في سلسلة العاملين، فلهم إيمانهم بربهم وثقتهم في نصره مادامو على طريق الصراط المستقيم، صراط الذين انعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، طريق العمل الذي تتحقق فيه قدرات الأفراد والجماعات، وتتجلى فيه الحياة بصياغة أفضل، وإن لم يكونوا على حذر فقد تقودهم هذه المعرفة إلى طريق اخر، بأن ينغلقوا على أنفسهم وعلى نفر قليل من إخوانهم ويسوء ظنهم بالحياة وبالأحياء، لا يرون حولهم الا الخطأ ولا يمارسون الا النقد السلبي الذي يملأ النفوس مرارة دون أن يكونوا قادرين على انبات الخير، ولنحذر هؤلاء الذين ينغلقون على أنفسهم، يعيشون بين الناس ويخالطونهم ولكنهم منعزلون نفسيا، ويدعون غيرهم إلى هذه العزلة، فكم من خطيب تراه بين الناس وهو داعى إلى العزلة واليأس، وليس من حديثه الا النقد السلبى لما حوله، أو إثارة العواطف وشحن النفوس بالغضب، لا يجد الطريق السليم للتعبير، فإذا هو ينفجر في صاحبه وفي مجتمعه، والنماذج على هذا كثيرة في جماعات من الشباب أو حتي في دول يقودها فكر مندفع.

هذا الأسلوب جزء من النسيج الفكرى العام في بعض المجتمعات. قل إنه

جزء من المستوى الحضاري الذي يعيش فيه، والذي يتعامل بالاندفاع المتبادل والسلبية والمسارعة إلى سوء الظن والاتهام بين قطاعات الشباب بعضهم مع بعض، وبين الشباب والسلطة، وعلاجه طويل ويتعين أن نعمل على تعديل السلوك نحو الأرشد والأفضل، ويأتي الخطأ أكثر ما يأتي عندما نربط بين أعمالنا وأعمارنا، فهناك أعمال بطبيعتها تستغرق وقتا طويلاً فلنعطها حقها من الوقت، ولنعود أنفسنا أن يحمل جيلا من الأجيال أو فرداً من الأفراد ما يستطيع من مسئوليات، وأن يكون قادراً على نقلها إلى الذين يلونه عندما تتقدم الأعمار أو تنوء الكواهل لتجدد بالجيل الجديد شبابها، وتتابع مسيرتها، وإن من أكبر الفروق التي تميز بين المجتمعات المندفعة هو هذا النفس الطويل في العمل، والإيمان بالمجتمع في امتداده وتعاقب أجياله.

فالقائد الشاب المؤمن يرى نفسه بدء دورة من دورات الحياة في بلده، وعليه أن يصل بها إلى غايتها، والقائد الناضج يرى نفسه حلقه من سلسلة أو خطوة على طريق الحياة، يشعر بعرفان الجميل نحو جيل سبق، وحب للتعامل مع جيل يعاصر، وحسن إعداد لجيل يأتي من بعده، دون توتر ولا رغبة في العلو على الناس، أو شعور بأن الله قد أعطاه، وقد حرم غيره مواهب العلم والذكاء، وسرعة النفوذ إلى الرأى الصائب، ذلك لأن أي مسئول في أي موقع أو أي قطاع من شباب أو فرد مع أسرته أو هو نفسه إذا حُرم الناصح الأمين فقد حُرم خيراً كثيراً، وإذا حجب عن نفسه نور المشورة فإنه يعيش في ظلمات الفكر المستبد.

إذن علينا أن نعود أبنائنا وأنفسنا الحوار البناء، ولا نرضى به بديلا ما استطعنا إلى ذلك سبيلاً. الحوار الذي يجلو وجه الحق وتتحدد به المسئوليات، ويحمى فيه كل فرد موقعه ويحمل أمانته ليكون الغد أكثر اشراقاً.

يكفى كل فرد أن يضيء على الطريق شمعة، أو يضع في البناء لبنة، أو يتقدم على الطريق خطوة، يضيف إليها من معه ومن بعده خطوات ولبنات شموع هي قبس من نور الله، ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور.

ولقد تخطت بعض الدول هذه المرحلة إلى تنمية قوة الابتكار، وإلى اعتماد الطالب على نفسه في التعليم، وأصبح هدف التعليم أن يتعلم الطالب كيف يتعلم، وان يتعلم ما يعود عليه بالنفع، أن يعيش وأن يكسب رزقه وأن يكون قادراً بعلمه على حماية حريته، أقصد أن يعيش في وطنه حراً، وإذا ضاق به تحول إلى وطن آخر بعلمه وخبراته، وهناك يعيش كما قال الشريف الرضى:

وانهض فإن لم تحظ في بلد بالـــرزق فاقطـــعه إلى بلـــدى

وابغى العـــلا أبـداً فكـــم طالباً قد بات من نيل على صـببي

إما يقـــال سـعى فأحرزها أو يقـــال مضى ولـــم يَعُـــدِ

* * *

وانظر إلى نماذج من دول العالم التي شقت طريقها وأخذت سبيلها في بناء أمجادها: (١) اليابان، (٢) الألمان، ونماذج أخرى.

ونختار هذه النماذج لأسباب محددة عليا أن ندرس أولاً، ثم نصمم نظامنا التربوى النابع من ظروفنا، لا أقول كما يقول البعض انقلوا نظامه، ولكن ادرسوا هذه الأنظمة بدقة وأدرسوا غيرها. فالدراسة في ذاتها نور يضيء لنا الطريق، طريق الابتكار والاختيار.

فاليابان خرجت بعد الحرب العالمية الثانية سنة ١٣٦٤هـ - ١٩٤٥م من حطام القنبلة الذرية: الآلات اليابانية مدمرة، الأرض محتلة، الجوملوث بالغبار الذري لازالت آثاره قائمة حتى الآن، المجد الياباني الذي امتد على طول الشواطىء الآسيوية للمحيط الهادي انحصر، ومن وراء الأشلاء والضحايا والدمار نهضوا من كبوتهم فوضعوا نظاماً علمياً مدروساً، لاعادة الصياغة للعقلية اليابانية فماذا كان من أمر اليابان؟ استطاعت أولاً أن تحافظ على وجودها وعلى روحها، وتحركت في الاطار الذي فرضه عليها المنتصرون، وأخذوا يركزون جهودهم في الجهاز الصناعى انشاءً وحماية لهم من أي تسلل استعماري مهما يكن مصدر هذا التسلل، وبكل هدوء وطمأنينة عُنوا بالنظام التعليمي عناية دقيقة وصارمة، وربطوا بين النظام التعليمي والصناعي

وبين النشاط المنزلي والمصنع وقوة الانتماء وحب الوطن والانتاج، وشكلوا من كل إيجابيات الحياة ما يقيمون به الحياة، وتركوا جانباً أمر القوة العسكرية، حتى أصبح الجيش الحقيقي لليابان هو الإنتاج الاقتصادي المرتكز على قواعد التجديد والإبداع والابتكار، وحتى استطاع أن يهز قواعد النظام في غرب أوربا والعالم الجديد. كل هذا وتلقى الياباني فيقف أمامك بكل احترام ويحدثك بكل هدوء دون غطرسة ولا استعلاء، كيف صنعوا هذا؟ علينا أن ندرسه تفصيلا ونعرف دور التربية فيه.

وننتقل للنموذج «الألماني» الذي خرج من حطام الحرب العالمية الثانية حيث دمُرت المصانع والدور، ومن تحت الحطام والأنقاض تبدأ مسيرة ألمانيا، المصنع قبل المسكن، الإنتاج قبل الملبس، الرصيد الأكبر هو العزيمة والفكر والإنتاج، وتسير ألمانيا شيئا فشيئا بكل العزم والإصرار حتى تصبح قوة صناعية عظيمة.

ولنلقى أيضا نظرة على بعض عالم الشمال (السويد والنرويج والدنمارك) وكيف أنهم وفروا لأبنائهم أنسب الظروف للإبداع الذاتى في نظام متكامل يضم المنزل والطريق والمدرسة، والمؤسسات العامة وأجهزة الدولة، في دقة وتناسق ليست الغاية عندهم أن يدخل الطالب المدرسة، ولكن أن يتوفر له فيها وفي البيت ما يعينه على هذا التفوق والإبداع، والإحساس بالترابط الوثيق بين الفرد والمجتمع حقا وواجبا ونظاماً.

ولكن لنعد إلى إسلامنا .. فلنا فيه الغناء الم تكن عبقرية الإسلام أنه استطاع ان يستخرج من النفوس أفضل ما فيها من قوى مذخورة، إن جيل الصحابة رضوان الله عليهم صنع تاريخه بقيادة المصطفى عليه الصلاة والسلام بإيمان عميق بالله وفهم واعى للهدف، وإصرار على بلوغه، هذه الخطوة الرائدة في تاريخ الإنسانية يقتضى منا التأسى بمنهج العمل فيها إيمانا وتنظيما وتنفيذاً، إننا نحيا في تاريخ جديد يصنعه مؤمنون جدد، يدركه روح العصر وروح الإسلام، قادرون وصابرون على صياغة الكلمة عملا،

ويقرأون قول الله تعالى: «وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون» (سورة السجدة آية ٢٤).

* * *

ولا ننسى النموذج الذي غرسه اليهود وأعوانهم كالخنجر في وسط أرضنا العربية والإسلامية، وعلينا أن ندرس كيف يربى شبابه ويعد أجياله، إن جيله الحاضر يحارب أجيالنا ويربى أبناءه على مزيد من الاغتصاب لأرضنا ويعدهم علميا وفكريا ونفسيا، لصراع أبنائنا من بعدنا علميا ودينيا وقوميا ووطنيا، علينا أن ندرس ما عندهم والله يقول «يا أيها الذين آمنوا خذوا حذركم» (سورة النساء آية ٧١) وإذا كانت كل دولة تعمل على كفالة أمنها، فتجمع المعلومات عن الصديق والعدو لتزداد معرفة وحذراً، فأولى بدراساتنا عن النظام اليهودي أن تشمل التعليم والجامعة والارتباط بمرافق المجتمع والدولة، والصراع مع الوجود العربي والإسلامي وخطوط التأثير العالمية.

إن الطريق طويل ووراءه أهداف أوسع من الأهداف الحالية وأعلى منها ويعيننا على هذا أن تتضح أمام أعيننا صورة الجيل التي نود أن يصل أبناؤنا إليها، صورة أهداها إلينا ربنا في كتابه نقرأها في قوله: «لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا» (سورة الأحزاب آية ٢١).

إن عبقرية الجيل الذي رباه المصطفى صلى الله عليه وسلم هي في قدرته الفائقة على مجابهة مشكلات العصر والتغلب عليها، وهذا هو الميزان الذي لا يخطىء، فعلينا أن نؤمن وأن نقابل تحديات العصر بهذا الإيمان وبعلم وتنظيم، صعوداً إلى مستقبل أفضل.

وعلينا أن نحذر كل الحذر ثالثة الأثافي ... الطامة الكبرى.... دعاة على أبواب جهنم من أجابهم إليها قذفوه فيها .... أناساً نبتوا في أرضنا، من بني جلدتنا، يتكلمون بألسنتنا، ويلبسون ثيابنا، وقد رضعوا لبان أعدائنا، يبذلون جهدهم لإغماد السيوف في نحورنا، ويكيدوا لنا ولديننا، ويكونّوا معاول هدم

لكل القيم والأخلاق والمثل العليا في الإسلام .. انهم العلّمانيون.

والعلّمانية ما هي إلا مرادف لكلمة (الدهرية) في فكر القدماء، فهي تنسب كل إنجاز مخلوق إلى فعل (الزمن) أو (العَالَم). وقد يحاول بعض المزيفين أو المخدوعين أن ينطقوا الكلمة بكسر العين (عِلْمانية) وهو إيغال في الجهل بأصل المصطلح، أو هروب مما يعنيه لدى واضعيه، أو محاولة لخداع الشباب بزعم أن المراد هنا هو النسبة إلى (العلِم) لا إلى (العَالَم).

وتحت مسميات غريبة، ودوافع مريبة، يشن العلمانيون وفلول الشيوعيين – الذين يترنحون بعد سقوط نظريتهم – حملة شعواء ضد علماء الإسلام، وقضايانا الشرعية، وهيبة المؤسسات الجامعية، ويمارسون أبشع أنواع الإرهاب الفكري ... فهم يرون أن الكفر حرية رأي .. ورفض القران فلسفة فكر .. ورد السنة تصحيح مفاهيم .. وتشويه التاريخ الإسلامي والهجوم على الائمة الأعلام عملية تنوير.

ومن أكثر الأكاذيب التي يروجها هؤلاء الدجالون مسألة "حرية التعبير" وتحت هذه العبارة يصبون جام غضبهم على كل من يقف في سبيل أفكارهم، أو يتعرض لهم بالنقد. على أن هناك عدة حقائق شرعية وعلمية وفكرية ينبغي التأكيد عليها في هذا الصدد:

أولاً: إن حرية التعبير التي يتشدّق بها هؤلاء أبعد ما تكون عن فكرهم ومعتقدهم وممارستهم السياسية والفكرية.

ثانياً: حرية التعبير لا تعنى على الاطلاق حرية الهدم وتشويه العقيدة، وسب الصحابة، والتشكيك في الإسلام.

ثالثاً: إن منطقهم هو الإرهاب الفكري، سواء عندما يضيقون بكل ما يكشف فكرهم، أو باستغلال أية أزمة للتخويف من الإسلام.

رابعاً: ليس هناك اي دين او فكر يُعْلي قدر الحرية الدينية والفكرية قدر ما يفعل دين الإسلام.

خامساً: إن دعوى حرية التعبير هذه تكاد تصبح صنما يريد أصحاب الهوى

أن يعبدوه، ومن خلاله يفصحون عن أغراضهم.

وللأسف الشديد فإننا نجد أن بعض جماعات العلمانيين في الوطن العربي قد اتخذت مواقع عديدة في مؤسسات جماهيرية، وفي مقدمتها وسائل الإعلام، ممسكة بأيديها أزمة الكلمة المقروءة والمسموعة والمرئية، وعاملة على نشر كتابات معادية للإسلام صراحة، أو كتابات تتظاهر بالحياد والعلمية، وإن تضمنت إسقاطات ذات طابع إلحادى، يعرف ذلك من يتابع بعض البرامج والمسلسلات التليفزيونية، أو من يتأمل بعض البحوث والمقالات المنشورة في الصحف والمجلات المشبوهة.

فإن من الإثم الكبير، بل من الخيانة لمستقبل هذا الوطن أن تعمد بعض الجهات إلى تنصيب هؤلاء رؤساء وكتابا في وسائل الإعلام المختلفة، فتضع تحت أيديهم إمكانات مذهلة يستخدمونها في تدمير المجتمع، وفي تشويه صورة الإسلام في أوطانه العربية.

فنحن لازلنا نعيش في وطن الإسلام، ولا ينبغي السماح بوجود مثل هذه الفئات الضالة في وطن يؤمن أهلوه بالله ربا وبالإسلام دينا وبمحمد صلى الله عليه وسلم نبيا رسولاً، وهم يشعرون أن في أيديهم أمانة لا يملكون إلا أن يؤدوها إلى الأجيال القادمة، منزهة عن التشويه، كاملة غير منقوصة.

فإن المعركة الحقيقة الآن بين «الإسلام الصحوة» و«العلمانية الوقحة» ولابد لنا نحن علماء المسلمين من التصدي لهذه الهجمات الشرسة على إسلامنا، بأن نتمسك بديننا ونعض عليه بالنواجذ، ونعمل على توعية شبابنا تعريفهم بأحكام دينهم الحنيف، وخاصة هؤلاء الشباب الذين يتلقون دراسات تقنية وتجريبية بحتة بعيدة عن العلوم الشرعية.

ولقد أحسنت جامعة الأزهر وجامعات المملكة العربية السعودية حين فتحت أبوابها لمن يشاء من خريجي الجامعات؛ لكي يشبعوا رغبتهم في توسيع معارفهم الإسلامية ودراسة بعض علومه، بعد ما تبين أن خريج الجامعة يغادرها وهو يعاني من أمية مروعة في شأن دينه، حيث الثقافة الدينية هامشية

في مختلف مراحل التعليم، وهي منعدمة تماماً في بعض الجامعات.

وفي الأجواء الراهنة التي تزايد فيها الوعي الديني، واتجهت شرائح واسعة من الشبان والفتيات إلى البحث عن منابع الثقافة الإسلامية، فقد قدر بعض القائمين على الجامعات الإسلامية أنه ما لم تفتح أبواب المعرفة الصحيحة والرشيدة، فإن الأبواب الأخرى سوف تستوعب كثيرين من هؤلاء الشباب.

حين نوقش الأمر في الجامعات الإسلامية كان من رأي هؤلاء المسئولين أن فتح أبوابها لمن يشاء من خريجي الجامعات الأخرى وخريجاتها يمكن أن يحقق أهدافاً عدة، في مقدمتها: تحصين أولئك الخريجين من الوقوع في براثن التطرف واستنقاذهم من العلمانية، وتشكيل النواة الصلبة القادرة على التصدي لموجات الانحراف الفكري والديني، وإعانة الخريجين الذين يتجهون إلى العمل والدعوى عن طريق إثراء معارفهم وترشيد آرائهم.

وقد ظهرت نتائج إيجابية لهذه التجربة وخاصة في كلية الدراسات الإسلامية للبنات بجامعة الأزهر، حيث إن نسبة الحضور بين الفتيات كانت في حدود ٩٠٪، ومعدل النجاح في هذه الفئة فاق معدلات النجاح في الفئات الأخرى، ومنهن خريجات كليات الطب والهندسة والعلوم وغيرها، بل ومنهن حاصلات على أعلى الشهادات وكثيرات منهن يطالبن بالمزيد والتنوع في الدراسة.

غير أن هذه التجربة الرشيدة تحارب – وللأسف – من جانب الكائدين والحاسدين وأعداء الدين، وفي مقدمتهم العَلْمانيين.

وإننا من خلال هذا المؤتمر الميمون وهذا الجمع المبارك لنسجل لرجال الجامعات الإسلامية في المملكة العربية السعودية، وجامعة الأزهر من الشكر أجزله، ومن الثناء أطيبه، ونقدر لهؤلاء الأفذاذ حسب صنيعهم، ومواقفهم المشرفة التي تنم عن وعى وإدراك للمسئولية، وغيرة على الدين وحماية للوطن والمواطن.

وأننا نناشد كافة الجامعات الإسلامية في جميع الدول العربية والإسلامية، أن تأخذ بهذا المنهج الرشيد، وأن تفتح أبوابها لكل راغب في الاستزادة من علوم الدين، كما نهيب بإدارة جامعة الأزهر أن تصمد ضد هذه التحديات التي تواجهها من الداخل والخارج، ولا تأبه بما ينعق به هؤلاء المرجفون.

ولا شك أن سقوط النظام الشيوعي في عقر داره قد أفقد الكثيرين من الشيوعيين وأتباعهم من العلمانيين في الوطن العربي صوابهم، فإذا بهم وقد انتابهم نوع من الهستيريا، فيلجأون إلى إحداث الجلبة والضوضاء، من خلال مجموعة من الكتابات العدوانية ضد الإسلام، وضد العقيدة الصامدة في مواجهة البغى الماركسى العلمانى.

والحقيقة إن المسألة لا تعدو أن تكون وضعا مؤقتا، ثم تمضى أقدار الله ساحقة كل ما يعادى الإسلام والمسلمين (أما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض) (سورة الرعد آية ١٧).

* * *

إن من يتابع مجريات التحولات الدولية لا يخطئه النظر فيما يتعرض له الإسلام من عدوان سافر في كثير من بقاع الأرض، والتربص به عقديا واقتصاديا واجتماعيا وسياسيا وعسكريا، وقد بلغ الأمر إلى حد أن يعلن بعض رجال الغرب العداء الصريح لإسلام في خطب وتصريحات مشهورة بأن العدو الحالى للغرب هو الإسلام، ومن الحقائق المقررة أن بعض المسلمين قد أسهموا في رسم صورة مشوهة للإسلام بالجهل حينا، وبالحماقة والغباء حينا آخر.

ولكن من الحقائق أيضا أن نقرر أن كثيرا من المستشرقين وأذيالهم من أبناء المسلمين قد ساعدوا في محاربة الإسلام بشكل معلن في الكتب والصحف ووسائل الإعلام المرئية والمسموعة، ويمكن للمسلم البعيد النظر أن يضع في حسبانه الجملة المشهورة التي قالها أحد فلاسفة الغرب "نكون أو

لانكون" فهي تنطبق على حال المسلمين، وما يدبر لهم من حرب قذرة في هذا الزمان، وإذا سلمنا بأن البعض من المسلمين قد أبدوا عجزاً ملموساً في الدفاع عن الإسلام، وقصروا في التصدى لأعداء الإسلام والمسلمين في الغرب والشرق على حد سواء، فإن الدور المأمول في الدفاع عن الإسلام يكمن في الجامعات الإسلامية وأساتذتها وبرامجها في الحقبة الزمنية القريبة القادمة.

ولهذا فإن إقامة ندوة موسعة عن الجامعات الإسلامية وتحديات القرن الحادي والعشرين تتلخص محاورها في الموضوعات الآتية:

١ – التعريف بالعقيدة وموقفها من أهل الكتاب.

٢ – مناهج تدريس العلوم الإسلامية من عقيدة وعلوم قرآنية وحديث وفكر وحضارة، في مراحل التعليم المختلفة في الأقطار الإسلامية.

٣ – متابعة الأخطاء التي وقع فيها المستشرقون في ميادين الدراسات الإسلامية وبيان زيفها ومن ثم تصويبها.

٤ – متابعة الأخطاء التي تتضمنها مرحلة ما قبل الجمعة في مدارس العالمين العربي والإسلامي.

٥ – وسائل العناية بنشر ما لم ينشر من الكتب المخطوطة في ميادين التراث الإسلامي وتحقيقها ونشرها.

٦ – متابعة الأخطاء والحملات التي قام بها بعض الكتاب ضد العرب والمسلمين – أو من ينتسبون إلى الإسلام – والرد عليها.

٧ – حتمية تدريس الإسلام عقيدة وشريعة وحضارة لجميع طلاب المراحل الجامعية في العالم الإسلامي ووضع المناهج المناسبة لذلك.

٨ – العناية بتدريس اللغة العربية بحسبانها لغة القرآن الكريم ولغة العلوم الإسلامية، ووضع المناهج التي تيسر تعليمها في مراحل التعليم المختلفة، والعناية بإعداد مدرسيها إعداداً يمكّنهم من اداء مهمتهم بنجاح.

* * *

الخاتمة

وفي ختام هذه الكلمة الموجزة عن دور الجامعات الإسلامية نتقدم بهذه التوصيات:

١ – إقامة ندوة عن التربية الاجتماعية في الإسلام في مواجهة التحديات المعاصرة.

٢ – العناية بالدراسات الإسلامية والعربية والتي تمثل حجر الزاوية في ترسيخ القيم الروحية، والطمأنينة النفسية، والسكينة القلبية، حيث وضعت الشريعة الإسلامية القواعد والأسس التي تقوم عليها الحياة في واقعها السياسي والاقتصادي على أكمل وجه وأحسنه، وصدق الله العظيم «ومن أحسن من الله حكما لقوم يوقنون» (المائدة ٥٠).

٣ – التعرف على العقبات التي تحول بين نجاح التعليم كيفاً مع نجاحه كماً، وتشخيص العلاج.

٤ – العمل على تعميق العلم الشرعي وتنشيطه في المعاهد والجامعات ليكون أكثر حيوية، وأقدر على حل المشكلات وعلاج المعضلات التي تعاني منها المجتمعات الإسلامية.

٥ – الإسهام الكامل في إثراء المعرفة الإنسانية بكافة جوانبها إثراء غزيراً عن طريق الدراسات العلمية المتخصصة، والبحوث الجادة بهدف الوصول إلى إضافات علمية وتطبيقات مبتكرة والكشف عن حقائق علمية جديدة في جميع المجالات تمشيا مع المتغيرات العالمية السياسية والاقتصادية.

٦ – إجراء مراجعة شاملة لجميع الأنظمة والقوانين المعمول بها في بلاد الإسلام لتكون مؤصلة تأصيلاً شرعياً منبثقة من الكتاب العزيز والسنة المطهرة؛ ليتمكن القضاء الإسلامي من الاستقلال وشمول جميع الأحكام.

٧ – تشجيع الكفايات العلمية على مسايرة التقدم السريع للعلم والتقنية، ودفعهما إلى الإبداع والإبتكار على أساس من الواقعية الكاملة، والفعالية

المطلقة لتحقيق التقدم والرخاء في شتى مجالات الحياة.

٨ – كشف الشبهات التي جدت في حياتنا وهي شبهات دينية وسياسية واجتماعية.

٩ – تطوير البحث العلمي، وتوجيهه لمعالجة قضايا المجتمعات الإسلامية.

١٠ – مراجعة المجالات الإجتماعية والسياسية والإدارية والإقتصادية التي تعاني منها مجتمعاتنا؛ لأن الإبقاء على هذه الأمور على ما هي عليه يؤدي إلى سكون وركود، يترتب عليه الكثير من المفاسد والمخاطر، وضياع مصالح الأمة.

١١ – الدعوة إلى التزام جميع الدول الإسلامية بالفكر والعقيدة الإسلامية في جميع شؤون الحياة، وبيان أن الإلتزام بهذا وتحقيقه على الوجه الأتمّ يعتبر من أفضل السبل وأنجحها في توفير أسباب الطمأنينة والأمن والاستقرار سياسياً واجتماعياً واقتصادياً للأفراد والمجتمعات على حد سواء.

١٢ – بيان أن في قواعد الشريعة الإسلامية ونصوصها من المرونة والعموم بحيث تتسع لحاجات المجتمعات في جميع المجالات مهما طالت الأمان وتطورت الجماعات، وتعددت مطالبها وتنوعت.

وأنها في أعلى درجات السمو والرقي والرفعة بحيث لا يمكن أن تتأخر في أي عصر عن مستوى الجماعات، بل إن نصوصها وقواعدها أسمى من مستوى الجماعات، وأقدر على تنظيم حاجاتهم وسدّها، وأحفظ لأمنهم، وأكفل باستقرارهم؛ لأنها من صنع الله الذي أتقن كل شيء خلقه.

١٣ – إن من الغرابة بمكان أن يبقى الاقتصاد الإسلامي حبيس الدرس الجامعي دون أن يخوض غمار المجتمع، والعمل على حل المشكلات الاقتصادية، وإيجاد بنوك إسلامية تعمل على تنمية الأموال بالطرق الشرعية البعيدة عن الربا والمعاملات المصرفية المشبوعة.

١٤ - الإسهام في تحسين مستوى التعليم الجامعي ليتفاعل مع المجتمع في القدرة الكاملة على حل مشكلاته بالطرق العلمية والعملية.

ولا سيما ركني التعليم الأستاذ والطالب وبذل الجهد في إكرام الأستاذ ورفع قدره إلى المستوى اللائق به حتى يتمكن من أداء رسالته على الوجه الأكمل.

والعناية بالطالب تعليماً وتوجيهاً ورعاية مع رابطة بالكتاب والمكتبة، والإهتمام بشباب الجامعات اهتماماً كبيراً باعتباره الركيزة الأساسية التى تعلق عليها الدول الآمال العريضة في نهضتها؛ لأن الشباب في المرحلة الجامعية يتعرض لمعاناة من جرّاء الصراع بين واقعه وبين طموحه وأحلامه وخيالاته التي يعيشها.

ولعل مما يزيد من ذلك: تزايد أوقات الفراغ في حياته مما يجعله يصرفها في أمور لا تحمد عقباها.

ولذا يأتي دور الجامعات الإسلامية في توعية طلابها بأهمية وقت الفراغ، وتعريفهم بميولهم بعد اكتشافها وتنميتها مع توفير الإمكانات المناسبة لاستغلال وقت فراغهم بما يفيدهم وينفعهم ويعود على مجتمعاتهم بالنفع والصلاح والرفعة والتقدم.

١٥ - إعداد الكفايات العلمية والمهنية المتخصصة، وتأهيلهم تأهيلاً عالياً في جميع المجالات السياسية والثقافية والاقتصادية والإعلامية على أساس شرعي سليم بحيث يتكون منهم علماء صالحون يوجهون الناس إلى الطاعات والفضائل، يؤدون رسالتهم أحسن الأداء، يحملون وسائل التقدم المستمر والتطور الصالح في شتى الميادين.

١٦ - دعوة شباب الجامعات الإسلامية إلى دراسة حضارة الإسلام للنهوض بمسئوليتهم والقيام بواجبهم؛ ليعرفوا أن فيها الدليل الحاسم على أن الشريعة الإسلامية هي التي هيئت الناس وجعلتهم أمة لها الصدارة بين

الأمم، ودفعتهم إلى الأمام، وأن فيها الدليل الحاسم كذلك على أن حياة المسلمين وتقدمهم ورقيهم متوقف على تطبيق الشريعة الإسلامية.

١٧ - نحن بحاجة إلى دراسة شاملة عن النفط والمعادن والماء حفاظاً على هذه الثروات وترشيداً في الإستفادة منها.

١٨ - العمل على ترسيخ مفهوم الشوري الإسلامية بصفتها البديل الصحيح عن الديمقراطية الغربية، وبصفتها الضمان لتحقيق العدالة والمساواة، وبصفتها منبع الحيوية والنشاط في المجتمع المسلم.

وآخر دعوانا أن الحمدلله رب العالمين، وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

أ.د./ محمد بن أحمد الصالح

الديمقراطية الغربية في ضوء أحكام الشريعة الإسلامية

ورقة عمل مقدمة إلى ندوة

«التحديات التي تواجه الأمة الإسلامية في القرن المقبل»

«رابطة الجامعات الإسلامية بالتعاون مع جامعة الإمارات العربية المتحدة»

والمنعقدة في المدة من ٢٠ - ٢٢ شعبان ١٤١٨هـ

الموافق ٢٠ - ٢٢ ديسمبر ١٩٩٧م

إعداد

أ.د./ أحمد محمد أمين عامر

نائب رئيس جامعة قناة السويس

فرع بورسعيد

الديمقراطية الغربية في ضوء أحكام الشريعة الإسلامية

د. أحمد عامر

كل بني آدم لا تتم مصلحتهم لا في الدنيا ولا في الآخرة إلا بالاجتماع والتعاون والتناصر، فالتعاون والتناصر على جلب منافعهم والتناصر لدفع مضارهم، ولذا يقال : الإنسان مدني بالطبع فإذا اجتمعوا فلابد لهم من أمور يفعلونها يجتلبون بها المصلحة وأمور يجتنبونها لما فيها من المفسدة ويكونون مطيعين للأمر بتلك المقاصد والناهي عن تلك المفاسد فجميع بنى آدم لابد لهم من طاعة آمر وناه.

أمر النبي صلى الله عليه وسلم أمته بتولية ولاة أمور عليهم وأمر ولاة الأمور أن يردوا الأمانات إلى أهلها وإذا حكموا بين الناس أن يحكموا بالعدل وأمرهم بطاعة ولاة الأمور في طاعة الله تعالى : ففى سنن أبي داود عن أبي سعيد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : ((إذا خرج ثلاثة في سفر فليؤمروا أحدهم)) وفي سننه أيضا عن أبي هريرة مثله وفي مسند الإمام أحمد عن عبد الله بن عمر أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : ((لا يحل لثلاثة يكونون بفلاة من الأرض إلا أمروا أحدهم)) فإذا كان قد أوجب في أقل الجماعات وأقصر الإجتماعات أن يولى أحدهم، كان هذا تنبيها على وجوب ذلك فيما هو أكثر من ذلك.

وإذا كان جماع الدين وجميع الولايات هو أمر ونهي، فالأمر الذي بعث الله به رسوله هو الأمر بالمعروف والنهي الذى بعثه به هو النهي عن المنكر، وهذا نعت النبى والمؤمنين كما قال تعال : [والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر] وهذا واجب على كل مسلم قادر وهو فرض على الكفاية ويصير فرض عين على القادر الذى لم يقم به غيره، والقدرة هو السلطان والولاية. فذووا السلطان أقدر من غيرهم وعليهم من

الوجوب ما ليس على غيرهم فإن مناط الوجوب هو القدرة فيجب على كل إنسان بحسب قدرته.

فالغاية إنما هي إقامة شرع الله ومتى كان شرع الله مقاما كان التغيير والتبديل كل فترة نوعا من العبث الذى تتنزه عليه الشريعة وجريا وراء تقليد الأمم الأخرى التي نهينا عن مشابهتها للحقيقة فإن كثيرا من الأحكام الشرعية المتعلقة بأمور السياسة والاقتصاد يحاول كثير من الناس أن يطوعها لتوافق النظم السائدة في عالم اليوم ظنا منه أن في ذلك نصرة الإسلام وخوفا منهم أن يتهم الإسلام بالقصور ومخالفة هذه النظم وهذا في الحقيقة جناية على الإسلام لأن كل ما شرعه الإسلام فهو حق وخير من كل ما خالفه والإسلام إنما جاء حاكما على كل هذه النظم وليدخل كل الناس كافة تحت شرعته لا ليدخل الناس تشريعاته تحت لواء تقليد الأمم الأخرى أو جعله محكوما عليه من هذه النظم.

فإذا تعرض كتاب الله للفهم السياسي الحزبي أو الطائفي أو لتحكم النزعات الشخصية باسم الإجتهاد وحرية الرأي فإنه يتعرض في واقع الأمر للإستغلال السيء ممن ينتسبون إليه بإعلان الإيمان به ويكون تعرضه لذلك آنئذ أمارة على تفكك المسلمين وعلى نزولهم من مستوى الإيمان به وتطبيقه فى حياتهم إلى مستوى المستغلين والمحترفين به على نحو ما آلت إليه تصرف فريق من أهل الكتاب السابقين على الإسلام في تحريف كتابهم وقد تعرض فعلا كتاب الله في حقب من تاريخ المسلمين إلى هذه المحاولات الإستغلالية الإنحرافية، تعرض لتأييد وجهة نظر سياسة خاصة أو لملاءمة مع فكرة أجنبية دخيلة قد تكون مضادة لتوجيه كتاب الله لو ترك وشأنه يملي على المؤمنين به ما يريد وليس ما يريدون.

الإسلام دين هداية وسيادة وسياسة وحكم لأن ما جاء به من إصلاح البشر في جميع شئونهم الدينية ومصالحهم الاجتماعية والقضائية يتوقف على السيادة والقوة والحكم بالعدل وإقامة الحق والاستعداد لحماية الدين والدولة. والقاعدة الأولى والأساسية للحكم الإسلامي، أن الحكم في الإسلام

للأمة وشكله شورى ورئيسه الإمام الأعظم أو الخليفة منفذ لشرعه والأمة هي التى تملك نصبه وعزله قال الله تعالى في صفات المؤمنين [وأمرهم شورى بينهم] وقال للرسول صلى الله عليه وسلم [وشاورهم فى الأمر] وكان صلى الله عليه وسلم يشاور أصحابه في المصالح العامة من سياسية وحربية ومالية مما لا نص فيه فى كتاب الله تعالى.

وقد صرح كبار النظار من علما الأصول بأن السلطة في الإسلام للأمة يتولاها أهل الحل والعقد الذين ينصبون عليهم الخلفاء والأئمة ويعزلونهم إذا اقتضت المصلحة عزلهم.

جاءت كلمة الشورى في ثلاثة مواضع فقط في القران الكريم وهي : قوله تعالى : (فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم في الأمر) آل عمران – الآية ١٥٩، وقوله تعالى : (وأمرهم شورى بينهم ومما رزقناهم ينفقون) الشورى – الآية ٣٨، وقوله تعالى : (فإن أرادا فصالا عن تراض منهما وتشاور فلا جناح عليهما) البقرة – الآية ٢٣٣.

عناية القرآن دستور الإسلام والمسلمين بشئون السياسة على قدر عنايته بالشئون المدنية فهو منهل في تلك الشئون لا ينضب معينه لمن لثاء أن يجتهد وعلى عكس المسيحية التي فصلت بين الدين والدولة فدعت منذ البداية إلى ترك ما لقيصر لقيصر.

إن أي نظام سياسي هو مجموعة من قواعد عمل وما ترتكز إليه هذه القواعد من قيم وفلسفات تأتي جميعا كحل للمشكلة السياسية ومن ثم فإن التقويم الحقيقي للنظام السياسى هو تقويم قدرته على تقديم الحلول الفعالة لهذه المشكلة، ومن ثم يجب البدء بتحديد مضمون وطبيعة المشكلة السياسية في ضوء هذا المضمون معايير الحل الغربي المعاصر لها متمثلة في المبادئ التي راحت تشكل دعائم النظم السياسية الغربية المعاصرة والتي تلتقي على نسق واحد هو الديمقراطية السياسية الغربية ولكي نرى إلى أي مدى أفلح ذلك النسق في تحقيق الحل الأمثل للمشكلة السياسية.. ثم ننتقل بعد ذلك إلى

بناء ((نموذج إسلامي)) لما يجب أن يكون عليه النظام السياسي حتى يعتبر إسلاميا حقا وذلك باستنباط فروضه ومفاهيمه من الكتاب والسنة لا مستقرأة من واقع التاريخ السياسي للمجتمعات الإسلامية.

إن وصف نظام سياسى ما بانه إسلامي معناه أن علاقة الأمر والطاعة فى المجتمع تجرى على مقتضى ما جاء في الكتاب والسنة من قيم سياسية ومن أحكام قانونية في شأن تلك العلاقات وهذا مؤداه أن نموذجا نظريا للعلاقات السياسية في المجتمع الإسلامي يتعين أن يقوم على مجموعة من مفاهيم متسقة فيما بينها مستنبطة من تلك القيم والأحكام كما وردت في الكتاب والسنة، فلو أننها حاولنا تصوير مثل هذا النموذج على هذا النحو فإستنبطنا مفاهيمه من تلك الآيات والأحاديث المتفق عليها والتي تقضي بالتزام رعايا السلطة بطاعته من حيث هى فضيلة سياسية إسلامية بذاتها ومن تلك التي تعلق هذه الطاعة على مراعاة السلطة للنظام القانوني الإسلامي بقيمه وأحكامه وعلى قدم المساواة مع المحكومين ثم تلك التي تشرع مقاومة جور السلطة بل وتجعل منها واجبا إسلاميا.

تصوير هذا النموذج الإسلامي للعلاقات السياسية مرتكزا على مفهوم سياسي أساسي هو ما نستطيع تسميته بالتدرج في الالتزام السياسي وهو تدرج نستطيع تمثله على النحو التالي: على رأس سلم التدرج في الالتزام السياسي على خريطة ذلك النموذج الإسلامي يقع النظام القانوني الإسلامي بقيمه وأحكامه – بمضمونه الذي ينفرد به الإسلام – ثم يلي ذلك الالتزام السياسي العام بطاعة ذلك النظام من غير تمييز بين قيمه السياسية وأحكامه القانونية وهو التزام عام في معنى أنه شامل لمواطني الدولة الإسلامية دونما تمييز بين حاكميها ومحكوميها – إذ الأصل فى الإسلام أنه لا حكم إلا لله – فالحاكمون ملتزمون بالامتثال لحكم القانون الإسلامي ولقيمه السيالسية في علاقاتهم الخاصة وفي ممارستهم لوظيفة الحكم وفي الخروج على ذلك جور ولهذا الجور مفهوم إسلامي له موقعه على ذلك النموذج الإسلامي للعلاقات السياسية. والمحكومون كذلك ملتزمون بتلك الأحكام والقيم في علاقاتهم

الخاصة وفى علاقاتهم السياسية أي كأطراف في علاقة الأمر والطاعة فهم مكلفون بطاعة السلطة بوصف هذه الطاعة قيمة سياسية إسلامية بذاتها، بيد أنهم مكلفون في الوقت نفسه بواجب سياسي هو واجب مقاومة الجور أي جور الحاكم تبعا لخروجه على إلتزامه بأحكام النظام الإسلامي وبقيمه السياسية ولمقاومة الجور هذه مفهومها الإسلامي الذي يتخذ له هو الآخر مكانا على النموذج السياسي الإسلامي للعلاقات السياسية ثم يلي ذلك في سلم التدرج في الإلتزام السياسي بمفهومه الإسلامي إنقسام رعايا النظام القانوني الإسلامي الشركاء في ذلك الالتزام السياسى العام إلى فريقين حاكمين ومحكومين بتدرج سياسى فيما بينهما قوامه التزام المحكومين بأوامر سلطة الأمر. بيد أن هذا الإلتزام السياسي هو الآخر مرهون بإلتزام الحاكمين بالنظام القانوني الإسلامي بأحكامه وقيمه بصدد مضمون أوامرهم فإن جاء هذا المضمون خارجا على تلك القيم والأحكام الإسلامية كان بذلك جائرا وسقط إلتزام رعايا السلطة به ووجبت مقاومته، وتلك ضمانة شعبية فعالة للشرعية بمفهومها الإسلامى الشامل وهي ضمانة ينفرد بها النظام السياسي الإسلامي.

وهكذا يظهر النموج السياسى الإسلامي على هيئة بناء ذهنى من مجموعة متسقة من مفاهيم سياسية على رأسها مفهوم التدرج في الإلتزام السياسي ثم مجموعة من مفاهيم سياسية أخرى وهي جميعا إسلامية تبعا لكون مضمونها مستنبطا من الكتاب والسنة كمفهوم الطاعة من حيث هي فضيلة سياسية ومفهوم الجور في مدلوله الإسلامي ومفهوم المقاومة من حيث هي واجب إسلامي ومفهوم من حيث هي ضمانة لعدم التدلي إلى الجور.

أولا - المعيار العددي :

ينطلق جوهر الأساس للمشكلة السياسية من أنه ما من إنسان إلا وفيه -وبطبعه- درجة من الرغبة فى التسلط على الآخرين وإن تولي السلطة بما يتضمنه من احتكار لأدوات العنف يهيء للتدلي بتلك الرغبة إلى التعسف في

استعمال السلطة بل وإلى الانحراف بها، ومن هنا تبرز المشكلة السياسية بمضمون قوامه : ما الوسائل التي لو اتبعت لحالت دون ذلك التدلي ؟ وبعبارة أخرى إن السلطة السياسية ضرورة اجتماعية، إنها ضرورة يقتضيها قيام المجتمعات الإنسانية وقدرتها على الإستمرار غير أن هذه الضرورة الخيرة قد تجاوز مقتضيات خيريتها بأن تنطلق بما أوتيت من احتكار لأدوات العنف إلى الإستبداد المحطم. وهنا تظهر المشكلة السياسية بمضمون قوامه : ما الوسائل التي إن إتبعت أوقفت قوة السلطة عند خيريتها. ولقد عرف الفكر الإنساني الكثير من المعايير التى إقترحت أو استخدمت كمنطلق لحل هذه المشكلة، سنعرض منها هنا لموقف الإسلام في هذا الصدد مقارنا بما إنتهى إليه الفكر الغربى الحديث ونظمه السياسية.

تأثر الفكر السياسي الغربي الحديث وما انتهى إليه من أنظمة للحكم إلى حد كبير بكثير من المفاهيم اليونانية القديمة فلا يزال عالم الغرب مدينا بل إنه حتى أيامنا ما زال يعيش عالة على الفكر اليوناني وأغلب الألفاظ الإصطلاحية في شأن الكيان العضوي لسطلة الأمر في المجتمع أي من حيث عدد القائمين على السلطة. لقد انتهى التقسيم اليوناني القديم للحكومات إنطلاقا من عدد القائمين على سلطة الأمر إلى التمييز بين حكم الفرد الواحد وحكم القلة وحكم الكثرة. وعلى أن لحكم الفرد أشكالا عدة منها (الموناركية) (Monarchie) التي تعني حكم الملك الذي يستند إلى الوراثة أو غيرها مما يخلع على حكمه صفة الشرعية، ومثل الإستبداد (despotisma) الذي يعني حكم الفرد المستبد الذي يرتكز فى قيامه وإستمراره إلى القوة والإرهاب ومنها أيضا (الديكتاتورية) (dictature)والتي تعني تسلط فرد على الحكم في ظروف عارضة وارتباطا بمهام وقتية ويتخذ حكم القلة عديدا من الصور كالإرستقراطية (Aristocratie) و(الأوليجاركية) (Oligarchie) أي سيطرة قلة معينة بحكم ما تتمتع به من مكانة غالبا ما تكون وراثية أو بحكم الثراء أو غير ذلك والتيوقراطية (Theocratie) والتي تعني سيطرة رجال الكهنوت وهكذا.. وتتخذ سيطرة الكثرة صورتين : الديمقراطية (Democratic) وتعني سيطرة

السـواد الأعظم، والأنارشـيـة (Anarchie) وتعني الفـوضـوية رفض السـواد الأعظم الإمتثال لأي نظام ما. وفي هاتين الصورتين تفوح رائحة الغوغائية أي ترك الشـئون العامـة للغوغاء الذين لا يعلمون. وكان هذا المعيار العددي في شأن تقسيم الحكومات يبدو للعقل اليوناني أنه أقدر الوسائل على حل المشكلة السياسية وذلك ارتباطا بالمفهوم اليوناني القديم لمجتمع المدينة الذي كان يتمثل في أنها جمع من مواطنين متباينى الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية بيد أنهم جميعا شركاء في إدارة الشـئون العـامة مشاركة متناسبة مع مواقعهم الاقتصادية والاجتماعية في المدينة. ومن هنا كان الخلط في التصور اليوناني بين مفهوم الدستور وبين الكيان السياسي للمجتمع ذاته. فلقد كان اليونانيون يتكلمون في المدينة – الدولة عن الدسـتـور وعن احـتـرامـه وعن شكله وهم لا يعنون بذلك مـجـمـع القـواعـد المسـبـقـة التي تنظم أجـهـزة الحكم فى كـيـانـهـا العضوي والوظيفي وفي علاقاتها بالمحكومين وبما يترتب لها من سمو في مواجهة القوانين العادية في الدساتير المعاصرة وإنما كانوا يعنون بالدستور التناسب المتعين بين مواقع المواطنين على خريطة المشاركة في إدارة الشئون العامة وبين مواقعهم الاقتصادية والاجتماعية في المدينه أو بمعنى آخر الكيان السياسى للمدينة مفصلا على واقعها الاقتصادى والاجتماعى.. ومن هنا كان تصـور الفكر اليـوناني لأنواع الحكومـات أو إن شـئنا لتـصـنيف الحكومـات ارتباطا بمعيار العدد وانطلاقا من واقع المجتمعات، إنها أرستقراطية أو ديمقراطية تبعا لعدد المسئولين عن إدارة الشئون العامة – قلة أو كثرة – وتعبيرا عن مواقعهم الاقتصادية والاجتماعية ملاكا ذوي عراقة أو حرفيين من الدهماء وهكذا.. وإنطلاقا من هذا المفهوم كان الخلط واضحا في فكر أرسطو ومن قبله فكر أفلاطون بين مفهوم الحكم الدستوري والحكم لصالح المجموع، فلقد كان التمييز عنده بين الحكم الدستوري والحكم الإستبدادي يستند إلى فكرة التمييز بين الحكم لصالح المجموع والحكم لصالح طبقة اجتماعية اقتصارية معينة ودون أن يعني الخصوم لقانون مسبق. وحتى أفلاطون في مدينته الفاضلة (الجمهورية) لم ير للمشكلة السياسية حلا إلا في إسناد

شئون الحكم إلى الفلاسفة تبعا لكون الفضيلة عنده هي المعرفة، إنه حكم الفرد المستنير الذي لا حاجة به عنده إلى قانون أو عرف أو تقاليد يهتدى بها. ومن ثم فلا مكان في المفهوم اليوناني القديم - وحتى في مثالية أفلاطون المطلقة - للحكم الدستوري أو لفكرة الدستور المسبق التي أتى بها الإسلام للمرة الأولى في تاريخ نظم الحكم والتي لم يعرفها الغرب الحديث إلا في حدود أضيق وبعد الإسلام بأكثر من ألف عام وكما سيتضح لنا ذلك. كذلك كان المعيار العددي الذي اهتدى إليه العقل اليوناني مبدع أقدم الفلسفات كحل للمشكلة السياسية. ولكن : ما هو موقف الإسلام من المعيار العددي الغربي فى شأن الكيان العضوي للسلطة ؟. يقول الحق تبارك وتعالى وهو أصدق القائلين : «أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلا» (الفرقان - ٤٤) في هذه الآية الكريمة يبين سبحانه كيف أن الكم العددى البشرى لا يمثل قيمة بذاته ثم تأتي الآية الكريمة القائلة «قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون» (الزمر - ٩) لكي تقطع بفضل الذين يعلمون على الذين هم على غير علم «يرفع الله الذين أمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات» (المجادلة - ١١) «قل لا يستوي الخبيث والطيب ولو أعجبك كثرة الخبيث» (المائدة - ١٠٠) «ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئا» (التوبة - ٥٢) «لا خير فى كثير من نجواهم إلا من أمر بصدقة» (النساء - ١١٤) «منهم أمة مقتصرة وكثير منهم ساء ما يعملون» (المائدة - ٦٦) «فعموا وصموا ثم تاب الله عليه ثم عموا وصموا كثير منهم» (المائدة - ٧١) «وكذلك زين لكثير من المشركين قتل أولادهم شركاؤهم» (الأنعام - ١٣٧) }«وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا» (الإسراء - ٧٠) «وكثير حق عليه العذاب» (الحج -١٨) «وقالا الحمدلله الذي فضلنا على كثير من عباده المؤمنين» (النمل - ١٥) «فقست قلوبهم وكثير منهم فاسقون» (الحديد - ١٦) «فمنهم مهتد وكثير منهم فاسقون» (الحديد - ٢٧) «فاتينا الذين امنوا منهم أجرهم وكثير منهم فاسقون» (الحديد - ٢٧) «يضل به كثير» (البقرة - ٢٦) «ثم إن كثيرا منهم بعد ذلك في الأرض لمسرفون» (المائدة - ٣٢) «وإن كثيرا

من الناس لفاسقون» (المائدة - ٤٩) «وترى كثيرا منهم يسارعون فى الإثم والعدوان » (المائدة - ٦٢) «ولا تتبعوا أهواء قوم قد اضلوا من قبل وأضلوا كثيرا » (المائدة - ٧٧) «ترى كثيرا منهم يتولون الذين كفروا » (المائدة - ٨٠) «ولكن كثيرا منهم فاسقون» (المائدة - ٨١) «وإن كثيرا ليضلون بأهوائهم بغير علم» (الأنعام - ١١٩)، «ولقد ذرأنا لجهنم كثيرا من الجن والإنس» (الأعراف - ١٧٩) «إن كثيرا من الأحبار والرهبان ليأكلون أموال الناس بالباطل» (التوبة - ٣٤) «وإن كثيرا من الناس عن آياتنا لغافلون» (يونس - ٩٢) «رب إنهن أضللن كثيرا من الناس» (إبراهيم - ٣٦) «وإن كثيرا من الناس بلقاء ربهم لكافرون» (الروم - ٨) «ولقد أضل منكم جبلا كثيرا» (يس - ٦٢) «وإن كثيرا من الخلفاء ليبغى بعضهم على بعض» (ص - ٢٤) «وقد أضلوا كثيرا» (نوح -٢٤) «كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله» (البقرة - ٢٤٩) «إن الله لذو فضل على الناس ولكن أكثر الناس لا يشكرون» (البقرة - ٢٤٣) «وإن تطع أكثر من في الأرض يضلوك عن سبيل الله» (الأنعام - ١١٦) «قل إنما علمها عند الله ولكن أكثر الناس لا يعلمون» (الأعراف - ١٨٧) «إنه الحق من ربك ولكن اكثر الناس لا يؤمنون» (هود - ١٧) «والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون» (يوسف - ٢١) «ولكن اكثر الناس لا يشكرون» (يوسف - ٣٨) «ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون» (يوسف - ٤٠) «وإنه لذو علم لما علمناه ولكن أكثر الناس لا يعلمون» (يوسف - ٦٨) «وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين» (يوسف - ١٠٣) «ولكن اكثر الناس لا يؤمنون» (الرعد - ١) «بلى وعدا عليه حقا ولكن اكثر الناس لا يعلمون» (النحل - ١٨) «فأبى أكثر الناس إلا كفورا» (الإسراء - ٨٩) «ولقد صرفناه بينهم ليذكروا فأبى أكثر الناس إلا كفورا» (الفرقان - ٥٠) «لا يخلف الله وعده ولكن أكثر الناس لا يعلمون» (الروم - ٦) «ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لايعلمون» (الروم - ٣٠) «وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيرا ونذيرا ولكن اكثر الناس لا يعلمون» (سبأ - ٢٨) «قل إن ربى يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر ولكن أكثر الناس لا يعلمون» (سبأ - ٣٦) «ولقد ضل قبلهم أكثر الأولين» (الصافات - ٧١) «لخلق

السموات والأرض أكبر من خلق الناس ولكن أكثر الناس لا يعلمون» (غافر – ٥٧) «إن الساعة آتية لا ريب فيها ولكن أكثر الناس لا يؤمنون» (غافر – ٥٩) «إن الله لذو فضل على الناس ولكن أكثر الناس لايشكرون» (غافر – ٦١) «ثم يجمعكم إلى يوم القيامة لا ريب فيه لكن أكثر الناس لا يعلمون» (الجاثية – ٢٦) «وما أنزل إلينا وما أنزل من قبل وأن أكثرهم فاسقون» (المائدة – ٥٩) «لقد جئناكم بالحق ولكن أكثركم للحق كارهون» (الزخرف – ٧٨) «نبذه فريق منهم بل أكثرهم لا يؤمنون» (البقرة – ١٠٠) «منهم المؤمنون وأكثرهم الفاسقون» (آل عمران – ١١٠) «يفترون على الله الكذب وأكثرهم لا يعقلون» (المائدة – ١٠٣) «قل إن الله قادر على أن ينزل آية ولكن أكثرهم لا يعلمون» (الأنعام – ٣٧) «ماكانوا ليؤمنوا إلا أن يشاء الله ولكن أكثرهم يجهلون» (الأنعام – ١١١) «ولا تجد أكثرهم شاكرين» (الأعراف – ١٧) «وما وجدنا لأكثرهم من عهد» (الأعراف – ١٠٢) «وإن وجدنا أكثرهم لفاسقين» (الأعراف – ١٠٢) «ألا إنما طائرهم عند الله ولكن أكثرهم لا يعلمون» (الأعراف – ١٣١) «إن أولياؤه إلا المتقون ولكن أكثرهم لا يعلمون» (الأنفال – ٣٤) «يرضونكم بأفواههم وتأبى قلوبهم وأكثرهم فاسقون» (التوبة – ٨) «وما يتبع أكثرهم إلا ظنا» (يونس – ٣٦) «ألا إن وعد الله حق ولكن أكثرهم لا يعلمون» (يونس – ٥٥) «إن الله لذو فضل على الناس ولكن أكثرهم لا يعلمون» (النحل – ٧٥) «يعرفون نعمة الله ثم ينكرونها وأكثرهم الكافرون» (النحل – ٨٣) «قالوا إنما أنت مفتر بل أكثرهم لايعلمون» (النحل – ١٠١) «بل أكثرهم لا يعلمون الحق فهم معرضون» (الأنبياء – ٢٤) «أم يقولون به جنة بل جاءهم بالحق وأكثرهم للحق كارهون» (المؤمنون – ٧٠) «أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون» (الفرقان – ٤٤) «إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنون» (الشعراء – ٨) «إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين» (الشعراء – ٦٧) «إن فى ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤنين» (الشعراء – ١٠٣) «إن فى ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين» (الشعراء – ١٢١) «إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين» (الشعراء – ١٣٩) «إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين» (الشعراء –

١٥٨) «إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين» (الشعراء - ١٧٤) «إن فى ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين» (الشعراء - ١٩٠) «يلقون السمع وأكثرهم كاذبون» (الشعراء - ٢٢٣) «إله مع الله بل أكثرهم لا يعلمون» (النمل - ٦١) «إن ربك لذو فضل على الناس ولكن أكثرهم لا يشكرون» (النمل - ٧٣) «ولتعلم أن وعد الله حق ولكن أكثرهم لا يعلمون» (القصص - ١٣) «رزقا من لدنا ولكن أكثرهم لا يعلمون» (القصص - ٥٧) «قل الحمد لله بل أكثرهم لا يعقلون» (العنكبوت - ٦٣) «فانظروا كيف كان عاقبة الذين من قبل كان أكثرهم مشركين» (الروم - ٤٢) «قل الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون» (لقمان - ٢٥) «بل كانوا يعبدون الجن أكثرهم بهم مؤمنون» (سبأ - ٤١) «لقد حق القول على أكثرهم فهم لا يؤمنون» (يس - ٧) «هل يستويان مثلا الحمدلله بل أكثرهم لا يعلمون» (الزمر - ٢٩) «بل هي فتنة ولكن أكثرهم لا يعلمون» (الزمر - ٤٩) «بشيرا ونذيرا فأعرض أكثرهم فهم لا يسمعون» (فصلت - ٤) «ما خلقناهما إلا بالحق ولكن أكثرهم لا يعلمون» (الدخان - ٣٩) «إن الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعلقون» (الحجرات - ٤) «وإن للذين ظلموا عذابا دون ذلك ولكن أكثرهم لا يعلمون» (الطور - ٤٧) «ولو أنا كتبنا عليهم أن اقتلوا أنفسكم أو أخرجوا من دياركم ما فعلوه إلا قليل منهم» (النساء - ٦٦) «ومن امن وما آمن معه إلا قليل» (هود - ٤٠) «قل رب أعلم بعدتهم ما يعلمهم إلا قليل» (الكهف - ٢٢) «وقليل من عبادي الشكور» (سبأ - ١٣) «إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وقليل ما هم» (ص - ٢٤) «ثم توليتم إلا قليلا منكم وأنتم معرضون» (البقرة - ٨٣) «بل لعنهم الله بكفرهم فقليلا ما يؤمنون» (البقرة - ص٨٨) «فلما كتب عليهم القتال تولوا إلا قليلا منهم» (البقرة - ٢٤٦) «فشربوا منه إلا قليلا منهم» (البقرة - ٢٤٩) «ولكن لعنهم الله بكفرهم فلا يؤمنون إلا قليلا» (النساء - ٤٦) «ولولا فضل الله عليكم ورحمته لا تبعتم الشيطان إلا قليلا» (النساء - ٨٣) «بل طبع على الله عليها بكفرهم فلا يؤمنون إلا قليلا» (النساء - ١٥٥) «ولا تزال تطلع على خائنة منهم إلا قليلا منهم» (المائدة - ١٣) «ولا تتبعوا من دونه أولياء قليلا ما تذكرون» (الأعراف - ٣) «وجعلنا لكن

فيها معايش قليلا ما تشكرون» (الأعراف – ١٠) «ينهون عن الفساد فى الأرض إلا قليلا ممن أنجينا منهم» (هود – ١١٦) «لئن أخرتن إلى يوم القيامة لأحتنكن ذريته إلا قليلا» (الإسراء – ٦٢) «وإذا لا يلبثون خلافك إلا قليلا» (الإسراء – ٧٦) «وهو الذى أنشأ لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلا ما تشكرون» (المؤمنون – ٧٨) «أإله مع الله قليلا ما تذكرون» (النمل – ٦٢) «وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلا ما تشكرون» (السجدة – ٩) «ولا يأتون البأس إلا قليلا» (الأحزاب – ١٨) «ولو كانوا فيكم ما قاتلوا إلا قليلا» (الأحزاب – ٢٠) «لنغرينك بهم ثم لا يجاورونك فيها إلا قليلا» (الأحزاب – ٦٠) «وما يستوى الأعمى والبصير والذين آمنوا وعملوا الصالحات ولا المسيء قليلا ما تتذكرون» (غافر – ٥٨) «فسيقولون بل تحسدوننا بل كانوا لا يفقهون إلا قليلا» (الفتح – ١٥) «وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلا ما تشكرون» (الملك – ٢٣) «وما هو بقول شاعر قليلا ما تؤمنون» (الحاقة – ٤١) «ولا بقول كاهن قليلا ما تذكرون» (الحاقة – ٤٣) «كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله» (البقرة – ٢٤٩).

وإذا إنتقلنا بهذه القيم القرآنية العامة إلى ميدان الحكم قلنا بان العبرة في القيام على شئون الجماعة ليست البتة بالكم البشري إنما هي في الإسلام بالكيف. إن تسلط السواد الأعظم من الناس على المصلحة العليا للجماعة مرفوض في الإسلام ذلك بان تدبير هذه المصلحة يقتضى درجة من العلم والحكمة لا تتوفر لذلك السواد. إن العبرة ثم تولى شئون الجماعة هي – في الإسلام – للإيمان والعلم اللذين يرفعان أصحابهما درجارت فوق من عداهم.

إنها إذن ودونما حاجة إلى إجتهاد ((حكومة الخيرة المؤهلة للحكم)) وليست البتة تسلط السواد الأعظم المهين للغوغائية. ولو أننا تصفحنا كتابات فقهاء المسلمين الأوائل الصادقين من أهل السنة والجماعة في مجالنا هذا للاحظنا كيف أنهم قد إستنبطوا من تلك القيم القرآنية ما استنبطناه. فلقد التقوا على شروط يتعين توافرها لمن يتولى أمر المسلمين تقطع بالتأكيد لمعيار الكيف ودون الكم أي بحكم الخيرة المؤهلة دون الكثرة التي لا تعلم، ففي كتاب ((الأحكام

السلطانية)) ينقل لنا الماوردي المتوفى سنة ٤٥٠هـ ما كان شائعا في عصره بصدد الكيان العضوي لسلطة الأمر بل وبصدد أهل الإختيار (أي بصدد الناخبين في نظمنا العصرية) على السواء لدى الصادقين من فقهاء أهل السنة والجماعة فيقول : ((إن الإمامة فرض كفاية كالجهاد وطلب العلم فإن قام بها من هو أهلها سقط فرضها عن الكافة، وإن لم يقم بها أحد خرج من الناس فريقان : أحدهما: أهل الإختيار (الناخبون في تعبيرنا المعاصر) حتى يختاروا إماما للأمة. والثاني: أهل الإمامة (المرشحون لمناصب الحكم في تعبيرنا المعاصر) حتى ينصب أحدهم للإمامة وليس على من عدا هذين الفريقين من الأمة في تأخير الإمامة حرج ولا إثم وإذا تميز هذان الفريقان من الأمة وجب أن يعتبر كل منهما بالشروط المعتبرة فيه، وأما أهل الإختيار (الناخبون) فالشروط المعتبرة فيهم ثلاثة: الأول: العدالة الجامعة لشروطها. والثاني: العلم الذي يتوصل به إلى معرفة من يستحق الإمامة على الشروط المعتبرة فيها. الثالث: الرأي والحكمة المؤديان إلى اختيار من هو للإمامة أصلح وبتدبير المصالح أقوم وأرفع. وأما أهل الإمامة (المرشحون لتولي منصب الحكم) فالشروط المعتبرة فيهم سبعة: الأول: العدالة على شروطها. والثاني: العلم المؤدي إلى الإجتهاد. والخامس : الرأي المفضي إلى سياسة الرعية وتدبير المصالح)). وهكذا يأتي الفقهاء المسلمون الأوائل من أهل السنة والجماعة ليقطعوا بأنه انطلاقا من تلك الآيات لا مجال البتة في شان الكيان العضوي لسلطة الأمر بل وفي شأن ناخبيهم (بالتعبير العصري) على السواء للسواد الأعظم لمجرد كونه كثرة. وإنما هذا المجال من شأن الفضلاء ذوي العلم والرأي والحكمة. فليس أهل الإختيار هم في الإسلام من الغوغاء وإنما هم من المؤهلين لحسن الاختيار وهؤلاء قلة في كل زمان ومكان. وأهل الإمامة كذلك من باب أولى.

وموقف الإسلام هذا من المعيار العددي كحل للمشكلة السياسية يذكرنا بذلك النقد الذي يوجهه النابهون من الملاحظين والمحللين الغربيين إلى مبدأ سيادة الأمة حين وضع موضع التطبيق هناك فكانت النظم النيابية بمجالسها

المنتخبة التى راحت تنفرد بسلطة الدولة بإعتبار تلك المجالس هي أداة التعبير عن الإرادة العامة ومن ثم تنطلق في تسلطها من غير قيد أو مسئولية تبعا لضياع المسئولية بتعدد المسئولين. إن تعدد القائمين على السلطة (أعضاء المجالس) وتتابعهم يفسح المجال هناك -على حد تعبير هؤلاء المحللين الغربيين أنفسهم - لتعاقب الانتهازيين من غير المؤهلين على الحكم. إن النقد الذي وجهه ولا يزال يوجهه النابهون من المحللين الغربيين للنظم النيابية الغربية المعاصرة بالتفصيل المتقدم يكفي في ذاته كتأييد ضمني من جانبهم لموقف الإسلام المتقدم من المعيار العددي الغربي.

ثانيا - مبدأ سيادة الأمة :

يقوم نظام الدولة الغربية المعاصرة على دعامة وهي مبدأ سيادة الأمة أو سيادة الشعب ويرد الغربيون مبدأ سيادة الأمة او سيادة الشعب إلى فلسفات القرنين السابع عشر والثامن عشر في شأن النشأة التعاقدية للمجتمع السياسي لدى كل من لوك الإنجليزى وروسو الفرنسي تلك الفلسفات التي بدت لأصحابها قادرة بما انتهت إليه على تقديم حل فعال للمشكلة السياسية متمثلا عند لوك في فكرة سيادة الأمة وعند روسو في فكرة سيادة الشعب وذلك في مواجهة سلطات الملوك المطلقة وامتيازات النبالة حينذاك ولحساب البرجوازية النامية فيما بعد ويرد أنصار مبدأ سيادة الأمة مبدأهم هذا إلى لوك الإنجليزى بالذات في كتابه عن الحكومة المدنية سنة ١٦٩٠م بينما يرد مبدأ سيادة الشعب إلى فكر روسو الفرنسي في كتابه العقد الإجتماعى سنة ١٧٦٢م. لقد كان لوك يتصور فى كتابه الحكومة المدنية أن حل المشكلة السياسية إنما يقبع في الديمقراطية النيابية والتي من شأنها تسويد البرلمان كنائب عن الأمة وكبديل لسيادة الملوك وانطلاقا من أن السلطة تنشأ نشأة تعاقدية في معنى أن مصدرها هو الرضا بها من جانب المحكومين، بينما إنتهى روسو بعقده السياسي - الإفتراضى البحت - إلى فكرة سيادة الشعب تلك السيادة غير القابلة - عنده - للتصرف فيها أو النزول عنها، الأمر الذي لا

تستقيم معه فكرة النيابة والنظم النيابية القائمة على مجالس منتخبة تتولى عن الأمة صاحبة السيادة ممارسة مظاهر سيادتها. فعند روسو ليست السيادة إلا مزاولة للإدارة العامة، والإدارة العامة لا تمثل إلا بذاتها فهي إما هي بذاتها وإما غيرها وليس من وسط بين هذا وذاك. ومن ثم فإن نواب الشعب ليسوا ولن يستطيعوا أن يكونوا ممثليه فهم ليسوا إلا مندوبيه. وإستنادا إلى هذا يعلن روسو أن الشعب الإنجليزى - في ظل النظام النيابي - يعتقد أنه حر ولكنه على الخطأ فهو ليس حرا إلا أثناء إنتخابه لأعضاء البرلمان حتى إذا ما تم إنتخابهم عاد عبدا. ومهما يكن من أمر ذلك التباين بين فلسفة لوك وروسو بصدد فكرة السيادة ومضمونها فإن النظم السياسية الغربية المعاصرة قد راحت تلتقي على فكرة سيادة الأمة كمبدأ لتنظيم سلطة الدولة الأمر الذي جعل من هذه النظم نظما نيابية تشترك في نسق واحد هو الديمقراطية الغربية والذي قوامه إسناد سلطة الدولة إلى هيئة منتخبة تحكم العلاقة بين أعضائها المنتخبين - والذين يعتبرون ممثلين للأمة ومن ثم المعبرين عن الإرادة العامة - وبين المحكومين الناخبين بناء على فكرة الوكالة (التمثيلية) والتى بمقتضاها يعتبر عضو البرلمان ممثلا للأمة بأسرها لا لناخبي دائرته فحسب ومن ثم لا يكلف بتقديم حساب لناخبيه وليس لهؤلاء حق إقالته أثناء مدة النيابة. وهكذا تنقطع صلة المنتخَب بناخبيه بمجرد إنتهاء عملية الإنتخاب وتستقل بالتالى المجالس المنتخبة طوال مدة نيابتها عن المواطنين الذين ينقلبون تبعا لذلك إثر إنتهاء عملية الإنتخاب إلى مجرد رعايا للحكومة النيابية، وبهذا ينتهي الأمر عملا إلى هيئات حاكمة تستقل بمهام الحكم طوال مدة النيابة وبمنأى عن رقابة ناخبيهم، وهنا نطرح السؤال الآتي: ما الحل الفعال الذي يكون مبدأ سيادة الأمة قد قدمه - في ظل الدولة الغربية المعاصرة - كحل للمشكلة السياسية؟ إن كل ما قدمه هذا المبدأ قد راح ينحصر عملا في أعمال المعيار العددى في شأن الكيان العضوي للسلطة إن راح يحل محل الحاكم الأوتقراطي - الذي يتلقى سلطته عن غير طريق الإنتخاب - رجال بأعداد كبيرة يعينون بالإنتخاب وفي ما عدا ذلك فإنه لم يقدم حلا ما للمشكلة

السياسية. فهو إذن وضع تلك المجالس بمنأى عن رقابة الناخبين هيأ لها التدلي الى استبداد يفلت من كل جزاء. وتحضرنا همنا تلك العبارات المنتشرة في الأدب السياسي الإنجليزي والتي منها ((إن إنجلترا لا يحكمها المنطق وإنما يحكمها البرلمان)) ومنها أيضا ((إن البرلمان الإنجليزي قادر على كل شيء إلا أن يقلب المرأة إلى رجل والرجل إلى امرأة)) ولعل أبلغ ما يؤكد صحة تصورنا هذا لما آل إليه مبدأ سيادة الأمة في الغرب المعاصر في التطبيق من نقيض ما كان يرجى من ورائه ما أبرزه الكثير من المحللين فى أعقاب الثورة الفرنسية الكبرى لعام ١٧٨٩م في هذا الصدد. فلقد أبرزوا كيف أن مبدأ سيادة الأمة أدى في التطبيق إلى دولة بقوة واحدة مركزية طاحنة يزحف إليها الإنتهازيون مجمعين في مجالس (برلمانات) تتسلط بإسم كيان خيالي لا وجود له (الأمة)، وبإعتبارها – المجالس – تعبر عن إرادته ومن ثم تنطلق في تسلطها من غير قيد أو مسئولية تبعا لضياع المسئولية بتعدد المسئولين. إن مبدأ سيادة الأمة أصبح فى التطبيق مجرد سند أيديولوجي – من غير مضمون موضوعي – لإستبداد المجالس. لقد راحت تلك المجالس تنفرد بالسلطة بإعتبارها سلطة الشعب، ومن ثم فلا راد لكلمتها وباعتبار تلك المجالس أداة التعبير عن (الإرادة العامة) راحت تمثل المصدر الوحيد للقانون المعبر عن هذه الإرادة المعصومة، ومن ثم فإذا تكلم القانون وجب على الضمير أن يصمت وهكذا ينتهي الأمر من ثنايا مبدأ سيادة الأمة إلى طاغية بمئات الرؤوس (المجالس) كبديل لطاغية برأس واحدة (الملكية المستبدة القديمة) ومن ثم إلى نقيض ما كان يتصور من ورائه. وعلى حد تعبير البعض فإن إعلان سيادة الشعب لم يكن له من أثر سوى إحلال ملكية متخيلة هي الإرادة العامة محل ملك حي والإرادة العامة بطبيعتها قاصرة على الدوام لأنها عاجزة عن أن تحكم بنفسها ومن ثم فهى فى حاجة دائمة إلى من يقوم عليها. وبتعدد القائمين عليها (أعضاء المجالس) وتتابعهم ينفسح المجال لاحتمال أكبر لتعاقب الانتهازيين من غير المؤهلين على الحكم والذين لا راد لكلمتهم لأنها التعبير عن الإرادة العامة والإرادة العام لا تخطئ ولا تجور. وجملة القول في شأن مبدأ

سيادة الأمة كدعامة ثانية لنظام الدولة الغربية المعاصرة أنه قد أدي في التطبيق – في ظل النظم النيابية – إلى هيئات حاكمة بسلطات مطلقة ونهائية لا تمتثل إلا لقانون الدولة الذى هو من وضعها ومن ثم فهي لا تتقيد في النهاية إلا بإرادتها. إنه إذ ن الإستبداد المتدلي بطبيعته إلى الجور الذي لا عاص للمواطنين منه، وسنرى فيما يلى كيف أن الإسلام لم يكن بحاجة إلى شعار ما من شاكلة سيادة الأمة أو سيادة الشعب لتقديم الضمانة الفعالة لعدم تدلى القائمين على سلطة الأمر إلى الجور، تلك الضمانة التي جاءت في الإسلام كعنصر من عناصر النسق السياسي الإسلامي ومقومة من مقومات نظامه القانوني في تعبيرنا المعاصر.

والان نستمر في تبيان الحلول التي قدمها الإسلام للمشكلة السياسية، فتد سبق أن أوضحنا موقف الإسلام من المعيار العددي الغربي بصدد الكيان العضوي لسلطة الأمر ثم نبين الآن موقفه من المفهوم الغربي المعاصر للدولة، فموقفه من الديمقراطية الغربية المعاصرة التي جاءت تطبيقا لمبدأ سيادة الأمة هناك...

والسؤال الآن هو: ما موقف الإسلام من فكرة الدولة الغربية المعاصرة والتي مضمونها كما قدمناه انفا إنتقال سلطة المجتمع السياسية من حالة القوة الخام إلى القوة المنظمة أي من حالة الإمتثال بالخوف إلى الإلتزام بالنظام أو في معنى آخر الإنتقال من حكم الفرد إلى حكم القانون الأمر الذي يربط فكرة الدولة الغربية المعاصرة بفكرة القانون مهيأ بذلك لإعمال مبدأ المشروعية بمدلوله الغربي. إن نظرة ممعنة فيما جاء بالقرآن وبالأحاديث في شأن سند الإلتزام بطاعة القائمين على سلطة الأمر في المجتمع الإسلامي تقطع بالقول بأن الإسلام قد سبق الغرب الحديث بأكثر من ألف عام في تصويره للسلطة المنظمة في المجتمع ومن ثم الخاضعة للقانون. فوفقا لأحكام الإسلام طاعة السلطة فضيلة مامور بها : بقول الله تعالى : «يا أيها الذين امنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم» (النساء – ٥٩). ويقول الرسول صلى الله عليه وسلم : ((من أطاعني فقد أطاع الله ومن عصاني فقد

عصا الله ومن يطع الأمير فقد أطاعني ومن يعصي الأمير فقد عصاني)). غير أن هذه الطاعة في الإسلام مرهونة بإلتزام القائم على سلطة الأمر بأحكام الشرع (الكتاب والسنة) فيما يصدر عنه من أوامر. فالأصل في الإسلام أنه "لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق". وهذا الحديث يتضمن قيمة سياسية إسلامية عليا مؤداها -كما ورد في حديث آخر- "السمع والطاعة على المرء المسلم فيما أحب وكره مالم يؤمر بمعصية فإن أمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة" وهذه أحاديث متفق عليها. وهكذا يقضي الإسلام بربط الإلتزام بطاعة القائمين على السلطة بإلتزام هؤلاء بأحكام الشرع أي بالقرآن والسنة، وهذا مؤداه سلخ السلطة عن أشخاص القائمين عليها لإخضاع ممارستها لدستور مسبق هو كتاب الله وسنة رسوله. أليس هذا هو بعينه مضمون مفهوم الدولة الغربية الحديثة الذي يدّعى الغربيون أنه من إبتداع فكرهم الحديث؟! ولو أنهم علموا بحقيقة ذلك التدرج في الإلتزام السياسي الذي يتعين أن يقوم عليه المجتمع الإسلامي ذلك التدج المستنبط من الكتاب والسنة والذي قوامه التزام أعضاء المجتمع الإسلامي والقائم على سلطة الأمر بذاته وعلى قدم المساواة بدستور الإسلام – القرآن والسنة – من ناحية وتعليق الإلتزام بطاعة السلطة في المجتمع الإسلامي على إلتزام القائم عليها بقواعد ذلك الدستور من ناحية أخرى ولو أنهم قد علموا ذلك لما ادعوا بأن مفهوم دولة القانون هو من تصوير فلسفاتهم السياسية الحديثة.. جملة القول إذن فى هذا الصدد أن الإسلام هو الذى قدم وللمرة الأولى في تاريخ النظم السياسية أروع صورة للسلطة المنظمة تنظيما قانونيا ومن ثم لدولة القانون.

والآن : ما موقف الإسلام من فكرة سيادة الأمة ومن مفهوم الديمقراطية النيابية الغربية المعاصرة التي جاءت تبطيقا لها؟ لقد سبق أن قدمنا أن الديمقراطية النيابية الغربية المعاصرة ترتد بجذورها الفلسفية هناك إلى فكر كل من الفيلسوف الإنجليزي لوك والفيلسوف الفرنسي روسو، فلقد أخذت عن لوك فكرته في تسويد البرلمان بإعتباره نائبا عن الأمة مصدر كل سلطة – فكرة سيادة الأمة – تبعا لفكرته عن النشأة التعاقدية للمجتمع السياسي.

بيد أن هذه الديمقراطية الغربية المعاصرة راحت تتنكر تماما لفكرة لوك عن حق المقاومة كحق طبيعي للمواطنين في مواجهة إخلال السلطة بإلتزامها بالمحافظة على حقوقهم الطبيعية الخالدة والتي في مقدمتها الملكية والحرية، وذلك على الرغم من أن حق المقاومة هذا يمثل الهدف النهائي للوك من وراء فلسفته عن العقد السياسي. كما أخذت الديمقراطية الغربية النيابية المعاصرة من فلسفة روسو فكرته عن الإرادة العامة التي لا تخطيء والتي لا راد لكلمتها ممثلة فى القانون، الأمر الذي هيأ في تلك النظم لمزيد من التأكيد للسيادة الفعلية للمجالس النيابية التي راحت تستقل بممارسة الوظائف الرئيسية للدولة بمنأى عن كل رقابة شعبية طوال مدة عضويتها خارجة بذلك على مضمون سيادة الشعب على النحو الذي ضمنه لها روسو ذاته. وجملة القول فإن النظم النيابية الغربية المعاصرة قد أخذت من فلسفة كل من لوك وروسو مايدعم سيادة المجالس النيابية بينما رفضت تماما فكرة لوك عن مقاومة الجور. فإذا إنتقلنا إلى الإسلام لاحظنا أنه ليس بحاجة البتة إلى مثل تلك الشعارات الغربية كشعار سيادة الأمة فى مجالنا هذا ذلك بان النظام القانوني الإسلامي ينطوي فى ذاته على أروع ضمانة للشرعية متمثلة -كما قدمنا - في واجب مقاومة جور القائمين على سلطة الأمر كواجب قانوني بينما ترفض النظم النيابية الغربية المعاصرة مثل هذا الحق بالنسبة لمواطنيها بل إنها ترى في مقاومة جور سلطة الدولة عملا هداما. وهنا تجدر الإشارة إلى أن الفكر الإسلامي قد استطاع أن يقدم في مجالنا هذا تنظيرا عقليا رائعا لطبيعة العلاقة بين الحاكمين والمحكومين في المجتمع الإسلامي كدعامة نظرية لحق المحكومين في مقاومة الجور ومن ثنايا فكرة العقد السياسي التي عرفها الفكر الغربي في القرنين السابع عشر والثامن عشر الميلاديين أي بعد الفكر الإسلامي بقرون طويلة. فلو أننا تصفحناالباب الخاص بالخلافة في كتاب الأحكام السطانية للماوردي (٤٥٠هـ) للاحظنا كيف أنه قد ربط تحليله للخلافة في ذلك الباب بفكرة العقد، فلقد عنون الباب بعبارة (عقد الإمامة) ثم راح يقدم تنظيرا عقليا رائعا لنشاة السلطة نشاة تعاقدية في المجتمع الإسلامي وعلى

نحو يجعل من هذا التنظير سندا عقليا قويا لحق المقاومة كضمان للشرعية. فلقد صور الماوردي في بابه هذا علاقة السلطة بالرعية على أنها علاقة تعاقدية تتحد معالمها على مقتضى عقد هو عقد الإمامة والذي به تنشأ السلطة مقيدة بواجبات تدور في جملتها حول الإلتزام بأعمال النظام القانوني الإسلامي في جملته مما يجعل إستمرارها مرهونا بإستمرار إلتزامها بأعمال ذلك النظام كما يترتب على مقتضى هذا العقد للرعية حقوق يسأل الإمام عن أدائها قبل الأمة فإذا أدى الإمام واجباته هذه تنشأ له حقوق قبل الأمة تتلخص في واجب الطاعة. غير أن واجب الطاعة هذا يقابله إلتزام يرتبط به ألا وهو إلتزام الإمام بعدم الإنقياد إلى الهوى وعدم الخروج على أحكام الشرع فإن هو إتبع هواه وفسق فظلم وجار خرج عن الإمامة. وجملة القول إذن أن الماوردي راح بتنظيره لنشأة السلطة نشأة تعاقدية أي برضا المحكومين من ثنايا عقد هو عقد الإمامة والذى واقعته المنشئة له تبدو فى عملية البيعة يقدم ما يصلح كسند نظرى لتسويغ المقاومة ذلك بانه قد ربط واجب طاعة الأمة للإمام بحرصه على عدالته باعتبار انهما إلتزامان متقابلان على مقتضى العقد المنشيء لسلطة الإمام ومن ثم فإن جور الإمام يسقط عن الأمة واجب الطاعة بل ويجيز عزله من الإمامة وثمة نتيجة منطقية لذلك هو أن تصبح كل وسائل المقاومة مشروعة ما دامت تهدف إلى إخراجه من الخلافة بعد أن أضحى بقاؤه فيها غير شرعى. وهكذا يكون الماوردي قد قدم تنظيرا عقليا لمصدر السلطة فى المجتمع الإسلامي من ثنايا فكرة العقد السياسي على نحو يجعله صالحا لتبرير حق مقاومة الجور كحق يترتب للرعايا على مقتضى عقد الإمامة. ويجدر بنا هنا أن نشير إلى أن روعة فكرة العقد السياسي عند الماوردي كتنظير عقلي لعلاقة السلطة برعاياها والتي تصلح في النهاية كسند عقلي لتسويغ مقاومة الجور إنما تتمثل في أن تنظير الماوردي لتلك العلاقة على أنها تعاقدية جاء تنظيرا حيا إذ أفلح في الإنطلاق في تحليله لتلك العلاقة وكأنها تنشأ عن إتفاق فعلى تبدو الواقعة المنشئة له في البيعة بينما وقف تنظير لوك الإنجليزي فيما بعد الماوردي بقرون طويلة – لعلاقة السلطة

برعاياها من ثنايا الفكرة نفسها عند مجرد الفروض العقلية البحتة. فالعقد المنشئ للمجتمع السياسي عند لوك هو عقد افتراضي بحت يأتى ضمن سلسلة من إفتراضات عقلية صرفة لا أساس لها في الواقع. فحالة الطبيعة اللاسياسية السابقة على عقد لوك هي حالة إفتراضية لأن الإنسان والمجتمع والسياسة ظواهر متلازمة فحيث يوجد البشر تقوم الجماعات حتما وحيث تقوم الجماعات تنشأ السلطة السياسية كضرورة تمليها قدرة المجتمعات على الإستمرار ومن ثم فإن البدء فى فلسفة لوك من حالة الطبيعة التي لا تعرف السلطة السياسية هو افتراض عقلى بحت وكذلك الإنتقال منها إلى حالة المجتمع السياسي بعقد هو الآخر افتراض عقلي صرف. أما الماوردى فقد راح يصور تنظيره لنشأة سلطة الدولة الإسلامية نشأة تعاقدية تنظيرا حيا إذ راح يسند العقد المنشىء لسلطة ولى الأمر فى المجتمع الإسلامى إلى واقعة فعلية هي البيعة ليرى فيها الواقعة المنشئة للعقد ومن هنا كان وصفنا تنظهيره بأنه حى. ثم إن فكرة العقد السياسى عند الماوردي تبدو قادرة تماما على تقديم سند عقلى لإستمرار مسئولية ولي الأمر في المجتمع الإسلامى أمام رعاياه على طول ولايته وذلك بأن ولى الأمر طبقا لتحليل الماوردي هو من الرعايا في مركز تعاقدى وفي معنى أن هؤلاء يستطيعون عزله كلما رأوا أنه قد خرج على التزاماته في العقد بأنه فجر أو جار، ومن هنا فإن نظريته عن العقد السياسي ترفض تماما فكرة استقلال المجالس الحاكمة المنتخبة عن ناخبيهم طوال مدة العضوية في ظل النظم النيابية الغربية المعاصرة والتى تستند إلى فكرة الوكالة التمثيلية هناك تلك الفكرة التي على مقتضاها لا يكلف أعضاء المجالس طوال مدة عضويتهم بتقديم حساب لناخبيهم كما لا يجوز للناخبين إقالة هؤلاء الأعضاء قبل نهاية مدة العضوية وإنما الذي يستقيم مع فكرة الماوردي عن العقد السياسى بأبعادها المتقدمة عن فكرة الوكالة الإلزامية التي مضمونها أن أعضاء المجالس المنتخبة ليسوا ممثلين للأمة وإنما ينظر إليهم على أنهم قد تلقوا من ناخبيهم وكالة على سبيل الإلزام من طبيعة وكالة القانون الخاص ومن ثم يكلفون بتقديم حساب لناخبيهم أولا بأول كما يجوز لهؤلاء الناخبين

إقالتهم قبل نهاية مدة العضوية، الأمر الذي يضع تلك المجالس تحت رقابة دائمة من جانب الناخبين إنها فكرة الوكالة الإلزامية التي حرصت النظم السياسية الغربية المعاصرة على إستبعادها تماما تمكينا لبرلمانها من الاستقلال إزاء الناخبين طوال مدة العضوية.

وهكذا تبدو روعة فكرة الماوردى عن العقد السياسي كعقد عقلي حي لا لحق المقاومة فحسب وإنما الديمقراطية - بالتعبير الغربي المعاصر - قوامها إذابة الحواجز بين الحاكمين والمحكومين وعلى نقيض ما انتهت إليه النظم النيابية الغربية المعاصرة، إذ تقوم كما هو واضح مما تقدم على التمكين لاستقلال المجالس الحاكمة المنتخبة بوظائفها عن الناخبين مما يهيئ لتدلي تلك المجالس إلى الإستبداد وكل ذلك وراء واجهة أيديولوجية براقة هى شعار سيادة الأمة. ذلك هو تحليل قاضي القضاة الماوردي للخلافة الإسلامية وهو من أظهر المبرزين من فقهاء أهل السنة والجماعة في موضوعنا.

ولعل أهم خصائص الدولة الإسلامية أنها تتفق ومبادئ الديمقراطية في ضرورة أن تتكون الحكومة أو تتغير أو تسير برأي الشعب إلا أن الشعب ليس مطلق العنان فيها بحيث يكون قانون الدولة ومبادئ حياتها وتخطيط سياستها الداخلية والخارجية وكافة طاقاتها ومصادرها تابعا لهواه ومزاجه تميل معه حيث يميل وإنما ينضبط هوى الشعب ويستقيم بقانون الله ورسوله - وهو الدستور الأعلى - وبمبادئه وأحكامه وحدوده وضوابطه الأخلاقية فتسير الدولة في طريق محدد مرسوم ليس في استطاعة هيئتها التنفيذية أو التشريعية أو القضائية أو حتى في استطاعة الشعب بأكمله أن يغيره اللهم إلا إذا قرر الشعب نفسه نقض العهد والميثاق والخروج عن دائرة الإيمان.

وعن مسئولية الحكومة الإسلامية فإن الحكومة وسلطاتها وأموالها أمانات لله وللمسلمين ينبغى إيكالها إلى اناس يخشون الله عادلين مؤمنين وليس لأحد حق التصرف في هذه الأمانات بطرق مشبوهة أو لأغراض شخصية. يقول تعالى: «إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل إن الله نعما يعظكم به إن الله كان

سميعا بصيرا» (النساء -٥٨).

إن مصدر السيادة هو الأمة وحدها لا الخليفة لأنه وكيل عنها في أمور الدين وفي إدارة شئونها حسب شريعة الله ورسوله ولهذا يستمد سلطانه منها ولها حق نصحه وتوجيهه وتقويمه إن أساء بل حق عزله من المنصب الذي وليه عنها باختيارها إن وجد ما يوجب عزله فيكون من المنطق أن يكون مصدر السيادة هو الموكل الأصيل لا النائب الوكيل وفي هذا يقول الشيخ عبد الوهاب خلاف في كتابه (السياسة الشرعية ص ٨٥) (وهذه الرئاسة العليا مكانتها من الحكومة الإسلامية مكان الرئاسة العليا من أية حكومة دستورية لأن الخليفة يستمد سلطانه من الأمة الممثلة في أولي الحل والعقد ويعتمد في بناء هذا السلطان على ثقتهم به ونظره في مصالحهم ولهذا قرر علماء المسلمين أن للأمة خلع الخليفة لسبب يوجبه وإن أدى إلى الفتنة احتمل أدني المضرتين. وقد يستدل على أن الأمة مصدر السلطات بحديث (لا تجتمع أمتى على ضلالة) أو كما جاء في رواية أخرى (سألت ربي ألا تجتمع أمتى على ضلالة وأعطانيها)، فإن هذا معناه أنه متى اجتمعت الأمة على رأى كان هو الحق وكان واجبا الأخذ به لأنه صدر ممن له حق السيادة. فلم يعتبر الفقه الإسلامى الوالي صاحب حق في السيادة بل اعتبرها حقا للأمة وحدها يمارسه الوالى كأجير أو وكيل عنها فيمكنها بذلك عزله إن وجدت مبررات لذلك.. ويرى الشيخ محمد عبده أن الخليفة عند المسلمين ليس بالمعصوم ثم هو مطاع مادام على الحجة ونهج الكتاب والسنة، والمسلمون له بالمرصاد فإذا انحرف عن النهج أقاموه عليه وإذا أعوج قوموه بالنصيحة والإعذار إليه (لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق) فإذا فارق الكتاب والسنة في عمله وجب عليهم أن يستبدلوا به غيره ما لم يكن فى استبداله مفسدة تفوق المصلحة فيه. فالأمة أو نائب الأمة هو الذي ينصبه والأمة هى صاحبة الحق في السيطرة والرقابة عليه وهي التي تخلعه متى رأت ذلك من مصلحتها فهو حاكم مدني من جميع الوجوه.

قرر الإسلام مسئولية رجال الحكومة أمام الأمة وهذا واضح من

النصوص التى يطلب بها من الأمة نصح ولاة الأمر والأخذ على أيدي ظالميهم كقوله صلى الله عليه وسلم (إن الله يرضى لكم ثلاثا ويسخط لكم ثلاثا.. يرضى لكم أن تعبدوه وحده ولا تشركوا به شيئا وأن تعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا وأن تناصحوا من ولاه الله أمركم) وقوله: (إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه أولئك أن يعمهم الله بعقاب من عنده) وهذه المسئولية من نتائج الشورى إذ لولا أن للأمة حق الرقابة على الحاكم لما أمر أن يستشيرها. والخلفاء الراشدون كانوا يقرون هذه المسئولية فأبوبكر أول ما ولى الخلافة قال: إني وليت عليكم ولست بخيركم فإن أحسنت فأعينوني وإن صدفت فقوموني. وعمر لما ولي الخلافة قال: من رأى منكم في اعوجاجا فليقومه قال له أعرابي: والله لو رأينا فيك اعوجاجا لقومناه بسيوفنا. وقد استنتج البعض من إيجاب المشاورة على الحكام وإيجاب النصح على المحكومين أن النظام النيابي واجب فى الإسلام استنادا إلى أن النصح والشورى لا يتمان إلا بقيام فئة خاصة من الناس تشاور وتناصح إذ ليس فى وسع جمهور الأمة القيام بهما. وإذا كان الواجب المفروض على الحكام والمحكومين لا يتم إلا بوجود هذه الفئة كان تخصيص فريق من الأمة لهذا العمل واجبا عملا بالأصل المتفق عليه : (ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب).

إن الخلافة في الإسلام هي رئاسة عليا مكانتها من الحكومة الإسلامية مكانة الرئاسة العليا من أي حكومة دستورية لأن الخليفة إنما يستمد سلطانه من الأمة الممثلة في أولي الحل والعقد ويعتمد في بقاء هذا السلطان على ثقتهم به ونظره في مصالحم ولهذا قرر علماء المسلمين أن للأمة خلع الخليفة لسبب يوجبه وأن أدى إلى الفتنة احتمل أدنى المضرتين وعللوا هذا بأن من ملك المسئولية ليستقيم الأمر يملك العزل عند إعوجاجه. وأبوبكر الصديق أول من ولي الخلافة قال فى فاتحة خطبته (ايها الناس قد وليت عليكم ولست بخيركم فإن احسنت فاعينوني وإن صدفت فقوموني) وقال في خاتمتها (أطيعونى ما أطعت الله ورسوله فإذا عصيت الله فلا طاعة لي عليكم). وروي مثل هذا عن عمر وعثمان مما يؤيد إيمانهم بسلطة الأمة عليهم وشعورهم بالمسئولية امامها.

وليس عموم ولاية الخليفة وشمولها للشؤن الدينية بجاعل الخليفة ذا صفة إلهية أو مستمدا سلطاته من قوة غيبية وماهو إلا فرد من المسلمين وثقوا بكفايته لحراسة الدين وسياسة الدنيا فبايعوه على أن يقوم برعاية مصالحهم وله عليهم حق السمع والطاعة، وسلطانه مكتسب من بيعتهم له وثقتهم به. ومن هذا يتبين أن الصفة الإلهية التي ألصقها بالرئاسة العليا في الحكومة الإسلامية بعض الجهال من عباد السلطة تفخيما لشأن الخلفاء وتقديسا لهم ليست من أصل الدين في شيء وقد قيل لأبى بكر: يا خليفة الله فقال: لست بخليفة الله ولكنى خليفة رسول الله وجمهور العلماء على أنه لا يجوز تلقيب الخلفاء بهذا اللقب ونسبوا قائله إلى الفجور وقالوا يستخلف من يغيب أو يموت والله لا يغيب ولا يموت وكثير من آيات الكتاب الكريم تنفى أن يكون للرسول سلطة دينية على أحد وأولى ألا تكون هذه السلطة لواحد من خلفائه.

فى كثير من آيات الكتاب وسنة الرسول وخلفائه الراشدين ما يؤيد الإهتداء برأى الجماعة ورجوع الخليفة عن رأيه إذا بان الصواب في رأي غير. إن الخليفة عن المسلمين ليس بالمعصوم ولا هو مهبط الوحي ولا من حقه الإستئثار بتفسير الكتاب والسنة وهو لا يخصه الدين في فهم الكتاب والعلم بالأحكام بمزية ولا يرتفع به إلى منزلة بل هو وسائر طلاب الفهم سواء إنما يتفاضلون بصفاء العقل وكثرة الإصابة في الحكم. فالأمة أو نائب الأمة هو الذى ينصبه. والأمة هي صاحب الحق في السيطرة عليه وهي التي تخلعه متى رأت ذلك من مصلحتها فهو حاكم مدني من جميع الوجوه وليس في الإسلام سلطة دينية سوى سلطة الموعظة الحسنة والدعوة إلى الخير والتنفير عن الشر وهي سلطة خولها الله لأدنى المسلمين يقرع بها أنف أعلاهم كما خولها لأعلاهم يتناول بها من هم أدناهم.

ثالثا - مبدأ الشرعية :

ماهو الحل الذي يدعي الغربيون المعاصرون أن فلسفاتهم الحديثة - فلسفات القرنين السابع عشر والثامن عشر - هي التي أبدعته؟.. يجمع الفكر السياسي الغربي المعاصر على أن مفهوم الدولة الحديثة هو من صنع تلك

الفلسفات وأن هذه الدولة تمثل صورة تاريخية حديثة للمجتمع السياسي لم تكن معروفة من قبل وأن الذي يظهرها على الصورة التاريخية السابقة عليها للمجتمع السياسي يتمثل في خاصة إبتدعها فكرهم الحديث على حد إدعائهم هي ((تنظيم السلطة)) تنظيما قانونيا مسبقا في كيانها العضوي والوظيفي الأمر الذي نقل مجتمعاتهم من صورة المجتمع السياسي ذي السلطة المشخصة فى شخص الحاكم والتي يمارسها صاحبها كشأن من شئونه فلا يخضع في ممارسته لها لقانون ما إلى صورة الدولة الحديثة حيث يحل الإلتزام بالنظام (بالقانون) محل الالتزام بالخوف وحيث يحل حكم القانون محل حكم الأفراد. وسنرى كيف أن في ما يدعيه الفكر الغربي الحديث فى هذا الصدد تجاهل – لابد وأن يكون مقصودا – لما أتى به الإسلام من قبل وبأكثر من ألف عام في شأن سلخ سلطة الأمر عن أشخاص القائمين عليها ليكونوا مجرد عمال عليها يخضعون في ممارستهم لمظاهرها لدستور مسبق هو القرآن والسنة. والذي يمعن النظر في النظم السياسية الغربية المعاصرة التي تعمل في إطار من مفهومهم للدولة يستطيع من غير عناء أن يتبين لها جميعا دعامتين أي مبدأين أساسيين هما مبدأ الشرعية ومبدأ سيادة الشعب أو سيادة الأمة. والغربيون المعاصرون يرون في هذين المبدأين المصل الواقي من الإستبداد السياسي ومن ثم أمثل حل للمشكلة السياسية كما يرون فيها ثمرة فلسفاتهم وثقافتهم الحديثة في مجال السياسة. ومن هنا يتعين الوقوف على أبعاد كل من هذين المبدأين في التصور الغربى المعاصر لهما وذلك تمهيدا لبيان موقف الإسلام في مجالهما، ولكى نتبين بكل موضوعية كيف أن الإسلام قد كان المبدع الأول لهذين المبدأين وبأبعاد تجاوز في الفاعلية كثيرا أبعادهما فى النظم السياسية الغربية المعاصرة. يرد الغربيون المعاصرون مبدأ الشرعية كدعامة أساسية للدولة الحديثة عندهم إلى فكر الفيلسوف الفرنسي (مونتسكيو) بإعتباره هو الذى نبه إليه وللمرة الأولى – في إدعائهم – في كتابه ((روح القوانين)) سنة ١٧٤٨م. ذلك أن مونتسكيو على الرغم من إبقائه في كتابه هذا على المعيار العددي اليوناني القديم من حيث المبدأ راح ينبه في

ثناياه إلى معيار بدا له جديدا كضمانة لعدم التدلي إلى الإستبداد. فلقد ميز مونتسكيو في كتابه هذا بين أشكال ثلاثة للحكومات الجمهورية: حيث يقوم الشعب أو جزء منه على شئون الحكم والملكية حيث الحكم لفرد واحد يقوم عليه طبقا لقوانين قائمة ثم حكم الفرد الذي لا يلتزم في ممارسته لمظاهر السلطة قانونا ما ومن ثم فهو متحكم، إرادته هي القانون أي إنه يحكم بالهوى. وهكذا فإن التمييز بين هذه الأشكال الثلاثة للحكم لا يرتكز إلي مجرد المعيار العددي وإنما إلي معيار يدعي الغربيون أنه جديد من إبتداع مونتسكيو هو التقيد بقانون قائم في مقابلة التحكم أو الاستبداد، إنه مبدأ الشرعية الذي يكون الاعتبار الأول فيه لتقيد السلطة بقانون قائم دون النظر إلي عدد القائمين عليها. إن نظاما ماهو شرعي لمجرد كونه يلتزم بقانون مسبق يرتبط به الحاكمون في ممارستهم لمظاهر السلطة السياسية وبصرف النظر عن عدد القائمين علي السلطة فردا كان أم قلة أم كثرة. إنه معيار الشرعية الذي نبه إليه مونتسكيو الفرنسي في القرن الثامن عشر الميلادي والذي راح من بعده يمثل الدعامة الرئيسية للدولة الحديثة التي يفتخر بها الغربيون مدعين أن دعامتها تلك حس من إبداع فيلسوفهم مونتسكيو وسنري كيف أن مبدأ الشرعية بمفهومه هذا بل وبأبعاد أعظم قد جاء به الإسلام من قبل مونتسكيو بقرون طويلة.. ذلك هو مبدأ الشرعية كدعامة للدولة الغربية الحديثة فما ضمانات فاعليته في النظم السياسية الغربية المعاصرة وذلك تمهيدا لتبين أبعاده وضمانات فاعليته في النموذج السياسي الإسلامي الحق...؟ في هذا الصدد يميز الفقه القانوني الغربي المعاصر بين الشرعية Legitimite والمشروعية Legalite علي أساس أن لفظة الشرعية تشير بمدلولها الدقيق إلي شرعية السلطة القائمة من حيث صلاحيتها كسلطة للأمر الذي يستوجب التكليف بالطاعة وأن الشرعية لذلك تقع في جملتها في مجال الفلسفة السياسية (الأيديولوجيات) ومن ثم في مجال سابق علي مجال المشروعية التي تعني – في إطار الدولة الغربية الحديثة – قيام السلطة من ناحية وقيام نظام قانوني من ناحية أخري والتزام الأولي بذلك النظام القانوني في كل ما يصدر

عنها. ومن هنا فإن المشروعية بكل قضاياها في ظل الدولة الغربية الحديثة هي من شأن النظرية القانونية للدولة (نظامها القانوني الوضعي) وهي سابقة في الوجود عليه. إن الشرعية تدور حول مدى صلاحية السند الذي يرتكز إليه النظام القانوني للدولة في جملته ومن ثم فليس من المتصور أن تكون قضاياها من شأن ذلك النظام وإنما يحتكم في شأن هذه القضايا إلى تلك الفلسفات التي سبقت النظام القانوني للدولة وهيأت لقيامه فكانت هي منه بمثابة أيديولوجيته. وانطلاقا من هذا التمييز بين الشرعية والمشروعية على ذلك النحو كان لابد من أن ينحصر سند الشرعية ومن ثم سند الالتزام بطاعة السلطة في مجرد الاقتناع بأن القواعد الوضعية الصادرة عن الدولة قد تمت طبقا للإجراءات المحددة لذلك في نظامها الدستوري أو في معنى آخر إن مجرد الاقتناع في الدولة الغربية المعاصرة بأن القرارات الصادرة عن سلطتها قد اتخذت طبقا لنظامها القانوني يكفي بذاته كسند للشرعية، وهكذا ينتهى الأمر إلى الخلط بين الشرعية والمشروعية في ظل الدولة الغربية المعاصرة ولكي يجتمعا عند مجرد كون سلطة الدولة تمارس طبقا للقانون الوضعى الذى هو من عمل أجهزتها. لقد كان لهذا أثره في تصوير ضمانات مبدأ الشرعية في النظم الغربية المعاصرة، فلقد وقفت هذه الضمانات عند ضمان قانوني صرف يتحرك في إطار النظام القانوني للدولة ذاته ويتقرر مصيره داخل أجهزة الدولة ومؤسساتها إنه نظام الرقابة على دستورية القوانين في دول الدساتير الغربية الجامدة حيث لا تملك سلطة التشريع العادي وضع أو تعديل القوانين الدستورية وهي رقابة إما أن تكون وقائية سابقة على صدور القانون وتسند إلى هيئة سياسية تقوم على التحقق مقدما من دستوريته وليس بخاف أن انحراف هذه الهيئة في هذا الصدد أمر متصور تبعا لكونها هيئة سياسية. وإما أن تسند هذه الرقابة إلى هيئة قضائية تمارسها عن طريق الدعوة الأصلية - طلب إلغاء القانون أمام محكمة مختصة بذلك - (المحكمة الدستورية) أو عن طريق الدفع بعدم دستورية القوانين أمام المحاكم القضائية العالية وليس مما يحتاج إلى تنبيه أن الهيئات القضائية القائمة على تلك

الرقابة هي في النهاية من أجهزه الدولة وأنها مهما تمتعت بإستقلال شكلي فإن إحتمال تأثرها بوطأة سلطة الدولة أو بنزعات أعضائها السياسية فى المجتمعات الغربية المعاصرة وخاصة حيث يُعيَّن أعضاء هذه الهيئات بالإنتخاب أمر ليس بالمستبعد. وجملة القول في شأن هذه الرقابة على الدستورية، أنها تقع في داخل النظام القانوني للدولة وتتحرك في إطاره فكيف تكون رقيبة على شرعيته. وفي معنى أخر ما الضمانات التي تقدمها النظم السياسية الغربية المعاصرة لعدم تدلي سلطة الدولة بنظامها القانوني فى جملته أو في جزء منه أو في قاعدة من قواعده إلى الخروج على الشرعية بمدلولها الدقيق أي على تلك القيم الأساسية والأهداف العليا للدولة التي هي في ذلك التصور الغربي للشرعية سابقة على ذلك النظام القانوني. إن ضمانا ما لعدم تدلي سلطة الدولة إلى الخروج بقراراتها أو بنظامها القانوني في جملته على تلك القيم الأساسية والأهداف العليا لا يتصور في ظل ذلك المفهوم الغربي للشرعية أن يكون قانونيا إذ كيف نستطيع أن نتصور ذلك وسند النظام القانوني أو سند سلطة الدولة في وضعها لنظامها القانوني هو محل التقويم. كيف يصح الإحتكام إلى نظام قانوني قائم في شأن سند قيامه ذاته؟. إن مفهوم الشرعيه في ظل النظم السياسية الغربية المعاصرة على هذا النحو قد أغلق الباب في وجه أية ضمانة لتلك الشرعية تأتيها من وراء نظامها القانوني. ومن ثم فإن مواطن الدولة الغربية المعاصرة مكلف بطاعة قوانينها وقراراتها طالما أنهاصدرت صحيحة من حيث الشكل أي من حيث الإجراء الدستوري ودون أن يكون من شأنه تمحيص سند الدولة في إصدارها. وعلى الرغم من أن الفقه الأنجلو أمريكى قد حرص فيما نحن بصدده على تضمين المشروعية بالإضافة إلى الإلتزام بقواعد النظام القانوني الوضعي الإلتزام أيضا بالأهداف والقيم العليا للمجتمع القابعة في فلسفات النظام السياسي ومن ثم السابقة على النظام القانوني إلا أن ضمانات عدم الخروخ على تلك القيم والأهداف العليا قد ظلت حتى في إطار هذا التصور الأنجلو أمريكي معلقة. لقد راح الفقه الأنجلو أمريكي يلتقى في الحقبة الأخيرة على ما مؤداه

أن للمشروعية مضمونين فسيادة القانون – أو على حد تعبير الفقه الأنجلو أمريكي Rule of Law – لا تقف بمضمونها عند مجرد احترام سلطة الدولة لقواعد القانون الوضعي المعمول به وإنما تجاوز ذلك إلى مضمون إيجابي يضرب بجذوره وراء النظام القانوني للدولة فى جملته متمثلا في التزام تلك السلطة باحترام القيم الأساسية والأهداف العليا للمجتمع الأمر الذى يكون للمشروعية معه مضمونان واحد سلبي وأخر إيجابي. ويتمثل المضمون السلبى فى امتناع سلطة الدولة عن إتخاذ أي قرار او إصدار اى قانون إلا أن يكون متمشيا مع النظام القانوني للدولة من حيث الشكل بينما يتمثل المضمون الإيجابي في ضرورة مراعاة تلك القرارات والقوانين للقيم العليا للمجتمع والتي هي عليا في معنى أنها تأتي من وراء النظام القانوني كله وأسمى منه. بل والتي هي منه بمثابة الهدف وإذا ما تصورنا مضمون الشرعية على هذا النحو فإن هذه المشروعية تكون قد تضمنت إلى جانب مضمونها الدقيق مضمون الشرعية أيضا. ومع ذلك وحتى في ضوء هذا التصور لمضمون المشروعية فإن شيئا يبقى معلقا الا وهو: ما ضمانة إلتزام سلطة الدولة بتلك القيم العليا والأهداف البعيدة والتي تظل برغم ذلك التصور واقعة خارج إطار النظام القانوني للدولة؟.. أو في معنى أخر يبقى التساؤل عن ضمانات المضمون الإيجابي للمشروعية أي للشرعية بمدلولها الدقيق. وليس من شك أن ضمانات هذا المضمون الموضوعي أي الإيجابي لابدّ أن تكون من طبيعة مختلفة غير طبيعة ضمانة ذلك المضمون السلبي للمشروعية نظرا لتباين طبيعة القطاع الذي ينتمي إليه المضمون الثاني – إطار النظام القانوني للدولة – عن طبيعة القطاع الذي ينتمي إليه المضمون الأول الإيجابي الذي يقع جملته في ما قبل النظام القانوني للدولة ومن ثم في قطاع فلسفة النظام وأيديولوجياته. إن ضمانة المضمون السلبي للمشروعية ضمانة قانونية بحكم وقوع هذا المضمون في إطار النظام القانوني للدولة، إنها ضمانة قانونية تبدو في الرقابة على دستورية القوانين في مدلولها المتقدم. بينما لا سبيل بالنسبة لضمانة المضمون الإيجابي للمشروعية إلا لضمانة من طبيعة القطاع التي تنتمي إليه أي من

طبيعة قطاع فلسفة النظام وأيديولوجياته. ومن هنا كان إلتقاء الدساتير الغربية المعاصرة عند عدم تقديم أية ضمانة وضعية لعدم تدلي سلطة الدولة إلى الخروج على شرعية النظام القانوني للدولة في جملته أو في جزء منه أو في قاعدة من قواعدة، وذلك بالخروج على أهدافه العليا ومبادئه الأساسية الواردة في أيديولوجيات النظام وفلسفته، الأمر الذي يضع الشرعية في مضمونها الدقيق بمنأى عن كل جزاء وضعي في ظل نظام الدولة الغربية المعاصرة. فلا يبقى من شأنها إلا أن يكون الجزاء سياسيا بحتا من طبيعة القطاع الذى تنتمى إليه طبقا لمفهومها الغربي المعاصر ومن ثم الجزاء السياسي الصرف والذي يتمثل في حق المقاومة من جانب المواطنين كحق طبيعي أى مقاومة أعمال السلطة أو قراراتها أو نظامها القانوني في جملته إذا مابدا لهؤلاء أنه جائر أي أنه على الرغم من مشروعيته يتضمن خروجا على المبادئ الأساسية والأهداف العليا للمجتمع كما تبدو في فلسفة النظام وأيديولوجياته وهكذا يقف الجزاء بصدد الشرعية عند مجرد الجزاء السياسي البحت دون الجزاء القانونى. بل إن النظم الدستورية المعاصرة قد ذهبت في هذا الصدد إلى أبعد من ذلك فراحت تُجمع على إعتبار مثل هذه المقاومة جريمة تهدد سلامة الجماعة وامنها. صحيح أن ثمة وثائق دستورية وضعية غربية حديثة قد عُنيت بمسألة مقاومة الجور هذه فراحت تعترف بهذه المقاومة كحق طبيعي للمحكومين قبل الحكام حال وثيقة إعلان حقوق الإنسان والمواطن التي صدرت إبّان الثورة الفرنسية الكبرى (١٧٨٩) والتى أصبحت جزءا من الدستور الصادر سنة ١٧٩١ عدا أن هذه الوثائق لم تعن بتنظيم الوسائل التي تضمن لهذا الحق المزاولة مما جعل مهمة النص عليها تقف عند مجرّد التعبير عن إرادة واضعي الوثيقة وكسند فلسفي بحت للنظام السياسي الذي سيقوم على أساسها وكتسجيل لفلسفة جون لوك الإنجليزي السابق عليها فى شان الثورة كحق طبيعي للمواطنين إذا ما خرجت السلطة على أهداف قيام المجتمع ذاته. وفيما عدا ذلك فليس ثمة دستور واحد من دساتير الغرب المعاصر التي قامت في فرنسا أو في غيرها من بعد ذلك وحتى يومنا هذا يعترف بحق المواطنين

في مقاومة جور سلطة الدولة بخروجها على المبادىء الأساسية والأهداف العليا للمجتمع. وجملة القول في شأن الشرعية كدعامة أولى لنظام الدولة الغربية المعاصرة أنها تقف عند مجرد المشروعية في إطار النظام القانوني للدولة فلا تجاوزه تاركة بذلك مضمون الشرعية الدقيق من غير ضمانة وضعية ولكي تبقى بكل قضاياها من شأن فلسفة السياسة وحدها. وترتكز النظم السياسية الغربية المعاصرة في رفضها لنكرة الجور إلى فلسفة جان جاك روسو بكتابه (العقد الإجتماعي) في شأن (الإرادة العامة) فالقانون – في تلك الفلسفة – هو المعبر عن الإرادة العامة ولا يعقل أن يقع من الإرادة العامة جور على نفسها ومن ثم إذا تكلم القانون – قانون الدولة – وجب على الضمير أن يصمت. وفي ضوء هذه الفلسفة لا مكان للجور أصلا في النظم السياسية الغربية المعاصرة.

وهكذا ينتهى الأمر في ظل الدولة الغربية المعاصرة فيما نحن بصدده إلى مشروعية بمدلول ضيق وضمانة وضعية هزيلة هي الرقابة على دستورية القوانين – حيث يؤخذ بها – والتي مؤداها الموضوعي التزام سلطة الدولة بنظامها القانوني الذي هو من وضع أجهزتها ثم الاحتكام إلى هيئات تنتمي إليها أيضا فى شأن مدى التزامها بذلك النظام الأمر الذى يبعد عن تلك السلطة كل شبهة لجور ما. إنها دائما عادلة طالما ظلت ملتزمة بالنظام القانوني الذي هو من وضعها والذي تستطيع التعديل والتبديل فيه كلما شاءت. وهكذا يظل مفهوم الشرعية بأبعاده الغربية المعاصرة بعيدا عن أن يقدم حلا فعالا للمشكلة السياسية تبعا لعجزه عن تقديم ضمانة فعالة ضد تدلي الدولة بنظامها القانوني إلى الجور. وسنرى فيما يلى كيف أن الإسلام هو الذي جاء للمرة الأولى في تاريخ النظم بمبدأ الشرعية بمدلوله الدقيق وكيف أنه حدد له أبعادا وشرع له ضمانا فعالا إذ ربطه بالنظام القانوني الإسلامي – في تعبيرنا المعاصر – جاعلا من مقاومة الجور حقا شرعيا للمواطن المسلم فلم يترك الأمر لأجهزة السلطة فلا تكون خصما وحكما كما هي الحال فى ظل نظام الدولة الغربية المعاصرة.

والسؤال الذي يتبادر إلى الذهن الآن: ما هو موقف الإسلام من مفهوم الشرعية وفي مواجهة التصور الغربي المعاصر لهذا المفهوم ؟ لقد رأينا فيما تقدم أن مفهوم الشرعية فى الغرب المعاصر يقف بمضمونه عند الإلتزام الشكلي من جانب سلطة الدولة بقواعد نظامها القانوني، فقرارات هذه السلطة مشروعة لمجرد كونها جاءت مطابقة لتلك القواعد ومن ثم فإن الشرعية تقع هناك بكل أبعادها وضماناتها فى إطار النظام القانوني للدولة الأمر الذي يقصر مضمونها على مجرد المشروعية أي مجرد الالتزام بالنظام القانونى الوضعي للدولة التزاما شكليا فلا يجاوز ذلك إلى الإلترام بما وراءه من قيم أساسية وأهداف عليا هى كما رأينا فى ظل النظم الغربية المعاصرة من شأن فلسفاتها السياسية التى استدعتها والتى تظل على الرغم من ذلك سابقة عليها خارجة عن إطارها ومن هنا اقتصر جزاء تلك الشرعية الشكلية – أو على الأدق – مجرد المشروعية على ضمانة شكلية أيضا هي الرقابة على دستورية القوانين بالصورة الهزيلة التى أشرنا إليها انفا. ولقد كان من مؤدى هذا التصور الغربي المعاصر لمضمون الشرعية أن راح خروج سلطة الدولة في قراراتها وحتى بنظامها القانوني في جملته على القيم الأساسية والأهداف العليا للمجتمع يفلت من كل جزاء وضعي وحتى حين راح الفقه الإنجليزي والفقه الأمريكي يلتقيان في الغرب المعاصر على أن حكم القانون (Rule of Law) لا يقف بمضمونه عند التزام سلطة الدولة بالمضمون السلبي للمشروعية – أى بمجرد مراعاة قواعد النظام القانونى وإنما يجاوز ذلك إلى مضمون إيجابي قوامه ضرورة مراعاة مضمون قواعد النظام القانوني للدولة للقيم العليا للمجتمع والتي هي وراء النظام القانوني للدولة في جملته والتى هى منه بمثابة الهدف أى حتى حين راحت المشروعية تقترب بمضمونها من الشرعية بمدلولها الدقيق لدى ذلك الإتجاه ظل المضمون الإيجابي للشرعية – برغم ذلك – واقعا من حيث الجزاء والضمانات خارج النظام القانوني للدولة ومن ثم من غير جزاء وضعي وظل الجور بقضاياه واقعا هناك في مجال الفلسفة السياسية وظلت مقاومته تبعا لذلك غير مشروعه تحرمها النظم القانونية ذاتها

كما قدمنا.

أما في الإسلام فإن نظرة ممحصة فى النظام القانوني للدولة الإسلامية تؤكد أن الشرعية والمشروعية بمدلوليهما الغربيين هذين يندمجان تماما في نظام واحد هو نظام الشرعية والذي يقع ببعديه الشكلي والموضوعي وبضماناته داخل النظام القانوني الإسلامي وتوضيحا لذلك نقول إن النظام القانوني الإسلامي وقد صور في الكتاب والسنة بقواعده وجزاءاته لم يقف عند حد القواعد المنظمة لسلوك المسلم وأحواله في المجتمع الإسلامي بوصفه إنسانا ومواطنا وبوصفه حاكما فحسب وإنما جاوز ذلك إلى تصوير القيم الأساسية والأهداف العليا للدولة الإسلامية ومن ثم جاعلا منها جزءا من النظام القانوني متمتعة تبعا لذلك بطبيعة قواعده وبطبيعة جزاءاته. ولذلك فإن الخروج من جانب القائمين على سلطة الدولة الإسلامية على تلك القيم والأهداف لا يختلف في طبيعته أو في جزاءاته من خروج هؤلاء على بقية أحكام النظام القانوني الإسلامي بل إن هذا الأمر يزداد عمقا إذا علم أن الهدف النهائي للدولة الإسلامية بشتى مؤسساتها إنما ينحصر في إقامة مجتمع إسلامي أي في مجتمع تحددت معالمه بكل قطاعاته فى الكتاب والسنة وأن العمل على تحقيق هذا الهدف من جانب القائمين على سلطة الدولة هو على حد تعبير الفقه الإسلامي "شرط ابتداء وشرط بقاء " بالنسبة لولايتهم في معنى أن شرعية السلطة في الدولة الإسلامية مرهونة في قيامها وفي إستمرارها بالتزامها بالعمل على إعمال النظام القانوني الإسلامي في جملته دونما تمييز بين أحكامه المنظمة لسلوك المسلم كمواطن وحاكم وبين تلك القيم الأساسية والأهداف العليا التي وردت فى الكتاب والسنة.. وجملة القول في شأن مفهوم الشرعية في الإسلام وفي مواجهة مفهومها الغربي المعاصر إن الإسلام لا يعرف التمييز بين المشروعية والشرعية تبعا لكون الأهداف العليا للمجتمع الإسلامي وقيمه الأساسية قد وردت في الكتاب والسنة على قدم المساواة من حيث طبيعة الجزاء مع أحكام النظام القانوني الإسلامي على النحو المتقدم. إن النظام القانوني الإسلامي ليس له فلسفات عقلية سابقة

عليه تقبع فيها أهدافه العليا وقيمه الأساسية بل هو نظام متكامل على ذلك النحو المتقدم. وبهذا يظهر مفهوم الشرعية في الإسلام على مفهومها الغربي.
إن مفهوم الشرعية الغربي المعاصر إذ يقف من حيث ضمانته الوضعية عند مجرد المشروعية بالتفصيل المتقدم يجعل من المضمون الإيجابي للشرعية -التزام سلطة الدولة بمراعاة القيم الأساسية والأهداف العليا للمجتمع فيما يصدر عنها من قرارات بل وفي نظامها القانوني كله - مجرد تصور فلسفي أو أيديولوجي من غير أية ضمانة فعالة له. أما في الإسلام فإن لمضمون الشرعية - الجامع لضرورة مراعاة سلطة الدولة الإسلامية لأحكام النظام القانوني الإسلامي وللقيم الإسلامية وللأهداف العليا للمجتمع الإسلامي على السواء - ضمانة قانونية فعالة يظهر بها الإسلام في هذا المجال على النظم الغربية المعاصرة وهذه الضمانة القانونيه للشرعية الإسلامية تتمثل في حق مقاومة الجور كحق إيجابي للمسلم بل إنه في النسق القانوني الإسلامي وفي نظرية الإسلام السياسية على السواء يجاوز مجرد الحق إلى كونه واجبا على كل مسلم وذلك بحكم ما ورد في شأنه في الكتاب والسنة. ذلك بأن واجب مقاومة الجور هو أصل من أصول الإسلام التى صورت في كتاب الله. ولقد صور واجب مقاومة الجور في القران الكريم في أصل أعم هو النهى عن المنكر. يقول الله تعالى: «ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون» (آل عمران -١٠٤) وفي صيغة هذه الآية الكريمة ما يقطع بأن النهى عن المنكر واجب إسلامى وليس مجرد رخصة، بل إن من الآيات ما ربط واجب النهي عن المنكر هذا بالإيمان ذاته كقوله تعالى : «كنتم خير أمة أخرجت للناس تامرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله» (آل عمران - ١١٠) وهكذا فإن النهي عن المنكر فى القران الكريم التزام قانوني - بتعبيرنا المعاصر - كما هو واضح من صيغة الآية الأولى فضلا عن كونه التزاما عقائديا يرتبط بإيمان المسلم كما هو واضح من صيغة الآية الثانية فإن علم بأن النهي عن المنكر يعني في الفقه الإسلامي النهي عن كل محظور في الشرع أي في النظام القانوني الإسلامي

ومن باب أولى النهي عن الخروج عليه – من جانب سلطة المجتمع الإسلامي – في جملته أو في أجزاء منه ودونما تمييز بين أحكامه وقيمه وأهدافه في المعنى المتقدم إذا علم ذلك كان جور السلطة في الإسلام في مقدمة المنكرات جميعا وكان جزاء الجور هو جزاء هذه المنكرات نفسها بل وأعظم شأنا في الإسلام. وهذا الجزاء القانوني للجور بإعتباره منكرا في الإسلام قد ورد في حديث متفق عليه لرسول الله صلى الله عليه وسلم نصه : (من رأى منكم منكرا فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان) وليس من شك في أن مضمون هذا الحديث كمضمون غيره من الأحاديث المتفق عليها في مجاله يمثل جزءا من النظام القانوني الإسلامي بل وقيمة إسلامية من قيمه العليا والتي هي جزء منه ويعني مضمون هذا الحديث إذن أن جزاء الجور في النظام الإسلامي هو مقاومة هذا الجور كواجب قانوني على كل مسلم مقاومة تتدرج في مضمونها تبعا لدرجات استطاعة المسلم فى شأنها. فالأصل فيها هي المقاومة بالقهر (باليد) فإن لم تكن المقاومة بالقهر مستطاعة جازت المقاومة باللسان – أي بالوعظ ثم تأتي درجة مقاومة الجور بالقلب كأدني درجة لها فى معنى المقاومة السلبية للحاكم الجائر أي برفض الإمتثال لقراراته التي تأتي خارجة على النظام القانوني الإسلامي في أحكامه أو في قيمه الأساسية على السواء والحق أن في هذا الجزاء القانوني للجور في النظام الإسلامي تقبع فاعلية الضمانة الإسلامية لمبدأ الشرعية كضمانة فعالة وذلك في مواجهة تلك الضمانة الهزيلة لمبدأ الشرعية في الغرب والمتمثلة في الرقابة على دستورية القوانين بأبعادها العاجزة عن متابعة المضمون الإيجابي للشرعية بالتفصيل الذى قدمناه في شأنها. إن أدنى مرتبة من مراتب مقاومة الجور كإلتزام قانوني وعقائدي في الوقت نفسه لكل مسلم – على مقتضى ذلك الحديث – تتمثل كما قدمنا في رفض المسلم في مجتمعه الإسلامي الإمتثال لأوامر القائم على سلطة الأمر لمجرد تضمنها لما فيه خروج على الكتاب والسنة ومن ثم على الدستور الإسلامي (بالتعبير المعاصر) بينما على المواطن في ظل الدولة الغربية المعاصرة وطبقا لمفهوم الشرعية الضيق

هناك أن يظل ملتزما بأحكام قوانين سلطة الدولة برغم امتناعه بعدم شرعيتها أو حتى بعدم مشروعيتها إلى أن يصدر من المؤسسات القضائية المختصة بذلك ما يقض بعدم دستوريتها وهذا من شأنه وضع الضمانة الأخيرة للمشروعية - وهى أدنى درجات الشرعية - فى يد مؤسسات سلطة الدولة التى تكون بذلك خصما وحكما فى الوقت نفسه. إن فى إلتزام المسلم فى ظل الدولة الإسلامية إلتزاما قانونيا على النحو المتقدم بمقاومة الجور مقاومة تبدأ بالقهر أى بحمل القائم على السلطة على مراعاة النظام القانونى الإسلامى فى أحكامه وقيمه بالقهر أو خلعه ولكى تقف فى أضعف درجاتها عند المقاومة السلبية متمثلة فى رفضى الإمتثال لأوامر السلطة الجائرة. إن فى هذا الإلتزام ما يجعل من الإلتزام القانونى بمقاومة الجور بالنسبة للمسلم فردا أو جماعة ضمانة فعالة لرقابة شعبية لا يحتكم فيها المسلم إلا لضميره الإسلامى ثم الإلتزام من حيث هو مسلم بدستور الإسلام أى بنظامه القانونى وكل ذلك بعيدا ومستقلا عن مؤسسات سلطة الدولة الإسلامية وفى مواجهتها وهكذا يكون القول الفصل فى ظل النظام القانونى الإسلامى بصدد الرقابة على شرعية أوامر السلطة هو فى النهاية للشعب المسلم أفرادا وجماعات لا يحتكم فيها إلا للقيم الإسلامية فلا يترك أمرها فى النهاية إلى أجهزة السلطة لتكون خصما وحكما معا كما هو الحال فى ظل الدولة الغربية المعاصرة ويؤيد فهمنا هذا لواجب مقاومة الجور كضمانة للشرعية فى الإسلام رفع رسول الله صلى الله عليه وسلم من قتل فيها إلى أعلى مراتب الشهادة إذ يقول: (أفضل شهداء أمتى رجل قام إلى إمام جائر فأمره بالمعروف ونهاه عن المنكر فقتله فى ذلك...) ثم ما أعلنه الخلفاء الأوائل فى هذا الصدد، فلقد خطب أبوبكر فى الناس عند توليه الخلافة قائلا: "أيها الناس إنى قد وليت عليكم ولست بخيركم فإن أحسنت فاعينونى وإن أسات فقومونى". كما حمد عمر بن الخطاب الله إذ جعل فى المسلمين يقوم إعوجاج عمر بسيفه. أليس فى ذلك كله حض على مقاومة الجور مقاومة إيجابية تصل إلى حد إستعمال السيف كضمانة إسلامية للشرعية.. هذا هو مفهوم الشرعية الإسلامية بمضمونها الإيجابى

المتقدم بضمانتها الفعالة المتمثلة فى واجب مقاومة الجور وكاسأس دستورى لنظام الشرعية في الإسلام ولواجب مقاومة الجور كضمانة له.

هذه بعض دعائم النظم السياسية الغربية المعاصرة وتوضيح حلول الإسلام الرائعة في مجالها في بداية بناء النموذج السياسي الإسلامي الحق بمفاهيمه وفروضه المستنبطة من الكتاب والسنة ومن سلوك الخلفاء الأوائل لبناء نظرية سياسية إسلامية ذلك أن أية نظرية سياسية هي - منهجيا وإصطلاحا - بناء ذهني لمجموعة متسقة من مفاهيم وفروض مستقرأة بالملاحظة من الواقع وهي حينئذ علمية يستعان بها فى فهم الواقع وتفسيره أو هي بناء ذهني لمجموعة متسقة من مفاهيم وفروض مستنبطة من مقدمات أخلاقية أو فلسفية أو عقائدية ولكى تستخدم في فهم نظام سياسي نشأ منتسبا إليها أو في الحكم على مدى استجابته لها حتى يكون جديرا بذلك الإنتساب وهى كذلك نظرية فلسفية تقدم نموذجا لما يجب أن يكون لا لما هو كائن وهذا شأن أية نظرية سياسية تستند إلى الإسلام إنها ليست جديرة بأن تكون كذلك إلا إذا قام بناؤها في جملته على مجموعة من فروض ومفاهيم مستنبطة من القرآن والأحاديث الصحيحة استنباطا أمينا، ومن ثم مبنية بعيدا عن الواقع للحكم على مدى إسلاميته وليست ملفقة على مقتضاه. وبعبارة أخرى أن بناء ذهنيا امينا للنظرية السياسية الإسلامية وحتى تكون جديرة بانتسابها للإسلام إنما يقوم على مجموعة من عناصر هي مقدمات من الكتاب والسنة الصحيحة وعمليات إستنباط مجموعة المفاهيم المتصلة بالعلاقات السياسية للمجتمع ومضامين هذه المفاهيم وهي جميعا عناصر لبناء ذهنى واحد ومن ثم فإن الآيات والأحاديث المتصلة بالعلاقات السياسية للمجتمع الإسلامي هي لبنة أساسية في البناء الذهني للنظرية السياسية الإسلامية وجزء أصيل منه ذلك لأن بناء النظرية السياسية الإسلامية يبدأ وينطلق من الآيات والأحاديث الصحيحة لكي ينتهي بالاستنباط إلى المفاهيم التى يتعين أن تحكم العلاقات السياسية للمجتمع حتى يكون النظام السياسى إسلاميا هذا هو البناء الذهني الصحيح لنظرية سياسية بالمدلول المنهجي الدقيق للنظرية من ناحية ومن حيث صدق انتسابها إلى الإسلام من ناحية أخرى.

ويجب أن نشير هنا إلى مفهوم كل من الإستبداد والتحكم كما تحدد فى ظل نظام الدولة الغربية المعاصرة وفلسفاتها: فالتحكم لا يعنى أكثر من عدم الإلتزام بالمشروعية أى بقواعد النظام القانونى للدولة من جانب القائمين على سلطتها. أما الإستبداد فهو يجاوز ذلك إلى الخروج على القيم الأساسية والأهداف العليا للمجتمع والتى تقبع في أيديولوجياته التى انبثقت منها نظمه القانونية والسياسية. إن النظام السياسي الجدير بانتسابه إلى الإسلام تتمثل خاصته الكبرى في التزامه الصارم بمبدأ المشروعية والشرعية معا، ونعنى بالمشروعية كما أشرنا مبدأ التزام السلطة بالنظام القانوني للدولة حتى بمدلوله الغربي المعاصر. أما الشرعية بمدلولها الواسع نظرا لكون القيم الأساسية والأهداف العليا للمجتمع الإسلامي فقد تضمنها القرآن والحديث على قدم المساواة مع أحكام النظام القانوني للمجتمع الإسلامي.

لا شك أن نظاما شرعيا يقوم على أسس الشرعية الثلاثة: إقامة شرع الله، دولة مسلمة، أمة مسلمة، هو نظام يحرم الخروج عليه بل ويعد الخروج عليه خيانة عظمى عقوبتها حد الحرابة «إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فسادا أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض» وهو ما ناقشه الفقهاء تحت جريمة البغي أو حد حرابة. وإزاء النظام الشرعي فإن المسلمين جميعا مدعوون لطاعة النظام ونصرته وإفتدائه بكل عزيز من دم ومال وحراسته حراسة مهج وقلوب قبل حراسة عساكر وضباط.

أما في مواجهة نظام غير شرعى، فإنه على قدر خروجه على الشرعية الإسلامية يكون التقويم.. ويتدرج ابتداء من إنكار القلب مع الإعتزال، إلى إنكار الكلمة بمراحلها من تعريف إلى نصح إلى تعنيف ثم يأتى إسقاط حقوق الحاكم فى الطاعة والنصرة إزاء كل عمل غير شرعي ثم إزاء النظام كله إن تتابع فى عدم الشرعية. ثم تأتى مرحلة إسقاط الحاكم وعزله وهو إجراء سياسى يلجأ إليه إن فشلت الوسائل السابقة. وكل هذه الوسائل تصح إن كنا في حالة من عدم الشرعية لاتصل حد الكفر البواح. أما أن يبلغ الأمر حد

الكفر البواح فلا محل للصبر ولا مناص من الخروج. ويجب أن نشير في هذا الصدد إلى بعض المسلمات : أولها: أن الاعتراف "بالغلبة" اعتراف ضرورة، فالسلطة الشرعية في الإسلام تقوم على ركنين هما: إقامة شرع الله.. والرضى.. ولقد قامت في تاريخ الإسلام سلطات (متغلبة) على غير رضى من المسلمين، ورغم تخلف الرضى كأساس ثان لشرعية السلطة فلقد اعترف بها الفقهاء وتعاملوا معها واعترافهم هذا اعتراف ضرورة تماما كتناول لحم الميتة فإنه محظور ومحرم ولكن الموت أشد منه. أو هو بتعبير آخر اعتراف واقع ودفع ضرر أكبر بضرر أصغر. ولذا أجازوا الخروج على هذا الوضع المتغلب بالشروط التي سنتناولها بعد قليل ومن ثم فلا حجة تستمد من سبق قيام مثل هذه الأنظمة المتغلبة ولا من بقائها. أن الخروج على نظام غير شرعي ليس بغيا، فمهما كان الخروج غير موافق للشروط فإنه لا يعد بغيا لأن البغي كما عرفه الفقهاء (هو الخروج على إمام حق بغير حق) والخروج في مثل هذه الحالة هو بحق وعلى إمام غير حق. ولذا اعتبر بعض الفقهاء خروج الحسين على يزيد لم يكن بغيا. ثالثها: الإعتراف بشرعية الخروج عند نجاحه، إذا لم يتوافر للخروج شروطه لكنه نجح في تغيير الوضع غير الشرعي. فإما أدى ذلك إلى قيام نظام شرعي فهم يعترفون به اعترافا قانونيا وإما أدى إلى قيام وضع لا تتوافر فيه الشرعية الكاملة فهم يعترفون به اعتراف ضرورة أو اعترافا واقعيا كما كان اعترافهم بالنظام السابق.

أما الصبر، فإنا نأخذ بأحاديثه كلها إذا كان الخروج على الشرعية دون الكفر البواح.. لأن الخروج على الشرعية في هذه الحالة قد لا يكون قد بلغ مبلغا يستحق التضحية بالنظام كله والتضحية معه بوحدة الأمة وبالعزيز الغزير من دماء أبنائها، لأن قيام نظام إسلامي – وإن أصابه ثلمة – يعبد الله ويعبد الناس لرب العالمين خير من الإطاحة به كله من أجل مظلمة فرد أو معصية حاكم. وليس معنى ذلك التضحية بمظلمة الفرد أو السكوت على معصية الحاكم ولكن هذا وذلك يقوم : بالتعريف والنصح والتعنيف والإعتزال والإمتناع وإسقاط حقوق الحاكم في الطاعة والنصرة وعزله إن إقتضى الأمر

واستطعنا إلى ذلك سبيلا.

وأما الخروج، فإننا نأخذ بأحاديثه كلها إذا بلغ الخروج على الشرعية حد الكفر البواح بحيث سقطت الشرعية تماما عن النظام القائم وأصبح وصفه بأنه إسلامي وصفا غير صحيح وذلك يكون إذا انهار أساس الشرعية الأول وهو إقامة شرع الله، لكن إذا قام هذا الأساس الأول وكانت معصية أو معاص تنال من أي من الأساسين الثاني والثالث فإننا نكون لا زلنا فيما دون الكفر البواح فلا يصح لنا الخروج ونستند في هذا الرأي إلى الحجج التالية :

١ – التوفيق بين أحاديث الصبر وأحاديث الخروج فكلها صحيحة والتعارض بينها تعارض ظاهري، والقول بالنسخ لا يلجأ إليه إلا إذا تعذر التوفيق بينهما والتوفيق ميسور يجعل أحاديث الصبر قاصرة على ما دون الكفر مع اصطحاب ذلك بوسائل النهي عن المنكر بمراحله المختلفة وجعل أحاديث الخروج قاصرة على حالة الكفر البواح الذي عندنا فيه من الله برهان.

٢ – التوفيق بين بناء الشرعية وبين بناء الأمة والدولة: فلا شك أن الحفاظ على الشرعية مما يدخل في المرتبة الأولى من الضرورات لأنها حفاظ على الدين نفسه والحفاظ على وحدة الأمة والدولة حفاظا كذلك على الدين لأنه لا قيام له بدونهما كما أن الحفاظ على الأنفس من أن تزهق حفاظا على ضرورة أخرى هي ضرورة حفظ النفس وهي تأتي في المرتبة الثانية بعد حفظ الدين. وإذا أمكن الحفاظ على هذه الضرورات جميعا كان ذلك أدعى لتحقيق مقاصد الشارع الحكيم، فإن تعارضت هذه الضرورات فلا شك أن ضرورة الدين تتقدم وإذا كان فى محيط ضرورة الدين ثمة تعارض فإنه يرفع قدر الإمكان.. ومن هنا حصرنا الخروج في أضيق الحدود – وهي حدود الكفر البواح باعتبار أن ذلك أعلى مراتب العدوان على الشرعية أما فيما دون ذلك فالحفاظ على كيان الأمة والدولة حفاظ على كيان الدين والحفاظ على الأنفس حفاظا على الضرورة التالية لضرورة الدين.. ومن ثم تقدمت هاتان الضرورتان فيما دون الكفر البواح وبقيت الوسائل الأخرى تعمل لتقويم الإنحراف عن الشرعية.

ويتولى أهل الحل والعقد إدارة المعركة مع الكفر البواح الفارض سلطانه على الأمة بغير حق ويقررون كذلك إنهاء المعركة في الوقت المناسب بحيث لا يؤدي الخروج لإقامة الشرعية إلى ضرر أشد لأن الضرر الأكبر يدفع بالضرر الأصغر وإلا كنا كمن يهدم مصرا ويبني قصرا. ويمكن لأهل الحل والعقد أن يشكلوا هيئة القيادة التي تدير المعركة والتي تنهيها في الوقت الملائم بما يحقق مصلحة الدين ومصلحة الأمة وهذه مسألة تفصيل تترك لكل زمان ومكان بحسب ظروفه.

آثار الخروج : لابد وأن يؤدي الخروج إلى إزالة الكفر البواح الذي كان قائما ومن ثم يؤدى إلى إقامة الشرعية بأسسها: إقامة شرع الله، إقامة الأمة المسلمة، إقامة الدولة المسلمة.. كل بخصائصه وسماته وشروطه. فإذا أدى ذلك فقد وجب عودة الجميع إلى الحياة الطبيعية فى ظلال شرع الإسلام وشرعيته ووجب الضرب على يد أية عناصر مخربة بعد ذلك وإعمال حد الحرابة فيها باعتبارها مرتكبة جريمة بغي.

تقدير وتقييم عملية الخروج: حاولنا بناء نظرية للخروج تحقق ضرورة الدين بإقامة الشرعية وتحقق في نفس الوقت الحفاظ على كيان الأمة والدولة باعتبارهما من ضرورات الدين، كما تحقق الحفاظ على ضرورة تلي ضرورة الدين وهى الحفاظ على أنفس المسلمين.. ووقفنا بذلك موقفا وسطا بين أولئك الذين رأوا الخروج لأى معصية وبين أولئك الذين رفضوا مبدأ الخروج وأظهروا الإسلام بمظهر الضعف والإستكانة والرضى بالظلم والكفر لم يعرف الفقه الدستوري نظرية كنظرية الخروج.. ربما لأنه استعاض عن الخروج بعدم التجديد للرئيس في النظام الجمهوري لكنه لم يوجد لها بديلا في النظم الملكية وإن كان تطور الملكية إلى ملكية مقيدة وضع قيودا كبيرة على سلطة الملك انتهت به إلى أنه يملك ولا يحكم.. لكنه حتى الآن في النظامين – الملكي والجمهوري – لا يوجد بديل عن نظام الخروج فيما إذا بلغ الرئيس أو الملك حد الكفر البواح الذي عندنا فيه من الله برهان.. لقد نص إعلان حقوق الإنسان على أن من حق الإنسان مقاومة الظلم لكنه لم يرسم لذلك نظرية ولا

وضع له الخطوط والآليات، كما أنه يجعل ذلك مجرد حق بينما يرتفع به الإسلام إلى مستوى الوجوب (الواجب) وهي مرحلة تتضمن الحق بالضرورة وإن كانت تسمو عليه. والملاحظ أنه إذا كان التاريخ الإسلامي قد شهد أكثر من خروج لم تتوافر له الشروط والضمانات السابقة، لذا فقد كانت نتيجته إراقة دماء المسلمين دون تحقيق لهدف.

شرعية العدل في الإسلام (مصدرا وشرعا وتنفيذا) : إن العدل يبلغ في ميزان الله أن يكون قرين التوحيد وأن الظلم في شريعة الله تبلغ أن تكون قرين الشرك. ومن ثم كان الظلم مسقطا كل شرعية عن أي نظام وإن صلى وصام وزعم أنه مسلم.. إن الله هو العدل وقد نزلت كلماته وشرائعه صدقا وعدلا «وتمت كلمة ربك صدقا وعدلا لا مبدل لكلماته» وكذلك كانت أوامره أن تقام شريعته بين الناس بالعدل «وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل» فمصدر الشرعية الإسلامية هو الله العدل. وأساس الشرعية الإسلامية هو إقامة شريعة الله وهي العدل وتنفيذ الشرعية الإسلامية لابد وأن يكون بالعدل فالعدل مصدر والعدل في مرحلة التشريع والعدل في مرحلة التنفيذ.. ولا يمكن لشرعية وضعية أن تزعم لنفسها إلا العدل النسبي لأن العدل المطلق لا يكون إلا لله الذي اتصف بالعدل وكان أحد أسمائه الحسنى، ولقد يكون ما تزعمه الشرعيات الوضعية من عدل هو عين الظلم، ذلك أن أساس الشرعيات الوضعية هو سيادة القانون والقانون بوصفه من وضع البشر هو عدوان على حق الله الذي له وحده أن يشرع ابتداء ومن ثم كان القانون ذاته هو ظلم بوصفه عدوانا على حق الله، ولذا كان التعبير القرآنى : «إن الشرك لظلم عظيم» ومن صور الشرك شرع ما لم يأذن به الله وقد قال ابن عباس رضي الله عنهما : «إن الله يأمر بالعدل والإحسان» أي عن قوله لا إله إلا الله والإعتقاد بها والعمل على مقتضاها.

شريعة الله هي العدل : شريعة الله وهي أساس الشرعية الإسلامية هي العدل.. لأن كلمات الله التى تمت بها شرائعه هي الصدق والعدل «وتمت كلمة ربك صدقا وعدلا».. فأول العدل الواجب هو إقامة شريعة الله لأنها عدل من

العدل ولا يتصور وجود عدل فى غيابها. وثاني العدل الواجب هو إقامة أحكامها العادلة بالعدل. بالعدل قائم فى مرحلة التشريع وهو لازم فى مرحلة التنفيذ.. ومن أسف أن يتغاضى البعض عن مرحلة التشريع ويطالب بالعدل في مرحلة التنفيذ.. وإذا كان التشريع هو الأساس والتنفيذ بناء... فهل يتصور بناء من غير أساس؟ لذلك فإننا لا نوافق أولئك الذين أفتوا حبا منهم فى العدل ورغبة فيه بأن الكافر العادل أفضل من المسلم الجائر لأن الأول لنا عدله وعليه كفره ولأن الثانى له إسلامه وعلينا جوره.. لأنه لا يتصور عدل مع الكفر لأن شريعة الله هي العدل من مصدرها : الله العدل. ومن ثم فإن كل عدل (تنفيذي) يفتقد أساسه من العدل التشريعي ويغدو بناء على غير أساس لا يلبث أن تعصف به الرياح الهوج.

وكان خطأ كذلك أن يشرع الناس من عند أنفسهم ويخلعون على مايصنعونه بأيديهم صفة العدل ثم يزعمون لها الشرعية بنسبتها إلى الله.

إن ذلك الشرع من دون الله هو عين الظلم بما فيه من أبعاد لشريعة الله وهي العدل ثم بما فيه من عدوان على حق الله والعدوان ظلم ومن ثم كان إفكا قولهم (شريعة العدل شريعة الله) وكان لبسا للحق بالباطل إذ الصحيح أن شريعة الله هي شريعة العدل. أما شرائع العدل التي يشرعونها من دون الله ويضفون عليها ذلك الإسم الشريف فليست إلا ظلما في شكلها وفي موضوعها.. وهكذا لا يكون بعد شريعة الله العدل إلا الظلم والضلال.

شريعة الله أمرت بالعدل : ليس معنى أن شريعة الله هي العدل أن يباح للقائم عليها أن يقيمها بغير العدل وأنى يكون من تصرفات بعض القاسطين من أمثال الحجاج وغيره حجة على الإسلام والمسلمين. إنه إذا كان أبعاد شريعة وهى العدل يصم النظام بعدم الشرعية فإن إقامة شريعة الله مع الظلم يصم النظام كذلك بعدم الشرعية. والذين ظنوا نظما زعمت لنفسها الإسلام أقامت الحدود والصلوات لكنها حكمت بين الناس بالظلم، الذين يظنون مثل هذه نظما شرعية أخطاوا وظلموا الإسلام. لأن الإسلام أمر بالعدل ونهى عن الظلم، فكل نظام إسلامي غير عادل هو نظام ساقط الشرعية غير جدير باسم

الإسلام لأن الإسلام أمر بالعدل «إن الله يأمر بالعدل والإحسان» (النحل - ٩٠) «وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل» (النساء - ٨٤) «وإذا حكمت فاحكم بينهم بالقسط» (المائدة -٤٢) «فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله» (ص - ٢٦).

من هذه النصوص ومن غيرها يبين أن مقاومة الظلم ليست مجرد حق بل هى فوق ذلك فرض وواجب.. وفي هذا تتقدم على إعلان حقوق الإنسان على أن مقاومة الظلم مجرد حق إذ جعل حقوق الإنسان الحرية والملكية والأمن ومقاومة الظلم.. وهكذا فإن أقصى ما بلغته الشرعيات الوضعية أن تجعل مقاومة الظلم حقا للناس لكن الشرعية الربانية تجعله واجبا وفرضا يأثم الناس إن تركوه. ولقد يزكى ذلك ما سوف نسوقه عند الحديث عن آثار الشرعية من إستقلال الفقه الإسلامي بنظرية الدفاع الشرعي العام (الحسبة) أو (الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر) التي يرتفع فيها إنكار المنكر من درجة الحق إلى درجة الواجب حيث تأثم الجماعة كلها بتركه.. إن شرع ما لم يأذن به الله ظلم ينبغي أن يقاوم.. والعدوان على حدود الله ظلم ينبغي أن يقاوم والعدوان على حقوق الأفراد ظلم ينبغي أن يقاوم. كل ذلك وفق ضوابط وقيود نفصلها لاحقا.. إن شرعية العدل أحق أن تعلو لأنها شرعية صادرة عن الله العدل..وتقوم على شريعة هي العدل وتقيم شريعتها بين الناس بالعدل وتحرم الظلم وتجعل مقاومته فرضا وواجبا هي الأحق أن تعلو ليعلو العدل..ويسقط الظلم.

مبدأ الدفاع الشرعي العام : أو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر (الحسبة). عرف الإسلام للأفراد حقوقا قبل ان تعرف النظم الوضعية حقوقا للأفراد، كما عرف الإسلام للجماعة حقوقا أسماها حقوق الله من قبل أن تعرف وتصل النظم الوضعية حقوقا للجماعة. بل لقد رسم الإسلام نظرية للحقوق لم تصل إليها بعد أحدث النظريات فقد قسم الفقيه الإمام الشاطبي إستنباطا من النصوص -الحقوق إلى : حقوق لله وحقوق للعباد. وقال إنه ليس من حق للعبد إلا والله فيه حق. ولكن حق الله قد يغلب وحق الفرد قد

يغلب فكانت حقوقا ثلاثة : حق لله خالص مثل حقه في التشريع ابتداء وحقه في إقامة حد الزنا وحد الشرب (شرب الخمر). وحق لله غالب مثل حد القذف فإنه وإن كان حقا لله فإن للعبد فيه حقا أن يصان عرضه لذلك كانت الدعوى شرطا فيه. أما حق العبد الغالب مثل القصاص فإن له أن يعفو ومع عفوه لولى الأمر أن يوقع التعزير الملائم كما أن سائر الحقوق التى يسميها الوضعيون (حقوقا فردية) هي في الواقع حقوق للعباد غالبة لكن فيها لله حقا ألا يساء استعمالها وأن تستهدف تحقيق مقاصد الشارع الحكيم وهي مقاصد عليا عجزت الأوضاع الوضعية عن بلوغها.. ويمكن من خلال هذا التقسيم الفريد أن ترسم نظرية أو تبنى وتصوغ نظرية للدفاع الشرعي لم تصل إليها أحدث الأنظمة.. إن الإعتداء على حقوق العباد يولد حقا فى الدفاع الشرعي الخاص وهو الذى عالجه الفقهاء بعنوان (دفع الصائل) (الصائل من صال يصون صول ومنه المصاولة والصيال والصيالة بمعنى القتال أو الوثوب وكلها تدور حول معنى الإعتداء فهي أبلغ في تمثيل حقيقة الدفاع الشرعي أنه دفع إعتداء أو دفع لمعتد). وإن الإعتداء على حقوق الله الخالصه أو الغالبة يولد حقا بل واجبا في الدفاع الشرعي العام لكن إذا كانت حقوق العباد لله فيها حق فإنها كذلك تولد حقا في الدفاع الشرعي العام. وإن لم يصل إلى المرتبة السابقة ومبدأ الدفاع الشرعى لم تعرفه النظم الوضعية إلا حديثا، وعرفته قاصرا على مجال الحقوق الخاصة. وفي هذا المجال كذلك يشوبه الكثير من القصور، قد عالج فقهاء المسلمين الدفاع الشرعى العام تحت عنوان: (الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر) أو (الحسبة).

طبيعة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر : يكون الدفاع الشرعي العام أو الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر بمناسبة عدوان على حق من حقوق الله فيبيح دفع هذا العدوان بما يصل إلى حد القتل أو القتال. أما القتال فيكون دفعا عن حقوق الله المتعلقة بالأمة كلها كالقتال لإقامة شرع الله «حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله». وسبب الإباحة هنا راجع إلى أن الفرد يمارس رخصة داخل واجب فرضه الشارع عليه فى إنكار المنكر. فكل حق الإسلام يتضمن

واجبا هو جانب حق الله في ذلك الحق. وكل واجب يتضمن حقا أو بالأدق رخصة تقتضيها ممارسة ذلك الواجب.. ويرى الفقهاء أن واجب إنكار المنكر واجب كفائي بمعنى أنه إذا قام به (بعض) كاف سقط عن الباقي وإن لم يقم به ذلك البعض الكافي فقد أثمت الأمة كلها بترك هذا الواجب. وعلى هذا الذى قاله الفقهاء فإن شراح القانون لم يستطيعوا أن يرتفعوا (بمقاومة الظلم) – وهى إحدى صور الدفاع الشرعي العام في الإسلام – لم يستطيعوا أن يرتفعوا به أكثر من مرتبة (الحق) فقد أعلنت الثورة الفرنسية في إعلان حقوق الإنسان الصادر في سنة ١٧٩٩م أن حقوق الإنسان هى : الحرية والملكية والمساواة ومقاومة الظلم. وبقى الإسلام متفردا بجعل مقاومة الظلم وغيره من صور المنكر في المجتمع الإسلامي واجبا وليس مجرد حق فيرتفع بالمجتمع إلى مستوى من الإيجابية لا يصل إليه نظام آخر ويحقق بذلك كفالة القضاء على كل انحراف يظهر من جانب السلطة.

إن واجب الدفاع الشرعي العام ليس مجرد واجب كفائي بحيث إذا قام به البعض الكافي سقط عن الباقين فذلك ما قد يؤدي إلى شئ من التواكل يضعف فاعلية ذلك الواجب الخطير – لذا فإن ذلك الواجب واجب عيني على كل فرد من أفراد الأمة إذا تحققت شروطه على النحو الذي سنشير إليه ولسوف نجد أن هذه الشروط يمكن تحققها لدى كل فرد من أفراد الأمة على الأقل بالنسبة لبعض مراحل ذلك الواجب. وهذا التكييف لذلك الواجب يعطيه دفعة وفاعلية تتحقق به أهداف ذلك الواجب الخطير، ويستند فى ذلك التكييف إلى الحجج التالية :

١ – إن أكثر من حديث نفى الإيمان عمن لا ينكر ولو بقلبه فقال أحدها (وليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل) (من حديث رواه مسلم) وقال الآخر (وذلك أضعف الإيمان) (من حديث رواه مسلم) ونفى الإيمان يقتضى أن يكون ذلك الواجب واجبا عينيا وإلا فمن لم يأته فقد إنتفى عنه الإيمان، وذلك يتعارض تعارضا ظاهرا مع القول بأنه واجب على البعض إذ يغدو البعض الآخر وقد انتفى عنهم الإيمان.

٢ – ما جاء في الحديث من أنه (لما وقعت بنو إسرائيل في المعاصي نهتهم علماؤهم فلم ينتهو فجالسوهم في مجالسهم وواكلوهم وشاربوهم، فضرب الله قلوب بعضهم ببعض ولعنهم على لسان داود وعيسى بن مريم) (رواه الترمذي وأبو داود وابن ماجه واللفظ للترمذي، قال حسن غريب) «لعن الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داود وعسى ابن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون. كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون» (المائدة –٧٨، ٧٩) والتناهي – على النحو الموضح أنفا – هو حد أدنى لابد منه.. فإن تخلف فقد حقت لعنة الله ولا يكون ذلك إلا إذا كان واجب التناهي أو إنكار المنكر واجبا عينيا على كل فرد من المسلمين كل حسب قدرته.

٣ – جاء في الحديث : (إنه يستعمل عليكم أمراء فتعرفون منهم وتنكرون فمن كره برئ ومن أنكر فقد سلم، ولكن من رضى وتابع) (جزء من حديث رواه مسلم) فقد دل الحديث على أن من كره بقلبه فقد برئ من الإثم وإن من أنكر بما هو أكثر من الكراهية فقد تحققت له السلامة والنجاة ثم عقب بعكس الكراهية والإنكار فقال : ولكن من رضى وتابع.. أى من رضى فقد وقع في الإثم ومن تابع فقد انتفت عنه السلامة والنجاة وحق عليه المسئولية والعقاب.

لكن.. ما هي السلطة أو الجهة المنوط بها ممارسة هذا الجزاء (خلع السلطة من الحاكم الخارج على شرعية الإسلام)؟ يرى الفقهاء أن للأمة خلع الإمام وعزله بسبب يوجد منه ما يوجب اختلال أحوال المسلمين وانتكاس أمور الدين كما لهم نصبه وإقامته لانتظامها وإعلائها. ويقول ابن حزم فى مصنفه الأشهر (الفصل في الملل والأهواء والنحل – جـ ٤ ص ١٠٢) : (فهو الإمام الواجب طاعته ما قادنا بكتاب الله وسنة رسول الله صلى ا لله عليه وسلم فإن زاغ عن شيء منهما منع من ذلك وأقيم عليه الحد والحق فإن لم يؤمن أذاه إلا بخلعه خلع وولي غيره...) ومهما يكن من أمر فإن شرعية النظام السياسي الإسلامي غاية يضحى من أجلها.. وعزل حاكم وسيلة من أجل هذه الغاية

ولكنها وسيلة خطيرة قد تؤدي إلى فتنة تهدد الغاية نفسها ومن ثم وجب إستعمال الوسيلة على نحو دقيق بحيث لا تتاح للعام والخاص على السواء وإلا عدلنا عن الوسيلة سدا للذريعة.. وكما لا يمسك بالمبضع أي إنسان لبتر عضو من الأعضاء فإنه لا ينبغي أن يقرر العزل كذلك أي إنسان.. ويقترح البعض أن يكون أمر المسلمين إلى هيئتين : أهل الإجتهاد يستنبطون الأحكام من أدلتها لمواجهة الحاجات الجديدة. وأهل الحل والعقد يواجهون سائر الأمور العامة التي تهم المسلمين وإذا كان أفراد هاتين الهيئتين على مستوى من العلم والمسئولية يؤهلهم لأن يتقدموا الناس، وإذا كان أفراد هاتين الهيئتين هم الذين يعقدون البيعة للحاكم أو للخلينة فى الإبتداء فإنه يكون إليهم - بإعتبارهم ممثلين للأمة - أن ينقضوا بيعة الحاكم في الإنتهاء إذا أخل بالشرعية وخرج على النظام واستنفذت سائر الوسائل في تقويمه. وعلى ذلك ينبغى عدم ترك العزل للعامة يقررونه لما قد يؤدي إليه ذلك من الفوضى والفتنة والهرج، وإنما يقرر العزل من أولتهم الأمة ثقتها وائتمنتهم على أعز عزيز لديها وجعلتهم بذلك شهداء على الشرعية التى يقوم عليها نظام الإسلام كله.. ومهما يكن من أمر فيمكن تنظيم ممارسة هذا الجزاء بما يناسب الزمان والمكان.

أما عن أثر هذا الجزاء فإنه يترتب على الجزاء : نزع السلطة من الحاكم الخارج على شرعية الإسلام بإعتباره أخل بواجبه فى إقامة شرع الله إخلالا جسيما لم تفلح معه وسائل التقويم المتقدمة. ولا شك أنه يلزم مع عزل الحاكم تولية غيره في نفس الوقت حتى لا يحدث فراغ أو لا يبقى الأمر فوضي ولا تتعرض الأمة للفتنة ولا نظامها لهزة عنيفة قد تورثه شرخا فى جداره أو تأتي بنيانه من القواعد. والأمر بين المجتهدين وأهل الحل والعقد ليوازنوا بين الأضرار.. أضرار الإخلال بالشرعية وأضرار عزل الحاكم وما يترتب عليه، فإن رجحت الأولى أقدموا على العزل وإن تساوت أقدموا كذلك بإعتبار الشرعية غاية والعزل وسيلة، ولكن إن رجحت أضرار العزل إمتنعوا عنه.

أثرت فلسفة "لوك" و"مونتسكيو" و"روسو" في الوثائق الدستورية

الفرنسية الحديثة (إعلان حقوق الإنسان والمواطن) وأقرتها الجمعية الوطنية الفرنسية في ٢٧ أغسطس سنة ١٧٨٩ تلك الوثيقة التي أصبحت جزءا من الدستور الصادر في ٣ سبتمبر سنة ١٧٩١ حيث نصبت المادة الثانية من هذه الوثيقة على أن : (هدف كل جماعة سياسية هو صيانة حقوق الإنسانية الخالدة – فلا تقبل الفناء – وهذه الحقوق هى الحرية والملكية والحق في الأمن وفى مقاومة الجور). وفي إعلان حقوق الإنسان والمواطن سنة ١٧٩٣ لم يقتصر على الإعتراف للفرد بحق مقاومة الجور – كما فعل إعلان ١٩٨٩ – وإنما تمشى مع أفكار لوك إلى النهاية فأعترف له بحق الثورة فنص في المادة (٣٥) على أنه (إذا ما عبثت الحكومة بحقوق الشعب كانت الثورة له ولكن جزء منه من أقدس الحقوق وألزم الواجبات).. كما نصت المادة (٣٣) على (أن مقاومة الجور نتيجة حتمية لحقوق الإنسان الطبيعية الأخرى) وتنص المادة (٤٣) على أنه (لا ضرورة لكى يعتبر الجور قائما فيستدعى المقاومة أن يقع على الجماعة بأسرها وإنما يكفي لوقوعه أن يلحق أحد أعضائها فالجور يعد واقعا على الجماعة إذا ما لحق واحدا من أعضائها وهو يعد كذلك واقعا على عضو إذا ما وقع على الجماعة بأسرها).

لم يكن حق مقاومة الحكومات الجائرة من بين الحقوق التي لاقت رواجا لدى الفكر السياسي المعاصر والنظم القائمة عليه وذلك لأسباب عديدة.. إن وجود هذا الحق يفترض أن تكون السلطة العامة مقيدة وأن تكون ثمة نواحي نشاط معينة محرمة عليها كما يفترض وجود ميدان مخصص للفرد محرم على هذه السلطة وهو كذلك ينطوى على السماح للفرد بأن يقرر عدم التضامن مع الجماعة التي ينتمى إليها إن هي جارت عليه في حين أن فكرة الدولة المعاصرة لا تتسع لأي من ذلك كله ومن ناحية أخرى فإن النظم السياسية المعاصرة تزعم جميعا أنها قد قامت على أنقاض سلطات ونظم جائرة حركت بتحكمها حق مقاومة الجور الذي وقف للتحكم والعسف وجها لوجه حتى قضى عليه ثم نشأت على أنقاضه تلك النظم الديمقراطية الجديدة التي قامت بإرادة الشعوب ولا تزال تباشر فيها السلطات وفقا لهذه الإرادة ومن ثم

أصبح إنطلاقا من هذا المنطق لا محل لحق مقاومة الجور في ظل هذه النظم الجديدة بل وأضحى الإلتجاء إليه ينظر له على أنه وسيلة لتفريق كلمة الجماعة صاحبة السيادة وتعطيل للسلطة الشعبية، وكما أنه لا يجوز أن تكون ثمة حريات ضد الحرية كذلك لا يجوز أن يكون ثمة حق مقاومة ضد سلطة هي نفسها وليدة مقاومة نظام جائر والقضاء عليه. هذا علاوة على أن الإعتراف بحق المقاومة يتضمن الإعتراف باحتمال وقوع الجور والعسف من جانب السلطة العامة وهذا ما تبرئ النظم المعاصرة سلطاتها منه بحجة أن الهيئة الحاكمة تمثل - في هذه النظم - الأمة صاحبة السيادة تباشر عنها سيادتها وتعمل بإرادتها ولحسابها فأوامرها هي أوامر الأمة ولا يعقل أن يقع، جور من الأمة على نفسها.

لقد اجتهد المذهب الديمقراطي على أساس فلسفي - لا على أساس من الواقع والملاحظة - فخرّج فكرة سيادة الشعب تخريجاً جديدا حتى أضحت صالحة كمبدأ للحكم. لقد تخيل إمام هذا المذهب جان جاك روسو في مؤلفه (العقد الإجتماعي) الذي نشر سنة ١٧٦١م عقدا اجتماعيا يختلف عن عقدي هوبز ولوك إذ تخيل نزول كل فرد ليخرج من حالة الطبيعة بمقتضى هذا العقد عن حقوقه الشخصية لا لفرد معين وإنما للمجموع في نظير أن يصونها له وترتب على ذلك أن لهذا المجموع إرادة وسيادة تولدتا عن هذا العقد وأنه ينفرد وحده بهذه السيادة لأن الحكومة ليست طرفا في العقد وإنما هي وسيط بين المجموع صاحب السيادة (الشعب) وأعضائه (الأفراد) الخاضعين لسلطانه (أي سلطان المجموع) وهكذا يستطيع المجموع أن يعزل الوسيط متى شاء لأنه ليس طرفا في العقد ولا سلطان له وإنما السيادة للشعب (المجموع) وحده وهكذا لا مجال للجور في مجتمع روسو لأنه لا يتصور وقوع الجور من صاحب السيادة الحقيقى وهو المجموع لأن إرادته هي في نفس الوقت إرادة الجميع أي الإرادة العامة ومن ثم فتصرفاتها مشروعة لا جور فيها وكذلك لا مجال لوقع الجور من الوسيط اي الحكومة لانها لا تبقى في الحكم إلا بقدر إبقاء المجموع عليها. ولئن كانت افكار روسو هذه صالحة تبرير نظام سياسي

معين هو (الديمقراطية) إلا أنها لا تقل صلاحية لتبرير الإستبداد والجور الذي يقع على الأفراد وذلك لأن كل تصرف يقع من السلطة العامة في مجتمع، روسو يعتبر معبرا عن إرادة الأمة أو الأغلبية على الأقل ولا يعقل أن يقع جور من الشعب على نفسه وبذلك يكون روسو قد قضى على مسألة الجور والمقاومة بالنسبة للحاكم الفرد الذي لا يستمد سلطانه من الشعب فاسحا المجال لجور السلطة العامة في مجتمع ديمقراطي بحجة أنه مهما بلغ استبداد هذه السلطة فإنه لن يكون غير مشروع ومن ثم لاجورفيه ولا مقاومة له. ويكون بذلك قد استبدل جور الحاكم المطلق باستبداد ديمقراطي لا تجوز مقاومته وهكذا ليست أفكار روسو كفيلة في ذاتها بالقضاء على مسالة المقاومة أصلا.

فالمقاومة حق ثابت للفرد والجماعة على السواء ولو كره القانون الوضعي فما من شك في أن حكمة تحريم القانون الوضعي للمقاومة تنحصر في حمل الفرد على تقديس النظم والتضحية من أجله فإذا فرض النظام لصالح الحكام دون المحكومين وتمكينا لهم بغير الحق فإنه يكون قد حاد عن وظيفته ومن ثم فهو نظام جائر والسلطة التي تهدف إلى تحقيقه غير مشروعة وكلاهما غير جدير بالتضحية من أجله بل على النقيض من ذلك بدل تقديس السلطة يتحتم مقاومتها وفى مكان إحترام النظام والإمتثال له تحل النقمة والثورة عليه. إن المقاومة تستمد شرعيتها من النظام نفسه لأنها وسيلة من وسائل تدعيمه وتطويره أولا بأول من كل ما يشوبه لحساب الحكام دون المحكومين فيجعله جائرا بعد أن كان نظاما عادلا يرجى من ورائه الخير للمجموع وهي لذلك تعتبر وسيلة شعبية فعالة من وسائل رقابة الهيئة الحاكمة وحق الشعب فيها وليد حقه في رقابة حكامه ومن ثم لا سبيل إلى إنكاره إلا إذا تقدم ذلك إنكار حقه في تلك الرقابة وليس هذا بالأمر الهيّن في ظل النظم الحديثة. والسؤال هنا هو: كيف نوفق بين ذلك وتحريم مقاومة الجور في ظل النظم الديمقراطية. إن مقاومة الهيئة الحاكمة إن جارت في ظل النظام الديمقراطي حق يخلص الشعب من نفس المبادئ التي يقوم عليها هذا النظام وذلك دون ما حاجة إلى الإعتراف به بنص تشريعي صريح فإذا حرم القانون الوضعي فى

ظل نظام ديمقراطي مزاولة هذا الحق فإنه يكون قد حرم بذلك على الشعب الإفادة عملا بمبدأ أساسي من المبادئ التي يقوم عليها النظام الديمقراطي نفسه هو مبدأ سيادة الأمة مما يجعل هذا المبدأ مجرد عبارة خاوية لا تصيب لها من الواقع. فكيف تكون السيادة للأمة في الوقت الذي يحرم عليها فيه مراقبة مندوبيها في مباشرة هذه السيادة عن طريق مقاومتهم إن هم حادوا عن الطريق المرسوم لهم في الحكم. إن الجمع بين النظام الديمقراطي وتحريم المقاومة جمع بين متناقضين وقضاء على ركن من أركان الديمقراطية ولذا فإن إنكار القانون الوضعي لحق المقاومة الشعبية وتحريم مزاولته يجافى الديمقراطية الحقة ويتعارض معها وذلك على الرغم مما يقال تبريرا لتحريم المقاومة في ظل النظم الديمقراطية المزعومة. إن الديمقراطية نظام من شأنه رد كل أمر يعنى الجماعة إليها فحكومتها من الشعب وللشعب والسيادة للأمة فلا سلطان للحكام إلا ذلك الذى يخول لهم من المحكومين ويرضون به.

إن مقاومة جور الحكام في ظل النظام الديمقراطي حق للشعب يستمد من النظام نفسه دون حاجة إلى الإعتراف به بنص وضعي صريح وأن كل قاعدة وضعية تصدر في ظل نظام ديمقراطي من شأنها تحريم مزاولة هذا الحق على الشعب تفقد النظام ركنا من أركانه الجوهرية وتعود بالشعب إلى الإستبداد. ومهما يكن من أمر فإنه لما كان حق مقاومة الجور موجها ضد سلطة الحكام فإنه ليس من المستغرب في شيء أن يكون هذا الحق موضع نكران من جانب القانون الوضعي. إنما الذي يستدعي الدهشة هو أن تعترف الحكومات في التشريعات التى تصدرها بحق تؤدي مزاولته إلى خلعها بالإكراه، لذلك تتضمن جميع التشريعات الوضعية نصوصا تجعل من المقاومة أمرا غير مشروع وتصب على مزاولتها أشد العقوبات وأقساها تدعيما لسلطة الحكام على المحكومين.. ومع ذلك فثمة قوانين وضعية من طبيعة خاصة قد عنيت بمسألة مقاومة الجور معترفة بها كحق ثابت للمحكومين قبل الحكام هي وثائق إعلان الحقوق التى صدرت في الولايات المتحدة الأمريكية وفرنسا وغيرها إثر ثورات ديمقراطية. وفيما عدا هذه الوثائق فإن التشريعات الوضعية

لا تقتصر على إنكار حق المقاومة فحسب وإنما تذهب إلى حد المغالاة فى العناية بتنظيم مكافحة وسائل مزاولة هذا الحق الطبيعي مستترة وراء فكرة حماية النظام الاجتماعي تارة وسلامة الدولة تارة وذلك دون أي اعتبار لجور الحاكم القائم لأنها تصدر عنه أو من هيئة تعمل لحسابه.. على أن القوانين الوضعية لم تكتف بعدم إقرار حق الفرد فى مقاومة جور الحكام فحسب وإنما ذهبت إلى حد تحريم مزاولته تحريما مطلقا لأن هذه القوانين غالبا ما تعبر عن إرادة الهيئة الحاكمة الغالبة دون الطبقة المحكومة المغلوبة على أمرها ومن ثم تهدف إلى التمكين لتلك الهيئة ويستتبع ذلك بداهة العمل على تحريم مقاومتها ولو جارت وهي إذ تفعل ذلك تعتمد على فكرة حماية كيان الجماعة وصيانة النظام ودون أن يشغلها بداهة أمر التمييز بين النظام العادل والنظام الجائر لأن جميع الوسائل عندها مشروعة مادامت تحقق فى النهاية التمكين للهيئة الحاكمة. ولكن عبثا تفعل تلك القوانين حينما تنكر على الفرد حقه الطبيعي في الدفاع عن النفس فى مظهره هذا لأنها إذ تفعل ذلك تحاول القضاء على غريزة بشرية جامحة هي حب البقاء وهذا أمر لا سبيل إلى تحقيقه إلا بالقضاء على الفرد نفسه.

إن إنكار القوانين الوضعية لحق الفرد فى مقاومة الجور وتحريمها لمزاولته إياه لا يحرم الفرد ذلك الحق الطبيعي لأن القوانين لا تعدل فى الغرائز.

ومن هنا تعد مقاومة الجور حقا يزاوله الفرد نتيجة لحقه الطبيعي في الدفاع عن النفس وتزاوله الجماعة نتيجة لحقها في رقابة من ولتهم أمرها ركن ركين من أركان النظام نفسه وسواء في ذلك أقره القانون الوضعي أم أنكره!!.

بيعة الناس للخلفاء هي عقد بينهم وبين هؤلاء الخلفاء لا يجوز لخليفة أن ينقضه ولا يجوز لأحد من الرعية أن ينقضه أيضا لأن الله يأمر بالوفاء بالعهد فى غير موضع، من القرآن فيقول مثلا في سورة النحل : «وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلا إن الله يعلم ما تفعلون. ولا تكونوا كالتى نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثا تتخذون

أيمانكم دخلا بينكم أن تكون أمة هى أربى من أمة إنما يبلوكم الله به وليبين لكم يوم القيامة ما كنتم فيه تختلفون». ويقول فى سورة الإسراء [وأوفوا بالعهد إن العهد كان مسئولا] ويجعل الوفاء بالعهد خصال من خصال البر التى عددها في الآية الكريمة من سورة البقرة «ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الاخر والملائكة والكتاب والنبيين وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل. والسائلين ومن الرقاب وأقام الصلاة وآتى الزكاة والموفون بعدهم إذا عاهدوا والصابرين فى البأساء والضراء وحين البأس أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون» والخلافة عهد بين الخليفة ورعيته قوامه أن يلزم الخليفة نفسه أن يعمل بكتاب الله وسنة رسوله وأن ينصح للمسلمين ما استطاع إلى ذلك سبيلا وأن يطيع المسلمون أوامر الخليفة ويجتنبوا ما ينهى عنه في هذه الحدود فإن نكث الخليفة عهده فسار في المسلمين سيرة ينحرف بها عن كتاب الله وعن سنة رسوله وعما التزم من النصح للمسلمين فلا طاعة له على رعيته ومن حق هذه الرعية أن تطالبه بالوفاء بما أعطى على نفسه من عهد فإن استقام فذاك وإلا فللمسلمين أن يبرأوا منه وأن يلتمسوا لهم خليفه غيره وإذا بغى بعض الرعية فنقض عهده الذي أعطاه للخليفة بالسمع والطاعة وجب على الخليفة أن يراجعه في ذلك فإن فاء إلى أمر الله واوفى بالعهد فذاك وإن أبى وجب على الخليفة أن يقاتله حتى يفيء إلى أمر الله ومن اجل ذلك كله قال أبوبكر في خطبته التى تُروى عنه إثر بيعته : (إن احسنت فأعينونى وإن أسأت فقومونى) ثم قال بعد ذلك (أطيعونى ما أطعت الله ورسوله فإن عصيت الله ورب له فلا طاعة لي عليكم) وليس بد من أن تتم البيعة بين الخليفة والممثلين للمسلمين من أعلام الأمة وقادتها حتى حين يوصي الخليفة القائم لرجل بعده كائنا من يكون هذا الرجل. وقد استخلف أبوبكر عمر في مرضه الذى توفى فيه ولكنه لم يطمئن إلى وصيته حتى استشار فيها نفرا من أصحاب رسول الله ثم أمر عثمان أن يسال جماعة المسلمين : أتبايعون لمن في هذا الكتاب؟ فلما قالوا: نعم. اطمأنت نفس أبي بكر فأرسل إلى عمر فنصح له ووصاه بما

أراد. وكل هذا لم يلزم المسلمين طاعة عمر بعد وفاة أبي بكر وإنما وجب على الخليفة أن يعطيهم العهد ليعملن بكتاب الله وسنة رسوله ولينصحن للمسلمين ما استطاع ووجب على المسلمين أن يعطوه العهد على أنفسهم بالسمع والطاعة فى الحدود التى التزمها.

ولما طعن عمر وجعل الشورى في أولئك الستة من أصحاب رسول الله على أن يختاروا من بينهم رجلا يكون هو الخليفة لم تكن وصية عمر إلى هؤلاء الستة معفية للخليفة من أن يعطي هذا العهد على نفسه وأن يأخذ من المسلمين العهد على أنفسهم على النحو الذى بيناه آنفا. فلم يكن استخلاف أبى بكر لعمر إلا ترشيحا له ولم يكن ما انتهى إليه أمر الشورى من اختيار عثمان إلا ترشيحا له أيضا. وكلا الرجلين لم يستطع أن يقوم بشيء من أمور المسلمين إلا بعد أن تمت البيعة بينه وبينهم، فالبيعة إذن هي الركن الأساسي للخلافة.

إنه لم يقم إلى جانب البيعة نظام سياسي آخر يحميها من عدوان الخليفة عليها والإستبداد بها وبأصحابها الذين يقال بأنهم جعلوا له الوكالة عنهم فيها. إن التسوية في النظر بين عقد الوكالة الذي هو بين فرد وفرد وبين هذا التفويض العام الذي تنزل به الأمة عن سلطانها للخليقة أو نحوه، هذه التسوية قائمة على النظرة السطحية. إن عقد الوكالة الذي يقوم بين الأفراد يسمح، للأصيل في أيه لحظة أن يعزل الوكيل وأن يمسك يده عن التصرف فيما أباح له عقد الوكالة أن يتصرف فيه سواء كان ذلك عن إساءة الوكيل أن التصرف أم لم يكن.. فهل يمكن أن يحدث ذلك في عقد البيعة ؟ وهل يملك الذين بايعوا الخليفة أن يعزلوه بقولهم قد سحبنا وكالتك عنا فرد علينا أمرنا؟، لقد قالها الناس لعثمان فما كان جوابه إلا أن قال: (لا أنزع قميصا قمصينه الله) إن الخليفة يرى بعد أن صارت الخلافة إليه أن ذلك وكأنه أمر من الله وأن الذين بايعوه لم يكونوا إلا مجرد وسيلة تم بها هذا الأمر والناس يرون أنهم أصحاب الأمر وأن الخليفة لم يكن خليفة إلا بهم وأنهم هم الذين وضعوه بهذا الوضع وأنهم هم الذين لهم حق إنزاله عنه وأنهم هم الذين ألبسوه هذا القيمص ومن

حقهم أن ينزعوه عنه ثم كان ما هو معروف من تلك الأحداث الدامية المفجعة التى أريق فيها دم الخليفة ودم كثير من المسلمين فرق بعيد شاسع البعد هذا الذي بين عقد الوكالة وعقد البيعة. إن عقد البيعة يضع بين يدي الحاكم سلطة مطلقة وسلطانا متمكنا إذ يجمع بين يديه كل ما للدولة من مال وجند وهو بقوة المال وبقوة الجند يحكم ويتسلط ولا وازع له إلا ما في ضميره من دين وما فى قلبه من إيمان قل ذلك أوكثر ودع عنك ما يبذل الحاكم من عهود وما يعطي من مواثيق إنها كلمات تحيا أو تموت وتعمل أو تبطل حسب استعداد الحاكم وحسب رأيه وهواه.

ولو كانت الخلافة مجرد وكالة لما كانت للخليفة منها هذا السلطان الذى يلغى شخصية الأصيل حتى لا يحسب له حساب والذي يجعل إلى يده الأمر كله حتى لا يدع للأمة صاحبة الأمر شيئا منه.. ولا كانت إقامة الشرع لاتجد وقاية من عدوان السلطة التنفيذية (الحاكم أو الخليفة) فما أكثر ما كانت العدالة تنهار انهيارا تاما.. ليست هناك قوة في يد المجتمع يستطيع بها أن يقيم الحاكم عند الحدود التى اقامه عليها ورضيه لحسابها وكان على المجتمع إما أن يثور على الحاكم وأن يدخل معه في هذا الصراع الذي يمزق وحدة الأمة ويفتح أبواب الفتن على مصاريعها وإما أن يصبر ويحتمل. وفي الشر خيار فقد اتجه أولوا الراي في الجماعة الإسلامية إلى مسالمة الحاكم اجتنابا للفوضى والفتن ووجدوا لهذا الإتجاه مستندا يستندون إليه كما أن طائفة أخرى من أصحاب الراي قد إتجهت إلى الجانب الآخر وهو الخروج على طاعة الحاكم إذا أمر بمعصية. إلا أن الجانب المسالم كان أرجح كفة وأقوى أثرا.

إن الإسلام لا يقر السلبية أو العزلة بل إن بعض الفقهاء يطلق اسم الأموات الأحياء على من يهملون الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فيقول ابن تيمية (قيل لإبن مسعود من ميت الأحياء ؟ فقال الذي لا يعرف معروفا ولا ينكر منكرا).

فالحاكم مطاع ما دام على الحجة ونهج الكتاب والسنة والمسلمون له

بالمرصاد فإن انحرف عن النهج أقاموه عليه وإن إعوج قوموه بالنصيحة ولا عذر له فهو حاكم مدني من كل الوجوه وليس في الإسلام سلطة دينية سوى سلطة الموعظة الحسنة والدعوة إلى الخير والتنفير من الشر وهي سلطة خولها الله لأدنى المسلمين يقرع بها أنف أعلاهم كما خولها لأعلاهم يتناول بها من هو أدناهم لذا فإن لكل فرد من المسلمين أن يقرع بكلمة الحق أذان الحاكم إن ما ابتعد عن الطريق المستقيم أو انحرف عن جادة الحق وهو بذلك مأجور لأنه يحقق الحديث الشريف (إن من أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر).

ولكن ما هي حدود هذه الطاعة؟ إن طاعة الحاكم المسلم في الدولة الإسلامية واجبة دينا ما أطاع هذا الحاكم الله ورسوله وطبق أحكام شريعة الإسلام كاملة غير منقوصة أو سعى في ذلك قدر وسعه وعدل بين العباد – مسلمين وغير مسلمين – فيما تولاه من الأمور مباشرة بنفسه وأمر ولاته وقضاته ووزراءه وعمال دولته بإقامة العدل بينهم فيما يتولونه نيابة عنه أو بتكليف منه أو بحكم اختصاصهم به. فإن خالف من ذلك شيئا بالخروج عن الأحكام أو إهمال الشريعة أو الجور بين الناس أو إهمال رفع المظالم التي ترتكب في حقهم من قبل عمال الدولة أو غيرهم من ذوي الجاه والنفوذ والسلطان فإن على المسلمين جميعا واجبا إذا تركه الجميع أثموا جميعا وإن قام به بعض المسلمين سقط الإثم إن كان في القائمين به كفاية لأدائه وإلا سقط عنهم وحدهم ولزم من لم يقم به حتى يقوم به عدد كاف منهم ذلك هو واجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وهو ليس كلاما عاما لا مضمون له بل هو واجب قانوني محدد القسمات واضح المعالم ومراتب أدائه متدرجة: بالقلب ثم باللسان ثم باليد، وفي كل مرحلة هناك تدرج يناسبها. ففي أدائه بالقلب هناك عدم الرضا وهناك الرفض وهناك كراهة القلب، وفي أدائه باللسان – أمرا أو نهيا – هناك النصيحة الخاصة، ثم النصيحة العامة، ثم إعلان المخالفة والأمر بالكف عنها على رؤوس الأشهاد ثم الزجر والتعنيف. وفي أدائه باليد يكون بأقل مما يندفع المنكر به أو يتم المعروف به ثم ينتقل إلى ما هو أكثر ولا يجاوز في ذلك ما يقع التغيير بفعله والقاعدة في مراتب النهى والأمر جميعا – في

فقه الإسلام - هو البدء بالأدنى والأخف والإنتقال منه إلى الأعلى والأشد حتى لو كانت المعصية مما يوجب الإسلام بذل النفس في سبيل دفعها وجب على المسلم ألا يمنع، من الله نفسه.. وقد كان هذا الفهم هو الدافع الذي حدا بعدد غير قليل من الفقهاء مختلف المذاهب إلى تقرير جواز عزل الحاكم عن ولايته إذا أتى ما يعتبر إخلالا بواجبات وظيفته أو إذا ظهر منه ما يعد فسقا أو جورا أو مخالفة لكتاب الله وسنة الرسول صلى الله عليه وسلم وليس أدل من مثل هذا الفهم على مدى أخذ شريعة الإسلام وفقهه بقاعدة جواز مساءلة الحاكم بكل ما تستتبعه هذه المساءلة من نتائج.

الطاعة من المصطلحات القرآنية المهمة التي يفسرها الفقهاء على أنها الإلتزام السياسي وهم في ذلك يؤكدون على الحاجة إلى سلطة منظمة قاهرة لحفظ المجتمع من الفوضى. ويرى هؤلاء أن غياب السلطة السياسية المنظمة من شأنها تعطيل أحكام الشريعة في الأمة وهكذا لا يمكن تطبيق الشريعة في ظل فوضى دستورية وقانونية وتبعا لذلك فلا يمكن أن تقوم أمة وتكون لها شرعية دون الشريعة ولا نفاذ أحكام الشريعة في الأمة فمن الضروري وجود خليفة أو إمام ولهذا يجب لهذا الإمام على الأمة الطاعة والإمتثال والإنقياد. ويضع الفقهاء هذه الآية نصب أعينهم «يا أيها الذين امنو أطيعوا الله وأطيعو الرسول وأولي الأمر منكم» (النساء - ٥٩) كأساس نظرية الطاعة اللازمة من أفراد الأمة للإمام أو الخليفة.

في ظل الدولة الإسلامية لابد أن تكون الشريعة هي الحكم وعلى الأمة أن تطيع من يعمل بشرع الله ويعمل لإشاعة العدل لكن هؤلاء وأولئك ليسوا فوق المساءلة وبهذا فان الطاعة ليست مطلقة..

ومهما يكن من أمر فإن وجوب طاعة الخليفة ليست مطلقة ولكن يخضع، لشروط وعلى الأمة أن تنظم حياتها العامة والخارجية (نظام الحكم) بما يوافق الشريعة الإسلامية ويبقى على الأمة طاعة الحاكم ما دام يحكم بالشريعة ويعمل بما يحقق المصالح العامة لأن الأمة صارت بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم أمينة على الشريعة واتخذت من الخلافة نظاما للحكم يضمن تطبيق

الشريعة الإسلامية والخليفة أو الحاكم يكون مسئولا بالدرجة الأولى أمام الأمة التي أولته ثقتها لكن هذا الحاكم كأحد أفراد الأمة في تطبيق الشريعة على نفسه وهو محاسب على ذلك أمام الله.

وإذا إنتقلنا إلى النظرية السياسية ونظرية الطاعة والخروج في الفكر السياسي الكنسي الكاثوليكي لوجدنا نظرية البابوية (Jesuit) الجزويت التي دعا إليها R. Allatminee وبمقتضى هذه النظرية أصبح الخروج على الحاكم واجبا دينيا ويجوز للناس خلع الحاكم الكافر المتنع. ونجد أيضا بين الجزويت الأوائل مؤلف جوان دي ماريانا المعروف بدفاعه عن قاتل المستبد كعلاج للظلم السياسي وعلى العكس من ذلك نجد أفكارا كثيرة أدت فيما بعد إلى عرض نظرية الحكم بمقتضى الحق الإلهي وذلك دفاعا عن الدكتاتورية وكانت هذه النظرية أيضا نتيجة للنزاع بين الطوائف الدينية والهدف الأساسي منها هو تحريم الخروج على الحاكم والحض على طاعته طاعة عمياء، وقد دعا إلى ذلك جيمس الأول الذى يري أن (الملوك صورا ناطقة للإله على ظهر الأرض) وأنه ليس أمام الناس إلا الخضوع لأمرهم وإلا عمت الفوضى. ومهما يكن من أمر فهناك رأيان : أحدهما يقول بأن الحكام يستمدون سلطتهم من الأمة وبالتالي يحق لهم الخروج على الطغاة الجائرين المستبدين. والرأي الثاني يقول بأن السلطة تستمد من الله وبالتالي لزم الأمة طاعة الحكام طاعة عمياء. وهكذا نجد تشابها في هذا المجال بين النظريات السياسية الإسلامية والمسيحية لأن نفس المسائل تعرض لها المفكرون المسلمون. ومن الطريف أن نلاحظ أن دعاة الطاعة الكاملة للخلفاء وكذا المدافعين عن حق الخروج على الحاكم بين الفقهاء المسلمين وآباء الكنيسة قد استدلوا لآرائهم ببعض أقوال الرسول صلى الله عليه وسلم.. وقد سبق أن ذكرنا طرفا فيما يتعلق بهذه النقطة بالنسبة للمسلمين وذكرنا كثيرا من أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم التي تحض على طاعة الحكام وتحذر من الخروج عليهم حتى لو كانوا غير أهل لذلك وتحت أي ظرف. لكننا نعيد هنا ذكر حديثين – سبق أن ذكرت أنهما ليسا بحديثين – يوضحان هذه النقطة أكثر من غيرهما وهما: (من سب

ملكا إصطفاه الله فسيلقى صغارا عند الله)، (إذا مم عدل الملك جازاه الله عن إحسانه وكان على الرعية أن تقر له بالفضل وإن كانت الأخرى فليصبروا).
الحديثان السابقان يشيران إلى الحق الإلهي للملوك في الحكم والذي نجده أيضا عند آباء الكنيسة جليا في العصور الوسطى وفي كتابات جيمس الأول في إنجلترا. ولعل الكلمات الواردة في الحديث ترجمة حرفية لما جاء وورد في كتابات آباء الكنيسة والسؤال الذى يتبادر إلى الذهن الآن هو: هل هذه مجرد مصادفة جاءت كيفما اتفق.. أم أنها محاولة مقصودة لنقل الأفكار المسيحية إلى الأحاديث... ؟

أما عن أن هذه مصادفة فذلك غير وارد لسببين: أولهما: أن هذه الأحاديث لا تؤيد معناها الآيات القرآنية فلا يمكن أن نجد آية من الآيات تؤيد هذه المعاني وأن ما نجده هو إشارات إلى بعض الأنبياء الذين آتاهم الله الملك مثل : داود وسليمان وطالوت لكن على الرغم من أن آيات القرآن تحفل بالتأكيد على أن محمدا رسول الله لا نجد إشارة مباشرة أو غير مباشرة تصفه بالملك. ثانيهما: نظام الملك كان غير معهود لدى العرب خاصة في وسط الجزيرة ولم يكن يتناسب مع أعراف العرب البدوية بل وحتى وجود قوة بشرية عليا في المجتمع لم تكن تتفق ونفسية العرب البدوية. ولهذا فلم يكن لدى العرب أدنى استعداد لقبول سلطة أي ملك. وهذا تؤيده الحقيقة التاريخية ؟ أن أبى بن أبى سلول كان يريد استغلال الأوضاع في المدينة لينصب نفسه ملكا غير أنه رغم الصراعات القبلية لم يكن أهل المدينة مهيئين لقبوله ملكا ولذا فقد فتح أهل المدينة قلوبهم للنبي محمد صلى الله عليه وسلم الذي أعلن أنه خاتم الأنبياء وقبلوا مقدمه إليهم نبيا وحكما بينهم بشريعة الله وكان قبول سلطته بحكم أنه نبي وليس لكونه ملكا.. لكن ما أن تمكن النبي صلى الله عليه وسلم من الإصلاح بين القبائل المتحاربة وأخذت الغزوات المظفرة توسع من رقعة الأمة الإسلامية حتى اصبح زعماء القبائل ينظرون إلى أن النبي صلى الله عليه وسلم على أنه ملك فبدأ في هذه الأثناء ظهور أدعياء النبوة الذين أرسلوا إلى النبي صلى الله عليه وسلم يسألونه تقسيم الأرض وكان رد النبي صلى

الله عليه وسلم : أن لله يورثها من يشاء من عباده وأن هذا يعد نفيا قاطعا لحق الملوك الإلهي في الحكم. والبحث الدقيق في تطور الدولة الأسلامية الأولى يؤدي بنا إلى نتيجة واضحة هي: أن الحكم بمقتضى الحق الإلهي الذي يدعو إليه أباء الكنيسة كان شيئا غريبا تماما على العرب وليس له ما يؤيده من نصوص القرآن.. وهنا يثور سؤال آخر يتعلق بكيفية تسرب هذه العقيدة والأفكار المسيحية إلى الأحاديث النبوية الشريفة ؟ ولعل التفسير الوحيد المقنع هو أنه خلال حكم الأمويين والعباسيين وضعت الكثير من الأحاديث عن قصد وذلك لسلطان الخليفة من جهة وللتضييق على الأمة في حقها في الخروج على الخليفة وأن تطعه طاعة عمياء سواء كان عادلا أو ظالما وهذا كان هو الغرض السياسي من وراء وضع هذه الأحاديث.. وقد ساق بعض الفقهاء الآية ٥٩ من سورة النساء لتأييد قولهم لكن يبدو أن المفسرين وعلماء الحديث على السواء قد أغفلوا السياق الذي وردت فيه الآية. حتى لو قبلنا تفسير البعض بأن هذه إشارة إلى السلطات السياسية (أولي الأمر) فليس من المنطقي الربط بين هذه الآية والأحاديث التى تقول بحق الملوك فى الحكم بمقتضى الحق الإلهي لأنه حتى سلطة الرسول صلى الله عليه وسلم جاءت وسطا بين الله وبين الحكام ولهذا فهي لا تتفق مع النظرية المسيحية في الحكم بمقتضى الحق الإلهي والملك ظل الله في الأرض والسلطان خليفة الله في الأرض أو الملوك صور حية لله على الأرض. ومن هنا يمكن أن نخلص إلى أن هذه المقولات إقتبسها العباسيون من الحضارة الرومانية وأدخلوها في كتب الحديث والتفسير. غير أنه يبدو أن العلماء والفقهاء والمحدثين قد ضيقوا في مجال الخروج على الحاكم لئلا تحدث فتنة في الأمة خاصة وأن التقاتل بين المسلمين جاء من هذا الباب لكن هذه الحقيقة التاريخية ذاتها من الممكن أن تفيد منها في تفنيد مزاعم من دعا إلى الطاعة العمياء للخلفاء والحكام.

التمايز والإختلافات الأساسية بين الشريعة الإسلامية والقوانين الوضعية من ثلاثة وجوه أساسية : أولها: القانون من صنع البشر أما الشريعة فمن عند الله ومن صنعه ولذا فالقانون ناقص دائما ولا يمكن أن يبلغ

حد الكمال لأن صانعه لا يمكن أن يوصف بالكمال أما الشريعة فتتمثل فيها قدرة الخالق وكماله وعظمته وإحاطته بما كان وما هو كائن تحيط بكل شيء في الحال والإستقبال حيث صاغها العليم الخبير حيث أحاط علمه بكل شيء «لا تبديل لكلمات الله» (يونس – ٦٤) فالله وضع قوانين ثابتة تحكم طبائع الأشياء وحركاتها واتصالاتها فالله وضع الشريعة الإسلامية قانونا ثابتا كاملا لتنظيم الأفراد والجماعات والدولة ولتحكم معاملاتهم وأن الشريعة بلغت من الروعة والكمال حدا يعجز عن تصوره الإنسان. ثانيها: أن القانون الوضعي عبارة عن قواعد مؤقتة تضعها الجماعة لتنظيم شئونها وسد حاجاتها وتستوجب التغيير كلما تغيرت حال الجماعة أما الشريعة فقواعد وضعها الله على سبيل الدوام لتنظيم شئون الجماعة، فقواعدها دائمة ولا تقبل التغيير والتبديل، فقواعد الشريعة الإسلامية ونصوصها جاءت عامة ومرنة إلى أخر حدود العموم والمرونة كما أنها وصلت من السمو درجة لا يتصور بعدها سمو. ثالثها : الجماعة هي التي تصنع القانون وتلونه بعاداتها وتقاليدها وتاريخها ولتنظيم شئونها فالقانون من صنع الجماعة وليست الجماعة من صنع القانون، أما الشريعة فهي ليست من صنع الجماعة ولكنها من صنع الله فالجماعة من صنع الشريعة التي تهدف قبل كل شيء إلى خلق الأفراد الصالحين والجماعة الصالحة وإيجاد الدوله المثالية والعالم المثالي. فالله وضع الشريعة وأنزلها على رسوله نموذجا من الكمال ليوجه الناس إلى الطاعات والفضائل ويحملهم على التسامي والتكامل فالمسلمون ما داموا متمسكين بالشريعة من صنع الشريعة كيانهم تابع لكيانها ووجودهم مرتبط بوجودها وسلطانهم تابع لسطانها.. وهكذا فالشريعة الإسلامية تتميز عن القوانين الوضعية بالكمال والسمو والدوام.

إن النظام الديمقراطي يقوم في الأصل على الشورى والتعاون ولكنه انتهى بسوء التطبيق إلى تسليط المحكومين على الحاكمين وانعدام التعاون بينها وأن النظام الدكتاتورى يقوم في الأصل على السمع والطاعة والثقة بين الحاكمين والمحكومين ولكنه انتهى بسوء التطبيق إلى تسليط الحاكمين على

المحكومين وإنعدام الثقة بينهما. أما النظام الإسلامي فيقوم على الشورى والتعاون في مرحلة الإستشارة وعلى السمع والطاعة والثقة في مرحلة التنفيذ ولا تسمح قواعده بتسليط فريق على فريق. وبهذا جمع النظام الإسلامي بين ما ينسب إلى الديمقراطية من فضائل وما ينسب إلى الدكتاتورية من مزايا ومحاسن ثم هو في الوقت نفسه بريء من العيوب التى تنسب للديمقراطية والدكتاتورية معا!! والشريعة الإسلامية أول شريعة قيدت سلطة الحكام وحرمتهم حرية التصرف وألزمتهم أن يحكموا في حدود معينة ليس لهم أن يتجاوزوها وجعلتهم مسئولين عن عدوانهم وأخطائهم. وتقوم النظرية على ثلاثة مبادئ أساسية : أولها: وضع حدود للسلطة الحاكم، ثانيها: مسئولية الحاكم عن عدوانه وأخطائه، تخويل الأمة حق عزل الحاكم.

المبدأ الأول : وضع حدود السلطة الحاكم : كانت سلطة الحاكم قبل نزول الشريعة سلطة مطلقة لا حد لها ولا قيد عليها وكانت علاقة الحاكمين بالمحكومين قائمة على القوة البحتة ومن القوة كان الحاكم يستمد سلطانه وعلى مقدار قوته كانت سلطته فكلما كان قويا امتد سلطانه لكل شيء وإن ضعف إنكمشت سلطته وأصابها القصور والوهن. وكان الناس يدينون للحاكم بالطاعة لا لأنه يحكمهم بل لأنه اقوى منهم فكلما كان الحاكم قادرا على أن يسوق الناس بعصاه أو يغريهم بماله وجاهه فهم من الطائعين السامعين فإذا ضعف الحاكم واستطاع أحد منافسيه أن يتغلب عليه فإنه يستطيع تبعا لذلك أن يتحكم في رقاب الرعية وكانت الرعية تعتبر خدما وعبيدا لصاحب السلطان سواء أورث سلطانه أم اكتسبه. ولما كان الحاكم يستمد سلطته من قوته لم تكن سلطة أي حاكم تساوي سلطة الآخر ولم تكن هناك حدود مرسومة للحكام لا يتعدونها بل كان للحاكم أن يأتي ما يشاء ويدع ما يشاء دون حسيب أو رقيب، وجاءت الشريعة فاستبدلت بهذه الأوضاع البالية أوضاعا جديدة تتفق مع الكرامة الإنسانية والحاجات الإجتماعية فجعلت أساس العلاقة بين الحكام والمحكومين تحقيق مصلحة الجماعة لا قوة الحاكم أو ضعف المحكومين تركت للجماعة حق إختيار الحاكم الذي يرعى مصلحتها ويحفظها وجعلت لسلطة

الحاكم حدودا ليس له أن يتعداها فإن خرج عليها كان عمله باطلا وكان من حق الجماعة أن تعزله وتولي غيره لرعاية شئونها. وقد بينت الشريعة مهمة الحاكم بيانا شافيا وحددت حقوقه وواجباته تحديدا دقيقا، فمهمة الحاكم فى الشريعة أن يخلف رسول الله فى حراسة الدين وسياسة الدنيا ويسمى الحاكم في الإصطلاح الإمام. وقد حدد الماوردى في كتابه الأحكام السلطانية واجبات الإمام بأنها حفظ الدين وتوفير الأمن والنظام وإقامة الحدود وتنفيذ الأحكام وحفظ الثغور والجهاد والإشراف على الأموال العامة في جبايتها وإنفاقها والإشراف على الموظفين العموميين الذين يتولون كل هذه المهام. والإمامة أو الخلافة كما يرى الفقهاء عقد لا ينعقد إلا بالرضى والإختيار بموجب هذا العقد يلزم الإمام – الحاكم – أن يشرف على الشئون العامة للأمة في الداخل والخارج بما يحقق مصلحتها بشرط أن يكون ذلك كله فى حدود ما أنزل الله على رسوله وفى مقابل التزام الحاكم للأمة بهذا الإلتزام تلتزم له الأمة على لسان ممثليها الذين اختاروه إماما أن تسمع له وتطيع أمره مالم يتغير حاله فيصبح فاسقا أو يعجز عن مباشرة عمله فإذا تغير حاله انعزل بفسقه أو عجزه. فسلطة الإمام أي الحاكم في الشريعة ليست مطلقة وليس له أن يفعل ما يشاء ويدع ما يشاء وإنما هو فرد من الأمة إختير لقيادتها وعليه للأمة التزامات وله على الأمة حقوق وله من السلطان ما يستطيع أن يؤدي به إلتزاماته ويستوفي به حقوقه وهو في أداء واجباته واستيفاء حقوقه مقيد بأن لا يخرج على نصوص الشريعة أو روحها وذلك طبقا لقوله تعالى «وأن إحكم بينهم بما أنزل الله» (المائدة – ٤٩) «ثم جعلناك على شريعة من الأمر فإتبعها ولا تتبع أهواء الذين لا يعلمون» (الجاثية – ١٨) وقوله «ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون» (المائدة –٤٤) وإذا كان الحاكم مقيدا بأن يتبع الشريعة وأن يحكم طبقا لنصوصها فمعنى ذلك أن سلطته مقيدة بنصوص الشريعة فما أباحته له فقد امتد سلطانه إليه وما حرمته عليه فلا سلطان له عليه. والشريعة لا تبيح للحاكم إلا ما تبيحه لكل فرد ولا تحرم عليه إلا ما حرمت على كل فرد.

المبدأ الثاني: مسئولية الحاكم عن عدوانه وأخطائه: بعد أن بينت الشريعة واجبات الحاكم وحقوقه وحددت سلطته على الوجه السابق جعلته مسئولا عن كل عمل يتجاوز به سلطاته سواء أتعمد هذا العمل أم وقع العمل نتيجة إهماله. ولم تكن الشريعة في تقرير مسئولية الحكام عن تصرفاتهم إلا متمشية مع منطق الأشياء فقد بينت للحاكم حقه وواجباته وألزمته بألا يخرج عن أحكام الشريعة وجعلته كأي فرد عادي فلم تميزه على غيره بأي ميزة فكان من الطبيعي تحقيقا للعدالة والمساواة واستجابة للمنطق أن يسأل الحاكم عن كل عمل مخالف للشريعة سواء أتعمد هذا العمل أم وقع فيه نتيجة إهماله مادام كل فرد يسأل كذلك عن أعماله المخالفة للشريعة.

المبدأ الثالث : تخويل الأمة حق عزل الحكام: بينا أن الإمامة تنعقد بناء على عقد يختار فيه الشعب الإمام – الحاكم – ويلتزم له بالطاعة في مقابل التزام الحاكم بالإشراف على شئون الأمة وقيادتها في الطريق التي رسمتها الشريعة. وينبنى على هذا المنطق أن الحاكم الذى يقوم بمهمته في الحدود المقررة لها يجب له على الشعب السمع والطاعة. أما الحاكم الذي لا يقوم بالتزاماته أو يخرج على حدودها فليس له أن ينتظر من الشعب السمع والطاعة وعليه هو أن يتنحى عن مركزه لمن هو أقدر منه على الحكم فى حدود ما أنزل الله فإن لم يتنح مختارا أنحاه الشعب مكرها واختار غيره. وهذا الذي يقتضيه المنطق هو نفس حكم الشريعة الصريح جاء به القرآن وأمر به الرسول وعمل به الخلفاء الراشدون من بعده فالله جل شأنه يأمر بطاعة أولي الأمر في حدود ما جاء به الرسول فيقول «يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلا» (النساء – ٥٩) والرسول صلى الله عليه وسلم يقول (لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق) ويقول (إنما الطاعه في المعروف) ويقول في ولاة الأمور (من أمركم منهم بمعصية فلا سمع له ولا طاعة). ولما اختار المسلمون أبا بكر خليفة عليهم بعد موت الرسول صلى الله عليه وسلم قال : (أيها الناس قد وليت عليكم ولست

بخيركم إن أحسنت فأعينونى وإن أسأت فقومونى – أطيعوني ما أطعت الله ورسوله فإن عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم)، وتولى عمر ابن الخطاب بعد ابي بكر أمر المسلمين فكان حريصا على إظهار معاني هذه النصوص وتثبيتها في الأذهان خطب يوما فقال: (لوددت أني وإياكم في سفينة ثم لجة البحر تذهب بنا شرقا وغربا فلن يعجز الناس أن يولوا رجلا منها فإن إستقام اتبعوه وإن جنف قتلوه، فقال طلحة: وما عليك لو قلت وإن تعوج عزلوه، قال: لا القتل أنكل لمن بعده).

للحكام في الشريعة الإسلامية كل ما للأفراد من الحقوق ولكن لهم فوق ذلك حق الأمر على الأفراد واستعمال هذا الحق يؤدي إلى ترتيب واجب على الأفراد هو واجب الطاعة. وقد قرر القرآن هذا الحق وذاك الواجب في قوله تعالى «يا أيها الذين امنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول». (النساء– ٥٩) وحق الأمر وواجب الطاعة كلاهما مقيد غير مطلق فليس لآمر أن يأمر بما يخالف الشريعة وليس للمأمور أن يطيع فيما يخالف الشريعة سواء كان موظفا أو غير موظف وذلك ظاهر من قوله تعالى : «فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول» ومن قوله صلى الله عليه وسلم (لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق) وقوله صلى الله عليه وسلم (من أمركم من الولاة بغير طاعة الله فلا تطيعوه) فأمر الحاكم فى الشريعة لا يخلي المأمور من المسئولية ولو كان المأمور موظفا. وإذا أمر الرئيس مرءوسه بعمل مخالف للشريعة فأتاه وهو عالم بأنه غير مباح له كان على المرءوس عقوبة الفعل الذي أتاه لأن أمر الرئيس في هذه الحالة يعتبر أمرا غير ملزم لا تجب طاعته لأنه صدر فيما لا سلطان للرئيس فيه وليس للمرءوس أن ينفذه فإن نفذه حمل مسئوليته.

وإذا كان الآمر يعتقد حل الفعل الذي أمر به وكان المأمور لا يعتقد حله ثم نفذه على الرغم من ذلك فإن عليه المسئولية دون الآمر ولا فرق بين أن يكون المأمور جنديا أو غير جندي. فصفة المأمور لا تحل له ارتكاب فعل محرم وصفة الآمر لا تبيح له أن يأمر بما ليس من حقه.

وحكم الشريعة في حق الأمر وواجب الطاعة يتفق مع أحدث النظريات في القوانين الوضعية إلا فيما تراه هذه القوانين من تفرقة بين حالة الجندي وغير الجندي فإنها لا تسمح للجندي بمخالفة أوامر رؤسائه فيما هو ظاهر على أنه من اختصاصهم بينما تسمح لغير الجندي بمخالفة أوامر رئيسه إذا رأى هو أن الأمر مخالف للقانون. والشريعة الإسلامية لا تقبل هذه التفرقة لأنها تحرم تحريما قاطعا طاعة الرئيس فيما هو معصية سواء كان المرءوس جنديا أو غير جندى. ولا شك أن الشريعة تتفوق على القوانين الوضعية من هذه الناحية لأنها تشجع المرءوس على قول الحق وعلى سلوك السبيل السوي وتجعل الرئيس في حالة عجز عن مخالفة التشريع، لأنه لا يجد من ينفذ أمره وفى ذلك خير ضمان للمحكومين والحاكمين على السواء.

أهم مراجع البحث

١ - أبو الأعلى المودودي، الخلافة والملك، تعريب أحمد إدريكس، ا لطبعة الأولى ١٣٨٩هـ - ١٩٧٨م، دار القلم، الكويت.

٢ - احمد أمين، ضحى الإسلام، الجزء الثالث، القاهرة، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، الطبعة السابعة سنة ١٩٦٤.

٣ - احمد أمين، فجر الإسلام، لجنة التاليف والترجمة والنشر، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، الطبعة السابعة، سنة ١٩٥٩.

٤ - أحمد بن تيمية، منهاج السنة النبوية فى نقض كلام الشيعة والقدرية، الطبعة الأميرية الكبرى، القاهرة، مصر سنة ١٣٢٢هـ.

٥ - ابن تيمية، السياسة الشرعية، بيروت، دار الكتب العربية، ١٣٩٦هـ - ١٩٦٦م.

٦ - الحافظ أبو نعيم أحمد بن عبد الله بن أحمد بن موسى بن مهران الأصبهاني المتوفى (٤٣٠هـ) تثبيت الإمامة وترتيب الخلافة، دراسة وتحقيق إبراهيم علي التهامي، دار الإمام مسلم للنشر والتوزيع، بيروت لبنان، الطبعة الأولى ١٤٠٧هـ - ١٩٨٦م.

٧ - د. أحمد عبد المنعم البهى، مذكرات في مادة نظام الحكم في الإسلام - مقرر - السنة الأولى قسم السياسة الشرعية بكلية الشريعة والقانون - جامعة الأزهر.

٨ - د. أحمد محمد صبحي، نظرية الإمامة لدى الشيعة الإثنا عشرية، دار المعارف، القاهرة، سنة ١٩٦٩م.

٩ - إمام الحرمين أبو المعالي الجويني، غياث الأمم في التياث الظلم، إختصره وعلق عليه عنوان : الطريق إلى الخلافة.. أبو عمار محمد بن حامد الحسيني، دار طيبة، مكة المكرمة الرياض، الطبعة الثانية سنة ١٤١٢هـ.

١٠ - أمية حسين أبو السعود، دور المعارضة الدينية في السياسة الإيرانية فى الفترة من ٤ ٩٢ ١ - ١٩٧٩م، رسالة دكتوراه مقدمة إلى كلية

الإقتصاد والعلوم السياسية، جامعة القاهرة ١٤٠٧ و – ١٩٨٧م (غير منشورة).

١١ – سنن النسائي بشرح الحافظ جلال الدين السيوطي وحاشية الإمام السندي : دار الحديث، القاهرة ١٤٠٧هـ – ١٩٨٧م.

١٢ – تنوير الحوالك، شرح علي موطأ مالك، تأليف الإمام جلال الدين عبد الرحمن السيوطي الشافعي دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.

١٣ – سيف الدين عبد الفتاح، التجديد السياسي والخبرة الإسلامية : نظرة في الواقع العربي المعاصر، رسالة مقدمة لنيل درجة الدكتوراه فى العلوم السياسية، كلية الإقتصاد والعلوم السياسية، جامعة القاهرة، ديسمبر ١٩٨٧م.

١٤ – صحيح مسلم بشرح النووي، دار الريان للتراث، الطبعة الأولى سنة ١٤٠٧هـ – ١٩٨٧م.

١٥ – د. طه حسين، مرآة الإسلام، دار المعارف، مصر، الطبعة الخامسة، ١٩٨٠م.

١٦ – ظافر القاسمي، نظام الحكم في الشريعة والتاريخ الإسلامي، الكتاب الأول، دار النفائس، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٠٠هـ – ١٩٨٠م.

١٧ – عباس محمود العقاد، الديمقراطية في الإسلام، دار المعارف، مصر، الطبعة السادسة ١٩٨١م.

١٨ – د. عبد الحكيم حسن العيلى، الحريات العامة في الفكر والنظام السياسي في الإسلام نقلا عن الشيخ أحمد هريدي، مذكرات فى نظام الحكم في الإسلام.

١٩ – د. عبد الحميد متولي، أزمة الفكر السياسي الإسلامي في العصر الحديث، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، الطبعة الثالثة ١٩٨٥م.

٢٠ – عبد القادر عودة، الإسلام وأوضاعنا السياسية، المختار الإسلامي للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، الطبعة الثالثة ١٣٩٨هـ – ١٩٧٨م.

٢١ – عبد القادر عودة، التشريع الجنائي الإسلامي مقارنا بالقانون الوضعي، الجزء الثاني – القسم الخاص، مكتبة دار التراث، القاهرة.

٢٢ –عبد الكريم الخطيب، الخلافة والإمامة، ديانة وسياسة، دراسة مقارنة للحكم والحكومة في الإسلام، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، بدون تاريخ نشر.

٢٣ – عبد الوهاب خلاف، السياسة الشرعية أو نظام الدولة الإسلامية في الشئون الدستورية والخارجية والمالية. دار الأنصار، القاهرة، ١٣٩٧هـ – ١٩٧٧م.

٢٤ – على سامي النشار، نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام جـ ١، الإسكندرية، دار المعارف، الطبعة الرابعة سنة ١٩٦٦م.

٢٥ – على محمد جريشة، مبدأ المشروعية في الفقه الدستوري الإسلامي، رسالة دكتوراه تقدم بها إلى كلية الحقوق جامعة القاهرة (غير منشورة) بدون تاريخ.

٢٦ – د. فؤاد محمد النادي، طرق اختيار الخليفة، دار الكتاب الجامعي، القاهرة، الطبعة الأولى ١٤٠٠هـ – ١٩٨٠م.

٢٧ – كايد يوسف محمود قرعوش، طرق إنتهاء ولاية الحكام في الشريعة الإسلامية والنظم الدستورية، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى ١٤٠٧ – ١٩٨٧م.

٢٨ – د. محمد البهي، الدين والدولة (من توجيه القرآن الكريم)، مكتبة وهبة القاهرة، الطبعة الثانية ١٤٠٠هـ – ١٩٨٠م.

٢٩ – الإمام الشافعي، أبي عبدالله محمد بن إدريس ١٥٠ – ٢٠٤هـ)، الأم، طبعة بولاق، ١٣٢١هـ.

٣٠ – فتح الباري بشرح صحيح الإمام أبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري للإمام الحافظ أحمد بن على بن حجر العسقلاني، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع.

٣١ - محمد بن الحسن أبو يعلى الفراء، الأحكام السلطانية، دار الكتب العلمية، بيروت ١٩٨٢م.

٣٢ - الإمام ابو عبد الله محمد بن علي القلعي (المتوفى سنة ٦٣٠هـ) تهذيب الرياسة وترتيب السياسة، تحقيق إبراهيم يوسف مصطفى عجو، الطبعة الأولى ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م. مكتبة المنار، الأردن الزرقا.

٣٣ - الجامع الصحيح، وهو سنن الترمذى لأبى عيسى محمد بن عيسى بن سورة، دار الحديث، القاهرة، تحقيق الشيخ إبراهيم عطوة عوض (بدون تاريخ نشر).

٣٤ - الغزالى، إحياء علوم الدين، مؤسسة الحلبي وشركاه للنشر والتوزيع ١٣٨٧هـ - ١٩٦٧م.

٣٥ - الغزالى، التبر المسبوك في نصيحة الملوك، مكتبة الجندي بمصر، تحقيق الشيخ محمد مصطفى أبوالعلا.

٣٦ - محمد الخضر حسين، نقد كتاب الإسلام وأصول الحكم. المكتبة السلفية القاهرة، (١٣٤٤هـ - ١٩٢٥م).

٣٧ - تفسير المنار، تأليف السيد محمد رشيد رضا، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٢، الجزء الأول.

٣٨ - محمد سعيد العشماوى، الخلافة الإسلامية، سينا للنشر، القاهرة، الطبعة الثانية، سنة ١٩٩٢م.

٣٩ - د. محمد سليم العوا، في النظام السياسى للدولة الإسلامية، الطبعة الأولى، دار الشروق ١٤١٠هـ - ١٩٨٩م.

٤٠ - د. محمد سليم العوا، فى أصول النظام الجنائي الإسلامي، دراسة مقارنة - الطبعة الثانية، دار المعارف، مصر ١٩٨٣م.

٤١ - د. محمد ضياء الدين الريس، النظريات السياسية الإسلامية، مكتبة دار التراث، القاهرة، الطبعة السابعة ١٩٧٩م.

٤٢ - د. محمد طه بدوي، بحث في النظام السياسي الإسلامي ردا على المستشرق الإنجليزي أرنولد، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم،

مكتبة التربية العربي لدول الخليج، مناهج المستشرقين في الدراسات العربية، الجزء الثاني، سنة ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م.

٤٣ - د. محمد طه بدوي، حق مقاومة الحكومات الجائرة فى المسيحية والإسلام، في الفلسفة السياسية والقانون الوضعي، مطابع دار الكتاب العربي، محعمد حلمي المنياوي، القاهرة، ١٩٥٢م.

٤٤ - د. محمد طه بدوي، أمهات الأفكار السياسية الحديثة وصداها في نظم الحكم، دار المعارف بمصر، الطبعة الأولى، سنة ١٩٥٨م.

٤٥ - أبو الفتح محمد عبد الكريم بن أبي بكر أحمد الشهرستاني، الملل والنحل، تحقيق عبد العزيز محمد الوكيل، الناشر مؤسسة الحلبي وشركاه للنشر والتوزيع، القاهرة ١٣٨٧هـ - ١٩٦٨م.

٤٦ - د. محمد يوسف موسى، نظام الحكم في الإسلام، العصر الحديث للنشر والتوزيع، بيروت لبنان - الطبعة الثالثة، مزيدة ومنقحة ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م - راجع هذه الطبعة وحقق نصوصها حسين يوسف موسى.

٤٧ - الإمام الأكبر محمود شلتوت، الإسلام عقيدة وشريعة، دار الشروق، القاهرة، الطبعة السادسة عشرة، ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م.

٤٨ - د. مصطفى حلمي، نظام الخلافة بين أهل السنة والشريعة، مختصر كتاب نظام الخلافة في الفكر الإسلامي، دار الدعوة للطبع والنشر والتوزيع، الإسكندرية، الطبعة الأولى،١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م.

٤٩ - مصطفى كمال وصفي، النظام الدستوري في الإسلام مقارنا بالنظم العصرية، ١٣٩٤هـ - ١٩٧٤م.

٥٠ - مصطفى كمال وصفي، مبدأ المشروعية في النظام الإسلامي، الطبعة الأولى، ١٩٧٠م.

٥١ - د. يحيى إسماعيل، منهج السنة في العلاقة بين الحاكم والمحكوم، دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع، المنصورة، الطبعة الأولى، ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م.



التنمية بالبشر وللبشر

ورقة بحث مقدمة
إلى نــدوة
«التحديات التي تواجه الأمة الإسلامية في القرن المقبل»
٢٠ - ٢٢ ديسمبر ١٨٨٧م

أ.د. إبراهيم بدران



"إن من يصل إلى المعرفة هو الذي يملك أسباب القوة ويتحكم في مصيره....

وإن كان في كثير من الأحيان يجد نفسه في حالة صراع مع القديم...

أما من لا يملك المعرفة فهو الذي تتخطاً الأحداث فيبقى وحيدا على جانب الطريق وسرعان ما يندثر .... وكلما ازدادت معرفة الإنسان ازداد إدراكه بما لا يعرفه..."

استاذ نجيب محفوظ

"إن تنمية البشر تكنولوجيا .. خاصة ....

والتعليم الفني والتدريب المهني .. عامة ...

تمثل التقاء مصبات التعليم بمنابع الكوادر اللازمة والقادرة على الإنتاج حتى تمارس دورها في الحياة ودفع التنمية بتفوق".

الأستاذ الدكتور/ سليمان حزين

مقدمة :

١ - في المرحلة الحالية التي يمر بها العالم أصبحت السمة الأساسية فيه قضية يطلق عليها اليوم "الصراع الحضارى" تلك التي تمثل في التفوق الذي تحكمه القوة وعناصرها ويرتبط بما تنتجه الشعوب من علوم وتكنولوجيات وثقافة - كذلك ارتبط العالم من خلال التجارة وثورة الاتصالات وسهولة المواصلات وكذلك السياحة، بروابط وتواصلات حتي تسمّي عالم اليوم "القرية العالمية"، وفي إطار هذا التوحد أصبحت عناصر القوة الحاكمة للعالم تتوجه بأسلوب يحتم علي القوي قبل الضعيف أن ينقاد إلي مظلة يطلق عليها النظام العالمي الجديد، بكل ما فيها من إيجابيات وسلبيات سيثبت الزمن حقيقتها وأبعادها وإلي أين توجهها.

٢ - كذلك فإن العالم اليوم يتجه إلي تأصيل المسار الديمقراطي وتثبيت الأنظمة الحرة في جهات العالم كافة وفي العالم الثالث ونحن منه ... نسعي إلي تحقيق مزيد من الديمقراطية والحرية المتوازنة أملا في اجتياز العقبات وإزالة الصعوبات نحو تنمية شاملة.

ومن عوامل التوصل إلي تلك الأهداف السامية تتوجه الأنظمة إلي تنمية قدرة المواطن علي التفكير الحر المنطقي والابتكاري ومراجعة النفس وتعليمها علي النقد الذاتي والسير في طريق الإبداع والتحرر وكذلك البعد عن حقن فكر معين وتلقين مبادىء أو سياسات عقائدية تغلق عقول المواطنين على آراء ومعلومات جامدة. أن التعليم التلقيني لابد وأن ينتهي إلي جمود فكري والتخلي عن إستعمال أغلي ما خلق الله وهو العقل - وذلك لأنه يدفع الفرد لأن يقبل آراء وتوجيهات لا يقبلها العقل الحر المفكر ذلك العقل القادر على صنع القرار وتصور المستقبل مع الالتزام بقبول المعقول من الآراء والقيم ورفض ما سواها.

٣ - من هنا فقد اختلفت النظرة في قضية حقوق الإنسان الحر والقادر، بين اتجاهين مختلفين أولها التركيز علي حقوق الفرد المدنية والاقتصادية

والسياسية تلك الحقوق التي تدور حول الصراع بين الفرد والدولة وثانيها في حقه الاجتماعي متمثلا في الصحة والتعليم وكل ما يطلق قدراته وملكاته الخلاقة ومن خلال ذلك يتم تشكيل إنسان قادر وواع بجدوي التطور ذلك بالربط بين الوجهين.

من هنا يمكن القول بإن حقوق الإنسان والإحتياجات الأساسية للفرد ترتبط أساسا بحقوقه الإقتصادية والإجتماعية وتحقيق التوازن بينها - حتي يكون قادرا علي تنمية نفسه (علما وصحة ومهاره) حتي يمكنه توفير متطلباته (برفع مستوي دخله) وفوق كل شيء المشاركة في نمو وطنه (إحداث التنمية والتقدم).

٤ - وفي السنوات الأخيرة برزت مجموعة من المؤثرات سميت منشطات التنمية (Energisers Of Development) .

تتلخص فيما يلي من مزيج لحقوق اجتماعية واقتصادية وسياسية:

أولها: توفير الصحة والغذاء السليم، حتي يكون الفرد قادرا علي القيام بمتطلباته والتمتع بحقوقه.

ثانيها: التعليم والتدريب ومستوي المهارات، اي توفير القدرة علي التقدم.

ثالثها: التشغيل والتوجيه نحو الرقي لتحسين مستوي الحياة بزيادة الدخل.

رابعها: التمتع بالمساواة وحرية الرأي وديمقراطية التعامل، والعدل والصحة والتعليم والارتزاق أساس القدرة للتمتع بالحقوق السياسية والديمقراطية كلها تساعد علي إذكاء الملكات وإطلاق القدرات ولكها قضايا تحتاج حرية فكر، وهي تمارس متكاملة أو لا تمارس بالمرة (All or None) - ذلك لأن المساواة في الحقوق والحرية أساس فوق كل الحقوق بل يمكن اعتبارها "حق الحقوق" (دكتور احمد خليفة - كتاب العدالة الاجتماعية والتعليم ص١٠ اصدارات المركز القومي للبحوث الاجتماعية والجنائية سنة ١٩٨٨).

خامسها: الالتزام بمنظومة القيم السائدة حضارية ودينية وعقائدية سياسية،

تلك التي تؤثر في قدرة الإنسان علي التكيف مع مجالات ومتطلبات التنمية والتطور.

٥ - وإذا كانت التنمية تُعرف بأنها تحسين مستوى الحياة فإن بعض العلماء وضعوا مسارب للتنمية أسموها موبقات التنمية نسردها فيما يلي:

١ - التنمية بلا تركيز على البنية الأساسية .. أهمها الإنسان قدراته وإبداعه وإمكاناته وهذه تعتبر الأساس الأول لكل تطور.

٢ - التنمية بلا إيمان بجدوى الجهد والتفوق وإحراز التقدم.

٣ - التنمية بلا دور للمرأة تلك التي تمثل نصف المجتمع.

٤ - التنمية بلا مراعاه للبيئة ... تلك التي تؤكد ظاهرة الإنتحار البطيء بالتنازل في حق الحياة وسلامتها في البيت والعمل.

٥ - التنمية بلا دور للفقراء وحق المواطنة لهم وفي توفير مستوي راقٍ لهم يرتفع بالعمل وللعمل.

٦ - التنمية بلا تخطيط لما يمكن إنجازه وتحديد أهداف مرسومة ومحددة يمكن الوصول إليها.

٧ - التنمية بلا شحن سياسي وتعبئة جماهيرية وتعصب وطني في إطار اهداف تحدد مصير الأمة.

٨ - التنمية بلا منظومة متكاملة ملائمة ومحدده نحو اتجاهات ومواقف وسلوك وقدرة (مجلة تنمية المجتمع ١٩٩٢ العدد الأول د. يحيى أبوبكر وأستاذ سعد لبيب).

كل هذه الأبعاد تؤثر في التنمية وتتأثر بها - ومحصلة هذه المعادلة التبادلية تقبع أساسا في قدرة الإنسان علي التكيف مع مجالاتها المختلفة وذلك من خلال فكره وتعليمه وقدراته.

من هنا كان مدخلنا إلي قضية التنمية البشرية

٦ - لقد كان الاقتصادي الأمريكي تيوبور شولز الحائز علي جائزة نوبل أول

من نادي في كتابه Human Capial (رأس المال الإنساني) بأن العامل المحدد لضمان الحياة البشرية يكمن في الإستثمار الذي يحدث في الناس وفي المعرفة – وكان هو أول من رفض أن تكون المصادر العينية والمادية هي التي تحدد مصير الإنسان على الأرض .. ولكنه أكد أن هذا لا يتوفر إلا بدفع المعرفة وتنمية القدرة للبشر وتفجير طاقاته الكامنة – ذلك البركان الهادر الذي إذا تفجر بالتعليم والتدريب والتفوق ظهرت قدراته تلك التي أوصلت الإنسان إلي ما وصل إليه ووضعته في أول الطريق إلي ما لا يتخيله عقل اليوم.

٧ – لقد تفشت البطالة في كثير من البلاد ومن أسبابها التدهور الاقتصادي والفقر والجهل والمرض مما أدي إلي قلق إجتماعي ملحوظ في كثير من الدول وعنف متزايد مع اختلال الأمن ... كلها ظواهر تحتاج إلى البحث العلمي والتحليل الاجتماعي العميق، وقد أبرز التحليل العلمي والسياسي أن هذه الموجة المستفحلة من العنف لا تجابه إلا بالتنمية البشرية المدروسة والوجهه نحو تحسين مستوي الدخل القومي ورفع مستوي الحياة ودخل الفرد ذلك لمنع القلق الاجتماعي (Social Vulnerability).

٨ – والتنمية البشرية الناجحة لابد وان تنبع من ثورة تعليمية – علمية – تطبيقية – وهذه كلها لا تنبع إلا من تعليم مجود ومتفوق في كل درجاته. أساسها محو الأمية للصغار وقبلهم للكبار المحرومين درءاً للجهل الذي يعيق التطور ثم التركيز على التعليم الأساسي – أساس الفرشة العريضة للعماله المنتجه، ثم التعليم الثانوي الذي يصب في التعليم العالي – الجامعي وما بعد الجامعي مع التركيز على تخصصات تتطلبها خطة التنمية.

كل ذلك يرفع مستوي القدرة الوطنية ويزيد من دخل الفرد والمجموع فينمو الدخل القومي – وتزداد فرص العمل وتقل البطالة وتنحسر موجة القلق والعنف وتفتح الأبواب نحو غد مشرق بالعلم والتطوير والإنتاج الغزير.

هذه القضية التنمية البشرية وعوائدها – جذورها معارف علمية

وتكنولوجية تتطور ويتسع نطاقها كل يوم – ولكن ذلك يتطلب تطور سلوكي وإجتماعي – يتحول فيه المجتمع من منظومة المجتمع الزراعي البطيء النمو ذا الأهداف المحدودة إلي المجتمع الصناعي الذي يتسم بالانطلاق والتحدي والتطور المستمر والدخل المتزايد والمتغير على مرّ السنين من خلال ثورات صناعية متتالية. (جدول رقم ١).

(جدول رقم ١) التطور الحادث فى المجتمعات و مؤشرات التنمية البشرية وتأثيرها على نوعية الحياه والدخل ,

العوامل	مجتمع زراعى قديم	مجتمع قبل التصنيع	مجتمع صناعى	مجتمع غزير الإنتاج والإستهلاك	مجتمع معلومات (الثوره الثالثه)
النظرة الزمانية	تقاليد وخرافات	تطور إحتياجات تدفع التغيير	إستقرار وأمل التقدم	إستهلاك ونظرة للمستقبل	رسم وتخطيط وتحقيق المستقبل
توزيع العماله	٩٠ ٪ زراعة ١٠ ٪ خدمات	٣٠ ٪ زراعة ١٠ ٪ صناعة ٦٠ ٪ خدمات	١٠ ٪ زراعة ٣٠ ٪ صناعة ٦٠ ٪ خدمات	٣٠ ٪ علماء ٥٠ ٪ فنى صناعة ٢٠ ٪ خدمات	علماء متقدمين ٥٠ ٪ فنى ماهر ٣٠ ٪ خدمات ٢٠ ٪
عناصر الإنتاج الأساسى	محاصيل + مواد خام	طاقة + موادخام	طاقة + معرفة	طاقة غزيره + مواد + تكنولوجيا	معرفة + تكنولوجيا + طاقة أقل
التكنولوجيا السائدة	يدوى + حيوانى	يدوى + ميكنة + طاقة بخار + مائى	أوتوماتيكية + كهروميكانيكية	أوتوماتيكية + إبتكار	ثقافة + معرفة معلوماتيا أوتومية
التعليم والتدريب	بدائى	أساسى وفنى	جامعى بوليتكنيك	جامعى متقدم	فارق تنافسى
إستخدام الطاقة (كيلووات/ فرد)	٢٠٠	٢٥٠ ـ ٨٠٠	٨٠٠ ـ ٢٠٠٠	٥٠٠٠ ـ ١٠٠٠٠	٢٠٠٠٠
نصيب الفرد من الناتج القومى (دولار / سنة)	٢٠٠ ـ ٤٠٠	٢٠٠٠	٦٠٠٠	١٠٠٠٠	٢٠٠٠٠

معهد التخطيط القومى (١٩٩١)

تحديات العصر الذي نعيشه :

١ – انفجار سكاني، خاصة في العالم الثالث مع تكدس إسكاني وضغط اقتصادي وهجرة من الريف إلى الحضر، مع ازدياد في البطالة وتخلف تعليمي وتكنولوجي أدى إلى عشوائيات ارتبطت بتدهور سلوكي وتحديات اجتماعية.

٢ – إنفجار رهيب في المعرفة وتطور علمي وتكنولوجي غيرّ مستويات الحياة.

٣ – ازدياد سرعة التطور العالمي وتغيير أنماط الحياة في شرائح من المجتمع هزتها المؤثرات الخارجية فهاجرت صفوة قادرة وما لذلك من انعكاسات لابد من حساب تأثيرها.

٤ – اجتياح التغيرات المصاحبة للثورة الصناعية وما صاحبها من تغير في منظومة القيم والسلوك والمبادىء وتأثير ذلك في المجتمعات الزراعية حين تتطور.

٥ – بروز ظاهرة القرية العالمية وانكماش المسافات بين الأمم كل ذلك بسبب يسر المواصلات وقصر المسافات وسرعة الاتصالات والتجارة بين الدول والسياحة العالمية (إذ ينتظر أن تنقل الطائرات ما لا يقل عن مليارين من البشر في أوائل القرن القادم وهي أقل من مليار اليوم).

٦ – تطور النمط السكاني وتأثير الزيادة في السن الغير منتجة أي شريحة السن المتقدمة في العالم المتقدم وكذلك شريحة سن المدرسة وما قبلها في العالم النامي (على سبيل المثال، في اوروبا القريبة ٢٥٪ من الشعب فوق سن الستين في المتوسط وفي مصر حوالي ٦٠٪ تحت سن ٢٤ سنة و٦٪ فقط فوق سن الستين) – وارتباط كل ذلك بقضايا ونمط الخدمات في الصحة واستهلاك الدواء والتامينات والغذاء والبيئة.

٧ – التطور المذهل في وسائل الاعلام وإجتياحها الأجواء عبر الفضاء وتأثير ذلك علي التطلع وأنماط المعيشة والسلوك والاستهلاك وحتي إيمانيات المجتمعات المتخلفة والفقيرة، بدأت تتأثر بها، مما اجهد الإنسان ووضعه

في مفترق يهز الكيان.

٨ – اختلاط الحضارات والثقافات واختفاء الحدود بين الدول مما تسبب في شحوب الهوية القومية والتعصب لقضايا الوطن مما يسر إختراقها.

٩ – التوجه إلى التكتلات والتجمعات الاقتصادية والسياسية في العالم المتقدم وظهور أسلحة الاستعمار الاقتصادي بعد الحرب العالمية الثانية من خلال الإغراق في الديون وكذلك الغزو بالمؤسسات عابرة القارات، وظهور التكتلات بين الدول العملاقة بعكس الوضع في العالم النامي حيث تبرز الفرقه الحادة بين الدول مصحوباً بالتخلف والتناحر على التفاهات. كل ذلك والعالم يتطور حولنا.

١٠ – نظام عالمي جديد لم تتضح معالمه بعد – يتسم مرحليا بالقسوة والتعصب والتوجه للاخضاع العقائدي والاقتصادي .. حيث البقاء للأقوى. ومن هنا فقد صنّفت الدول تصنيفا جديدا .... نسرده فيما يلي:

أ – دول الريادة التكنولوجية – أي الدول الصناعية التي تولّد المعارف.

ب – دول التلاحق التكنولوجي – تلك التي تتعامل إيجابيا مع وسائل التقدم مثل النمور الأسيوية.

ج – دول التخلف أو الغيبوبة التكنولوجية – التي توقفت فيها وسائل التنمية والتقدم وهذه الأخيرة صنّفت إلي درجات وكلها لا تشارك في التقدم العالمي.

١ – الدول النامية الغنية المعتمدة علي الغير والمستهلكة لإنتاج العالم.

٢ – الدول الفقيرة المتعثرة التي تغرق في مشاكلها وتنبهر بالتقدم ولا تحاكيه تستهلك إمكاناتها ومقتنياتها ومستقبلها فيما لا يضيف إلى شعوبها.

٣ – دول فيها قدره غير مستغلة بقصد أو بغير قصد يصعب عليها إجتياز حاجز التطور من مجتمع زراعي متوقف إلى مجتمعات الصناعية بتطوراتها التي انتهت إلى الثورة الثالثة – ثورة المعلومات

- وما فيها من انتصار بشري مبهر ولكنها ترزح تحت عبء المشاكل الداخلية والديون والإسراف في الأصول والجهل والأمية.

١١ - التطورات الحادثة في مجالات الإنتاج: حيث تطورت تطورا مبهرا في أواخر القرن العشرين.

أ - التطور الزراعي - حيث اكتشفت محاصيل غزيرة الإنتاج قصيرة العمر في الأرض وهي المعتمدة على الميكنة والتكنولوجيا الحديثة واستعمال البذور المقاومة للآفات - مع الاقتصاد في استعمال المياه - والتقليل في الاعتماد على البشر والأيدي العاملة.

ب - إعادة التوطين الصناعي - حيث تفرغ الدول المتقدمة إلى التكنولوجيا المستحدثة والمعتمدة على العقل والفكر والإبداع وتترك الصناعات الثقيلة الغالية الأصول - غزيرة العمالة بمشاكلها، والمستهلكة للطاقة بكميات كبيرة وغالية، والملوثة للبيئة، تترك هذه الصناعات للدول الأدنى في مستويات النمو وتترك بعد ذلك الصناعات الأولية إلى فقراء العالم حيث الاحتياج لها في الأسواق العالمية في تناقص مستمر وربحها قليل وحوادثها خطيرة.

ج - ظهور صناعات ومنتجات جديدة - عالية الربح مثل صناعة البرمجيات والمعلومات وآلاتها وصناعة الإعلام ووسائله وصناعة البنوك - وصناعات الهندسة الوراثية والمواد الجديدة والتكنولوجيا المستحدثة.

د - بروز الخدمات كوسيلة جديدة لزيادة الربحية الاقتصادية مثل صناعة الخدمات المالية، والاستشارية - والمعلوماتية - والصحية - والسياحية.

١٢ - دور اتفاقية الجات في اقتصاد العالم وتأثيرها علي قضايا التنمية في عالمنا ويعتقد البعض أن هذه القضية سبيل جديد لاحتكار التقدم للمتقدمين وتأصيل التخلف لمن يفوته قطار التقدم - عالم الذين ينتجون

السلع ويحصلون على ما يحتاجون من مصادر باسعاد يتحكمون فيها (مواد خام ومواد زراعية) ويصدرونها غالية الثمن بعد تحويلها إلى منتجات ذات قيمة مضافة أعلى.

ونسرد هنا تحليل كامل لهذه القصة الهامة لمالها من تاثير على مستقبل الدول المختلفة ومرجعها دراسات للأستاذ الدكتور بهاء الدين فايز.

مجموعة اتفاقيات الجات ودلالاتها والتحديات والفرص التي تخلقها

لقد كانت مجموعة اتفاقيات الجات، التي تجسدت مؤخرا في اتفاقية انشاء منظمة التجارة العالمية، هي التعبير التشريعي لتوجهات الاقتصاد العالمي المعاصرة، التي تجاوزت كل ما عرفته الانسانية في تاريخها من حدود بين الدول وتمايز ثقافي بين المجتمعات، فأصبح للاعتبارات المادية التي تحدد ملامح الاقتصاد وتحكم اداؤه المقام الذي يعلو فوق كل الاعتبارات. وأصبح الأداء الاقتصادي هو المعيار الأخطر في تحديد أدوار المجتمعات في مجمل الانتاج العالمي، والاقتدار على التصدير، والتواجد في الأسواق، ومن ثم توزيع الأرزاق. ومن وراء الأداء الاقتصادي يكمن الأداء التكنولوجي، الذي هو بدوره ربيب الأداء العلمي، وذلك الأخير هو نتاج الكفاءة في منظومة البحث العلمى، التي تدين بوجودها وأدائها لمنظومة الأساس التي هي منظومة التعليم وبناء البشر.

ولقد خلقت هذه التطورات انماطاً جديدة ومعايير جديدة من المزايا التنافسية التي حلت محل المزايا النسبية في النظرية الكلاسيكية للاقتصاد، وهناك من يرى أن التطورات كلها في حقيقة الأمر – وهذا ما نشارك في رويته – ما وجدت الا لتكرس التنافسية العالمية وتفتح أمامها كل الأبواب وتزيل من أمامها كل العوائق، هي إذن تنافسية أهل الريادة والسابقين الذين يمتلكون كل أسباب الريادة والسبق، ويطلبون المزيد من خيرات الريادة والسبق، وهي أيضا تنافسية يشارك فيها الرافضون للتّخلف والإحباط ومجرد "الفرجة" فنجدهم وقد عزموا علي التعلق بقطار الرواد والسابقين، ونجح بعضهم فكان لهم مكان بين ركاب القطار.

وشاهد العالم في الأعوام الأخيرة بعضا من أغراض الاستجابة لضغوط التنافسية التكنو – اقتصادية، التي هي تعبير عن رغبة الشعوب (وقرار قياداتها) في البقاء النشط علي الساحة .. ساحة الإنتاج والبيع والشراء. ومن أهم تلك الأغراض:

١ – ظهور التكتلات الاقتصادية الكبيرة للدول التي ترمي لجمع المزايا فيما بينها بهدف تعظيمها والتعاون لإخفاء جوانب التضرر أو تقليصها. وهي تكتلات يجري التنافس الأصغر (داخليا) فيما بين أعضائها مثلما يجري التنافس الأكبر (خارجيا) فيما بينها وبين التكتلات الاقتصادية الأخري (نذكر هنا تكتلات المجموعة الأوروبية، ومجموعة دول جنوب شرق أسيا وساحل الباسفيك، ومجموعة دول أمريكا الشمالية).

٢ – ظهور التحالفات الاستراتيجية التكنو – اقتصادية الكبرى التي تربط بين مصالح الأطراف المنتجة للمعرفة العلمية والتكنولوجية، والمستخدمين لها، والمسوقين لنتائجها، حيث تلعب المزايا النسبية دورا هاما في خدمتها أول الأمر، ولكنها في النهاية ترمي لخلق مزايا تنافسية تعود بالفائدة علي الجميع. وهي تحالفات لا تعقد بالضرورة بين أطراف متكافئة في القدرة أو الندية، ولكنها أطراف ترى المصالح في آفاق استراتيجية ولو كانت بعيدة المدى (تذكر هنا نماذج التحالفات التي عقدت في الدول حديثة التصنيع ومن ابرزها مجموعة النمور الآسيوية). والأطراف المتعاملة هنا هي الشركات العالمية الكبرى ومتعددة الجنسية ولها قواعدها في العالم الأول، وشركات القطاع الخاص والاستثماري في العالم النامي.

والتنافسية هي أبرز القواسم المشتركة في كل من التكتلات الاقتصادية والتحالفات الاستراتيجية التي أشرنا إليها، بل هي الغاية المطلوبة في الحالتين: فمن أجل التنافسية تبني التكتلات، ومن أجل التنافسية تعقد التحالفات. وهي في كل الأحوال تنافسية في توليد المعارف العلمية والتكنولوجية المبتكرة التي تفرز سلع وخدمات العصر التي نشهد منها جيلا وراء جيل من روائع صنع العقل البشري، وتخلق لأصحابها مكانات احتكارية ومكاسب مادية تدوم إلى أن يحل محل أي منها ما هو أحسن أصلح من سلع وخدمات .. وهكذا تتسارع منجزات الحضارة المادية للإنسان بإضافات تلو اضافات. ومن أجل التنافسية وتكريس اسبابها ونتائجها، ومن أجل حمايتها

كـانت الشـرعـيـة الدوليـة الجـديدة، التي تذهب بعض الظنون في بواعثـهـا ومترتباتها كل مذهب.

ونشيد هنا على وجه الخصوص إلي واحدة من الاتفاقيات التي تتكون منها الشرعية الجديدة، وهي اتفاقية التجارة المرتبطة بحقوق الملكية الفكرية، والمعروفة اختصارا باسم اتفاقية Trips ، وقد أصبحت مصر عضوا مشاركا فيها، وبات واجبا عليها أن تطور تشريعاتها علي النحو الذي يترجمها ويتوافق مع أحكامها، ولهذه الاتفاقية أهمية خاصة وحساسية لا تخفى. ذلك لأن الملكية الفكرية تشمل الملكية الصناعية التي تحميها براءات الاختراع. والاختراع هو الثـمرة الأخـيرة لجـهود العلم والتكنولوجيا التي تولد في مـؤسسـة البحث والتطوير، وهو الثمرة التي تتضح قيمتها العملية بين السلع والخدمات ذات المردود الاقتصادى، فتكون حمايتها أمراً مطلوبا حتي تحفظ لها مكانتها في السوق لدي من يشتريها أو يستغلها في الإنتاج التجاري، وهي حماية تسبغ علي مالك الاختراع مزايا ومكاسب اتسع نطاقها كثيرا - في ظل الاتفاقية التي تخاطب موضوعها الآن - فوق كل نطاق كنا نعرفه من قبل.

وتؤثر الاتفاقية في عديد من الأنشطة القومية. ومنها تأثيرات تفرضـهـا الشرعية الدولية الجديدة (من حقوق وواجبات) ولا حيلة لنا في قبولها، ومن تأثيرات تقع في باب ردود الأفعال الواجبة لدى المؤسسات التي تتأهل للتعايش مع الشرعية، ولهذا فإن دعوانا الصريحة هي ان الشرعية الجديدة (ومن بينها اتفاقية Trips) ليست بالضرورة كلها شر مستطير، كما تذهب بعض ا لرؤى، ولعلنا نجد فيها من جوانب الخير أكثر من مما نجد من جوانب الشر، فهي تخاطب، قبل كل مخاطبة، أهل القدرة، وتكاد تستبعد من الخطاب أهل العجز والتخلف ... أو ليست القدرة والاستمانة من أجل اكتسابها هي رسالة المقالة الحالية؟ ... أو ليس المؤمن القوي خير من المؤمن الضعيف؟... ونراها بالتالي شرعية دولية جديدة تدعو للمشاركة في التنافسية العالمية التي هي ظاهرة العصر - اليوم وغدا وكل غد.

وتتيح الاتفاقية لنا - لو قرأناها وأحسنا قراءتها - أن نطلع على فرص

بالغة الأهمية تستحق منا التعرف عليها واقتناصها، وعلى تحديات بالغة الخطر تستحق منا التعرف عليها ومجابهتها. وفي كل الأحوال – وبلغة الطب – فهي تقدم الفرص والتحديات التي تبعث في أجسام الأحياء (وذوي التنبه) تاثير الادرينالين، وهو هرمون رائع أودعه الله في جسم الإنسان (والحيوان) وينبعث وقت الخطر والشدة حتي تكون الاستجابة هي استجابة النجدة والنجاة، وتكون ردود الأفعال في مستوى الأفعال.

وأما الاستجابة التي نقصدها، فهي أفعال مؤكدة التصميم، دقيقة الهندسة، ويجري تنفيذها بدءاً من المدرسة في مراحلها كلها، وليس انتهاء بالتعليم الجامعي ولكن كل ما قبله وما بعده ... من خلال المناهج التي تؤهل المواطن الجديد ليتحدث لغة العصر وليكون عضوا في آلية المجتمع التي تتعامل مع الفرص والتحديات التي أشرنا إليها، وذلك واحد من العناصر التي تخاطبها المقالة الحالية في التنمية بالبشر وللبشر. والاستجابة أيضا تنصرف إلي السلوك في مؤسسة البحث العلمي والتطوير التكنولوجي التي بجب أن تري في نفس الاتفاقية من الفرص والتحديات ما يستحق التعرف عليه والاستفادة منه، لأنها شرعية جديدة تنص على المباح وغير المباح من الأنشطة، التي تقال صراحة أو تفهم ضمنيا، والتي تؤثر في أداء البحث والتطوير وتوجهاته. ولابد من بيان أن الأفعال الواجبة في كل من مؤسسة التعليم والتأهيل ومؤسسة البحث والتطوير، تقع كلها في باب الاستجابة التكاملية إزاء التنافسية العالمية وضرورة التعامل معها والمشاركة فيها ... ولا نظن أن هناك أمامنا من خيار إلاّ ذلك التعامل وتلك المشاركة ... وأقول لكل ذلك أنها قد تكون الضارة التي تنفع.

اهمية مجابهة المشاكل بالبحث والحوار :

من كل ما سبق يري أنه آن الآوان لمواجهة للمشاكل الحادة بأسلوب علمي هادئ، إذ أن مصر بكل ما فيها وما عليها ليس أمامها إلا مواجهة التحدي، ولها القدرة المؤكدة بإذن الله أن تعبر العثرة التي وقعت فيها. فإنها لديها الإنسان القادر والقوة الكامنة التي تمكنها من انطلاقة أو وثبة محسوبة

تنقلها إلي مصاف القدرة العالمية المتفوقة. تلك القدرة التي حافظت على مصر على مدى آلاف السنين رغم ما أصابها من عثرات على مر التاريخ.

من هنا كان لابد من بحوث عميقة وحوار فكري محصلته تتوقف على:

١ – النظر بإيمان وصدق في الأوضاع القائمة وتحليلها في ضوء متغيرات العصر الذي تعيشه وتحديد موقعنا وموقفنا من العالم المحيط.

٢ – إبراز حجم المشاكل والإصرار والقدرة على حلها.

٣ – إحتذاء أسلوب علمي وعميق للتعامل مع تلك المشاكل.

٤ – الإبتعاد عن الخلافات والتحديات ومسارب الخطأ، حتي تكون الحلول نابعة من رغبة صادقة ووحدة فكرية مدروسة وعلمية.

لقد مرت مصر في السنوات الماضية بمشاكل عديدة وأزمات اقتصادية ضاغطة – تحمل الشعب أعباءها ومتاعب علاجها – وكذلك مرت بتغيرات إجتماعية لأسباب مختلفة تدهورت فيها أوضاع شرائح من المجتمع أوصلتها إلى حالة من الحياة الهامشية والعشوائية وشرائح اخري وصلت إلى مستويات عالية غناً وإسرافاً. أضف إلى ذلك التحولات السياسية والعقائدية من اشتراكية إلى رأسمالية ومن تدين سليم إلى توجهات دينية متفاوتة من اعتدال محمود في الغالبية إلى فئات تنازلت عن قيمها وانحدرت في تيار الرذيلة والإدمان وأخرى التزمت بالتوقف عند قرون مضت وما أفرزته من فئات انتهت إلى تعصب وإرهاب ورفض للعلم والتقدم. مع أن ديننا دين التزام ورؤية وإيمان بالتطور والحفاظ على كيان الإنسان وهويته والاعتناء بتفوقه "ولقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم".

وخرجت من عباءة هذه التوجهات المرضية والتفاوت الاجتماعي أزمة ثقة بين فئات المجتمع المختلفة، أزمة في كل تحديث ورفض لكل رأي حتى ولو كان صائبا – ظواهر لا تنعت إلا بالاكتئاب القومي أو الانفصام القومي. كلها قضايا تحتاج للدراسة والبحث فيها بعقل ورؤية وليس بتحد أو إرهاب ممجوج.

لقد تكلمنا كثيرا وآن الأوان لإيجاد إطار لوحدة فكر في أساسيات التقدم حتى نبدأ عملا جادا مجديا في كل مفيد والوصول إلى مشروع قومي متكامل يلم الشمل ويعيد الأمل ويفتح الطريق لتوليد نموذج قادر على حماية المستقبل.

تعريف المصطلحات :

١ – الحضارة: هي كل إضافة يقوم بها البشر في مكان ما من الأرض لصالح البشرية ومسجلة بأي أسلوب من وسائل التسجيل.

٢ – الثقافة: هي أسلوب الحياة والفكر في مكان محدد وتتصف بالبقاء لفترة طويلة من الزمن وتميز مجموعة من البشر عن غيرها.

ويمكن القول بأن الحضارة والثقافة كلاً له وطن وأسلوب يؤثر في شخصية الفرد والمجموع – وهنا تصبح الحضارة الجزء المزدهر من الثقافة في ذلك المكان المحدد والتفاني في الاعتزاز بهما يسمى شوفينيه وهو اعتزاز أجوف بتعصب ممجوج.

٣ – الولاء: هو ارتباط أساسي يمثل المواطنة في مكان ما مع الارتباط بحضارته وثقافته ومستقبله وهو جزء من كل عمل ناجح ومفيد للأمة ويتصف بالارتباط والتفاني في الإخلاص.

٤ – العلم والمعرفة: هي تلك القدرة الثابتة والمستقرة من المعارف التي تقاس بما سبق نشره في كتب ومراجع أو محتواه في وسائل جديدة ومتجددة لحفظ المعلومات. وتتسم بأنها سريعة الانتشار ولا وطن لها، ولكن يحصل الباحث القادر عليها من مصادرها. وهي خليط من الاستيعاب والخبرة والمهارة.

٥ – التعليم والتعلم: هما المصدر الأساسي للمعرفة – وهما المجال الذي يدفع الإنسان للتطور، وهما أساس تكوين الكوادر القادرة على المعرفة من خلال:

أ – تنمية القدرة الذهنية.

ب – رفع المستوى السلوكي والأخلاقي.

ج – تحسين مستوى المهارة والأداء.

٦ – المعلومـة: هي كل نوع من أنواع المعرفة والآراء والحقائق التي يمكن توفرها والحصول عليها من خلال الحياة اليومية ومن مادة التعلم وعوائد البحث والإستنتاج وهي قدرة تنتقل من فرد إلي فرد ومن جماعة إلى جماعة تستعملها وتضيف إليها وتنتقل عبر التاريخ فتتعمق وتنتشر.

٧ – السلوك : هو الفلسفة الأخلاقية التي تفرق بين الصواب والخطأ.

٨ – القيمة : هي السبيل لمعرفة الخير والجودة من الشيء الضار.

٩ – الفكر: ظاهرة اجتماعية مرتبطة بمنظومة القيم والسلوك وترتكز على الدين وقيمه والنسق الحضاري والاجتماعي وتتأثر به – وكذلك بالأسرة وقيمها والتعليم ومستواه – والوضع الاجتماعي والاقتصادي للفرد ومجتمعه وبذلك فمستوى الفكر يتأثر بمتغيرات ولكنه يخضع لضوابط عقلية وغريزية ويرتبط أيضا بالضمير ومنظومة القيم السائدة.

١٠ – التكنولوجيا (التقنية): هي القدرة على تحويل المعلومة إلى قدرة لها عائد وفائدة أي المعلومة التطبيقية ذات العائد المفيد – وهي قضية لا وطن لها وتتخطى الحدود – بيولوجية التكوين سريعة التطوير ولها عمر افتراضي – ولها القدرة على التأثير على حياة الإنسان أسلوبا وسلوكا.

١١ – التكنولوجيا المأمونة بيئيا: هي تلك التكنولوجيا التي لا تؤثر ماديا في محيط استعمالها – كيميائيا أو طبيعيا أو بالأصوات أو بالاهتزازات التي تؤثر في صحة الإنسان سلبيا أو في وسائل حياته مثل الأرض أو المزروعات أو الحيوانات، وسلامة التكنولوجيا عملية نسبية إذ أن ما هو مقبول اليوم قد يرفض في المستقبل.

١٢ – التنمية: في أبسط تصور لها هي الجهد المطلوب لتحسين مستوى الحياة.

١٣ – التخطيط للبحوث والتطوير: هي كل التوجهات والإجراءات علي مستوى

الدولة والمؤسسات الخاصة أو العامة التي تؤثر في حجم ونوع وقدرة القوي البشرية القائمة على البحوث والتطوير داخل أو خارج الدولة لإحداث التغيير والتنمية.

١٤ - القوي البشرية الموجهة للبحوث والتطوير: هي تلك الكتلة البشرية القادرة على دفع قضايا التطوير وترتكز أساسا على المصادر البشرية المتخصصة أولا في العلوم الأساسية (العلوم الطبيعية والأساسية والرياضية والكومبيوتر) وثانيا كل العلوم الهندسية والبيولوجية (طب وزراعة وطب البيطري) وفيهما يحصل القادر على دراسة جامعية تنتهي إلى درجة ماجستير أو دكتوراه.

١٥ - محركات التنمية ثلاثة: هي المعلومة والسلوك والقدرة.

١٦ - منشطات التنمية:

أ - الصحة والغذاء.

ب - التعليم والتدريب والبحث العلمي.

ج - التشغيل واستغلال القوى البشرية.

د - الحرية والمساواة والديمقراطية والأمل في غدٍ مشرق.

تعريف المنظومة

النظام (أو المنظومة) هو الكيان المتكامل الذي يتكون من أجزاء وعناصر متداخلة بينها علاقات تبادلية من أجل أداء وظائف وأنشطة تكون محصلتها النهائية بمثابة الناتج الذي يحققه النظام كله.

أي أن النظام (أو المنظومة) هو الكيان الكلي المنظم من خلال تجمع لأجزاء أو أنشطة تتكون منها وحدة متكاملة.

وإذا تأملنا العالم حولنا. نجد أن مكون من سلسلة من النظم العليا Super System تحتوي داخلها مجموعة من النظم الفرعية Sub System التي تضم كل منها، مكونات تفصيلية Parts وكلها تؤدي وظائف محددة.

المنظومة الهادفة Purposeful System*

هي كتلة إدارية أو غيرها مكونة من أكثر من مكوّن واحد لكنها تتصف بارتباط مكوناتها بطريق مباشر أو غير مباشر، ولا يمكن تقسيم المنظومة إلى أجزاء مستقلة لأنها أساسا مترابطة ولكن المنظومة المتكاملة يمكن أن تكوّن جزءاً من منظومة أكبر وتعمل من خلالها. (* تحليل النظم السلوكية د. علي السلمي).

أجزاء المنظومة :

يتكون النظام المفتوح من ثلاثة أجزاء رئيسية ترتبط معا في تكامل وثيق:

الجزء الأول: المدخلات Inputs أي عوامل التأثير التي تستثير حركة النظام وتدفعه إلي السلوك – من خلال إثاره الحركة وتوفير الظروف الملائمة لكي ينطلق في السبيل المطلوب.

الجزء الثاني: هو ذلك الجزء المختص بأداء العمليات والأنشطة الهادفة وتحويل المدخلات إلى شكل آخر يتناسب مع الأهداف.

الجزء الثالث: يتمثل في سلسلة الإنجازات أو النتائج المتحققة من العمليات والأنشطة تتمثل في صورة مخرجات Outputs .

وكل أجزاء المنظومة تؤثر وتتأثر بالمناخ المحيط – ويعمل من خلال منظومات فرعية Subsystems :

أ – نظام حساس لرصد التغيرات التي تطرأ على المنظومة وتوفير حلقة الاتصال مع المناخ المحيط.

ب – نظام تحليل المعلومات وتداولها.

جـ – نظام للرقابة وتأكيد سلامة العمليات.

هـ – نظام لاختزان المعلومات والخبرات وتصنيفها للاسترجاع عند الحاجة والاستفادة من تجارب الخبرة الماضية.

تعريف الاستراتيجية :

لفظ عسكري استعمل في أول الأمر منذ عصر الرومان في تنفيذ أهداف عسكرية وتحديد سلطات القيادة – ثم استعمل بعد ذلك في الكثير من المجالات المدنية وغيرها.

ولعل أشهر تعريف لكلمة الاستراتيجية هو فن استخدام وتحريك الموارد السياسية والنفسية والإقتصادية والبشرية لدولة أو مؤسسة أو مجموعة مترابطة أو متحدة لتحقيق اهداف عليا سواء في السلم أو الحرب.

واللفظ يعطي عدة مؤشرات :

١ – أن الهدف الاستراتيجي بتناول الوضع النهائي المستهدف وأنه هدف ثابت يتسم بالشمولية والإحاطة بكل المتغيرات الممكنة.

٢ – أنه يحمل في مضمونه مراحل ودرجات متعاقبه يعبر عنها بالمراحل التكتيكية وهذه المراحل القابلة للتغيير والتطوير وفقا للمتغيرات الحادثة.

٣ – أن الاستراتيجية قضية تنفذ عادة على المدى الطويل في حين أن التحركات التكتيكية عادة تتغير على المدى القصير.

راي في تعريف ومعنى الظاهرة السكانية :

هذه مشكلة هامة لها تاثير كبير على التنمية – وينظر إليها من وجهتي نظر مختلفتين، إيجابا وسلبا:

١ – النظرة السلبية :

تلك التي تؤكد أن ظاهرة زيادة السكان هي سبب المشاكل القومية وما يتبعها من مشاكل مثل: العشوائيات والإرهاب وتضخم الاستهلاك وزيادة الإنفاق والقروض، ومن هنا كان الحل الأمثل هو ضبط الزيادة السكانية وتنظيم الأسرة ببرامج تجعلها تتمشى مع معدلات النمو الإقتصادي التي لابد أن تتفوق على زيادة السكان.

ب - النظرة الإيجابية :

حيث يمكن أن ينظر مرحليا إلى زيادة السكان وما صاحبها من مشاكل على أنها كانت نتيجة لمسببات أخرى سياسية وتوجهات اجتماعية واقتصادية إنتهت إلي ضعف القوي الإنتاجية وتآكل البنية الأساسية وتدهور التعليم وإهمال التكوين الراسمالي وقلة فرص العمل أمام القطاع الخاص - ذلك أدى إلى ظواهر البطالة وتوابعها.

وكل هذه القضايا أصابت العالم الثالث في الخمسين سنة الماضية ولقد تنّبه العالم في الحقبه الماضية إلى أن حل هذه المشكلة يقبع في الاهتمام بالعنصر البشري، عنصرا أساسيا في التنمية القومية - إذ أن هذا المورد البشري ينظر إليه اليوم في نهاية القرن العشرين بإنه المحرك الأساسي لإحداث التنمية بقدرته على استيعاب وسائل العصر ذلك لإحداث التنمية بالبشر وللبشر ذلك لأنه منبعها ومصبها.

ومن هنا كانت النظرة الموضوعية والمتعمقة تتطلب الاقتراب من المشكلة السكانية على وجهيها السالب والموجب وإحداث التوازن الموضوعي بين الكم والكيف السكاني وعلى مراحل للوصول إلى أحسن النتائج المطلوبة، اقتصاديا واجتماعيا وسياسيا.

ولما كانت المواجهة للمشكلة السكانية تحتاج لسنوات طويلة لتغيير نمط الإنجاب وحجم الأسرة - من هنا كان الخيار أمام مصر هو التعامل الإيجابي على المدى القصير بالتركيز على نوعية الإنسان وجلدته (Concentration On The Substance Of Man) حتى يمكن التغلب على مشاكل وضغوط الكم في المدى البعيد، ويقوم هذا التوجه على:

١ - ثقل مصر السياسي في المنطقة العربية والشرق أوسطية والإسلامية حيث الاعتماد إلي حد كبير على المورد البشري لما له من قدرة مؤثرة في الإسهلاك الاقتصادي بالإضافة إلى كفاءة الإنسان وقدرته على استيعاب وسائل التقدم.

٢ – التأكيد على أن التنمية الاقتصادية والاجتماعية لا تنفصلان، لاعتماد كليهما على البشر لتحقيق رفاهية الإنسان.

٣ – إن منطق التركيز على وسائل وأساليب التقدم بالتربية والتدريب والإدارة كلها قادرة على استغلال الكم السكاني دافعا للتنمية ولو مرحليا.

قضية التنمية بالبشر وللبشر

كيفية التنمية بالبشر وللبشر:

الخصائص المطلوب توافرها في الشريحة المنتجة والدافعة للتنمية:

١ – أن تكون نسبتها (مقارنة بمجموع السكان) كافية لتكون قادرة علي الاسهام بدرجة أعلى من غيرها على تحمل عبء المجموع السكاني إنتاجا وإعاشة وتأمينا للمستقبل (جدول ٢، ٣).

٢ – أن تكون على درجة مرتفعة من التعليم لانعكاس ذلك على القدرة على العمل المنتج (وذلك يتم من خلال تقييم الخريج في كل مرحلة وقدرته).

٣ – اعتبار التفوق التعليمي – زيادة في نسبة القدوة الذاتية للقوى المنتجة وانحدارها يمثل عكس ذلك.

٤ – التركيز على توفير صفات محدده ومحابية للنمو والتقدم وأهمها:

أ – توفر درجة عالية من الإيمان بالعمل والرغبة في المشاركة والتجويد والتطوير وليس الأداء الروتيني المعوج وتوصف بأنها تتصف بصفات محددة تتلخص في الاهتمام والتخديم والارتباط والتكامل Concern, Stewardship, Participation & Involvment in Jobs وقد اكدت البحوث على أهمية هذه الصفات السلوكية في إحداث النجاح الإنتاجي (كما هو واضح في الشعوب متفوقة الإنتاج). (Patchen et al 1970) .

ب – التوجه لإذكاء روح التحدي بالشحن السياسي والتربية القومية

للعامل والمنتج حتى يكون على درجة عالية من التصميم والدافع إلى الإنجاز المتميز (Need Achievement) (Mc-lleland 1961).

ج – وجود درجة عالية من الإنتماء والولاء والارتباط بقضايا الوطن وحاجة المجتمع بل والمؤسسة التي يعمل بها (Affiliation & Devotion) والفشل في إذكاء هذا الإحساس يؤدي إلى التفريط في الأداء أو الإغراء بالهجرة إلى العالم المتقدم حيث تبدأ قضية استنزاف العقول والقدرات (Brain Drain) . ومن هنا تحرم كثير من الدول النامية من شريحة كبيرة من القدرات الفكرية والإبداعية.

د – توفر درجة كبيرة من الرغبة في تحمل مخاطر الاستثمار الموجه نحو تحسين مستوى الإنتاج والدخل رغم احتمالات مخاطر للنجاح (Venture Capital, Risk Taking Investment) .

ه – مجموعة صفات أخري لابد من توفرها لإحراز النجاح في التنمية – صفات منها المتوفر طبيعيا في بعض الفئات ولابد من زرعها في مراحل تكوين الشخصية ومن خلال برامج التنمية الإدارية وخلق القيادات. هذه الصفات تتلخص في:

* القدرة على السيطرة والقوة.
* الرغبة في التنافس والتحدي.
* المرونة في التفكير وتعديل المسار عند الحاجة.
* القدرة على قبول التغيير وعدم التمسك بالقديم لذاته والحركة لمواجهة المتغيرات.
* كذلك القدرة على التأثير وإقناع الآخرين تقدير الوقت وأهميته.
* تقدير الدقة والحرص في تحقيق في الأمور.
* القدرة على مجابهة الواقع مع نظرة مستقبلية.
* النظرة الشاملة للأمور مع القدرة على التحليل والتدبير وربط أبعاد المشاكل

لاتخاذ القرار السليم (د. علي السلمي تحت النشر في أكاديمية البحث العلمي).

تحليل نسبي لشرائح السن المختلفة والخصائص المطلوب توفرها لخدمة التنمية:

نظرة سريعة إلي الجدول رقم (٢) تؤكد أن في سنة ١٩٨٦ حيث كان التعداد ٤٨,٢٥٤ مليون نسمة وفي سنة ١٩٩٣ صار التعداد ٥٩,٥٦٣ مليون نسمة والتوزيع النسبي لا يختلف كثيرا.

النسبة المحتضنة	سن قبل المدرسة	من ١ ـ ٥ سنوات	١٥,٢ ٪
النسبة المعتمدة	سن المدرسة والجامعة	من ٦ ـ ٢٤ سنة	٤٤,٥ ٪
النسبة المنتجة	سن العمل والإنتاج	من (٢٠ ـ ٢٤) إلى (٢٥ ـ ٦٠) سنة	٣٤,٦ ٪
الخبرة المنزوية	سن المعاش	بعد ٦٠ سنه	٥,٦ ٪*

* وصلت اخيرا ٦ ٪ من مجموع السكان

* وصلت اخيرا ٦٪ من مجموع السكان

جدول رقم (٣): توزيع السكان حسب فئات السن والنوع سنة ١٩٨٦م.

جدول رقم (٣) : توزيع السكان حسب فئات السن والنوع سنة ١٩٨٦

اقل من ٥ سنوات	١٥,٣ ٪		السن المحتضنه
٥ ـ ١٠ ١٠ ـ ١٥ ١٥ ـ ٢٠ ٢٠ ـ ٢٤	٪ ١٣,١ ٪ ١١,٦ ٪ ١٠,٥ ٪ ٨,٨ (٪ ٤٤)	٪ ٥٩,٣	السن المعتمدة
٢٥ ـ ٣٠ ٣٠ ـ ٣٥ ٣٥ ـ ٤٠ ٤٠ ـ ٤٥ ٤٥ ـ ٥٠ ٥٠ ـ ٥٥ ٥٥ ـ ٦٠	٪ ٧,٧ ٪ ٦,٣ ٪ ٦,١ ٪ ٤,٤ ٪ ٤,٠ ٪ ٣,٥ ٪ ٢,٦	٪ ٢٤,٦	السن المنتجة (٤٩٪ نساء ـ ٥١٪ رجال)
٦٠ ـ ٦٥ ٦٥ ـ ٧٠ ٧٠ ـ ٧٥ ٧٥ +	٪ ٢,٥ ٪ ١,٦ ٪ ١,١ ٪ ٠,٨	٪ ٦	الخبرة المنزوية

كان العدد سنة ١٩٨٦ (٤٨.٢٥٤) مليون نسمة وصار التعداد في عام ١٩٩٣ (٥٩.٥٦٣) مليون نسمة ومراجعة النسب لم تختلف كثيرا عما كانت عليه في الاحصاء السابق (الكتاب الإحصائي السنوي ١٩٥٢ - ١٩٩٣) (صدر في يونيو ١٩٩٤) ونظرة إلى هذه النسب تؤكد الإختلال في القدرة النسبية المسئولة عن الإنتاج إذا طرحنا شريحة السيدات الغير منتجات مما يؤكد أهمية الاهتمام بالمشكلة السكانية - أولوية قومية.

تأهيل الموارد البشرية وتنميتها تكنولوجيا :

التنمية البشرية عامة وتنمية البشر تكنولوجياً خاصة تعتمد أساسا على منظومة التعليم حيث يتحتم أن ترتبط المعرفة والمعلومة بالمهارة والخبرة متأثرة بالبيئة المحيطة والتطورات العلمية المرتقبة وكذلك لابد وأن ترتبط بالتقييم التبادلي بين المصادر والمتطلبات والعائد منها على الفرد والمجتمع (Societal Cost Effectiveness & Cost Benefit) .

ومن هنا كان التعليم الموجة والمبرمج والتدريب هما السبيل للربط بين المعلومة والمهارة المطلوبة لإحداث التقدم.

أ - العوامل المؤثرة في التنمية البشرية :

١ - نسبة انتشار التعليم عامة - في تتابع درجاته بدءاً بنسبة الأمية عامة ثم نسبة المقيدين في التعليم الأساسي ونوعيته والتعليم الثانوي ومستواه وكذلك نسبة المقبولين في التعليم الفني وقدراتهم (جدول ٤، ٥، ٦).

٢ - نسبة المقبولين في التعليم الجامعي وخريجيها (جدول ٧، ٨) مقارنة بنسبة المقيدين والمقبولين في الكليات العلمية (Hard Sciences) المرتبطة بالعلوم الأساسية والتكنولوجية مقارنة بالكليات النظرية (Soft Sciences) والقدرة على التأهيل التحويلي بينهما (جدول ٤، ٥).

٣ - نسبة الحاصلين على الماجستير والدكتوراه.

٤ - نسبة البحوث المنشورة في الدوريات العالمية المتقدمة ونوعيتها خاصة في التخصصات المطلوبة والقدرة على الاستفادة منها.

٥ - قضايا تعليم الكبار - استمرار التعلم - التعليم التحويلي .. ومدى الاهتمام بها.

المراجع

World Development Report 1990.
Unesco Statistical Book 1990.
U.N.D. P. Human Development Report 1990.

جدول (٤) نسبة الطلاب في شريحة السن من ٢٠ - ٢٤ والمقيدين في التعليم بعد الثانوي في الدول العربية:

الاردن	٣٢٪ سنة ١٩٩٤
مصر - لبنان - سوريا الكويت - قطر - البحرين	١٦ - ٢٠٪
العراق - السعودية - تركيا ليبيا - المغرب	١١ - ١٥٪

جدول (٥) : نسبة الأمية و التعليم فى شرائح السن المختلفة وتطورها بين سنة ١٩٦٥ وسنة ٨٨ ـ ١٩٩٠

الدولة	نسبة الأمية *		التعليم الأساسى ٦ ـ ١٢		التعليم الثانوى ١٣ ـ ١٨		التعليم العالى ١٨ ـ ٢٥	
	سنة١٩٦٥	سنة ١٩٩٠	سنة ١٩٦٥	سنة ١٩٨٨	سنة ١٩٦٦	سنة ١٩٨٨	سنة ١٩٦٦	سنة ١٩٨٨
كوريا	٧	٣ر٥	١٠١ ٪	١٠٤ ٪	٣٥	٨٧	٦	٣٧
الأردن	٢٥	٢٠	٩٥ ٪	٩٩ ٪	٣٨	٧٩	٢	٣٧
باكستان	٧٠	٦٥	٤٠ ٪	٤٠ ٪	١٢	١٩	٢	٥
مصر	٥٥	٥٢	٧٥ ٪	٩٠ ٪ (مع نسبة من المرتدين)	٢٦	٦٩	٧	٢٠
تركيا	٢٤	٣ر١٩	١٠١ ٪	١١٧ ٪	١٦	٤٦	٤	١١

* إنخفض معدل الأمية فى العالم النامى عامة من سنة ١٩٧٠ كان ٥٤ ٪ الى ٣٥ ٪ سنة ١٩٩٠

جدول رقم (٦) نسبة المقيدين فى التعليم المهنى (الفنى)

الدولة	سنة ١٩٧٥	١٩٨٨	النسبة للسكان (التعداد)
كوريا	٤٤٠٠٠٠	٧٢٣٠٠٠	١,٧١
الأردن	٦٤٠٠	٢٩٢٠٠	٠,٧٥
تركيا	٣٢١٠٠٠	٧٢٠٨٠٠	١,٣٧
مصر		*	

* نبذة عن اعداد الطلاب فى التعليم الصناعى فى مصر سنة ١٩٩٤ :

(Technical Education)

١ ـ المدارس الثانوية الصناعية (تتبع وزارة التعليم)

خمس سنوات أو ثلاث سنوات بعد الاعداديه ٧٥٨,٠٠٠ الف طالب (تتبع التربية والتعليم)

٢ ـ المعاهد الفنيه الصناعية (تتبع وزارة التعليم العالى)

معاهد إعداد فنيين سنتين بعد ثانويه عامه ٣١,٢٥٩ طالب

٣ ـ معاهد عاليه للتكنولوجيا وكليات تعليم صناعى (تخرج مدرسين صناعيين)

معاهد تابعه لوزارة التعليم واخرى قطاع خاص فيها ٥٥٠٠ طالب

تعليم فنى ١٫٧٠٠٫٠٠٠

٤ ـ كليات الهندسة والتكنولوجيا (تتبع الجامعات)

جدول رقم (٧) نسبة المقيدين فى التعليم التكنولوجى (علوم وهندسة) فى العام الجامعى

الدولة	السنة	العلوم عامة بما فيها الهندسة		العلوم الطبيعية فقط والكمبيوتر		العلوم الهندسية فقط	
		العدد	النسبة	العدد	النسبة	العدد	النسبة
كوريا	١٩٨٨	٦١٠٠٠٠	١,٤٥ ٪	٣٦٢٠٠٠	٠,٦٨ ٪	٢٢٥٠٠٠	٠,٥٤ ٪
الأردن	١٩٨٨	٢٠٧٠٠	٠,٥٣ ٪	١٣٨٠٠٠	٠,٣٦ ٪	٦٩٠٠	٠,١٨ ٪
تركيا	١٩٨٨	٢١١٠٠٠	٠,٣٩ ٪	١١٩٠٠٠	٠,٢٢ ٪	٨٢٠٠٠	٠,١٥ ٪
مصر	١٩٨٧	١٦٥٠٠٠	٠,٣٣ ٪	٧٥٠٠٠	٠,١٥ ٪	٤٨٧٠٠	٠,١٠ ٪

جدول رقم (٨) عدد طلاب الجامعه عامى ١٩٨٨ و ١٩٩٣

الإجمالى العام فى مصر لأعداد طلاب الجامعات :

سنة ١٩٨٨ (٦٠٥٩٤٦)   سنة ١٩٩٣ (٥٤٢٦٠٢)   إنخفض العدد ٧,٦٠ ٪

الكليات النظرية:

سنة ١٩٨٨ (٤٥٤٣٥٨)   سنة ١٩٩٣ (٤١٥٢١٢)   إنخفض العدد ٦,٤٠ ٪

الكليات العملية:

سنة ١٩٨٨ (١٥١٥٨٨)   سنة ١٩٩٣ (١٢٧٣٩٠)   إنخفض العدد ١١,٣ ٪

الطب إنخفض ٨,١ ٪ - الزراعة إنخفض ٤١,٣ ٪ - الإلكترونات إنخفض ٤٠ ٪ - الهندسة إنخفض ٩,٣ ٪ - العلوم إنخفض ٣,٦ ٪ - التكنولوجيا إنخفض ٢٤,٤ ٪

جدول رقم (٩) مقارنة الدخل القومى (GDP) وتطور دخل الفرد (GNP per Capita)
بين سنة ١٩٦٥ إلى سنة ١٩٨٩ ونسبة النمو بين ١٩٦٥ و ١٩٨٩ (بالمليون دولار)

الدولة	الدخل القومى		دخل الفرد	النمو فى
	سنة ١٩٦٥	سنة ١٩٨٩	سنة ١٩٨٩	دخل الفرد
كوريا	٣	٢١٢	٤٤٠٠	٪ ٧,٠
الأردن		٣,٩	١٤٦٠	٪ ٥,٥
باكستان	٥,٤	٣٥,٨	٣٧٠	٪ ٤,٢
مصر	٤,٥	٣١,٦	٩٤٠	٪ ٢,٥
تركيا	٧,٧	٧١,٦	١٣٧٠	٪ ٢,٦

وصل الدخل القومى سنة ١٩٩٤ فى مصر ١٠٤,٨ مليار بالاسعار الجارية (مازال دخل الفرد بالدولة ثابتا تقريبا)

جدول رقم (١٠) نسبة الإنفاق على البحوث والتطوير عامة مقارنة بالدخل القومى

الدولة	النسبة من الدخل القومى
كوريا	٪ ١,٩
الأردن	٪ ٠,٤
باكستان	٪ ١,٠
تركيا	٪ ٠,٧
مصر	٪ ٠,٢

ب - خصائص المستويات المختلفة في التعليم وتعريفها :

١ - التعليم الأساسي :

هو ذلك النوع الأساسي الموجه للكافة - في سن معينة درءاً للأمية - حيث يوفر كتلة واسعة من القدرة البشرية وهو يرسي أسس المعرفة والسلوك تخلصاً من الأمية الأبجدية والثقافية والعلمية ويحقق القدرة على التحاسب وتنمية المهارات الذهنية واليدوية كل ذلك ليحقق القدرة الذاتية لمواجهة بعض المشاكل في حياته وعمله.

٢ - التعليم الثانوي :

هو ذلك النوع الذي يصنع الوصلة بين التعليم الأساسي والتعليم المتقدم، وفيه تربى المهارات الذهنية والإستيعابية والمعارف الثقافية وكذلك توضع فيه الأسس العميقة للعلوم الأساسية والرياضية والعلوم البيولوجية والتي تفتح السبيل لتطوير الفكر الإبداعي.

٣ - التعليم الفني والمهني :

ذلك هو النوع من التعليم الذي يخرج ويؤهل المهرة الذين يمثلون المصدر الرئيسي لتكوين الفئة القادرة على التعامل مع وسائل الإنتاج والأفراد القادرة على إحداث التطور في الصناعة والخدمات. هنا حيث لابد من إيجاد وصلة أو سبيل يربط هذا النوع من التعليم بالتعليم العالي المتقدم. وقد نجح هذا النظام في احداث القفزة الكبيرة في دول النمور الأسيوية. أما في بعض الدول الأخرى فقد أتخذت أسلوبا موازيا لهذا النمط حيث تحقن المهارات الفنية بالتدريب الموجه والمتخصص في مراحل التعليم العام.

٤ - التعليم الجامعي :

وهذا يعتبر المصدر الأساسي لتنمية القدرات وتوليد المعارف لإقتحام عصر التقدم والتكنولوجيا المتطورة وهو التعليم الذي يوفر الكتلة الحرجة والأساسية المطلوبة لإحداث التقدم واقتحام قضايا البحوث والتطوير في الصناعة والخدمات التي تزكي التنافس والاستثمار في هذا النمط من التعليم

الذي يعتبر أغلى اكتناز لثروة المجتمع المودعة والمختزنة في عقل الإنسان وقدرته حيث يعتبر هذا المخلوق عند تحسين مستواه العلمي وحدة رأسمالية منتجة.

من كل ذلك كان لابد من التأكيد على أن: إعداد المقبولين والمسجلين والخريجين من مرافق التعليم المختلفة كان إلى عهد قريب هو جوهر عملية التنمية البشرية ولكن الآن فقد اهتم العالم بنوعية الخريج وليس تعداده فقط والتركيز على قدرته على التجويد والإبداع والالتزام ... تلك هي قضية التعليم في العالم المتقدم وتقييم الخريج وكفاءته وقدرته هي الشغل الشاغل للمتقدمين – وقد كان اتحاد الجمعية العالمية للتحصيل التربوي (لتقييم التعليم).

سباقاً لوضع أساليب التقييم التربوي، على مستوى العالم لتكون سبيلا لتوضيح الرؤية والنمط المطلوب لإحداث التطور، وذلك من خلال دراسات وبرامج واستقصاءات لتحليل آراء الطلاب وتقييم المدرسين ونظار المدارس والمشرفين، كل ذلك لتحليل مداخل ومخارج العملية التعليمية وقدرتها على إحداث التطوير في وسائل الإنتاج وذلك لتحديد نوعية الحياة وزيادة الدخل للفرد والمجتمع.

وقد اهتم السياسيون في العالم المتقدم بهذه الدراسات والتقارير عند التخطيط للتطوير ووضع برامج التنمية.

جـ – ركائز التنمية البشرية :

هناك عدة ملاحظات اكتسبت برصد التطورات العالمية في السنوات السابقة:

أولاً: لابد أن يؤخذ في الاعتبار أن الأعداد المسجلة في الحلقات العلمية وحدها لا تمثل السبيل إلى التفوق التكنولوجي والبحثي ولكن التفوق يقبع في نوعية الخريج وكفاءته وقدراته وتفوقه – تلك هي الأسس التي تحدد المسار وتحدد المستقبل، الكيف وليس الكم.

ثانياً: أن التفوق التعليمي في أي دولة لابد وأن يقارن بالمقاييس العالمية

والمعايير المحددة التي وضعتها الجمعية العالمية لتقيم التعليم كما قلنا من قبل.

ثالثاً: إن الاستثمار في التعليم بكافة درجاته ومستوياته هو استثمار إنتاجي - والنظر إلى السبيل الذي احتذته النمور الآسيوية يؤكد هذه الحقيقة إذ أن الاستثمار في التعليم منذ الستينات اتى اكله في الثمانينات وما بعدها.

رابعاً: وقد اتسعت كثير من الدول في التعليم الإجباري والأساسي خاصة حتى وصلت إلى مرحلة التعليم الثانوى (من ٩ إلى ١٢ سنة).

خامساً: إتجه التركيز في كافة مراحل التعليم الجامعي وما قبله على الرياضية - العلوم الطبيعية والبيولوجية والهندسية والكومبيوتر تلك هي أساس التطور R & D. (جدول ٧ - ٨).

سادساً: التركيز في التعليم الفني والتأهيل التدريبي على الربط مع الصناعة ومرافقها (التعليم بالأداء) والاهتمام بإجتذاب نسب متزايدة من طلاب التعليم الفني إلى هذا النوع من التعليم اجتذابا من التعليم العام (وقد اهتمت مصر بذلك منذ أول الثمانينات) - كل ذلك مع فتح الباب للالتحاق بالتعليم العالي حتى درجة الدكتوراه للقادرين منهم.

سابعاً: وقد ثبت أن ميزان القدرة والتفوق يتمثل في حقيقتين:

أولها: عدد براءات الإختراع المسجلة كل عام.

ثانيها: عدد المقالات القيمة والمنشورة في الدوريات المعترف بها عالميا - هذه ثروة البحث وأساس التطوير ذلك إذا أثرت في الإنتاج وعوائده.

ثامناً: كذلك وجد أن الإنفاق على البحث والتطوير يتناسب طرديا وأساسا مع النهضة التكنولوجية - وكل ذلك يرتبط ايضا بالحوافز الشخصية والمؤسسية .. كما اتضح في التجربة اليابانية - الكورية (جدول ١٠).

تاسعاً: إن التكامل والتعاون بين التعليم الحكومي والخاص والربط مع مجالات

التدريب الحكومي وكذلك فتح الباب للقطاع الخاص لحمل بعض العبء الملقى على الدولة يفتح الفرص لمتابعة التطور والتغيير بصورة بعيدة عن المؤسسية المعطلة والبيروقراطية الحكومية التي تبطيء سرعة إيقاع التطور (Anti Institutionism) .

عاشراً: اتجهت الكثير من الدول (مثل المانيا وسويسرا) بدفع اتحادات الصناعة والغرب التجارية لإنشاء مراكز متخصصة للتدريب في مجالات مطلوبة ومراكز اخرى تدفع أساليب البحث والتطوير والتقييم والإدارة متعاونة مع قدرات الدولة في التمويل والتوجيه مسترشدة بإحتياج الإنتاج – كل ذلك لفتح مجالات تؤدي إلى متوازيات للتنمية البشرية ويمكنها في تطوير الصناعة والخدمات.

من كل هذا يمكن القول أنه:

١ – لابد من الاهتمام بوضع التعليم ورفع مستواه تلك قضية قومية حاكمة.

٢ – لابد من توجيه التعليم الفني إلى الحرفية بعيدا عن الفصول والحشو النظري.

٣ – تشجيع القطاع الخاص لتحمل بعض العبء لإحراز التطور المنشود.

٤ – الربط المستمر بين التعليم وتطويره ومجالات الخدمات والصناعة واحتياجاتها.

٥ – استخدام القدرات الوطنية والمهاجرة وحتى الأجنبية للمعاونة بأسلوب محدد.

٦ – تحقيق التناسب المستمر بين حاجة السوق المحلي والإقليمي وتخريج القوى البشرية القادرة والمطلوبة لإحراز التقدم في الوطن وخارجه..

٧ – دعم قضية استمرار التعلم للفئات الت لم تلحق تطوير التعليم مع تقييم القدرات البشرية القائمة على الإنتاج وإعادة تدريبها وتأهيلها محليا وخارجيا رفعا لمستواها حتى تكون قادرة على نقل التكنولوجيا المناسبة واداء المطلوب منها للتطوير.

٨ – إيجاد مؤسسات علمية قادرة على رصد التطور والربط بين مرافق التعليم ومجالات البحث وأدوات الخدمات والإنتاج وجعلها في إطار مترابط لإحداث التغيير في مرافق الإنتاج وقد نجح هذا النمط في ألمانيا منذ اكثر من مئة عام في مؤسسة فراو نهرفو جسلشافت (Frauenhover Gesellschaft) .

٩ – التأكيد على وجود تناسب طردى بين الدخل القومي ودخل الفرد ونموه مرتبطاً مع نسبة الإنفاق على التعليم والبحث العلمي والتطور عامة (جدول ٩-١٠).

دور تنمية البشر في قضايا التنمية الشاملة :

هناك حقائق أبرزت أهمية دور البشر في التنمية مما أكدتها البحوث والإحصاءات.

أولاً: في حقبة الستينات وما بعدها ثبت في الدول المتقدمة أن ٨٠٪ من التطور أحدثته الثورة التعليمية لتطوير ورفع مستوى الحياة والدخل.

ثانياً: ثبت أن الاستثمار في البشر هو إنفاق استثماري (وليس مجرد إنفاق إستهلاكي) عائده مؤكد على الفرد والمجتمع في أن واحد، وقد قال تيودور شولز "إن استمرار الحياة البشرية يكمن فى الاستثمار الذي يحدث فى الإنسان استثمارا للمعرفة واكتسابا للقدرة، كلها أساس للتقدم الاقتصادي" "وأن الاستثمار في الكيف السكاني وفي المعرفة تحدد التوقعات لمستقبل التنمية" لأن ذلك الاستثمار يؤدي إلى مخزون رأسمالي يطيل العمر (فتطول فترة إنتاجيته) ويحسنّ نوعية الإنسان وصحته (فيزداد الاستيعاب والعطاء) ويحسنّ قدرات الانسان ومهاراته وتحمله للمشاق والفكر (فتزداد إنتاجيته ودخله).

ثالثاً: وقد ثبت فى أوروبا الغربية أن تفوق قدرة الإنسان فى الستينات والسبعينات أحدثت زيادة في الدخل تزيد عن ٢٠٪ إلى ٣٠٪ - وكذلك ثبت أن الاستثمار السخي في كوريا وتايوان وسنغافورة وتايلاند في السبعينات تسبب في رفع المهارات وزيادة الإنتاج فزاد معدل النمو إلى ١٠ - ١٢٪ في الثمانينات والتسعينات ومازال يزداد عطاؤه.

رابعاً: أما في المرحلة الحالية، مرحلة ثورة ما بعد الصناعة وما سمى الثورة الصناعية الثالثة (Post Industrial Society) حيث زاد اعتماد العالم على البشر وملكاته الإبتكارية وخدماته المتفوقة أكثر من إعتماده على العضلة والآلة حيث كانت العضلة وسيلة الإنتاج في الثورة الأولى الزراعية وكانت الآلة هي القوة المحركة فى الثورة الصناعية الثانية. أما الآن فالثورة الثالثة ثورة تعتمد على العقل والعلم، واستحوذت بل اجتاحت دور القوى العاملة مع التكثيف على دور الكومبيوتر وما

أضـافـه من تطورات في Hard & Soft Ware وقـد أدى ذلك إلى تطور مجالات التصنيع من ابداع وتيسير فى التصميم والإنتاج
(Computer Assisted Design CAD)
(Computer Assisted Manufacture CAM)

خامساً: وقد أدى هذا التطور السريع في استخدام هذه الوسائل إلى خفض القوى العاملة مع تزايد في مشكلة البطالة مما يسمى (Jobless De- velopment) وهذه ظاهرة تتعارض مع موقع البشر في قضية التنمية تلك التى تحددت من قبل في عدة أبعاد:

١ – أول اهداف التنميـة هو تحسين مسـتوي البشـر ليقـومـوا بجـهـد خـلاق من خلال استثمار منشطات التنمية (صحة وتعليما وتشغيلا وحرية).

٢ – أن يجـرى توزيع العـائد من النمـو الاقـتـصـادى توزيعـاً عـادلاً على المجموع في صورة خدمات – وعطاء مادي.

٣ – أن تتـاح الفـرص للمـجـمـوع أن يسـاهم كل فـرد بقـدر مـا يمكنه ليرتزقوا من الجهد التنموي.

من هنا يمكن أن نقول ما يأتي:

سادساً: لقد التفت العالم للقضية الأولى والثانية من خلال تحسين مستوى التعليم وتوفير أجور أو تأمينات للعمال ذلك لتأكيد تحسين مستوى الحياة – ولكنه نسى الحقيقة الثالثة ليساهم كل فرد في جهود التنمية بقدر إمكاناته – من هنا برزت قضية البطالة وتوابعها من مشاكل القلق والتمرد المجتمعي والإرهاب.

وفى تقرير لجامعة الدول العربية سنة ١٩٨٢ اتفق على تحديد أولويات استراتيجيات التنمية في العالم العربي وترتيبها كما يلي:

– الأمن العسكري أولها ثم.
– تنمية القوى البشرية وتطوير القوى العاملة.
– اكتساب القدرة التكنولوجية وتوطين الملائم منها.

- التمسك بمنظومة القيم السليمة وتأثيرها السلوكي والديني والسياسي والاجتماعي.

والآن وقد اقترب العالم العربي من تحقيق الأمن العسكري بالسلام في المنطقة فإن تطوير القوى البشرية والقوى العاملة خاصة أصبحت القضية الحاكمة للمستقبل في عالمنا ذلك توجها نحو اكتساب القدرة التكنولوجية وتطويع المناسب منها إعدادا لدخول حلبة التنافس العالمي خاصة بعد اتفاقية الجات.

كل ذلك لن يتأتي إلا من خلال أربعة عمليات مرتبطة ومتسلسلة:

أ - عملية تعليمية بحثية.

ب - عملية تدريبية فنية.

ج - عملية تنظيمية إدارية.

د - عملية سلوكية وطنية.

كل هذه العناصر لا تنمو إلا في إطار بيئي إجتماعي مستقر سياسيا ومصحوب بتعصب قومي محمود - كل هذه المظاهر لابد وأن ترتبط وتتكامل مع أهداف التنمية الاقتصادية والاجتماعية فى وقت واحد.

سابعاً: بقيت بعد ذلك عدة عناصر رئيسية لتحديد دور الإنسان في التنمية:

أ - دور البشر في استغلل الموارد الطبيعية وأهمها .. الأرض .. والماء والبترول ...

ب - دور البشر في تحريك الموارد العينية - الأموال والآلات وغيرها.

ج - دور البشر في توجيه قدراته للإنتاج - ملكاته الابتكارية - سلوكة وقدرته للحفاظ على الآلات والحصول على المعلومات.

د - دور البشر في قضايا التنظيم والإدارة متمثلا فى الانضباط المؤسسي والقدرة على حل المشاكل وتحمل المخاطر والقدرة على التسويق والتنافس ورصد التغيرات العالمية.

والوضع حاليا بعد التطورات العالمية الأخيرة يحتاج لتحليل وإيضاح، خاصة بعد إزالة الحواجز العالمية وإطلاق التنافس والتوجه نحو فصل الملكية عن الإدارة والدعوة إلى توفير المعلومات ودفع تنمية التنظيم المؤسسي. بالإضافة إلى القدرة المطلوبة للتعامل مع المتغيرات التي تحدث في المصادر المادية.

لكل ذلك فإن التوجه العالمي اليوم يدعو إلى الاستثمار في الكيف السكانى والمعرفة والقدرة الادارية – ونفصل فيما يلى إمكانات الإنسان في ثلاث مجالات (حددها د. محمود الإمام فى دراساته العميقة).

أ – دور البشر في استغلال الموارد الطبيعية :

وهذه تتلخص في قدرات الإنسان في عدة مجالات منها:

١ – البحث والتنقيب عن المصادر بأساليب عملية متطورة.

٢ – الحفاظ على الثروات وسرعة استهلاكها حتى لا تنضب.

٣ – الاجتهاد في استنباط مواد جديدة لها خصائص مواد مطلوبة وغالية الثمن – ويمكن إنتاجها بأثمان رخيصة. وهذه القضية أثرت في دخل بعض الدول النامية تلك التي لها مصادر كانت تحقق لها ميزة نسبية وفقدتها بالتنافس مع مواد أخرى جديدة أو مخلقة لها نفس الخصائص ولكن باسعار أرخص.

والخلاصة هي أن سلاح البشر في هذه المعركة هو تجهيز الخبرات من خلال التعليم المتخصص والموجه وتوفير المعلومات ودعم مراكز البحوث والتطوير.

ب – دور البشر فى تحريك الموارد العينية ودورة رأس المال والتشغيل :

من خلال

١ – زيادة مخزون رأس المال القومي عن طريق الإستثمار في التعليم والتدريب الموجه نحو إطلاق ملكات الإبداع والابتكار.

٢ – زيادة القدرة على التعامل مع المعدات الرأسمالية المتفرقة وصيانتها وتطويرها والإبتكار فيها.

٣ – إطلاق القدرة على نقل التكنولوجيا وتطبيقها والابتكار منها.

٤ – توفير القدرة على إتقان اللغات الحية ولغات البرميجات الحديثة وكلها مؤهل أساسي للنجاح والتعامل مع كل ما هو مستحدث.

٥ – توفير القدرة على التطوير وإختيار بدائل الاستثمار الحديث والمتقدم – شحيح العمالة وتحويله إلى سبيل يسمح بتكثيف العمالة بعد إعادة التأهيل والتوجيه لتطوير الكفاءة وفتح مجالات جديدة كل ذلك لتخفيف حدة البطالة التي تصاحب التطوير الحديث.

كل هذه الحقائق تؤكد الترابط التبادلي بين عنصري رأس المال والعمل.

ج – دور البشر في التنظيم والإدارة :

التنظيم والإدارة هما ذراعي التنمية من خلال:

١ – توفير نخبة من الكفاءات التى يمكنها شق الطريق أمام الإقتصاد وخلق فرص عمل جديدة ودفعها للانضباط.

٢ – توفير القدرة البشرية القادرة على تحليل عناصر التقدم التكنولوجى واختيار الفرص والمجالات الدافعة للنجاح والتنافس.

٣ – توفير القدرة البشرية التي تدفع التطوير المستمر للمنتجات وتطوير التصميمات ووضع حلول للمشاكل من خلال البحوث والتطوير.

٤ – تنمية القدرات والكفاءات باستمرار لتكون النواة الدافعة للتطوير التكنولوجي والإدارة الناجحة Nucleus for Technological Dynamisation.

٥ – استمرار الترابط الداخلي حتى تكون التنمية شاملة ومتعاونة في إطار قومي متكامل وكذلك الربط الخارجي مع مستجدات التقدم كل ذلك لتوفير القدرة على التنافس العالمي.

من كل ما سبق يمكن القول بأن مستقبل التقدم البشري لا نهاية له، لأن

مستقبل البشرية لا يقدر بمساحة الأرض المستغلة وحجم الطاقة المتاحة والمصادر الطبيعية الأخرى - ولكن المستقبل تحدوه قدرة الإنسان في التطوير والإبداع.

والرأى الآن يؤكد أن مخزون رأس المال الإنساني يفوق في قدرته وتأثيره كل ما عداه من المصادر الطبيعية - والمثل واضح في تقدم دول حرمت من كل المصادر الطبيعية وتقدمت بقدره العقل وكفاءة الإنسان خليفه الله في الأرض ومثل اليابان وكوريا وغيرها ما هو ببعيد.

دور التنمية البشرية في تطوير الإنتاج:

إذا نظرنا إلى الإنسان على أنه وحدة رأسمالية إنتاجية قادرة فإن واجب القائم على التنمية عامة والبشرية خاصة أن يتوجه إلى ما يدفع الفرد إلى التفوق مع الإيمان بجدوى التطوير التكنولوجي عصب الإنتاج الجيد والقادر على التفوق والتنافس.

كل هذا لا يتأتي إلا من خلال عدة توجهات:

١ - إعداد البشر لتحقيق التوازن في سوق العمل وذلك في ضوء توازن هيكل تكوين التخصصات المختلفة للخريجين مع حجم الطلب عليها في سوق العمل درءا البطالة واجتذاباً للقدرات الخَلاَّقة.

٢ - أن يتحول أسلوب التعليم التلقيني إلى أسلوب بناء القدرة الذاتية للتحصيل الذاتي وليس بغرض التمدرس (وليس التعلم) كما أسماه الدكتور محمود الإمام (Schooling & Not learning) وتحتاج قضية إعداد البشر لقدرات محددة ومطلوبة حتى يتزودوا بالمفاهيم العلمية التي يحتاجها الإنتاج ثم الخصائص الأساسية للمجتمع الذي يعيش فيه مع الإيمان بأن الفرد مسئول بل مسخر أو مطلوب لخدمته، ثم إعداده للتفوق الإبداعي واختيار المتميزين وتحفيز القادرين للإنتاج المنافس.

٣ - النهوض بسلسلة التعليم بدءا من الأمية الهجائية إلى الأمية الثقافية والعلمية والتكنولوجية من خلال التطوير المستمر للتعليم الأساسي

والثانوي – وكافة مرافق التعليم الأخرى – ووضعه في المستوى الريادي ولابد ألا ينتقص من الحساب إعادة التأهيل ورفع المستوى لكافة القائمين على الإنتاج والخدمات ممن أهّلو من قبل إحداث التطوير حتى لا يكونوا عبئا ضارا بقضايا الإنتاج وبذلك تكون تلك الكتلة المتخلفة من القوى العاملة نتاج الأجيال السابقة قد رفعت إلى المستوى المنشود، ذلك من خلال تأهيل ثقافي تدريبي تكنولوجي يتوافق مع الحاجة.

٤ – فتح الباب لإنشاء معاهد تدريبية متخصصة لإعداد القدرة الموجهة للإنتاج التنافسي مع ربطها بوحدات الإنتاج الصناعي واتحادات الصناعة والغرف التجارية.

٥ – الإيمان بأن النهضة التعليمية تخلق مجالات جديدة للتوظيف والعمل المنتج مع التقليل من البطالة.

٦ – الربط مع خطط التنمية في إطار من الشحن السياسي وزرع روح التحدي في القائمين على قضايا الإنتاج.

التنمية التكنولوجية أهدافها وأسسها :

هناك أهداف محددة ومسلمات في قضايا التنمية التكنولوجية:

١ – بات من المعروف أن هناك ثالوث متكامل يحكم التطور:

البشر والتكنولوجيا والإقتصاد والتعامل معها كلها لابد أن يكون متكاملا.

٢ – من المسلمات منذ أمد بعيد أن التنمية تحدث بالبشر وللبشر ومصلحته وأنها تهدف إلى توجيه ودعم النشاط الإقتصادي إلى مستويات أعلى وذلك في إطار تنظيم إجتماعي يستهدف رفع مستوى الحياة وتوفير الرفاهية للمواطنين وهي كذلك تدعم النشاط السياسي بتحجيم البطالة ودعم الاستقرار.

ومن الثوابت أيضا أنه في التعامل مع قضايا التنمية أن المعالجات المنفصلة لا تفلح لتحقيقها إلا إذا اتسمت بالشمولية والترابط ومن هنا فإنها

لابد:

* أن تتسم بالتواصل والإستمرار (Sustainability)

* وان ترتقى بالدرجة التي تسمح لها أن تولد قوى ذاتية معتمدة على نفسها.

أ – أما القدرة التكنولوجية فإنها ترتبط بالكفاءة والمعرفة والمهارة والقدرة على استيعاب وسائل التقدم اقتصادياً وإنتاجياً وإدارياً. والمدخل إلى تطوير الصناعة يبدأ من المنابع العلمية الحاكمة للتطور فى الجامعات ومراكز البحوث أما مخرجاتها فإنها تتأثر بالقدرة التسويقية والتعاونية والتقاولية ونشر مهارات الصناعات والمشروعات (Enterpreneurial Skills) كل هذه القدرات مجتمعة مطلوبة لإنجاح وسائل الإنتاج.

ومن هنا يمكن القول بأن ذلك يحدث من خلال ثلاث منظومات:

١ – منظومة التعليم والتدريب.

٢ – منظومة البحث والتطوير والتسويق.

٣ – منظومة تشغيل القوى العاملة والقادرة ودعم قدراتها على التنافس فى أسواق الإستثمار والتوازن بين كل هذه المؤثرات.
(Balance Between Labour Force, Capital Markets & R.D.)

ب – أما القضية الثانية فهي قضية الحوافز وهذه ترتبط بالبيئة الاقتصادية والسياسات الاستثمارية ومؤشراتها وترتبط بعدة عوامل:

* احترام رأس المال وتنشيطه.

* والتيسير الإداري والبيروقراطي.

* واحترام الملكية الفكرية.

* ودفع قدرة الابتكار والتجويد حتى يمكن التنافس العالمي.

وفي السنوات السابقة توجهت معظم دول العالم النامي نحو التنمية الصناعية ولكنها ركّزت على الاستثمار فى وسائل التقدم الصناعي والتجاري منفردة واغفلت قضايا التنمية البشرية وتحفيزها على التطور والتفوق، فلم

تصب من النجاح إلا القليل، ذلك لأنها نسيت أهمية الربط بين القدرة البشرية والحفاظ عليها مادياً ومعنوياً والتاكيد على دفع قدرتها التكنولوجية والابتكارية وفي نفس الوقت تاكيد الكفاءة تدفعها بإستمرار إلى مستويات أعلى حتى تستمر وتنمو ولا تتعرض للتدهور أو الفشل.

* من هنا كان ربط التنمية البشرية بعناصر الإنتاج الأخرى هو أساس التطور، ذلك لأن الارتباط الكامل بين العنصرين هو الكفيل بإحداث التغيير لأن البشر القادر هو جوهر عملية التنمية وارتباطهما يمثل قوى الدفع المستمر، وقد قال كارل دهلمان Karl Dehlman .

"إن القدرة التكنولوجية تتمركز في البشر وليس فى الميكنة" وحدها والبشر هو الركيزة الأساسية لإحراز التقدم وتتحدد قدراته بمستوى التعليم ورفع مستوى التدريب.

* كل هذه القضايا تمثل المؤثر الأساسي لإنتاج سلع وخدمات متميزة وقادرة على التنافس في الأسواق، محليا وعالميا.

وهذه تعتمد على أساسيات ثلاثة:

أ - قدرة العلماء وتفوقهم وحرية فكرهم وإطلاق ملكاتهم الابتكارية.

ب - قدرة التكنولوجيين ومبتكراتهم وتحفيزهم مع تقييمهم المستمر.

ج - قدرة ضبط الأداء والإنتاج والتسويق وتوفير وسائل النجاح بالإدارة المتميزة والمتطورة.

٣ - اتسم اقتصاد العالم في حقبة الثمانينات وما قبلها بسمة "العقد الضائع" لأنه عقد ضاع في معالجة مشكلة الديون وخدماتها وبسببها استأثر البعد الاقتصادي على مسار التنمية وظهر التضييق على البعد الاجتماعي. فزادت حدة المشاكل الاجتماعية - حيث أن التوازن بين التنمية الاقتصادية والاجتماعية يمثل المؤشر الأساسي لتحقيق رفاهية الإنسان.

٤ - إن التركيز على التنظيم المجتمعي "Social Organisation"والبعد

الاجتماعي في منظومة التنمية والاهتمام بهما من الأهمية بمكان ذلك لقدرتهما في دفع عمليات التطور من خلال إطلاق قوى الإبداع البشري.

وهذه التوجهات كلها قضايا تؤدى إلى سلامة الإنسان ونضج مداركه والحفاظ على حرية الفكر. وقضية الحرية في أجلى معانيها قضية لا تتجزأ - حيث أن قهر الإنسان في أي مجال يحرمه من الانطلاق في كل مجال (All or None) وقد ثبت أن عدم الربط بين المنشطات التنموية مجتمعة (الصحة والتعليم والتشغيل والحرية) قد أبخس التعليم حقه المعلوم والمؤكد في إحداث التقدم.

٥ - إن عدم التركيز على تطوير منظومة التعليم بحلقاته المختلفة والاتساع فيه يخلق ثنائية مجتمعية مدمرة، تمثل صورة من الاستعمار الاجتماعى ذلك لأنه يسمح بسيطرة فئة قادرة على فئة محرومة، حيث تُخلق مجموعة محدودة من ذوي القدرة على مجابهة أهداف التطور تاركه باقي المواطنين في غيبوبة من متطلبات التنمية ومطالبها وسلوكياتها، هذه الثنائية المجوجة تخلق إحساسا بالتفانى للحصول على المزايا من جهة وتمرد وقلق في الجهة الأخرى - مما يجعل بيئة التنمية في وضع غير صحي اجتماعيا وسياسيا.

٦ - إن العالم يمر اليوم بثورة تكنولوجية متفوقة ستنتهي حتما إلى نوعيات جديدة من المبتكرات - منتجات وخدمات - الكثير منها غير معروف اليوم. ومن هنا فإن اكتساب المعارف والمهارات واستمرار متابعتها علميا وعالميا قضية حتمية للتحضير للمستقبل، حيث أنه لابد من إحداث التطوير في مناهج ومداخل التنمية..

ولا يحدث ذلك إلا من خلال التعليم المجود والمتطور والتدريب والبحث وتوفير المعلومات باستمرار.

٧ - إن التنافسية العالمية والقدرة على مواجهتها خاصة في مرحلة الجات قضية حاكمة المستقبل الاقتصادي لأي دولة - هذه قضية متعددة الوجوه ترتبط بتوجهين: أساسها القدرة التكنولوجية.

وثانيها: التحفيز نحو التفوق والإبداع.

المؤسسية الضابطة للإنتاج (أي الإدارة).

٨ – تطوير القدرة التكنولوجية
Developing Technological Capability

وهذه تعتمد على أربعة أسس محددة:

أ – الاهتمام بالإنسان وإطلاق قدراته المختزنة والابتكارية تلك التي تمثل القاعدة الأساسية لإحداث التطوير والتأثير في كل المجالات.

ب – دفع التطوير والمتابعة المستمرة مع الارتباط والرصد لكل التطورات السريعة التى تحدث في عالم التكنولوجيا.

ج – اختيار واستعمال ونشر التكنولوجيا المناسبة بأسلوب محكم ومبرمج لرفع المستوى العام لكافة المؤسسات الاقتصادية.

د – اجتذاب التكنولوجيات والأموال المتاحة من معونات وقروض وجذب المؤسسات العالمية المتخصصة والعابرة للقارات دعماً للقدرة الوطنية المنتجة (Trans & Multinational Corporations) والتعاون معها ذلك لرأب فجوة التخلف، ولو إلى حين، تجهيز القوى العاملة القادرة على استيعاب التقدم. كل ذلك مع الربط مع اصحاب الأموال التي تتحمل مخاطر التطور – وكذلك مؤسسات التمويل محلية كانت أو أجنبية – كلها لابد وأن تعمل في إطار متكامل أو منظومة موحدة يحددها القائمين على قضايا التنمية وقد أحدثت ثورة التكنولوجيا المعاصرة تغييرين أساسيين في النظرة إلى الإنتاج.

أولها: عدم الأعتماد على القوى العاملة الكثيفة والرخيصة والغير مؤهلة ولكنها تعتمد اساسا على ثلاثة عناصر مجتمعة على توغير رأس المال – والعمالة المتميزة والآلة المتفوقة.

ثانيها: الاعتماد على وسائل الإنتاج الحديثة من آلات وأساليب وقدرات للتعامل معها مع توفير أسلوب متميز في الإدارة الحديثة – لما لها من

تأثير نوعية الأنتاج وقدرته على التنافس.

والدولة التي لا تنمي وتطور قدراتها التكنولوجية في الاختبار والنقل والتطويع والتطوير وابتكار مجالات ومنتجات وسلع جديدة لتحل محل منتجات بالية، محكوم عليها بالتدهور.

العناصر المؤثرة في قدرات الإنسان التكنولوجية نلخصها فيما يلي:

١ – الابتكار.

٢ – البحوث.

٣ – المعلومات.

٤ – الاختيار والتطوير والتوجيه.

٥ – الربط بين التعليم والتدويب – والبحث والتطوير والإنتاج والخدمات.

٦ – الحوافز.

١ – الابتكار:

قضية الابتكار هي لب عملية التطوير – والابتكار لا يمكن النظر إليه على أنه توفيق بالصدفة ولكنه:

أ – ولكنه محصلة ونتيجة لعمل جموعي منظم ينمي في الأفراد ذوي الملكات والقدرة يخطط له وتفرد له موارد كافية بما في ذلك دعم القوى البشرية المختارة.

ب – كذلك يحتاج الابتكار إلى توفير الوسائل والأساليب التى تكفل نقل ناتجة إلى التطبيق وفق القواعد الاقتصادية والإدارية السليمة من خلال منظومة التقييم وتأكيد الجودة (Total Quality Control & Assurance)

جـ – الإستمرار في تطوير مواصفات المنتج من خلال البحوث المستمرة حتى يحرز مكانا مرموقا في الأسواق المحلية والعالمية حيث التنافس والبقاء – إذ أن كل سلعة جديدة أو ابتكار جديد له عمر افتراضي لابد أن يختفي بعده ليحل مكانه ما هو أجود وأحسن منه.

٢ - البحوث واجهزتها :

توفـيـر أجـهـزة البث من أهـم أسس المنظومـة التكنولوجـيـة - بأمـاكنـهـا وأجهزتها ومرافقـها وميزانياتها المحددة والمتزايدة - والكفاءات المتخصصة والمتـعـددة لتـعـمل في تطوير صـورة المنتج Product Design وكـذلك لتنمـيـة التطوير والإنتاج Product R & D .

٣ - المعلومات والتوثيق :

وأجهزتها المتفوقة Hard & Soft Ware

وأدوات والوسائط المتعددة Multi Media

وتوفير القدرة البشرية المتخصصة لتوفير المعلومات وجعلها متاحة لكل من يطلبها لينقل منها ويتعلم بها.

٤ - الاختيار والتوجيه :

إن وجود أجهزة الاختيار وصياغة الطلب للمعرفة التكنولوجية من خلال قدرات مختلفة

أ - وكلاء اختيار التكنولوجيا والتوجيه فيها.

Technology Enterpreneurs & Brokers

ومن هنا يمكن الاستفادة بالخبرة في توفير القدرة على إختيار المجال المطلوب وتقـييم قدرته على النجاح وكذلك يوفر تكنولوجيات قائمة أو ابتكار أفكار جديدة خاصة في الصناعات المتقدمة وكذلك يوجد التوازن بين دفع العرض وجذب الطلب. (Balance Between Supply Push & Demand Pull).

ب - القطاعات الوسيطة :

أي ذلك الحزام الناقل للفكر والقدرة والإدارة التكنولوجية تعاقدا وتمويلا وتسويقا وتأمينا.

ج - المكاتب الاستشارية:

هندسيا وإداريا وإنتاجيا ودورها في مرحلة الإنتاج والاستمرار.

د – الخبرات المكتسبة :

من رصد وتقييم رأى المستفيدين والمستهلكين ومراقبة الأسواق في تحركات السلع أو الخدمات (Feed Back) دفعا للتنافس الناجح.

٥ – الربط :

بين برامج التعليم وأساليب التدريب ومراكز البحوث والتطوير ومرافق الإنتاج والخدمات في المجتمع المفتوح.

(النمط الألمانى Frauenhover Gesellschaft) والتواصل بينها كلها في إطار شبكة قومية موجهة للتنمية التكنولوجية تبدأ من التعليم وتنتهي بالمنتج ومتابعته.

٦ – الحوافز والتنمية البشرية :

الاعتزاز بحوافز حقيقة إنسانية ثابتة تدفعه إلى التقدم والأمل والاستمرار فى التجويد، وهناك اساليب كثيرة للتحفيز في مجالات الإنتاج.

أ – تولي رئاسة الدولة وقياداتها السياسية رعاية العلم والعلماء أسلوب أثبت نجاحه في كوريا – فرنسا – أمريكا.

ب – تمثيل العلماء في المواقع المتميزة في المجتمع ورفعهم إلى أعلى المستويات وتركيز الأضواء عليهم.

ج – اعتبارهم هيئة استشارية للدولة يرتجى أن يقودوا توجها في صنع القرارات المصيرية.

د – التقدير – المادي – من أجور وعطايا وتيسيرات. وتطوير معنوي في هيئة تيسيرات وأوسمة مواقع وتجهيزات ومنح تدريبية لتحفيز المتفوقين – والوضع في قيادة فريق يكلف بحل مشكلة حادة.

هـ – توفير وسائل التقدم من مكتبات ومراجع وآلات وبعثات وكذلك تشجيع تبادل زيارة العلماء من الخارج.

و – تفويض بعض مراكز البحوث في حلّ بعض المشاكل القومية مع توفير عائد مادي أو معنوي نظير جهدهم.

استراتيجية التنمية البشرية :

وفي دراسة تفصيلية نشرتها الأكاديمية للأستاذ الدكتور علي السلمي يمكن تلخيص محتواها فيما يلي:

إن أغلب الخصائص والصفات الإيجابية المطلوب توافرها في المورد البشري تكون عادة مكتسبة من البيئة الاجتماعية والحضارية التي يعيش فيها الإنسان.

وبالتالي فإن التنمية بالبشر (أى إكساب المورد البشري الخصائص والصفات المستهدفة) إحداثها يكون من خلال أساليب وآليات يمكن اخضاعها جميعا لمنطق العلم والتخطيط والتوجية. ومن ثم يمكن القول بأن إحداث التنمية البشرية يتطلب وجود استراتيجية واضحة ومدروسة، ولإمكان وضع مثل هذه الاستراتيجية يجب أخذ الأمور الآتية في الإعتبار:

* أن استراتيجية التنمية البشرية يجب أن تأخذ في الاعتبار كافة الأبعاد الاقتصادية والاجتماعية والحضارية والسياسية في البلاد.

* إن الاستراتيجية الشاملة تبنى على أساس أهداف بعيدة المدى، وفي ضوء نظرة ممتدة إلى المستقبل، فهي لا تقتصر على إدراك الأوضاع القائمة فقط، ولكنها تأخذ في الحسبان التطورات المحتملة في هذه الأوضاع. ومن ثم استراتيجية التنمية البشرية يجب أن تكون مستقبلية، تستهدف تحقيق نتائج حاسمة في مدى زمني بعيد نسبياً.

* أن التفكير الاستراتيجي في الوقت ذاته يتعامل مع المواقف الحاضرة في إطار تصور شمولى للأوضاع المحتملة في المستقبل، وبالتالي يمكن بناء استراتيجيات قصيرة أو متوسطة المدى لمعالجة قضايا التنمية البشرية وذلك ضمن تصور استراتيجي شامل وطويل الأجل. ومن ثم تتكامل الجهود وتتراكم الآثار الإيجابية على مدى الزمن إلى أن تتحقق النتائج النهائية المرغوبة.

* إن التفكير الاستراتيجي يعتمد في الأساس أسلوبين لمعالجة المشكلات، الأسلوب الهجومي Offensive والأسلوب الدفاعي Defensive ويتوقف

اختيار أحد الأسلوبين على طبيعة الظاهرة موضع البحث وإدراك المخطط الاستراتيجي لحقيقة الظروف والقيود المفروضة على استخدامها.

خطوات بناء استراتيجية التنمية البشرية

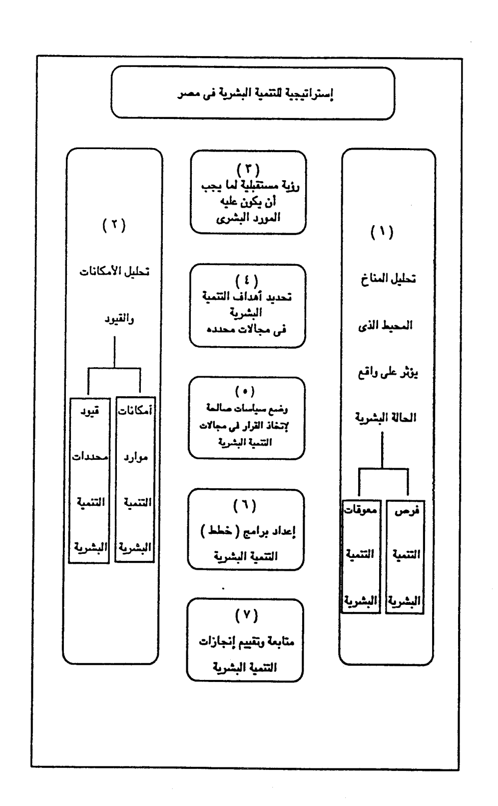
إن بناء استراتيجية التنمية البشرية لا يبدأ من فراغ، وإنما يعتمد في الأساس على أمرين أساسيين:

الأول: الرصد الواقعي والتحليل العلمى لمستوى التنمية البشرية السائدة (أى تحليل تكوين وخصائص المورد البشري الحالي، والتعرف على مدى مناسبته وتوافقه مع متطلبات التنمية القومية الشاملة).

الثاني: تحديد التكوين الأمثل للموارد البشرية الذي يتوافق مع أهداف ومستويات التنمية القومية الشاملة المستهدفة (أي تحديد هيكل الموارد البشرية المرغوب عددا ونوعا).

وبناء على المقارنة الموضوعية بين المستويين (المستوى الفعلي للموارد البشرية) و(المستوى المستهدف) تتحدد الفجوة الواجب العمل على علاجها من خلال السياسات والبرامج والآليات المؤثرة على الحالة البشرية.

وتصور الخريطة التالية الخطوات المنطقية في بناء استراتيجية التنمية البشرية:


إستراتيجية للتنمية البشرية فى مصر
(١)
تحليل المناخ المحيط الذى يؤثر على واقع الحالة البشرية
فرص التنمية البشرية
معوقات التنمية البشرية
(٢)
تحليل الأمكانات والقيود
أمكانات موارد التنمية البشرية
قيود محددات التنمية البشرية
(٣)
رؤية مستقبلية لما يجب أن يكون عليه المورد البشرى
(٤)
تحديد أهداف التنمية البشرية فى مجالات محدده
(٥)
وضع سياسات صالحة لإتخاذ القرار فى مجالات التنمية البشرية
(٦)
إعداد برامج (خطط) التنمية البشرية
(٧)
متابعة وتقييم إنجازات التنمية البشرية

وفى ضـوء المنهج الاسـتـراتيـجى المقـتـرح. يمكن عـرض مكونات استراتيجية التنمية البشرية على النحو التالى:

(أ) الهدف الاسـتـراتيـجي هو إحداث تغييرات هيكلية في التكوين السكاني وصولا إلى التكوين الأمثل المتوافق مع متطلبات مستوى معين من النمو الاقتصادي والاجتماعي.

(ب) يمكن ترجمة هذا الهدف الاستراتيجي إلى هدف تكتيكي Tactical Objective هو العمل على الوصول بالكفاءة الإنتاجية للتكوين السكاني إلى أقصى حد ممكن في إطار تصور واضح للطاقات الإنتاجية المتاحة وللتطورات المحتملة فيها.

(ج) اعتمادا على فهم معين للكفاءة الإنتاجية مؤداه إنها مقياس الناتج بالنسبة إلى المورد المستخدم في الإنتاج فإن:

$$\text{الكفاءة الإنتاجية للتكوين السكاني} = \frac{\text{الناتج القومي الإجمالي}}{\text{عدد السكان}}$$

بالتـالى فـإن الاسـتـراتيـجـيـات المطروحـة للبـحث من أجل زيادة القـيـمـة النهائية لهذه النسبة:

(أ) العمل على تخفيض عدد السكان مع ثبات الناتج القومي الاجمالي.

(ب) العمل على زيادة الناتج القومي الاجمالي مع ثبات عدد السكان

(ج) العمل على تخفيض عدد السكان بنسبة أعلى من الانخفاض المحتمل في الناتج القومي الاجمالي.

(د) السـمـاح بزيادة عـدد السـكان مع زيادة الناتج القـومي الاجـمـالي بنسـبـة أعلى.

وتتحدد الاختيارات بين تلك الاستراتيجيات البديلة على ضوء الأهداف القومية والاعتبارات الحضارية والعقائدية والسياسية.

وفى ضوء الأوضاع السائدة في مصر وأهدافها المستقبلية فإن الاستراتيجية المثلى للتنمية البشرية فيها هي استراتيجية تضم البديلين الثاني والرابع، بمعنى أن تكون هناك استراتيجية قصيرة أو متوسطة المدى تستهدف تحقيق ثبات نسبي في عدد السكان، مع العمل على زيادة الناتج القومي من خلال التحسين المستمر في نوعية وخصائص وقدرات ومهارات هؤلاء السكان، ثم تكون هناك استراتيجية أخرى طويلة تستهدف تحقيق التكوين الأمثل للسكان مع التطوير المستمر في خصائصهم ونوعياتهم تتناسب مع الزيادات الأكبر في الناتج القومي، وتسمح باستيعاب القدر المتزايد من الإنتاج وتتيح بذلك الفرص لاستمرار التوسع الإنتاجي والتشغيل الاقتصادي للطاقات.

ويلاحظ أن البناء الاستراتيجي المقترح للسكان يتكامل مع استراتيجيات أخرى لابد من تواجدها تستهدف رفع الكفاءة الإنتاجية لعناصر الإنتاج الأخرى وهي:

١ – رأس المال.

٢ – وعناصر الطبيعة (الموارد) كما تستهدف تحسين .

٣ – وتطوير الكفاءة الإدارية وتطوير وترشيد أساليبها وقراراتها.

ونعرض فيما يلي ملامح الاستراتيجية المقترحة :

*** استراتيجية التنمية البشرية بعيدة المدى :**

* تغيير التركيب النفسي للسكان.

* تغيير التركيب الوظيفي للسكان.

* تغيير التركيب الثقافي للسكان.

* تغيير التركيب المهني للسكان.

* تغيير تركيب المهارات للسكان،

وبصفة أساسية فإن الاستراتيجية بعيدة المدى ترمي إلى إحداث تغيير هيكلى جذري في خصائص وهيكل التكوين السكاني للمجتمع، تنعكس في

المدى الطويل على الكفاءة الإنتاجية ومعدلات التنمية الاقتصادية، ومن ثم تحقق في النهاية التكوين الأمثل للسكان (العدد الأمثل والخصائص المثلى).

وتصل الاستراتيجية السكانية بعيدة المدى إلى تحقيق أهدافها من خلال سياسات وبرامج وأساليب تتعلق بالعمل على تحقيق ما يلي:

* توفير مناخ الديمقراطية والحرية السياسية.
* تغيير هيكل التنظيم وأساليب الرعاية الطبية في المجتمع.
* تغيير هيكل التعليم العام والمتخصص والعالي.
* تغيير هيكل التنظيم الاجتماعي وتطوير النظم الاجتماعية السائدة من خلال تعديل هيكل التنظيم الاقتصادي، وإعادة توجيه علاقات الإنتاج في المجتمع بما يسمح بتدفق فى الاستثمارات من ناحية، وتوازن في توزيع الدخول من ناحية أخرى.
* تغيير النظم الثقافية وتطوير أساليب العمل في مؤسسات التثقيف والإعلام العامة.
* تثوير البيئة السكانية من خلال إعادة البناء المادي للمناطق السكانية المتخلفة والعشوائية، وخلق فرص النمو الاجتماعي وترشيد العلاقات الاجتماعية بها.
* إعادة صياغة المفاهيم والعقائد والقيم الحضارية السائدة في المجتمع بالتعليم والتثقيف والتنظيم الاقتصادي الجديد.

*** استراتيجية التنمية البشرية متوسطة المدى :**

تستهدف هذه الاستراتيجية إحداث تحول مرحلي في تركيب القوة العاملة من بين السكان وزيادة مستوى الكفاءة الانتاجية للمشتغلين، وذلك كهدف مرحلي يتكامل في المدى البعيد مع أهداف تغيير هيكل التكوين السكاني كله.

وتتجه هذه الاستراتيجية في الأساس إلى تحقيق ما يلي:

* خلق مجالات للعمل الانتاجي لأعداد العاملين المبددة طاقاتهم حاليا في أعمال غير إنتاجية.

* تحويل العمالة من الصناعات الأقل إنتاجية إلى الصناعات الاكثر إنتاجية (فى ضوء الطلب وظروف السوق).

* زيادة نسبة القوى العاملة إلى إجمالي السكان (بالعمل مثلاً على الاستيفادة من النساء غير المشتغلات والأطفال بعد سن معينة) وتوجيه القوي العاملة الجديدة إلى الأعمال التي لا تتطلب قدرا كبيرا من المهارة أو الخبرة.

* زيادة فعالية القوى العاملة الأساسية في الصناعات ذات الإنتاجية العالية من خلال التدريب المنظم والمستمر.

* تغيير أنماط السلوك الإنتاجي للقوى العاملة بالعمل على تقليل مسببات ضعف الإنتاجية (الغياب، التمارض، الإسراف في المواد عدم الدقة في التشغيل) وذلك بالتدريب من ناحية، وباستخدام نظم الحوافز الإيجابية والسلبية من ناحية أخرى.

* تحسين المستوى العام للكفاءة الإنتاجية للقوى العاملة من خلال.

أ – التخطيط العلمى للقوى العاملة وتحديد الاحتياجات الدقيقة والنوعيات السليمة المطلوبة للعمل.

ب – التصميم العلمي للعمل Job Design ووضع المعدلات القياسية وتصميم طرق وأساليب العمل.

ج – الاختيار العلمي الموضوعي للأفراد ذوي المواصفات المناسبة للعمل، وتدريبهم على طرق وأساليب الأداء الموضوعية.

* العمل على إعادة تكوين وتدريب النوعيات والأعداد الفائضة من القوى العاملة عن احتياجات الجهاز الإنتاجي بالدولة، من أجل استثمار طاقاتهم وخبراتهم في مجالات العمل المتاحة بالدول الأخرى التي تعاني قصورا في موارد البشرية.

استراتيجية التنمية البشرية قصيرة المدى:

وتتركز أهدافها على محاولة إحداث تغيير سريع وملموس في مدى الضغط السكاني على الطاقات الإنتاجية من ناحية، والعمل على زيادة المساهمات الإنتاجية للسكان بشكل عام وتتبلور فيما يلي:

* إعادة توزيع القوى العاملة بين قطاعات الاقتصاد القومي المختلفة تحقيقا للتوازن بين العمالة وبين طاقات الإنتاج الأخرى.
* تسريح جانب من القوى العاملة ذات الكفاءة الإنتاجية المتدنية والتي تمثل عبئا على العملية الإنتاجية بما يساعد على رفع الإنتاجية وترشيد الإنفاق.
* تنظيم برامج عاجلة لتحسين المستوى الصحي لأفراد العاملين في مواقع الإنتاج الواعدة بالزيادة (الزراعة، الصناعات التصديرية...).
* تنظيم برامج عاجلة للإرشاد وإعادة التأهيل الوظيفي.
* تنظيم فرص وبرامج التعليم المستمر وأنماط التعليم المفتوح الهادفة إلى رفع المستوى التعليمي لأفراد المجتمع من العاملين وغيرهم.
* تنظيم برامج لإعادة توزيع السكان في المناطق المختلفة للتخفيف عن المناطق كثيفة السكان، وتوفير المورد البشري اللازم لتنمية المناطق قليلة الكثافة السكانية.
* تنظيم برامج عاجلة لإصحاح البنية والتخفيف من مشكلة العشوائيات.

العوامل المؤثرة في تنمية القدرة البشرية التكنولوجية خاصة في التعليم العالي في مصر ومقارنة عوائدها ببعض الدول:

١ - العوامل التي تؤثر في توجيه الطلاب وأساليب القبول في المجالات المختلفة: هناك غياب لأسلوب التوجيه الحر وغياب دور الهواية والرغبة الحقيقية في اختيارات الطلاب لإشباع هوايتهم وإبراز قدراتهم، ورغم أنها حق طبيعي مكتسب، ولكننا إلتزامنا بأسلوب أوحد، كلاسيكي بيروقراطي مرتبط بالدرجات فقط (ما عدا في حالات محدده) يتمثل في

التنسيق رغم ما له من فضائل في تحقيق العدالة المطلقة ولكن من خلاله ظهرت توجهات جديدة في تقسيم المستويات من كليات قمة طب وهندسة وصيدلة وأسنان وعمارة ثم ظهر الإقبال على اللغات والاقتصاد والتجارة وأخيرا العلوم السياسية والحقوق والطب البيطري ثم الدراسات الإجتماعية والأدبية وكان آخرها كليات التربية، هذه الحقيقة ثبتت خطورتها وتأثيرها في حالة التعليم اليوم، وهذه "قضية تحتاج إلى نظرة قومية" جديدة إذ لابد من خلق حوافز وأساليب لجذب الكفاءات إلى كليات التربية. أهم منبع لدفع التنمية، هذا المجال الحيوى بل المجال القائد للتقدم والمحدد لمستقبل الوطن من خلال تنشئة أبنائه تربية وتعليما.

٢ – قضية القدرة والكفاءة والهواية – في توجه الطالب – حيث أن الطالب فقد حق الاختيار من خلال التنسيق العادل الأعمى الذي يرتكز فقط على قدرة وحيدة تحكم التفوق وهى قدرة الاستيعاب والاسترجاع للعلوم المطلوب النجاح فيها وما من سبيل لبروز القدرة والتميز أو كفاءة الابتكار أو القيادة والإدارة... ليس هذا طعنا في التنسيق ولكنه رأي يمكن أن يكون مجالا للحوار في مراحل قادمة لتخريج القدرات المطلوبة.

٣ – المؤثرات التي تشكل أسلوب الاختيار للطلاب أينما تحتاج إلى تحليل:

أ – إختيار مرتكز على الوضع الإجتماعي للخريج من الكلية المطلوبة (الطب والهندسة الآن) وليس أي اعتبار آخر.

ب – تأثير الأسرة والآباء في توجيه الأبناء نحو المجال الذي يريدونه.

ج – ربط التوجه باحتمالات الكسب والدخل المادي وليس حاجة المجتمع (الطب والصيدلة).

د – الرغبة في تأمين المستقبل والاستقرار الوظيفي (البوليس والحربية).

هـ – اجتذاب الطلاب بتيسيرات مادية قد تجتذب الطالب لما لا يهواه.

كل هذه المؤثرات أثرت في موازين التوجه والقبول عند دخول

الجامعة وانعكس على مستوى الخريجين.

٤ – دور الدولة والقطاع الخاص في تكوين القوى البشرية للعلم والتكنولوجيا: حيث تحتكر الدولة أكثر من ٩٨٪ من مجالات التعليم الجامعي والعالي والتقني في قوالب متماثلة وقوانين جامدة وتحدد الأعداد والبرامج ولا يحكمها تخطيط وتوجيه الحاجة وكان من المفترض أن يكون للقطاع العام رأي في التوجة فى المرحلة السابقة في مصر ولكنه لم يأخذ حقه ودوره ولم تحل محله قوى القطاع الخاص بعد بالقدر المطلوب في توجيه التعليم.

٥ – مازالت بصمة الاحتلال البريطانى قابعة في منظومة التعليم في مصر، حيث كان التعليم كله موجه لتخريج قدرة توظُفية تنتظر قرارات القوى العاملة لتحصل على وظيفة كتابية أو غيرها في مجال حكومي أو شبه حكومي ومازالت هذه الحقيقة قائمة ومازال معظم الخريجين ينتظرون دورهم للتوظيف عدة سنوات حتى يصيبهم الدور. ونظرة إلى جدول رقم(٨) يؤكد الأعداد المتزايدة من الخريجين في الكليات النظرية في هذه المرحلة رغم قلة الطلب على الكثير منهم مما يحتاج إلى تنظيم جديد يوجه نحو إعادة تأهيلهم.

٦ – مازالت منظومة التعليم مرتبطة بثلاث ثوابت لا تتغير:

أ – التوجيه بالأرقام ونمو النجاح وليس بالهواية أو الكفاءة الفذة أو حاجة المجتمع لنوعية من الخريجين تحتاجها في أهم المجالات (التعليم والمدرسين – المبتكرين الأفذاذ في الكمبيوتر والهندسة).

ب – عدم الربط بين أعداد المقبولين والإمكانات المطلوبة والمتاحة خاصة فى الكليات التى يكون مستوى التدريب فيها والمعامل يمثل أساسا لتحديد قدرة الخريج على تجويد مهنته.

ج – عدم الربط بين إحتياج سوق العمل وتخريج القوى العاملة المطلوبة في تخصصات حاكمة يحتاجها سوق الإنتاج ذلك لغياب التخطيط العلمي.

٧ – إحتكار الدولة لإنشاء مرافق التعليم العالى المتخصص، مع الاقلال من قدرة القطاع الخاص أو التلكؤ في إعطائه الفرص ليأخذ دوره في خدمة التنمية البشرية، مع أنه قطاع تنادي الدولة في المرحلة الحالية بتنميته – حيث يمكنه أن يرفع عن كاهل الدولة أكثر من ٥٠٪ من استثمارات الخطة فى مختلف المجالات ويمكنه أن يزيح عن كاهل وزارة التعليم تكاليف شريحة قادرة على تحمل أجر تعليمها وتوجهها إلى حاجة السوق. وهذا قطاع يتطور بلا قيود بيروقراطية في برامجها وأساليبها وإدارتها وقد اندفعت كثير من الدول لخصخصة التعليم فمثلا في الهند: فإن ٧٥٪ من الجامعات خاصة.. كذلك احتذت الصين التي مازالت ترتبط بالشيوعية نفس السبيل فإنها بدأت في فتح الأبواب للجامعات الخاصة .. وفوق كل هذا نجد أن ٩٠٪ من التعليم العالي في الدول الغربية في يد القطاع الخاص.

٨ – هناك حوالي مليون طالب فى التعليم العالي والجامعي في مصر ... وهناك حوالي ٥٠٠٠٠ حاصل على درجة اكاديمية عليا (بكتوراه) تؤهل للتدريس أو البحث الراقي. مما يجدر أن يذكر فإن نسبة أعداد الطلاب إلى هيئة التدريس تختلف من بلد إلى بلد ومن كلية إلى كلية فإنها تحتاج وقفة، وعلى سبيل المثال ففى الجامعات المتقدمة (Quality Higher Education) نجد عضو هيئة التدريس إلى ٨ – ١٠ طلاب وفى السعودية ١: ١٩ وفى مصر ١: ٣٦ وفي سوريا ١: ٨٩ (إحصائية سنة ١٩٨٥).

٩ – إن الربط بين التعليم العالي ومجالات الإنتاج من صناعة إلى زراعة إلى إدارة لم يصل إلى المستوى المنشود حتى الآن بسبب تأثير نوعية التعليم والبحث وغياب الارتباط مع المنتجين بالتوجيه والاستشارات.

كل هذه الظواهر ادت كذلك إلى اهتزاز المستوى ويمكن تحليل أسباب ذلك فيما يلي:

أ – ضغط أعداد الطلاب في الكليات وازدياد العبء على هيئة التدريس – وحتى بعد أن تحسنت الأحوال نسبيا فإن التفاعل بين الطالب

والأستاذ لم يتغير مما أفقد قضية الريادة التعليمية معناها ومصر تحتاج اليوم لدور أعمق للأستاذ الجامعي ومسئوليته في إعادة بناء الأجيال القادرة على تحمل عبء التنمية.

ب – هيئة التدريس تفتقد الكثير من الخبرة التدريبية رغم تفوقها الاكاديمي.

ج – الاتجاء للقدرة الأجنبية في إنشاء المصانع حرم الكثير من القدرات الوطنية من ممارسة ومحاولة التجرية والنجاح فيها، وذلك بسبب مشروعات تسليم المفتاح (Turn Key Projects) .

د – غياب مؤسسات متخصصة ذات خبرة في ربط التعليم وتطوير البحث وتوجيهه لمصلحة الإنتاج.

١٠ – عدم التوافق بين البرامج التعليمية والتدريبية من جهة واحتياج سوق العمل من جهة اخرى، وقد أدى ذلك إلى إختلال التوازن بين الاحتياج وقدرة الخريج مما ادى إلى تفاقم ظاهرة البطالة بين الخريجين لعدم إثبات المقدرة والجدوى في المشاركة في رفع مستوى الإنتاجية وأيضا غياب التخصصات والمهارات الحاكمة والمطلوبة لتحقيق التميز الإنتاجي.

ومن هنا كان لابد من فكر جديد لتعويض بعض النقص وحل الكثير من المشاكل.

١١ – دعم دور القطاع الخاص والتعليم عن بُعد في خدمة قضية التنمية البشرية التعليمية والتدريبية.

أ – حتى يُفتح الباب أمام القادر الذي لم يحصل على فرصته أو رغبته من التنسيق في تخصص ينشده، بدلا من السفر إلى الخارج، وما يعترى ذلك من مشاكل.

ب – وإجتذاب الكثير من طلاب الدول المجاورة للتعليم المجود إلى مصر وما فى ذلك من مزايا اقتصادية وسياسية (علماً بأن العالم العربي يرسل ١٢٣ الف طالب يدرس في جامعات غربية وكذلك هناك أكثر

من ١٠ آلاف طالب لدراسة الدكتوراه والماجستير وهذه الأعداد تتزايد باستمرار).

ج - فتح باب لتخصصات مطلوبة وإيجاد إزدواجية متميزة خاصة في الدراسات العليا وتفيد في التخصص، (مثل تزاوج الهندسة والاقتصاد والإدارة مثلا) قضية مازالت ترفضها الجامعات التقليدية، في حين أن هذه الإزدواجية تمثل قمة التطور التكنولوجي.

د - إجتذاب كفاءات علمية مصرية وعربية مغتربة أو مهاجرة للعودة لحظيرة الوطن العربي تضيف إلى العطاء القومي.

هـ - كذلك التخلص من بيروقراطية اللوائح في مراحل التعليم المختلفة (Anti Institutionism) والتحرر من النمطية في تطوير البرامج والإمكانات والتخصصات مما يخدم قضايا التنمية.

و - التركيز على التخصصات الجديدة المطلوبة والمستحدثة تلك التي تخدم قضايا التنمية مثل رفع مستوى التعليم عامة وخاصة من خلال تطوير كليات المعلمين.·ذلك لتخريج نوعية جديدة من المعلم القائد لقضايا التطوير والحامل لمسئولياتها وتنمية الكوادر البشرية المطلوبة وتحفيز مستويات وقدرات معينة من الطلاب المتميزين للالتحاق بها ودفعهم إلى طريق التميز.

١٢ - إستغلال القدرات المحلية لتغيير أنماط التعليم الحكومي وتطويره تواؤما مع احتياج البيئة الحاضنة. عندنا ١٣ جامعة نمطية تتسم ببطء التغيير الملحوظ. وكذلك نحتاج إلى وصلة وتكامل بين الجامعات الاقليمية ومراكز البحوث والإنتاج لخدمة الإدارة المحلية. حيث تلتقى القدرات المتاحة فيهما لدفع الدراسات العليا الموجهة لحل مشاكل التنمية، (تجربة احتذتها الهند في صورة مراكز البحوث الإقليمية لربط الجامعات بخدمة البيئة والمجتمع المحيط) وكذلك دفع برامج البحث والتطوير.

١٣ - كذلك نحتاج للعودة إلى خطة وأسلوب جديد للبعثات تجديدا لشباب الجامعات وإدخال المجالات التي تحتاج إليها خطة التنمية (مثل استغلال

الصحراء وحسن استعمال المياه وأساليب الزراعة المتقدمة وإعادة بناء القرية المصرية – كذلك الأمراض المتوطنة – الهندسة الوراثية – المواد الجديدة – أنصاف الموصلات Semiconductors دراسات المعلومات والإلكترونيات – الإدارة الحديثة – علوم المستقبل). ويمكن للدولة أن تستفيد من تشجيع إنشاء الجامعات الخاصة واستغلال مراكز البحوث والعلماء المهاجرين والمعارين ليكونوا رصيدا مضافا لقدرات التعليم، كل ذلك لتقصير الطريق وحتى نتخطى فجوة التخلف التكنولوجي، تلك القضية التي أصبحت تحد حتمي في مرحلة التطور الذي يحدث في منطقة الشرق الأوسط ... حيث البقاء للقادر، المنافس، المجيد.

١٤ – هذا التحدي إن لم نثبت جدراتنا للتميز فيه سيكون وبالأعلى الأجيال القادمة، والإستعمار اليوم أصبح استعمارا بالمعرفة، وسلاحنا اليوم هو التنمية البشرية المجودة والمتفوقة والانطلاق في البحوث العلمية والتكنولوجيات المتقدمة والقادرة على دفع التطور الإقتصادي والتنافس العالمي.

تحديات وفرص للمنطقة - تحتاج أن تحسب فى المرحلة الحالية :

أولاً: دور مصر في النظام العالمي الجديد :

١ – الوضع الجغرافي والبعد الحضاري والتاريخي والسكاني مع توفر قوى متاحة لابد أن تحسب لمصر في مستقبل المنطقة.

٢ – المساحة القابلة للاستغلال والخروج من الرقعة المزروعة (٤٪ من المساحة الكلية) وذلك يحتاج قوة بشرية مجهزة – مع تكنولوجيات جديدة – وترشيد استعمال المياه المتاحة واستغلال القدرات المتاحة ونقل التجارب العالمية الناجحة.

٣ – استغلال قوى الإنتاج والقدرة البحثية المتاحة والخبرات المتوفرة محليا في المؤسسات الصناعية والصناعات الحرفية وكذلك من كفاءة المواطنين

المهاجرين – إذا تجمعت وأُحسن استغلالها (مثل مشروع توكتن).

٤ – الاستفادة من دور مصر كعامل أساسي في إحداث الاستقرار في الشرق الأوسط مع الحفاظ على هذا الدور بكل الوسائل حيث ينتظر أن يحاولو تهميشه بكل الطرق في المراحل القادمة تقزيما لهذا الدور.

٥ – استغلال العلاقات الدولية والعمل على استقرارها بكافة الوسائل.

ثانياً: الوضع المصري العربي :

وهنا لابد من العمل على النظر في تحديث الدور المصري في المنطقة ذلك بتحسين المستويات الاجتماعية الاقتصادية والسياسية للانسان المصري حتى يعود إلى دوره الريادي المتميز ذلك لاحتياج الوطن العربي لقدرة مصر وثقلها في حماية المنطقة ودعم قدراتها المشتركة. كل ذلك لابد أن يؤخذ في الاعتبار مع احتمالات خفض الاحتياج العالمي للبترول في الثلاثين سنة القادمة وتطور أسعار المواد الخام.

هذه الحقائق تحدد دور مصر في لَمّ شمل المنطقة في وقت أصبحت السمة العالمية هي التجمعات الاقتصادية والجغرافيا الكبيرة مثل (أوروبا الموحدة واحتمال وصولها إلى جبال الأورال حيث تصبح كتلة بشرية تزيد عن ٥٠٠ مليون بشر، كذلك تجمع النافتا بين الولايات المتحدة وكندا والمكسيك كتلة بشرية حوالى ٤٠٠ مليون بشر يمكن أن تضم إليها دول اخرى من امريكا الجنوبية مجموعة دول المحيط الهادي التي تضم ملايين البشر على جانبيه) والكتلة العربية لا تقل أهمية عن ذلك عددا وقدرة ولكنها تحتاج تطورات سياسية وتكنولوجية وتقوية دور الجامعة العربية في ضوء الرغبة العالمية لخلق منطقة اقتصادية تحتوي الدول العربية وتركيا واسرائيل وقد تنضم إليها إيران وباكستان.

هناك بعض التفاصيل عن وضع القوى البشرية المتاحة في العالم العربي – تحتاج إلى وقفة هامة.

هناك في هذا المجال عدة ملاحظات:

١ - من الملاحظ أن هناك هدرا متزايدا للموارد البشرية العربية - سواء من خلال سوء استخدامها أو بقاء ما يزيد عن ثلثها تحت خط الفقر والأمية إذ أن معدل النشاط الاقتصادي في الوطن العربي يستعمل حوالى ٣٠٪ من إجمالى عدد السكان وهو معدل منخفض إذا قورن بمعدل المتوسط في باقى العالم النامي وهو ٤٥٪.

٢ - ويلاحظ أيضا ارتفاع نسبة السكان الذين يعيشون تحت خط الفقر في عالمنا العربي فإذا كان هؤلاء في العالم يمثلون حوالى ١٨٪ من سكان العالم (أي حوالى ٦٠٠٠ مليون إنسان) في حين نسبة الفقراء العرب تقفز إلى حوالى ٣٣٪ فى بداية التسعينات.

٣ - والسمة المميزة في متابعة النشاط الاقتصادي العربي في مرحلتنا الحالية في ارتفاع معدلات البطالة السافرة إذ تصل حوالي ١٧٪ فإذا أضفنا إليها معدلات البطالة الجزئية والبطالة المقنّعة فتصبح النسبة أكثر من ذلك بكثير - خاصة أنها تمس الشباب عامة وخريجي الجامعة يمثلون شريحة واضحة منهم.

٤ - والآن فإنه لابد من تصور لاستلهام وتطوير قيمة التكامل الاجتماعى العربي فبالرغم من الغنى في بعض الدول فإن هناك نسبة عالية ممن يعيشون في عالمنا العربي تحت خط الفقر وهناك شريحة من العمالة المستعملة تتردى في أمية ملحوظة ومن هنا فإنه لابد من استلهام التراث الإسلامي للقضاء على الأمية المتفشية - رغم أن أول اية نزلت في القرآن "اقرأ" (من مقالات للأستاذ صلاح الدين حافظ في جريدة الاهرام سنة ١٩٩٤ نوفمبر وديسمبر).

٥ - إن الأمية الهجائية والأمية الثقافية والأمية التقنية كلها ظواهر تكاملت مع نسبة الفقر والقلق وتدهور ظاهرة التوازن الاجتماعي وأفرزت التيارات المضادة والمعوقة للتقدم من عنف إلى إرهاب، والأمل اليوم في نهضة

تعليمية تكنولوجية متوائمة مع نهضة صناعية اقتصادية - يؤمل أن تتكاملا في خلق فرص عمل جديدة لعمالة مؤهلة وقادرة لتحمل مشاق المرحلة المرتقبة في التطور الحادث في عالم اليوم والغد. ومصر اليوم فى أشد الحاجة لاكتشاف إمكاناتها الكامنة لاستغلال طاقاتها التنموية المحركة لكى تتسق مع موازين الإنتاج الصناعي، فالبيئة المصرية البكر مازالت تمتلك الخصائص المتاحة لمناطق الاستثمار العالمية الودودة بخصوبتها مثل النمور الآسيوية (د.الخوالقة استاذة اقتصاد بانجلترا).

ثالثاً: الوضع المصري الافريقي :

قضية هامة لمصر في هذه المرحلة بالذات حيث هناك هزات محتملة في المنطقة العربية - نلخص ذلك فيما يلي:

١ - أهمية إثبات دور مصر الإفريقي نظرا لما يربطنا بها في التماثل البيئي والجغرافى والحضاري - مع دور مصر في دفع قضايا الاستقلال لمعظم الدول الافريقية وما لها من بصمات في تاريخها ومن هنا لابد من التركيز على دعم مراكز البحوث والعلاقات الافريقية.

٢ - وضع مصر المستقر في إفريقيا ورئاستها مرتين لمنظمة الوحدة الأفريقية مما قد يفتح مجالات اقتصادية وتبادل ثقافي وتصدير لقوى عاملة (بعد انحسار الاحتياج العربي) وكذلك فتح الأبواب لطالبي المعرفة والتدريب والتأهيل في مدارس مصر وجامعاتها والتيسير لهم.

٣ - تقويم الموقف المصري مع بروز دور دولة جنوب إفريقيا بعد انتهاء المشاكل العنصرية هناك واستقرارها - وما فيها من خبرات وعلماء وجامعات متقدمة وتمثل رأس حربه للتقدم. من هنا كان لابد من التطوير في العلاقات والإمكانات في قارتنا للمشاركة في التكامل الأفريقي.

رابعاً: الوضع المصري إسلاميا ومسيحيا :

١ - إن وجود الأزهر الشريف منارة للإسلام في مصر يقتضى سياسة جديدة لاستغلال اسمه وقدراته إسلاميا لدعم العلاقات المصرية

الاسلامية واجتذاب الطلاب الأكفاء من العالم الاسلامي للالتحاق بالأزهر وتحسين مستوى الخدمات فيه عامة (تعليميا ومعيشيا) – كل هذا يدعم دور مصر ويساعد على الحفاظ على الدعوة الاسلامية الحميدة (بعد أن اخترقت الدعوة الاسلامية بتيارات أدخلت فيها الإرهاب والتعصب مما قد يعطل مسيرة التنمية) مع التوجه الجاد للحفاظ على الاقليات الإسلامية وخدمة المسلمين المغتربين والمهاجرين حتى لا يفقدوا دينهم وجذورهم وهويتهم.

٢ – كذلك لابد من النظر إلى أهمية دور الكنيسة القبطية المصرية وما يمكن أن تؤديه في ضبط العلاقات مع الكنيسة الحبشية والدول المسيحية في إفريقيا والربط بينها.

كل ذلك مع التركيز على تطوير آفاق التعاون البناء في التعليم والبحث والاقتصاد.

إلى أين المصير :

من كل ما سبق فإن مصر تحتاج اليوم إلى مشروع قومى متعدد التوجهات بتوازن علمي اساسه الوحدة الوطنية والاستقرار السياسي وحسن اتخاذ القرار:

١ – تنمية علمية تعليمية تكنولوجية وإدارية واقتصادية والتركيز على استعمال المتاح وتطويره بأسلوب واقعي.

٢ – ينفذ في فترة محدودة (١٥ – ٢٠ سنة) من خلال قفزات كبيرة اختزالا للزمن.

٣ – مع تحديد أولويات مدروسة بعناية.

٤ – مع التركيز على التفوق في كل مجال وإنضباطه .. خاصة في اختيار الصناعة القابلة للتنافس والتصدير واستغلال القوى العامة المتميزة محليا وتصديرها بعد تجهيزها وتدريبها لتكون سلعة مطلوبة في العالم حولنا.

والمدخل اليوم:

في إطار التفاهم والثقة بحتمية التعلق والعمل نحو تكريس الوفاق القومي وهذا يتأتى من خلال:

١ – عزيمة سياسية بعيدة عن التعصب، تتفق على أسس وسبل التقدم ثم تختلف فيما عداها، وهي موجة لقبول التحدي بنظرة مستقبلية تحدوها الوطنية والطهارة والإيمان.

ووعى كامل وعمل دائب وتنظيم فائق وتعديل هيكلي للمسار عند ظهور أي عوائق.

٢ – تحليل مسببات التدهور، مع مواجهة المشاكل من جذورها ليس بالترقيع أو بالحلول الجزئية أو المؤقتة.

٣ – الربط بين المنظومات الحاكمة للتطور في توازن مقبول.

منظومة السلوك الاجتماعي (المرتبطة بالأصول السليمة والدين الحق).

منظومة أسلوب الحكم (الحرية – الديمقراطية – العدل والإدارة السليمة).

منظومة تطوير القدرات البشرية (التعليم والتدريب والبحث العلمي).

واستعمال وتشغيل هذا الرصيد البشري الغالي وزرع الأمل في مستقبل أحسن.

٤ – الاهتمام والتركيز على إعداد الفرد وتنمية قدراته والحفاظ عليه وحل مشكلاته واستمرار رفع مستواه – أولوية تسبق كل الأولويات.

كلمة أخيرة وتوصيات حاكمة :

إنه بالعزم الصادق والتخطيط السليم والنظرة المستقبلية البعيدة مع التحرك المبرمج والسريع .. يمكننا أن نصل إلى أهدافنا المنشودة رغم كل المشكلات، ذلك من خلال فتح مجالات للحوار الحر البناء بعد تحديد المشكلات وتوفر الثقة بين الأطراف المتحاورة كل ذلك لوضع برنامج للتطوير الشامل يكتمل في فترة محددة ١٠ - ١٥ سنة مع التخطيط السليم في كافة الاتجاهات السياسية والاقتصادية والاجتماعية، وفي تصورنا أنه بعد التأكد من توفر الثقة بين جميع الأطراف والإيمان بحتمية الوحدة الوطنية في المرحلة الخطرة الحالية فمصر تحتاج إلى:

١ - لابد من إلتزام كامل واقتناع بجدوى تخطيط السياسة التعليمية واللعمية لاقتحام المشاكل مع رعاية خاصة للكفاءات والقدرات وإستمرار تنميتها والحفاظ عليها للقيام بواجبها التنموي.

٢ - تطوير التعليم بأسلوب يتصف بالتؤدة والتجريب والتقييم المستر للطالب والبرامج والأساليب وتقييم الخريج وفاعليته والمدرس وقدرته.

كل ذلك مع توفير حد أدنى من مستوى التعليم العام لأن إستمرار نسبة الأمية المرتفعة تؤكد عدم الاستقرار في المنظومة التعليمية رغم الإنفاق المتزايد من جانب الدولة مع حتمية فتح أنماط جديدة في مجالات تحتاجها التنمية الجديدة.

٣ - وكذلك نرى:

* أن تهتم الأسرة بتعويد الطفل منذ الصغر على الإستنتاج وإبداء الرأي والحوار السليم والتقبل المرن لآراء الغير وعدم التعصب الفكري، نقطة بداية لتأكيد حريته الفكرية.

* أن تعمل الدولة على محاربة الأمية بين الصغار والكبار وكذلك تثقيف أنصاف المتعلمين مما يساعدهم على التفكير السليم.

* أن يراعى تحديد سن عمالة الطفل تتوافق مع انتهاء مرحلة التعليم الأساسي على أقل تقدير حفاظا على صحته وقدراته.

* تطوير التربية الدينية في المدارس وبث القيم الحميدة في نفوس طلاب العلم..
* تدريب راغبي العلم في الجامعات على التفكير السليم وخدمة البيئة والارتباط بأوطانهم.
* تطوير مناهج التاريخ لتوضيح دور مصر الحضاري والتقدمي وكيف بُعد المصريون عن التعصب ولم يوصموا بالإرهاب على مر السنين أو الانغلاق على أنفسهم.
* الإهتمام بإعداد المدرسين ليكونوا قدوة للتلاميذ.
* توجيه الجامعات لحل مشاكل المجتمع والارتباط به.

٤ – التركيز على أساسيات التقدم علوما – بحوثا – تكنولوجيات زراعية وصناعية في مجالات التعليم والتدريب ومراكز البحث العلمي.

٥ – تهيئة المناخ الذي يجتذب الكفاءات المهاجرة بالتقدير والتشجيع ليعودوا ولو لفترات محددة للاستفادة في ما نحتاجه برؤيتهم وخبراتهم.

٦ – توفير مؤهلات الحفاظ على التقدم: تشريعا – اقتصادا – إدارة – معلومات.

٧ – إجتذاب رجال الأعمال ورؤوس الأموال بجدوى الإستثمار فى البحث العلمى والابتكار والاختراع من خلال الإستثمار المخاطر
Scientific Venture Capital

٨ – عقد تحالفات اقتصادية وتكنولوجية لنقل واستقطاب واستيعاب كل حديث ووضع اختيارات سليمة وممكنة وقادرة على النمو وعقد تحالفات قد تكون عربية أو افريقية أو عالمية .. تحالفا يرتجى أن تأخذ المنطقة العربية خاصة بنظرة تكامل وتعاون والبعد عن تكرار الإنفرادية في التخطيط.

٩ – التخلص من المشاكل الحادة ودعم الاستقرار والترابط القومي بالدراسة المتأنية .

١٠ – الاهتمام بقضايا الأصالة والارتباط بالجذور والدين والقيم الحميدة.

بعض الواجبات الهامة التي يجب أن تنهض بها الجامعة في مسئوليتها تجاه المجتمع

خاتمــة

ونضيف إلى كل ما سبق بعض ما نراه حيويا بالنسبة لرسالة الجامعة ودورها الديناميكي في المجتمع، بل ما نراه لزاما عليها - أمانة تاريخية في رقبتها أمام الله والتاريخ ومستقبل الأمة لأجيال قادمة مما افتقدته الجامعات المصرية فى الرحلة السابقة.

(١) العلوم الحديثة والتكنولوجيات المتطورة:

وهنا يقع واحد من الالتزامات الجوهرية للجامعة، وذلك بقيامها بدور رأس الحربة في اقتحام الجديد من مجالات العلم والتكنولوجيا، بحيث تخلق لبلادنا حضورا وتعاملا مع أحداثهما المعاصرة، وذلك موضوع نرى أنه جدير بمزيد من الشرح تقييما وعرضا وتوضيحا، ولنا في ذلك قول.

فما لاشك فيه أن حضارة الإنسان تشهد في الزمن المعاصر تغيرات جسيمة في نوعية الحياة على سطح الأرض، وفي موازين القوى، وفي علاقات البشر داخل المجتمع الواحد وفيما بين المجتمعات بعضها البعض. وتعتبر منجزات العلم والتكنولوجيا الحديثة مسئولة في المقام الأول عن كل هذه التغييرات، وقد بلغت هذه المنجزات - التى تحققت خلال الخمسين عاما الماضية فقط - في حجمها وتنوعها وعمق آثارها على حضارة الإنسان المادية والثقافية أبعادا أكبر بكثير من كل ما أنجزه الإنسان قبل ذلك منذ فجر التاريخ. وتشير كل البدائل والتوقعات إلى أن الخمسين عاما القادمة سوف تتمخض عن أحداث علمية وتكنولوجية جسام، تفوق في أبعادها وآثارها كل ما شهدته الإنسانية حتى الآن بكثير.

وهناك من المجالات العلمية المتخصصة ما حققت البحوث المتطورة فيه فتوحات هامة، أدت إلى تكنولوجيات متفوقة تطبق اليوم بالفعل، وينعم الإنسان بما تنتجه من صنوف السلع والخدمات. كما ينتظر أن تتنوع هذه التكنولوجيات ويتسع نطاق تطبيقها وحجم منتجاتها لتصل إلى آفاق جديدة يصعب اليوم تصور مداها وأثرها على الإنسانية جمعاء، ومن هذه المجالات أيضا نوعيات من التخصصات العلمية التي حدث فيها تطور كبير في الماضي القريب وبات منتظرا أن يسفر عن إفراز تكنولوجيات عالية جديدة لها من التطبيقات والاستخدامات في المستقبل المنظور ما لم تعهد الإنسانية له مثيلا.

لكل ذلك تنبهت كثير من الدول النامية - مثلما تنبهت قبلها الدول الصناعية والمتقدمة - إلى الأهمية القصوى للتعامل المباشر مع العلوم المتطورة والتكنولوجيات العالية في مرافق التعليم العالي. وأدركت هذه الدول أن الأمر لم يعد يحتمل أن يقتصر دور المجتمع على مجرد المراقبة والمتابعة والانبهار بالأحداث الجسام التي تحدث في الدول المتقدمة. ذلك أن هذه الأمور أصبحت مؤثرة فى مستقبل الأمم والحضارات، بل وفي استقرار تلك الحضارات أو انحسارها، إلى الدرجة التي يمكن القول فيها بأن الخيار أمام المسئولين عن مستقبل الشعوب لم يعد فى الحقيقة اختياراً واسعاً بين بدائل كثيرة، فالبديل عن التعامل الإيجابى مع التطور الحالي في العلوم والتكنولوجيا العلمية هو قبول التخلف التكنولوجي والتبعية الاقتصادية والتدهور الحضاري. ولن يفيد عندئذ أي شكل من أشكال التقوقع أو الاحتماء خلف أسوار الغني والتبريرات السياسية..

لكل ذلك تجيء الدعوة الحالية - وقد دعت إليها وثيقة السياسة التكنولوجية المصرية والتى قمنا عليها في أكاديمية البحث العلمي بالفعل منذ سنة ١٩٨٣ - لخلق تعامل إيجابي في مصر مع العلوم المتطورة بإنشاء سلسلة من مراكز الامتياز.

ومن المعروف أن هناك عددا من المجالات العلمية والتكنولوجية الرائدة التي تبذل فيها جهود خاصة ومكثفة في مراكز الامتياز لدى الدول الصناعية

والمتقدمة، نظرا للاحتمالات العلمية الهامة التي تنطوي عليها، والتطبيقات التكنولوجية المرتقبة من ورائها، ومن هذه المجالات على سبيل المثال:

- الهندسة الوراثية والبيوتكنولوجيا وزراعة الأنسجة.
- الإنزيمات وتطبيقاتها العملية وخاصة في مجالات التشييد الكيميائي.
- الالكترونيات الدقيقة والميكروبرسيسور والروبوتكس.
- التحكم الآلي في الإدارة وصنع القرار والاختيار من بين البدائل في تصريف الأمور.
- التحكم الآلي في العمليات الصناعية (واستخدام الروبوت) والإنتاج عامة
- ثورة المناجم واستخراج الخامات المعدنية من قاع المحيطات.
- المواد الجديدة متفوقة الخصائص والقدرات، ومن بينها المواد فائقة التوصيل الكهربي.
- الطاقة النووية الالتحامية.
- المعلومات ونظم البيانات وصناعة برامج المعلومات والذكاء الاصطناعى وأهميتها في وضع القرار السليم.
- الطاقة الفطرية وصناعة الفطريات.
- المبيدات الإيكولوجية (في الزراعة).
- الألياف البصرية، والليزر.
- التشييد الحيوي الضوئي.
- الدراسات المستقبلية.

وغيرها كثير.

والأقسام في مجالات محددة ومختارة - بكل العناية - من مجالات هذه العلوم والتكنولوجيات، كما تمنينا إنشاءها في الجامعات المصرية، حكومية كانت أو أهلية، وتسعى هذه المراكز إلى ربط مجتمع الصدارة العلمية في مصر بالجامعات ومؤسسات البحث والتطوير بالأحداث العلمية والتكنولوجية

الهامة المعاصرة، مما يمكن البلاد من أن يكون لها حضور إيجابي يتجاوز مجرد التتبع والمراقبة والانبهار حتى لا تتكرر المأساة الحضارية - الاقتصادية - السياسية التي حدثت عندما فاتتنا عصور البخار والكهرباء والطاقة النووية والألكترونيات - كما يقصد بمراكز الامتياز المنشودة أيضا أن تكون هى المدخل الطبيعي لقيام الصناعات والأنشطة الإنتاجية المناظرة في بلادنا. وأن تكون هذه المراكز أيضا هي الخلفية العلمية الوطنية التى تساند التعليم والتدريب على تلك الصناعات، وتدعم حيويتها، وتزودها بالكوادر المؤهلة التي تديرها وتضمن استمرارها وارتقاءها دون الحاجة للاعتماد (أو استمرار الاعتماد) على العقول والكفاءات الأجنبية.

ومما يطمئن إلى سلامة القرار في هذا الشأن، أن عديدا من الدول النامية - التي يمكن مقارنة ظروفها بظروف مصر - قد دخلت بفاعليه وبخطى راسخة في عدد من مجالات العلوم الحديثة والتكنولوجيات المتطورة مثل الهند، وكوريا، والبرازيل، ورغم ما قد يتطلبه التعامل مع هذه العلوم والتكنولوجيات من تكلفة باهظة، فإن الاستعداد لتقبل هذه التكلفة أمر واجب بل هو استثمار في مستقبل البلاد وتأمين لرفاهية الأجيال المقبلة. ومع ذلك فإن هناك من الحقائق المعروفة ما يدل على أن بعضا من هذه المجالات (مثل الهندسة الوراثية وزراعة الأنسجة والتكنولوجيات الدقيقة والطاقة الشمسية وبعض مصادر الطاقة الجديدة والبديلة وبعض المواد الصناعية، وغير ذلك)، يتطلب الإسهام فيه تكلفة تقع في طاقة كثير من الدول النامية مثل مصر. ومما يبعث على الطمأنينة كذلك أن مصر لديها رصيد من العلماء والخبراء الذين يمكن الاعتماد عليهم والانطلاق بهم للدخول في عدد من هذه المجالات المختارة، ذلك إذا أحسن توجيههم ورعايتهم وتحفيزهم.

وهنا نرى أن إقامة هذه الأنشطة في مصر يجب أن تتبع سياسة جديدة متفقا عليها تبدأ من المدرسة والجامعة، وأن يجري تنفيذها بغير الأساليب النمطية المعتادة في إقامة الأقسام الجامعية المتكررة.. فبديهي أن الجامعات المصرية في تناولها لهذه العلوم والتكنولوجيات الرائدة يجب أن تتمايز فيما

بينها .. فتختص جامعة ما بمجال ما وتوليه كل عنايتها مع دعم خاص تقدمه لها الدولة، وهو ما يختلف عن مجال آخر تتميز به جامعة أخرى وهكذا. وينبغى أن نتذكر هنا أن لبلادنا خبرة طيبة في هذا المجال في إنشاء عدد من الأقسام الجامعية غير المتكررة في مجالات العلوم البينية والتعددية (مثل الهندسة الطبية وصيانة الآثار والموجات الصوتية في الطب) والأمل مازال معقودا على طفرة علمية تكنولوجية، ونقلة حضارية تتولاها الآمال والقدرات والأموال المصرية لتكون نورا وشعلة تحفز المخلصين لتوفير ما تحتاجه الثورة الصناعية الزراعية المنشودة تحمل هذه الشعلة أيد مصرية قادرة تتعاون وتأخذ من كل قادر على العطاء، قدرة يصونها الإيمان والوطنية والتصميم.

(٢) قيادة الفكر الوطني والتحضير للقرار السياسي :

وهذا دور أصلي فى رسالة الجامعات، ونعتبره مسئولية محورية أمام ضمير الوطن ... وذلك بالمنطق الايجابي والتعبير الجريء والصحيح في المسائل الوطنية والمصيرية الكبرى التي تواجه المجتمع وتحتم على الحكومة اتخاذ القرار ... بنعم أو بلا .... بالسير في هذا الطريق أو ذاك. فيكون للهيئة الجامعية لقاء ودراسة وموقف وقرار ورأي تبديه وتعلنه فى صراحة ووضوح دون خشية لائم أو رأي لصانع قرار – بل إن الجامعة هنا تقوم بالدور الأوجب عليها وهو توجيه القرار الرسمى بخدمته ومساعدته بالراي العلمي والدراسة الواعية المتجردة ... وذلك في المسائل جسيمة الشأن والأثر والتي قد يحتدم حولها الخلاف ... مثل توليد الكهرباء بالطاقة النووية، والزراعة المحمية، والمشروعات العمرانية الكبرى، غزو الصحراء والتكنولوجيات التي تنحاز لها من حيث مستواها ونوعيتها (هل كثيفة العمالة أم كثيفة رأس المال) ... ويكون إبداء رأي الجامعة – بوصفها الهيئة العلمية العليا وعقل المجتمع وضميره – في رأينا مسئولية تنهض بها الجامعة من تلقاء نفسها دون أن تنتظر التكليف بها ... وتبدي رأيها في كتاب أو كتيب أو منشور أو بيان أو ورقة بيضاء ... أو زرقاء ... ابتغاء وجه الله والوطن، وتجهر برأيها أمام الدولة وأمام كل أجهزتها... بل أمام التاريخ، فإن تخلت الجامعة عن ذلك الواجب – لا قدر الله

- فسوف تكون العواقب وخيمة على المجتمع الصغير والمجتمع الكبير على حد سواء.

(٣) وأخيراً وليس اخراً فإن للجامعة دوراً حيوياً في وضع الأسس العلمية لسلوكيات المعرفة والبحث العلمي والمعايشة بين المواطنين.

وهذا موضوع يطول الحديث حوله ويحتاج دراسة خاصة.

وختاماً ....

يمكن القول أنه إذا عرفنا الطريق إلى ما نريده فلابد أن نرسم أسلوب التقدم باستراتيجية محددة - وضحت معالمها وتحددت أبعادها - نحن نعلم أن المسار وعر وشاق ولكن اجتيازه قضية حتمية، والتحرك خلاله يحتاج لاستشكاف الطريق بنور العلم والإيمان وضياء التجويد وإنكار الذات، وإعطاء الفرصة لكل جديد ومجرب، والطاقة الدافعة لكل ذلك هي المعلومة والبحث والابتكار والتكنولوجيات المستحدثة والالتزام بها كلها تقصر الطريق وتقرّب الهدف وتجعل التقدم سهل المنال - والتجارب كثيرة وفرت الكثير من الفرص والأموال.

ولنا الخيار والاختيار.

ولكن يحضرني في الختام قوله تعالي في سورة القصص (آية ٢٣).

«فسقى لهما ثم تولى إلى الظل فقال رب إني لما انزلت إلى من خير فقير».

صدق الله العظيم

وهو ولي التوفيق.

والحمدلله رب العالمين

فهرس الجزء الأول

الموضوع	الصفحة